الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

روجي لوطورنو

فاس قبل الحماية

الجزء الثاني

ترجمه إلى العربية

محمد حجي
دكتور دولة في الآداب والعلوم الانسانية

محمد الأخضر
دكتور دولة في الآداب والعلوم الانسانية

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان

فاس قبل الحماية

١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار الغرب الإسلامي
ص.ب: ١١٣/٥٧٨٧
بيروت - لبنان

6

الكتاب السادس

الحياة الفكرية

إن فاساً بالإضافة إلى كونها مدينة صناعة وتجارة ، هي أيضاً مدينة معرفة ، وإن كانت أقل قِدماً من منافستيها القاهرة وتونس(*) ، إلا أن الجامعة الإسلامية بفاس معاصرة مع ذلك لجامعتنا السربون وقد تنافس الشعراء في مدح علم فقهائها . وكان دائماً بجانب الوسط الصناعي والتجاري وسط فكري مركزه جامعة القرويين .

(*) العكس هو الصحيح ، والحجج التاريخية عديدة ثابتة دامغة . انظر ـ مثلاً ـ الكتاب الذهبي لجامعة القرويين في ذكراها المائة بعد الألف (245 - 859/1379 - 1960) نشر وزارة التربية الوطنية المغربية ، مطبعة فضالة ، المحمدية 1960ـ بحوث عديدة لكبار العلماء من الشرق والغرب ـ (مترجم) .

الفصل الأول

1/6

جامعة القرويين[1]

في أي تاريخ بالضبط يمكن التحدث عن جامعة فاس ؟ من الصعب الجواب عن هذا السؤال بدقة . إذا كانت الرواية الإسلامية ، التي يقصها **روض القرطاس وزهرة الآس** ، تبين بالضبط التاريخ الذي أسس فيه جامع القرويين ، فإنها ساكتة عن الزمان الذي أُضيفت فيه الجامعة إلى الجامع . من المحتمل أن دروساً ألقيت في القرويين في وقت مبكر جداً ، ومن المحتمل كذلك أن جامع القرويين لم يكن وحده الذي ألقيت فيه الدروس لمدة طويلة ؛ ذلك أن وجود مدرستين أخريين بجانب الجامع الكبير بفاس الجديد يثبت ـ على ما يبدو ـ أنه كان بفاس حتى ثلاثة مراكز للتعليم ، بل وحتى أربعة ، إذا نحن فرضنا ، كما هو المحتمل ، أن « مدرسة أبي عنان » ـ كما يقول ليون الإفريقي ـ أي المدرسة البوعنانية ، كانت مستقلة ذاتياً زماناً طويلاً . لكن جامع القيروان تغلب عليها في النهاية ، واستطاع أن يختص لنفسه بالتعليم

---

(1) انظر عن هذه الجامعة ، الكتاب الأنف الذكر لدولفان ، وپيريتيي ، **مدارس فاس** ، ص. 346 - 356 ، وأوبان ، المرجع المذكور ؛ وموليپراس ، المرجع المذكور ، (هنا وهناك) ؛ وپ . مارتي ، **مغرب الغد** ، من ص 1 إلى 81 ؛ وف . فابر ، **في المغرب الجديد : دور جامعة إسلامية** ، في : **حوليات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي** ، عدد 51 ، 1938 ، ص. 195 - 207 . بالإضافة إلى ما استفدته من قراءة بعض الملخصات لمركز الدراسات العليا الإدارية الإسلامية المخصصة لجامعة فاس .

العالي في فاس . وقد تحقق ذلك في دولة السعديين ، كما يدل على ذلك توسيع خزانة الجامعة الذي قام به السلطان السعدي أحمد المنصور ، في أواخر القرن السادس عشر[2] . فلما أقيمت الحماية ، كانت قد مضت إذن ثلاثة قرون على الأقل منذ أن احتل علماء جامع القرويين الصف الأول في الحاضرة وشكلوا شبه طائفة ، هي طائفة الفقهاء .

التنظيم العام : كانت جامعة فاس جامعة دينية أساساً ، على غرار سائر الجامعات الإسلامية التقليدية ، تستهدف تلقين المؤمنين معرفة أتمّ ما يمكن للحقائق التي يجب الإيمان بها ، والسلوك الذي يتعين اتخاذه بارتباط مع هذه الحقائق . فإذا كانت تدرس بها مواد لا صلة مباشرة لها بالإلهيات كالنحو ، والمنطق ، والهندسة ، مثلاً ، فلأن هذه المواد كانت تساعد على إدراك أحسن للحقائق الجوهرية ، أو على القيام بالفرائض بكيفية أحسن ؛ لكنهم لا يعيرونها قيمة باطنة .

وإليكم ، حسب پيريتيي[3]، لائحة العلوم التي كانت تدرس بجامعة القرويين في السنوات الأولى من القرن العشرين .

1 ـ الحديث ، وكان يدرس كل يوم في أشهر رجب ، وشعبان ، ورمضان . وكان الكتاب الرئيسي المستعمل هو صحيح البخاري[4] .

2 ـ أصول الفقه ، وكانت تدرس في العشي ، وبذلك تعتبر مادة ثانوية .

3 ـ الفقه ، وكان يدرس في الصباح ، وتدعى هذه هذه المادة أحياناً بالبحر ، لأنها لا حدود لها كالبحر . وكانت أهم المؤلفات المستعملة هي

---

(2) يدل كون ثلاث مدارس مرينية ـ الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية ـ شيدت حول جامع القرويين ، على أنها كانت بعدُ متفوقة في منتصف القرن الرابع عشر .

(3) المرجع المذكور ، ص . 334 وما بعدها .

(4) يذكر پ . مارتي (المرجع المذكور ص. 56) علاوة على صحيح مسلم ، موطإ الإمام مالك وشمائل الترمذي .

مختصر سيدي خليل ، **ورسالة** ابن أبي زيد القيرواني ، **والمرشد المعين** لابن عاشر ، **وتحفة** ابن عاصم .

4 ـ النحو . وكان يُلقن في المساء ، من طرف أساتذة مبتدئين بصفة عامة ، حسب كتابين تقليديين ، هما **الآجرومية** ، وهو مؤلف كلاسيكي لابن آجروم ، **والألفية** (وهو مؤلف لابن مالك يشتمل على ألف بيت كما يدل على ذلك اسمه) .

5 ـ البيان ، والمعاني والبديع[5]،وكان الذين يقومون بتلقينها من الأساتذة الأجلّاء .

6 ـ المنطق ، وكان قليل الرواج بفاس .

7 ـ العروض ، وكان يدرس يومي الخميس والجمعة .

8 ـ الحساب ، وكان يدرس خارج الجامعة ، في أحد مساجد حي البليدة ، وهو جامع الارنجة .

9 ـ التوحيد ،وهو علم مندرج في الفقه،ويدرس **بالرسالة** وابن **عاشر** .

10 ـ القضاء والأحكام ، وهو علم مندرج كذلك في الفقه ، ويدرس **بالتحفة** و **لامية الأفعال** لابن مالك[*] .

11 ـ الأدب ؛ في القديم كانت تشرح مقامات الحريري بفاس ، لكن هذه العادة اضمحلّت ، واصبح كل التعليم الأدبي عبارة عن دراسة لقصيدتي **البردة** والهمزية ، مع شروحهما . وكان ذلك التعليم يُلقَى كل مساء خلال الخمسة عشر يوماً التي تسبق المَولِد النبوي ؛ وكانت تسمى هذه الدروس المولديات[6] .

---

(5) يدل كل اسم من هذه الأسماء الثلاثة في الواقع على فرع من فروع البيان ، هي : العرض ، والابتكار ، والتعبير . ولفظ البلاغة هو الذي يدل عامة على البيان . انظر مارتي ، المرجع المذكور ص.58 .

(*) كذا بالأصل ، وهو تخليط ، إذ المقصود لامية الزقاق (مترجم) .

(6) وحسب پ . مارتي (المرجع المذكور ص.52 - 60) يجب أن تذكر أيضاً الفرائض وفلسفة النحو (الوضع) .

وكانت تلقن بفاس علوم أخرى ، لكنها اضمحلت شيئاً فشيئاً ، كالتفسير الذي انقطع تعليمه في دولة سيدي محمد بن عبدالرحمن[7]. ويمكن أن يذكر أيضاً من بين العلوم الميتة : التنجيم[8] ، والكلام ، والتصوف الذي اضمحل منذ 1906 ، واللغة ، والتصريف ، والتاريخ الذي ربما لم يدرس قط بفاس ، والجغرافيا ، والطب ، والجدول . ويبدو أن الكيمياء لم تدرس قط بصفة رسمية ؛ ونظراً لكونها مكروهة في السُّنة ، فإنها كانت من نصيب اليهود .

وكانت العلوم الآنفة الذكر تشكل البرنامج ، إنْ صحَّ هذا التعبير ، للجامعة وهو لا يمت بصلة إلى ما نقصده بهذا اللفظ في مؤسساتنا للتعليم العالي ، لأنه لم يكن محدداً من طرف السلطة الجامعية بالنسبة لكل درس ولكل سنة دراسية ، ولكنه مبين في خطوطه العريضة ، بحسب تقاليد قديمة ، وهي تقاليد إسلامية جارٍ بها العمل في المجال الإسلامي كله ، وسنة مغربية كانت تعطي الأولوية للفقه .

لم تكن السلطة الجامعية إذن تنشغل بالبرامج . ومن جهة أخرى ، لم تكن جامعة القرويين منظمة على غرار الجامعات الأوروبية ، ولا حتى على غرار جامعات إسلامية أخرى كجامعة تونس[9] . كانت تحت مراقبة قاضي الجماعة بفاس، وهو الذي كان يعين الأساتذة ويعرضهم على موافقة المخزن[10]

---

(8) كان عالم فاسي وحيد قادراً على استعمال الأسطرلابات ولوحات اللوغاريتم هو : السيد محمد الغزاوي ، لكنه لم يكن يدرسها .

ملاحظة :

ليس هذا صحيحاً . ويكفي ذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم سيدي محمد العلمي الفلكي الشهير هذا العلم بفاس (مترجم) .

(9) انظر عن إعادة تنظيم جامعة الزيتونة ، المشرف ، إصلاح التعليم بالجامع الكبير (الزيتونة) بتونس ، في مجلة الدراسات الإسلامية ، 1930 ، جزء 4 ص.441 - 415 .

(10) إن المؤلفين الأوروبيين الذين تعرضوا لهذه المسألة قبل الحماية غير متفقين مطلقاً حول الحصة الراجعة لكل من القاضي والمخزن في تعيين الأساتذة ، بينما توضح المذكرة حول التعليم بالمغرب (وثائق القسم السوسيولوجي . مذكرة مجهولة المؤلف عن التعليم ،ص. 38 من النص المطبوع على الآلة الكاتبة) بأنهم كانوا يعينون من طرف القاضي ، لكن=

كما أسلفنا[11] ؛ كما أنه كان يراقب نشاطهم ، لا سيما في ميدان الفقه ، وبالتالي كان هو الذي يدير ميزانية الجامعة ، بما له من إشراف على إدارة الأوقاف ، لأن هذه الميزانية لم يكن يمونها غير الأحباس . والحاصل أننا نرى أن استعمال كلمة « رئيس الجامعة »[12] ليس مبالغاً فيه قطعاً ، لكننا نقدر مع ذلك الفارق الكامل بين قاضي فاس ومدير جامعة أوروبية .

لم يكن يساعد القاضي ، في مهامه الإدارية ، لا هيئة إدارية (كالكتابة) ولا نواب مكلفون بالنظام العام للجامعة (حراس) ولا مجلس استشاري مماثل لمجلس الجامعة . فكان تنظيم المؤسسة الموقرة إذن مصغراً بقدر الإمكان ، كانت الإدارة المالية مسندة إلى مصلحة أحباس القرويين ، وحراسة الطلبة الداخليين إلى قيمين سأتحدث عنهم فيما بعد[13] .

كان العمل بالسنة الدراسية غير معروف ، فجل الطلبة الجدد يأتون في الخريف ، بعد انتهاء أشغال الحقول[14] ، إذ كان الكثير منهم يفِدون من البادية ، لكن أي شيء لم يكن يمنعهم ـ مبدئياً ـ من المجيء في أي وقت من السنة . لم يكونوا يطالبون بأي تسجيل ، لأن التعليم مجاني ، وإنما يتقدمون فقط إلى الأساتذة الذين كانوا يريدون حضور مجالسهم . كما أن مدة

= باقتراح من المخزن ، وذلك من عهد مولاي الحسن . ويبين بيريتي (المرجع المذكور ، ص.315 - 316) أن تعيينهم يتم على ثلاثة أشكال متتالية : كان القاضي يعينهم بدون تدخل المخزن ، إلى دولة مولاي الحسن ؛ ثم قام القاضي بالتعيينات بأمر من المخزن ؛ وأخيراً ، وابتداء من 1906، وهو تاريخ وفاة آخر قضاة الجماعة، عين المخزن الأساتذة بظهير (انظر نموذجاً للظهير عند بيريتي ، المرجع المذكور ، ص . 321) وتطابق المعلومات الشفوية التي جمعتها هذه الكيفية الأخيرة لتقديم الأشياء .

(11) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 1 .

(12) بيريتي ، المرجع المذكور ، ص. 315 .

(13) من المعلوم أن جامعة فاس أعيد نظامها ، منذ إقامة الحماية . فقد أنشئ لهذا الغرض ، منذ سنة 1914 ، مجلس للإصلاح ، برئاسة وزير العدل ، مع فرع محلي بفاس ، عوّض رئيسُه القاضيَ في دوره « كرئيس للجامعة » . وظهير 1933 هو الذي منح الجامعة نظامها الحالي .

(14) دولفان ، المرجع المذكور ، ص. 88 .

الدراسات لم تكن محددة : تقتضي العادة متابعة الدروس طوال خمس سنوات على الأقل[15] ، لكن الكثير من الطلبة كانوا يتجاوزون هذا الأجل ، بل كان منهم حتى الطلبة الدائمون . لا وجود لأي امتحان يقر الدراسات ؛ فكل مَن آنس من نفسه أنه حصل على رصيد كاف يطلب من أساتذته إجازة تشهد بأنه درس (كتب) المؤلفين الفلانيين ويعرفها تمام المعرفة .

كانت الدروس تعطل في بعض المناسبات[16] : ففي شهر رمضان كانت تعوض بقراءة الحديث بجامع القرويين وبزاوية سيدي قاسم بن رحمون . وفي شهر صفر وبداية ربيع الأول كانت بعض الحصص تخصص لشرح **الهمزية** ، يقوم بذلك قاضي فاس .

وكان الطلبة يستفيدون من عطلة ثلاثة أسابيع بمناسبة الأعياد الثلاثة الكبرى[17] ، وثلاثة أيام من أجل عيد عاشوراء وشعبان[18] ، ويوم واحد للعيد الصيفي : العنصرة ، في 24 يونيو من السنة اليوليوسية . ومن جهة أخرى كانت الدروس تتوقف في كل أسبوع ، يوم الخميس بعد الزوال ويوم الجمعة بكامله ، وثلاثة أيام بمناسبة وفاة أستاذ عادي ، وسبعة أيام بمناسبة وفاة « أستاذ كبير » ، وشهراً بمناسبة احتفال الطلبة في الربيع . وأخيراً ، كانت تنقطع الدروس ، إذا مات السلطان ، إلى أن يُبايع خلفه[19] .

---

(15) نفس المرجع في نفس الصفحة .

(16) **مذكرة حول التعليم العالي** ، الآنفة الذكر ، ص. 42 - 49 . انظر أيضاً پيريتيي المرجع المذكور ، ص. 299 وما بعدها .

(17) وحسب پ . مارتي (المرجع المذكور ، ص. 50) كانت هذه العطل خمسة وعشرين يوماً بالنسبة للمولد النبوي ، وخمسة عشر يوماً بالنسبة لعيد الفطر ، وشهراً بالنسبة لعيد الأضحى .

(18) يذكر ، مارتي (نفس المرجع) عطلة خمسة أيام بمناسبة عاشوراء ، ولا يقول شيئاً عن شعبان .

(19) پيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 301 . وكان القاضي أيضاً يدرس هو الآخر ويحدد التاريخ بالضبط لابتداء العطل وانتهائها .

نرى بالتالي أن طلبة فاس لم يكونوا يعملون أكثر من ثلثي السنة ، كتلاميذ مؤسساتنا للتعليم العالي تماماً ، إلاّ أن فترات العطل لم تكن فارغة كل الفراغ ، إذ كانت تستعمل لدروس عرضية ، مثل الرياضيات .

كان كل نهار مقسماً إلى ستة أجزاء تتمدد أو تتقلص حسب الفصول ، لأن تحديدها لم يكن معتمداً على تقسيم اصطناعي للزمان ، ولكن على جريان الشمس . فكان الميقات ، في اعتدال الربيع [أو الخريف] ، هكذا : يبدئ الدرس الأول بعد صلاة الصبح[20] ، والثاني (بين الأول والثاني) حوالي الساعة السابعة صباحاً ؛ والثالث (الثاني) حوالي الثامنة والنصف ؛ والرابع (الثالث) حوالي العاشرة؛ والخامس (الزوال) حوالي الحادية عشرة والنصف، والسادس (الظهر) حوالي الواحدة بعد الزوال. وكانت الدروس تتوقف عشية مع صلاة العصر[21] . كانت الساعات الأربع الأولى مخصصة للفقه ، والساعتان الأخيرتان للمواد الأخرى[22].ويستريح التلاميذ بضع دقائق بين كل درس وآخر .

الأساتـذة : لم يكن تعيين الأساتذة من طرف المخزن يتم نتيجة مباراة أو إمتحان ، لأن هذه الطريقة كانت مجهولة[23] ، ولكن حسب المسطرة

---

(20) عند الشروق ، أي عندما تبزغ الشمس في الأفق ، بعد صلاة الصبح .

(21) وحسب بيريتيي (المرجع المذكور ص.299) كان بعض الأساتذة المتطوعين يدرسون بين العصر والمغرب . بالإضافة إلى أنه ، في شهر صفر وحتى عيد المولد النبوي (12 ربيع الأول) كان القاضي نفسه يشرح الهمزية ، بين العشاءين (المغرب والعشاء) على ضوء الشموع وقناديل الزيت .

(22) مذكرة غير منشورة حول التعليم ، وپ . مارتي ، المرجع المذكور ، ص.51 . ولا يذكر پيريتيي (المرجع المذكور ص.299) سوى خمسة أقسام . وعلاوة على هذا كانت تنظم محاضرات ذات طابع إرشادي بعد صلاة العشاء في عدة مساجد ، ولم تكن موجهة خصيصاً للطلبة .

(23) إلا أن تعيين أساتذة القرويين ، حسب دولفان (المرجع المذكور ص. 71) كان يتم بعد امتحان عمومي إلى دولة مولاي عبد الرحمان (1822) .

التالية : كل طالب حامل لإجازة مسلمة من أساتذته[24] كان له الحق في أن يدرس بجامعة فاس . وكان يُدعى عادة فقيهاً ويقوم بالتدريس في إحدى زوايا قاعة الصلاة التي لم تكن بعدُ مشغولة ، دون استلام أي راتب من الدولة ، ولا أية أجرة من الطلبة ؛ وكان بإمكانه الحصول على شيء من المال بإعطائه دروساً خصوصية في جامع أو مسجد[25] .

وبعد أن يكون قد درَّس بعض الوقت بهذه الكيفية، قائماً بشبه تدريب بيداغوجي ، يكون بإمكانه أن يَلتمس تعيينه كأستاذ رسمي (مدرس) ؛ ولهذا الغرض كان يطلب « شهادة من عدة علماء ، يصرحون فيها بأن درس الفقيه يحضره ناس كثيرون حتى تحول إلى كرسي[26] » ؛ كانت تلك هي الشهادة التي لا بد إذ ذاك من تبليغها إلى السلطان، إما بواسطة صديق ذي مرتبة عالية، وإما بإضافة «قصيدة استعطاف» وتوجيهها إلى أحد الوزراء ليحصل على رعايته . فإذا ارتأى السلطان أن التعيين ملائم ، وجه إلى القاضيين ظهيراً على هذا الشكل : « إلى قاضيينا الأرضيين ، فلان وفلان ، رعاكما الله والسلام عليكما ورحمة الله تعالى وبركاته ، أما بعد : فإن الطالب فلان (الاسم الشخصي والعائلي) من جملة الذين يستحقون مرتبة كذا ، نظراً لمثابرته في تدريس العلم الشريف ، وقدرته على تعليم الطلبة بجامع القرويين عمَّرها الله . وعليه ، فنأمركما أن تأمرا ناظر أحباس القرويين بأن يدفع له مبلغاً مناسباً ، ولا بد ، والسلام » .

---

(24) وحسب دولفان (المرجع المذكور ص.22) كانت الإجازة على العموم بالصيغة الآتية : « بعد العبارة المتداولة : لقد سلمت لفلان ، الحامل لهذه الشهادة المكتوبة بيمناي ، إجازة لتدريس كل ما حفظه من درسي أو جمعه من كلامي ، وتطلقت على صحيح البخاري ، ومختصر سيدي خليل ، إلخ . . . » . ويذكر نفس المؤلف (ص.101 - 103) نص إجازة لسيدي عبد الرحمن الفاسي . وكانت الإجازة محررة عادة من طرف أستاذ يوقعها هو أيضاً ، بينما يضيف الأساتذة الآخرون عبارة « كذلك » ويوقعون . انظر عن الإجازة و . مارسي . تقريب النووي ، باريس ، 1902 ، ص. 115 وهامش 2 .

(25) بيريتيي ، المرجع المذكور . ص.319 .

(26) نفس المرجع ، ص. 320 .

ومنذئذٍ يصبح المرشح من جملة الهيئة التعليمية للجامعة التي كانت منقسمة إلى خمس طبقات ترتيبية ؛ وللانتقال من إحداها إلى الأخرى، كانت الطريقة هي ذاتها المتبعة للإحراز على منصب أستاذ رسمي : كان السلطان يختم ظهيراً أو كان الصدر الأعظم أيضاً يبعث برسالة الى قاضي فاس ، بناءً على شهادة الأساتذة الرئيسيين . والحاصل أننا نرى أن نظام التوظيف كان هو نظام الطائفة ، بإثبات المخزن .

وكانت رواتب فقهاء فاس زهيدة : ذلك لأنها حددت منذ عهد طويل جداً ولم تتغير قط ، رغم الانخفاضات المتتالية للعملة ؛ وكانت تتراوح بين 15 أوقية و 200 مثقال للشهر(27). وزيادة على هذه الرواتب الزهيدة ، كان أساتذة الجامعة يتسلمون من الأوقاف تعويضات مختلفة عن المهام الدينية التي كانوا يقومون بها أنفسهم أو بواسطة نائب عنهم في مساجد المدينة وزواياها ، كخطبة الجمعة ، والإمامة ، وقراءة الحزب والشفاء واللطيف والحديث النبوي (كرسي التوريق)(28). فكانوا يربحون هكذا حتى 1.000 مثقال شهرياً .

بالإضافة إلى أن المخزن كان يقدم لهم كل سنة هدايا عينية ، ككسوة كاملة بمناسبة عيد كبير ، وكمية متفاوتة من القمح حسب الطبقة التي ينتمي إليها الأستاذ :

90 مد لأساتذة الدرجة الأولى

60 مد لأساتذة الدرجة الثانية

---

(27) إن الخمس عشر أوقية التي كانت تعادل ريالاً ونصف ريال في بداية القرن التاسع عشر ، لم تعد تساوي بعد ذلك إلا عُشر الريال ، أي أكثر بقليل من 0,50 فرنك في بداية القرن العشرين ؛ فكانت الـ 200 مثقال تعادل في بداية القرن العشرين نحو 71 بسيطة حسنية .

(28) بيريتيي ، المرجع المذكور ص.325 - 328 . ويطلق اسم « كرسي » بفاس على الكراسي ذات المسندات المخصصة للأساتذة الكبار ، وكذا على التي كانت تستعمل لقراءة الحديث النبوي . ويتعلق الأمر هنا بهذه الأخيرة توجد منها ستة بجامع القرويين ، وواحد في كل مسجد من المساجد الرئيسية .

45 مد لأساتذة الدرجة الثالثة

30 مد لأساتذة الدرجة الرابعة

15 مد لأساتذة الدرجة الخامسة[29] .

وكان هذا القمح يُعطى مرتين : الثلثان في بداية الخريف ، والثلث في نهاية الشتاء . وكان المخزن يعطي أساتذة القرويين أيضاً خابيتين من الزيت ، وثمن ثور لعمل القديد المصبر في نهاية الصيف ، وزبدا . وباختصار بعض المواد الأساسية لمعيشة فاسي موسر . وكان السلطان يقدم لهم من جهته صلة نقدية بمناسبة كل عيد من الأعياد الثلاثة :

4 ريالات لأستاذ الدرجة الأولى

3 ريالات لأستاذ الدرجة الثانية

2 ريالين لأستاذ الدرجة الثالثة

1 ريال لأستاذ الدرجة الرابعة

1 ريال لأستاذ الدرجة الخامسة[30] .

وأخيراً كان الأساتذة يسكنون في عقارات حبسية ، أو إن لم تكن دار شاغرة ، كانوا يتقاضون تعويضاً عن السكنى لكنه محسوبٌ ، كما تحسب الرواتب ، وفق الأسعار القديمة ، أي أدنى بكثير من قيمة الكراء الحقيقية[31] .

---

(29) تعطي المذكرة حول التعليم نفس الأرقام ، وأرقام دولفان (المرجع المذكور ، ص 57) هي الآتية :

60 مد للدرجة الأولى

40 مد للدرجة الثانية

30 مد للدرجة الثالثة

10 مد للدرجة الرابعة

(30) حسب پيريتيي ، (المرجع المذكور ، ص. 332) انتهى العمل بالصلة منذ ثورة بوحمارة .

(31) يبين پيريتيي (المرجع المذكور ، ص.333) أن تعويض السكن كان يتراوح بين 4 و 5 ريالات في الشهر ، في حين كان الكراء المعتدل في بداية القرن العشرين يصل الى 15أو 20 ريالاً في الشهر .

وبعد كل حساب كان أساتذة القرويين يرون حياتهم المادية مضمونة تقريباً ، بمجرد ما يصبحون أساتيذ كرسي ؛ وإن كانت الموارد المنوطة بوظيفتهم هزيلة إلا أنها تتيح لهم على الأقل عيشةً لائقة . ومن جهةٍ أخرى ، كان الكثير منهم يفتي في مقابل مبلغ يتراوح بين 1 و100 ريال حسب أهمية الفتوى وشهرة صاحبها . كما أن العديد منهم كانوا ينتمون إلى الطبقة الفاسية الميسورة ، ويملكون عقارات في المدينة : دكاكين ، وبساتين ، ومزارع في النواحي ، وباختصار موارد لا بأس بها في الغالب . وأخيراً ، كانت الفوائد المنوطة بوظيفتهم تعطى لهم مدى الحياة ، لأن مبدأ التقاعد لم يكن معروفاً ؛ فكان الأساتذة الطاعنون في السن الذين لم يعودوا يستطيعون القيام بالتدريس يستقرون في منزلهم ، محتفظين براتبهم ، وبالهدايا المألوفة وبالتمتع بالسكنى .

لم يكن الأساتذة تابعين للمخزن إلا من أجل تعيينهم وترقيتهم ، على أن يبرهنوا في مقابل ذلك ، عن ولائهم له[32] . وفيما عدا ذلك كانت لهم الحرية المطلقة : فلا نظام يفرض عليهم الحصص ولا البرنامج . لكن العادة التقليدية كانت وراءهم تطالبهم على الأقل بدرس في اليوم ، وأن تكون إقامتهم بفاس[33] وأن يحضروا بانتظام ، اللهم إلا إذا كانوا مسافرين أو حاجّين بيت الله الحرام .

أما مادة تعليمهم ، فكانت مسألةً بينهم وبين تلاميذهم . فعندما كان يحتل أستاذ جديد مكانه بالجامعة ، أو يختم أستاذ قديم قراءة كتاب ، كان التلاميذ يتشاورون فيما بينهم وينتدبون بعض زملائهم ليطلبوا من الشيخ أن يتفضل باستئناف تفسير هذا الكتاب أو ذاك . ولم يكن من النادر أن يرى عدد

---

(32) كان العداء الصريح للمخزن قد يتسبب في حذف الراتب (پيريتيي ، المرجع المذكور ،ص. 318

(33) دولفان ، المرجع المذكور ، ص.57 .

من الأساتذة يدرسون نفس الموضوع في آنٍ واحدٍ . وكان التخصص مبدئياً غير معروف ، إذْ من المفروض أن يكون كل أستاذ قادراً على تلقين أيةِ مادة من المواد الجاري بها العمل . إلا أن المواد التي تعد ثانوية ، كالنحو مثلاً ، كانت تؤول إلى حديثي العهد بالتدريس ، بينما كان الأقدمون يحتفظون بالمواد الأساسية ، وخاصةً الفقه .

وكان أساتذة الطبقة الأولى ، وعددهم 17 في سنة 1904 ،[34] يتمتعون بسمعة كبيرة ، ويدعون « العلماء الكبار » بالإضافة إلى أنه كان لبعضهم شهرة تكميلية ، وهم الذين كان لهم الحق في الحصول على كرسي . فكان جميع أساتذة الطبقة الأولى يتمتعون مبدئياً بهذه المزية ؛ وفي الواقع لم يكن هناك سوى ستة كراسي في بداية القرن العشرين ، وكان سيدي محمد بن جعفر الكتاني هو الوحيد الذي يعتلي كرسياً لشرح **صحيح البخاري** . وحسب پيريتيي الذي يروي هذا التفصيل[35] ، كان هناك ثلاثة أساتذة آخرين في ذلك العهد يتمتعون بهذه المزية ، وهم الفقهاء السيد أحمد بن الخياط ، والسيد محمد القادري ، والسيد التهامي كُنون ، لكن أحداً منهم لم بستعملها احتراماً إنسانياً منهم . ووضع پيريتيي كذلك[36] قائمة بالأساتـذة العاملين بجـامعة القرويين سنة 1906 ، تضمنت 41 اسماً ، وحسب المعلومات التي استقيتها من الفاسيين الذين كانوا يدرسون ، في ذلك العهد ، بالقرويين ، كان هنالك نحو ثلاثين مشهورين كعلماء حقيقيين بالمدينة .

لا يمكن القول إن هؤلاء الأساتذة كانوا يشكلون هيئة حقيقية ، إذ لم يكونوا مجموعين في منظمة شبيهة بالطوائف الاقتصادية ، وكانوا ، على غرار العلماء في الغالب ، منقسمين على أنفسهم بسبب مشاحنات شخصية لا تغتفر . كما كانت بينهم تحزبات قليلة الاستقرار جداً ينضم إليها هذا أو ذاك

---

(34) أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 281 .

(35) المرجع المذكور ، ص. 317 .

(36) المرجع المذكور ، ص. 344 - 345 .

حسب نزوته وفائدته الوقتية ، ولم تكن منقطعة الصلة عن تحزبات المجتمع الفاسي . لا يتصرفون ككتلة واحدة إلا لتنصيب سلطان جديد ، أو للاستجابة إلى الفتاوى التي كان العاهل يطلبها منهم أحياناً .

وكانت فاس تقدر علماءها أيما تقدير : لا ترى فيهم شيوخاً يستلزم سنهم الاحترام ، ومثقفين ينشرون سمعتها في أقطار المغرب والعالم الإسلامي فحسب ، لكنها كانت تعتبرهم أيضاً كمرشدين روحيين ، وأناس تبحروا في العلم الوحيد الذي يحسب له حسابه ، ألا وهو العلم الصادر عن الله تعالى . فكيف يمكن الاستغراب من كون هؤلاء العلماء يعجبون بأنفسهم ؟ إن عدداً من الرحالة الأوروبيين ، كعلي باي ومولييراس ، وغيرهما عابوا كفايتهم وقالوا إنهم لا يعرفون شيئاً كثيراً ، إذا اعتبرنا كل شيء ؛ وحاولوا حتى أن يحملوهم على تقييم تفاهة معرفتهم ؛ وظن الأول أنه توفق إلى ذلك[37] ، وغضب الثاني لعدم تمكنه من إقناعهم . وكان ذلك دليلاً على عدم الاطلاع على الوسط الذي كانوا على صلة به : فالقرويين ، وفاس ، والمغرب كانت كلها منكمشة على نفسها، بدون أي اتصال تقريباً مع سائر العالم ، مستفيدة بالتنزيل الذي كان عشرات الملايين من البشر يعتبرونه الحقيقة الوحيدة . كان ذلك كافياً لتقوية فقهاء فاس في تأكدهم من تفوقهم ، لا سيما وأن مواطنيهم لم يكونوا يجادلونهم فيه .

إلا أنه لا شك في أن شيوخ القرويين لم يعودوا كما كان سلفهم . فقد عاشوا مدة طويلة جداً في عزلة حتى عن العالم الإسلامي ، كي لا يصابوا بنوع من التصلب . لكنهم كانوا يحتفظون على الأقل بذخر نفيس ، هو سنة التعلق بالأشياء الروحية ، وكرامة لياقات تستوجب الاحترام . وعندما كانوا يحضرون في المواسم العمومية أو الأفراح العائلية ، ملتفين في ثياب شفافة ناصعة البياض ، متزنين في إشاراتهم وحديثهم ، متيقنين من حظوتهم ، كان الناس

---

(37) نفس المرجع ، ص. 129 وما بعدها .

يحيطون بهم ، ويقبلون كتفهم ، وينصتون بإمعان إلى كلامهم ، ويسألونهم نصيحةً أو سنداً في النوازل الصعبة . ولم يكن للسلطان الجديد نفسه حكم ثابت إلا بعد أن يكون فقهاء فاس قد اعترفوا بمشروعيته في تصريح علني يقرأ في جميع مساجد المملكة الشريفة . فكانوا إذن يتمتعـون في وسطهم الاجتماعي بتأثير كبير جداً .

الطلبة : ـ من المستحيل معرفة عدد الطلبة في أوائل القرن العشرين. فالمعلومات التي لدينا حول الطلبة « الداخليين » غير مضبوطة ، اذ تتراوح الأرقام بين 330 و450[38] ؛ ويستحيل بالأحرى الحصول على بيان ولو تقريبي عن عدد التلاميذ « الخارجيين ». فيكون الاقتصار إذن على تقديرات مبهمة جداً. غير أنه حسب شهادة الفاسيين أنفسهم ، يمكن التيقن من أن عدد الطلبة انخفض جداً حوالي نهاية القرن التاسع عشر : ففي بداية حكم مولاي الحسن كان عددهم يناهز الألف[39] ، بينما لم يعد يبلغ سوى 600 أو 700 في أوائل القرن العشرين[40] .

كان هؤلاء الطلبة منقسمين إلى صنفين متميزين بوضوح : الفاسيون ، والغرباء عن فاس (الآفاقيون) . كان الفاسيون ينهون دراستهم الابتدائية بالمدينة ويتابعون عيشهم في أسرتهم ؛ وكانوا ، في الغالب ، شباناً موسرين ينتمون إلى بيئةٍ مشبعة بالتقاليد الفكرية ويحضرون دروس الجامعة، راغبين في أن يعودوا أساتذة فيها ، ويحصلون على وظيف عمومي ، أو على بعض المبادىء الثقافية الضرورية كذلك لمن ينضم الى نخبة فاس قبل الاشتغال بالتجارة . كما كان يوجد بعض أبناء الصناع وأصحاب الدكاكين أو خدام المخزن ممن لاحـظ نجابتهم أحد معلمي القرآن أو أصدقاء العائلة ، وكانوا

---

(38) من 330 إلى 390 ، حسب پيريتيي، نفس المرجع ص 305) و450 تقريباً حسب المذكرة حول التعليم .

(39) پ. مارتي ، نفس المرجع ، ص.27 .

(40) يعطي دولفان، نفس المرجع ، ص.22 عدداً يناهز 700 حوالي 1888 .

يحاولون الارتقاء في السلم الاجتماعي عن طريق العلم .

وكان الطلبة الآفاقيون شديدي الاختلاف ، لا من حيث أصلهم فحسب ، ولكن بالخصوص من حيث الكيفية التي ينظرون بها إلى دراساتهم ومستقبلهم.وإذا كانوا في معظمهم فقراء،فإن تفكيرهم في ارتقاء بعض درجات السلم الاجتماعي أقلُّ من تفكيرهم في الحصول على معاشهم . لذلك كانوا يأتون إلى الجامعة لا للبحث عن العلم ، والارتياح وإمكانيات العمل التي تمنحها ، ولكن للبحث حقاً عن بعض المعلومات البسيطة الضرورية ليزاولوا في قريتهم وظائف معلم القرآن ، أو كاتب عمومي ، أو عدل ، أو كاتب للقاضي أو القائد .

ولانشغالهم بأمور مختلفة الى هذا الحد ، لم يكن الفاسيون والغرباء يحتكون كثيراً بعضهم ببعض ، إذ كان كل شيء يفرق بينهم : التكوين الفكري ، والعادات ، وأسلوب العيش . كان الفاسيون ينظرون إلى أصحابهم القرويين بتسامحٍ ، إن لم يكن بازدراء ؛ وكان الآخرون يحترزون من هؤلاء الشبان الوقحين المستهزئين ويحسدونهم على ألا يكونوا إطلاقاً مهتمين بالخبز اليومي . ولم يكونوا يجتمعون معاً إلا في إبان عيد الطلبة .

كان بعض « الآفاقيين » ممن لهم مال أو أصدقاء ، يجدون حجرة بالمدينة ، لكن جلهم من الفقراء والذين لا صلة لهم بالمدينة ، كانوا ملزمين بالبحث عن ملجأٍ في المدارس . وكانت ست مدارس فقط هي التي ما زالت تستقبل الطلبة ، هي مدرسة الصفارين ، والعطارين ، والمصباحية ، والشراطين حول جامع القرويين ، ومدرسة باب عجيسة[41] ، وأخيراً مدرسة مولاي عبد الله في الحي الذي يحمل نفس الاسم بفاس الجديد ، حيث كان

(41) أوبان ، المرجع المذكور ، مذكرة حول التعليم ، بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 265 - 271 .

يجتمع طلاب مبتدئون يتممون حفظ القرآن[42]،قبل متابعة الدروس بالقرويين والدخول إلى مدرسة أخرى .

كانت مدرسة الصفارين تؤوي نحو 60 طالبا ينتمي جلهم إلى سوس ، وزرهون وبني زروال . كما كانت ملجأً للوافدين الجدد الذين يقطنون هناك ريثما يجدون حجرة في المدرسة التي وقع اختيارهم عليها[43] . وكان المدنيون يسكنون مدرسة العطارين ، ففيها شبان من طنجة ، والعرائش ، والقصر ، والقبائل المجاورة ، وكان عددهم يتراوح بين 50 و60 طالباً[44] . ولم يكن يسكن في مدرسة باب عجيسة غير جباله ، ويتراوح عددهم بين 40 و60 طالباً ؛ وكانت أصغر المدارس كلها وأقلها اعتباراً[45] . كما كانت المدرسة المصباحية ملتقى الطلبة من جنوبي غربي المغرب : مراكش والحوز ، وعبدة ، والشياظمة ، ودكالة ، وتستطيع إيواء حتى 140 طالباً . في حين كانت مدرسة الشراطين أوسعها جميعاً حيث يقطن 150 داخلياً ، ويوجد بها الجزائريون ، والفيلاليون ، والريفيون وأهل المغرب الشرقي . وهكذا كان لكل مدرسة زبناؤها وبالتالي مظهرها الخاص . ومع ذلك لم أجد أي بيان يسمح باعتقاد أنه كان أي عداء بينها إطلاقاً ، لأن التضامن بين هؤلاء الغرباء عن المدينة الناتج أيضاً عن دراساتهم وهمومهم المادية ، كان ينتصر على اختلاف مشاربهم .

كل هذه المدارس كانت خاضعة لنفس النظام . « يدير » كل واحدة منها

---

(42) بيريتيي ، نفس المرجع ، ص.286 ، مذكرة حول التعليم . ويشير بيريتيي (ص.278) من جهة أخرى إلى أن عدة حجَر بالمدرسة البوعنانية كان يحتلها قدماء الطلاب ؛ ونفس الشيء بالنسبة لمدرسة الصهريج (نفس المرجع ، ص.273 ، لكن هاتين المدرستين كانتا أبطلتا بصفة رسمية . .

(43) انظر السيد الفاتحي التازي ، في وثائق أصدقاء فاس؛ وبيريتيي، المرجع المذكور، ص. 265 .

(44) نفس المرجع ، ص.288 .

(45) نفس المرجع ، ومذكرة حول التعليم .

مقدم وهو بواب في نفس الوقت وخادم وحارس ، يعيّنه الطلاب أنفسهم ويعزلونه ، لكن يعترف به المخزن الذي لم يكن يشترط فيه إلاّ أن يكون أعزب ، ويؤدي له كأجرة من 20 إلى 30 مثقالاً في الشهر ، أي من 7 إلى 10 بسيطات حسنية ؛ بالإضافة إلى أنه كان يسكن في حجرة صغيرة قرب الباب الرئيسي ، ويتسلم بعض الهدايا من الطلبة ، وأرباحاً زهيدة عن توزيع الخبز والزيت الممنوح للإنارة ، وأجرة طفيفة عن الأذان . ومن الأكيد أن مثل هذا المرشد لم يكن ليزعج الداخليين كثيراً[46] .

كان هؤلاء يسكنون في حجيرات تقع في الطابقْ الأول ، وعند الاقتضاء في الطابق الثاني للعمارة ، حول الفناء المركزي ، أو حول الساحات الصغيرة المتلاصقة . كانت هذه الحجرات مبدئياً فردية ، إلاّ أنها في الواقع تؤوي اثنين أو حتى ثلاثة ، رغم ضيقها . كانوا ينامون فيها ، ويعملون ، ويطبخون ، بل ويستقبلون الزوار بها كذلك . وكان الطلبة يجدون بها بعض الراحة ، لشدة ما تعودوا عليه في منازلهم القروية الخشنة . وكانت السكنى بالمجان لأن المدارس ملك للأحباس ؛ لكن استعمال حق المفتاح قد تسرب إلى هنا كغيره من الأماكن، لأن بعض عائلات فاس كانت تنتفع بحجرة تسلمها لمن شاءت من الطلبة ؛ وكانت جل الغرف تسلم ، في مقابل مال ، للمكترين الجدد من طرف سابقيهم ، وذلك بسبب الإصلاحات التي من المفروض أن يكون هؤلاء قد أدخلوها عليها[47] ، والمقدم هو الآخر لم يكن غريباً عن هذه المتاجرة البسيطة[48] .

كانت الأحباس تقدم للطلبة الماء الصالح للشرب ورغيفاً كل يوم ،

(46) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص.288 .

(47) كانت هذه العادة معمولاً بها أيضاً في المدرسة الإقليمية العليا بباريس بالنسبة لقاعات العمل (غرف)

(48) كان شراء حق المفتاح يساوي من 20 إلى 200 ريال حسب الحالات (أوبين ، المرجع المذكور ، ص.281) .

يوزعه المقدم ولو خلال العطلة[49] . وفيما عدا ذلك كان على كل واحد أن يحصل بنفسه على قوته[50] . فمن كانت لهم بعض الموارد كانوا يستحضرون أو يتسلمون من أهلهم المؤ ن : وهكذا كان أحسنهم حظاً يدخرون للسنة صاعاً من الكسكسو ، و 20 رطلاً من السمن الذائب المحفوظ في قربة ، و 50 كيلو من اللحم المصبر ، وكيساً من التين ، وكيساً من التمر ، وكيساً من الزبيب[51] .

لكن أغلبهم لم يكونوا يتمتعون بمثل هذه الثروات ؛ فكان عليهم إذن إمّا أن يكتفوا بخبز الأحباس ، وإما أن يجدوا وسيلة للحصول على بعض الطعام . وكان لذلك طريقتان معروفتان جداً عند الطلبة يلجؤون إليهما معاً : الأولى كسب شيء من المال عن طريق القيام بقراءات دينية في أحد المساجد ، أو الزوايا أو بمناسبة وفاة ، أو مزاولة مهنة كاتب لأحد أعيان فاس ؛ والثانية ، وهي الأكثر استحساناً ، تناول طعام من عند أحد أغنياء فاس : كانت العادة تقتضي منذ القديم أن تقوم الطبقة الموسرة بعمل صالح لوجه الله بإطعام طالب أو عدة طلاب ؛ ويذكر[52] أن أحد أعيان فاس الجديد كان يتصدق حتى بثلاثين طبقاً من الكسكسو على الطلبة في كل يوم . لم يكن هؤلاء يتناولون الطعام على مائدة المتبرع ، بل كانوا يستلمون معاشهم اليومي بباب منزله ، كالمتسولين أو الضيوف الغير المعروفين .

---

(49) كان التزويد بالخبز يؤمنه حبس خاص ، هو حبس الخبز . فكانت إدارة الأحباس تتفق مع طحان ليزود يومياً الفرن المعين بالكمية الضرورية من الدقيق ؛ فكان مقدم كل مدرسة يذهب إليه لتسلم خبز مؤسسته . ولم يكن خبز الطلبة ، خلافاً لما كان يخبز بقصد البيع ، خبزاً بائتاً قط .

(50) كان المخزن قديماً يمنح صلة للطلبة بمناسبة الأعياد الكبرى ، قدرها مائة ريال لكل مدرسة . وقد ألغيت هذه العادة حوالي 1900 (**مذكرة حول التعليم**) .

(51) الفاتحي التازي ، قصة الطالب سيدي العزيز ، في وثائق أصدقاء فاس ، وبودجيت ميكين ، المرجع المذكور ، ص. 307

(52) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص.291 يشير نفس المؤلف إلى أن هذه العادة كانت على وشك الانقراض في بداية القرن العشرين .

كان طلاب فاس ، على غرار جميع طلاب العالم ، يجدون بين دراساتهم والبحث عن قوتهم ، مزيداً من الوقت للتسلية ؛ فكانوا يجتمعون ليلاً فيما بينهم في حجيراتهم على الضوء المرتعش لشمعة أو مصباح زيتي وهم يتحدثون ويتناولون الشاي ؛ كان موضوع الحديث ، حسب النزوة والأفراد ، هو دروس اليوم أو مناقشة فقهية ، ولكن أيضاً الأساتذة والحوادث الصغيرة بالمدينة ، والمغامرات الغرامية لهذا أو ذاك ، لأن هؤلاء الغرباء الأقوياء لم يكونوا دائماً نماذج للفضيلة . وكانوا ينظمون في فصل الربيع نزهات في بساتين فاس والتلال المحيطة بها ، يستدعون لها أحياناً أستاذاً أو أستاذين[53] ، كما كانوا يستدعونهم في المدارس .

وأخيراً ، كانت هنالك احتفالات جامعية يساهم فيها جميع الطلبة ، الفاسيون وغيرهم على السواء. فإذا ختم أحد الأساتذة شرح مختصر سيدي خليل[54] كان الطلبة يرفعونه على أكتافهم ويحملونه بانتصار إلى القاعة الكبرى للمدرسة المصباحية، حيث يأتي الجمهور لتهنئته[55] بعد أن يكون قد قدم له تلاميذه بالباب هدية التمر والحليب ، مثلما تقدم للسلطان عند دخوله إلى المدينة . ومن جهة أخرى ، عندما يكون أستاذ قد أنهى شرح كتاب هام ، كان ينظم حفلة استقبال تسمى الختمة . وبعد تناول الطعام يلقي على تلاميذه محاضرة حول المادة التي ختمها فيقدم له التلاميذ وأعيان المدينة هدايا .

وأكبر احتفال طلابي كان بلا مراء هو حفل سلطان الطلبة الذي كان ينظم في ربيع كل سنة . لا فائدة في الرجوع إلى أصل هذا الاحتفال الذي كتب عنه الراحل ب. دوسينفال مقالاً نهائياً[56]. ويرجع هذا الأصل إلى ما قبل النصف

---

(53) پيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 305 . وكان بعض الأساتذة في القديم ينظمون حتى شبه تفسحات مدرسية ، لكن هذه العادة انقطعت حوالي آخر القرن التاسع عشر .

(54) يذكر پ مارتي (المرجع المذكور) أن أستاذاً قضى ثمانية وعشرين سنة في شرح هذا الكتاب ، وأن آخرين يُنهون شرحه في ظرف سنتين أو ثلاث سنوات .

(55) بيل ، كتابات عربية ، ص. 232 .

(56) پ. دوسينفال ، أسطورة اليهودي ابن مشعل وحفل سلطان الطلبة بفاس ، في هيسبريس ، =

الثاني من القرن السابع عشر . فجل الذين كتبوا عن فاس تحدثوا قليلاً أو كثيراً عن هذا الحفل الذي يثير مجرد اسمه حب التطلع ويذكر بمشاهد رائعة ؛ وقد حضرته بنفسي عدة مرات ، لكن في عهد كان قد فقد، حسب قول من يستطيعون القيام بمقارنات ، الكثير من بهائه .

لم تكن الإعدادات بأقل أهمية من الحفل ذاته . ففي بداية الربيع ، حوالي منتصف أبريل ، بعد إشعار المخزن بلهجة سلطوية مضحكة بعزم الطلبة على تنظيم عيدهم ، كانت وظيفة السلطان تعرض للبيع بالمزايدة . ومن العادة أن يرغب فيها طلاب المدارس فقط ، ولا يشارك الطلاب الفاسيون في المسابقة . لكن أعيان فاس يحضرون وهم الذين يوصون السلطان الوقتي ، إذ من المتفق عليه منذ زمن قديم جداً أن هذا الأخير بإمكانه أن يطلب من العاهل (الحقيقي) أن يمن على هذا أو ذاك ، أو أن يعفو أيضاً عن أحد المحكوم عليهم أو المعتقلين . فإذا كان لبعض أعيان فاس قريب أو محمي في هذه الحالة ، كانوا يعملون على تحقيق انتخاب سلطان الطلبة الذي يطلب في مقابل ذلك العفو المرجو . لذلك كانت المزايدات تتغير من سنة إلى سنة ، حسب عدد وثروة من كان في صالحهم أن يضمنوا نجاح مرشح ما : فقد بلغت المزايدة سنة 1889 حتى إلى 100 ريال(57) ولم تبلغ سنة 1886 إلا 50 ريالاً(58) .

كان المبلغ المحصل عليه يشكل مالاً أولياً لتنظيم الحفلة ، لكنه لم يكن كافياً . فكان الطلبة ينتشرون في المدينة لجمع التبرعات ، وهم يقلدون جباة الأسواق ، والقاضي أو شيخ التجار ؛ كان التجار والأعيان يتبرعون عن طيب

= عدد 5 ، 1925 ، الثلاثة الأشهر الثانية ص. 137 -218 . توجد بهذا المقال ببليوغرافيا كاملة عن الموضوع . وفي علمي لم يكتب شيء منذ ذلك العهد روايات بعناصر جديدة .

(57) طروطر ، المرجع المذكور ، ص. 188 .

(58) تشارمز ، المرجع المذكور ، ص. 303 . وحسب پ مارتي (المرجع المذكور ص.45) ، فإن وظيفة سلطان الطلبة اشتريت بـ 22.500 فرنك سنة 1923 وبـ 13.500 فرنك فقط في 1924 .

خاطر، كما كان الطلبة يطلبون من الشخصيات المخزنية وقواد القبائل على شكل رسائل شريفة تلزمهم بدفع مبلغ كذا[59] . وكان الطلبة يلجؤون أحياناً إلىٰ مباريات خارجية : يستأجرون أحـد الفاسيين المعـروفين بفصاحتهم ويجعلون منه المُنَشِّط لمهزلتهم .

وكانوا يجمعون المال ويعدون جهاز التخييم في نفس الوقت ، إذ كان لا بد من التخييم بضعة أيام على ضفاف وادي فاس في عالية المدينة ، على مرأى من أسوار دار المخزن . وكانت المصالح الاقتصادية للقصر وعامل فاس

---

(59) وفيما يلي نموذج لرسالة من هذا النوع نقلها تشارمز (المرجع المذكور ص. 306 -308) وأطلعه عليها كاتب مغربي من بعثة فرنسا كان قد توصل بها :

« الحسين الغمـاري ، سلطان الطلبة ـ رعاك الله

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه ! إلى خديمنا الأرضي العالم العلامة سيدي أحمد البدوي ، أمنكم الله ووقاكم من كل شر وحفظكم من كل ضرر !

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، من قبل مولانا أيده الله ونصره وبعد ، فإن مولانا سلطان الطلبة الحائز لكل الفضائل والموزع لكل الخصائل الحميدة ، يأمركم بأن تبلغوا هذا الكتاب إلى السيادات الكريمة المؤيدة بالدين الاسلامي ، المسافرة برفقتكم ، أي الآتية معكم من الجزائر ، أبلغوهم بأن جيشنا السعيد سيعسكر نهار يوم السبت ، إن شاء الله ، على ضفتي وادي الجواهر ، بين سكان بني برغوث وبني بق ، وبني فار .

وقد فرضنا عليهم لمؤونة جيشنا المحروس بالله إتاوة لا تعدّ ولا تحصى، فضلاً عن الإتاوة التي فرضت لصالح مولانا نصره الله ، إلخ . . .

وامروا بالطاعة والاستسلام ، حتى يبعثوا إلينا بألف فحل من جنس الخيل يمتطيها البعوض وتسرج بقشور البلوط ، وكذلك بألف خنزير سمين جداً لأتباع السلطان .

وأكرموا حامله حتى لا يستطيع حمل ما ستهبون له ، واصحبوه بحرس حتى يصل إلينا بأمان بسبب كثرة قطاع الطريق في بلاد غريبة (حلويات) والفتن التي يقوم بها سكان كعب غزال (حلويات أخرى) .

يجب ألا يقع تأخير في إرسال هذه الهدايا والسلام ! وحرر في شهر اللبن عام السكر والشاي وما شابههما .

وإن لم يمتثلوا لأوامرنا ، أرسلنا عليهم قبائل البعوض التي لا تتركهم في راحة إلا إذا أعطوا ما ذكر في رسالتنا . والسلام . عام 1622 .

وكانت تحمل هذه الرسالة الجميلة كتوقيع ، طابعاً اشبه ما يكون بطابع الملك » .

يضعون عادة رهن إشارة الطلبة الخيام الضرورية والدوابّ التي تنقلها .

وفي هذه الأثناء ، يكون السلطان الجديد قد اختار وزراءه وأعيان حاشيته من بين زملائه بالمدرسة ، ما عدا صاحب الصندوق الذي كان تقريباً دائماً رجلاً جدياً ومحنكاً ، تاجراً أو موظفاً[60] .

وكان سلطان الطلبة يتلقى يوم الجمعة الموالي لانتخابه ، من المخزن شعائر سلطنته ، أي : المظلة ، وَالمنشة، والفرس ، والحرس . فيقوم إذ ذاك بخروجه الأول ، مصحوباً بموسيقى الموكب بمزاميرهم وطبولهم و (نفافيرهم) ، وسط جمهور غير منظم . يذهب إلى جامع الأندلس ثم يخرج من المدينة عبر باب فتوح ، ويصعد إحدى ربوات روضة باب فتوح ، ويستجم أمام ضريح سيدي ابن حرزهم (حرازم)[61] مولى الطلبة ، حيث أقبر كذلك ، حسب الرواية التقليدية ، مولاي رشيد ، منشىء الحفلة .

وكان الموكب يشكل مرة ثانية ، يوم الغد السبت ، بنفس النظام ، ويتوجه هذه المرة نحو باب محروق ليلتحق بسهل واد فاس عبر باب الساكمة . ويكون المخيم قد نصب هنالك ؛ فيضاف إلى أخبئة الطلبة خباء عامل فاس الجديد المكلف بالسهر على النظام ، وأخبئة الفاسيين العديدين الذين كانوا يأتون للاستراحة والتسلية لبضعة أيام برفقة الطلبة ، في مقابل هدايا كما لا يخفى . كانوا يقضون هناك أسبوعاً على الأقل وهم يأكلون ، ويشربون الشاي ، ويستقبلون الأصدقاء، ويمرحون ويستمعون إلى الموسيقى . وكانت فاس كلها تتقاطر على هذا المخيم ، إذا كان الطقس جميلاً ولو قليلاً .

وفي اليوم الثالث أو الرابع ، يقدم شخص من الأسرة الشريفة حاملاً هدية السلطان ، وهي عبارة عن مؤن ونقود ، كما يرسل اليهود هدية ، لكنها

---

(60) ب . دوسينفال ، المقال المذكور ، ص. 140

(61) انظر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2

هزلية إذ تكون البقر والغنم المعلن عنها في الواقع قططاً وفئراناً في أقفاص. وأخيراً في اليوم السادس ، كان السلطان الحقيقي ، إن وجد بفاس ، يزور سلطان الطلبة : وفي هذا الاحتفال الذي يمتزج فيه البروتوكول بالسخرية امتزاجاً شديداً[62] يلتمس خلاله سلطان الطلبة المن والعفو التقليديين والإذن باستمرار الحفلة أسبوعاً. وفي أثناء الليلة الأخيرة للمخيم ، كان على سلطان الطلبة أن يتخلص دون أن يراه أحد ويلتحق بمدرسته بدون أبهة ، وإلا تعرض من طرف أصحابه إلى لطمات عنيفة ، واستحمام إجباري وغير ذلك من الكوارث من هذا النوع .

إننا لا نستطيع أن نلح كثيراً على الطابع الهزلي المتصنع لهذه الحفلة التي كان الطلبة لا يخشون تقليد أكبر أصحاب الرتب المخزنية العليا حتى بمحضرهم ، لكن مع مراعاة المراسيم المعمول بها في الحاشية الشريفة بكل دقة . وهكذا كانت تسليتهم تتخذ طابعاً متصنعاً غريباً جداً ، لا يشبه في أي شيء الخشونة وتجاوز آداب الحياة في الحي اللاتيني .

ويؤكد التاريخ انطباع الثبات الذي يتركه حفل سلطان الطلبة ، إذ لم يسمع قط أن طلبة فاس تسببوا في اضطراب خطير بالحاضرة ، ولم يرو أي مؤرخ أن المدارس قاومت حصارات أو أن حي القرويين كان مسرحاً لعمليات استراتيجية [63] ؛ بل على الأكثر كان الداخليون بالمدارس يعبرون أحياناً عن غضبهم بكيفية عنيفة إذا أصبح الخبز رديئاً أو غير منتظم التوزيع[64] .

---

(62) انظر عن التفاصيل پ. دوسينفال ، المقال المذكور ، ص 143 -145 ، ودوتي ، **الخطبة الهزلية بحفل الطلبة بالمغرب** .

(63) بدون الرجوع حتى إلى العهد الوسيط ومعارك الطلبة مع رماة المحازة ، فإننا نتذكر أن الحي اللاتيني ، في ربيع 1925 ، كان في حالة غليان طوال يومين أو ثلاثة أيام ، وأنه شوهدت صفوف من المتظاهرين وهم يقومون بحركات دائرية في دروب جبل سانت ـ جونفياف ، وأن الشرطة اضطرت إلى محاصرة كلية الحقوق . لا شيء مثل ذلك بفاس .

(64) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 291 .

ويمكن الاستغراب من كون أربعمائة أو خمسمائة من الشبان الأشداء طلبة المدارس ، لم يقع التحدث عنهم بأكثر من هذا . لعل اهتمامهم بشرفهم كطلبة للاّهوت كان من أسباب ذلك ؛ لكنني أظن أنه يجب البحث عن أهم داع لذلك في الواجب الاجتماعي الكبير الذي يفرضه الوسط الفاسي . فكان العشرات من القرويين الوافدين على فاس كل سنة يشعرون فوراً كأنهم واقعون في شرك مجتمع يخدعهم بثقافته ، ومدنيته ، وتهذيبه ، ولم يكونوا في البداية سوى مفتونين . حقاً إنهم بعد شهور قلائل وبمساعدة العادة ، كان بإمكانهم أن يعارضوا ويفلتوا من هذا الافتتان ، لكن هيهات ! لم يعودوا بعدُ ما كانوا عليه عند وفادتهم ؛ فقد سبق أن رسخ فيهم شعور الاحترام تحت تأثير أساتذتهم ، والمحيط العام ، وحتى أصحابهم القدامى ، فيسوقهم كما يسوق سائر المدينة ، وهو يفيدهم بأن الطالب شخص على حدة ، شبه مقدس ، لا يمكنه أن يساهم في الاضطرابات الباطلة للحاضرة ، تحت طائلة فقد الحظوة إزاء نفسه . وقد تعلموا عدم الاستسلام للاندفاعات الوقتية ، وعدم القيام بأي شيء إلا وفق التقاليد والقاعدة بدون زيادة شيء عليهما . وحتى الهزل كان اصطلاحياً محدداً بدقة عن طريق العادة .

وكان نفس الشيء بالنسبة لدراساتهم : فلا مبادرات فردية ، ولا مجهود خلاق(*) ، إذ لم يكن يهمهم اكتشاف حقيقة متغيرة باستمرار ، ولكن التلقي للحقيقة التي كشفها للناس رسول الله بكاملها ممن أخذوها بدورهم عمن سبقهم ، وأن يكونوا جديرين بتبليغها كما هي لخلفهم . ومن أجل ذلك ، كان لا بد من التشبع جيداً بالمعارف والطرق للعلماء الأساتذة ، وأن يصطنعوا لأنفسهم ذاكرة لا تخون وأن ينصتوا ويحصلوا . وهكذا كان طلبة فاس يحتذون شيئاً فشيئاً بشيوخهم الذين كانوا يولونهم أكبر احترام ويؤدون لهم جميع

(*) العجب للمؤلف يكتب هذا وقد عاش بفاس فترة مخاض الحركة الوطنية المغربية وتطورها قبل الحرب العالمية الثانية وبعدها ، ورأى وسمع وتحقق بالمبادرات المدهشة التي كانت لطلبة القرويين ! (مترجم)

الخدمات الممكنة بغية استحقاق عنايتهم . لم يحاولوا قط رد فعل ولا تشككاً مبدئياً ، ولا شيء لديهم أغرب من موقف روح ثورية لم يكونوا حتى يستنكرونها ، لأنها لم تكن تخطر ببالهم . فالعقيدية والامتثالية هما الخاصيتان الغالبتان للقرويين ، وعندما كان النزق ورغبة الشباب في الانفجار يتجليان ، فإن المسالك المرسومة جيداً لحفلة الطلبة كانت منصوبة أمامهم لتوجيههم : فمنذ ثلاثمائة سنة ، كان شباب فاس يشفي غلته بمحاكاة المخزن الساخرة التقليدية ، وبالدعابات حول البراغيث ، والبق والفئران ، وبجو البهجة الشعبية المتزنة الذي يكتنف كل ذلك .

مؤسسات التعليم الأخرى : - لا ينبغي الاعتقاد بأن المجهود المبذول لتحديث التعليم المغربي يعود تاريخه كله إلى الحماية . فقبل 1912 كانت فاس مسرحاً لبعض المحاولات في هذا الاتجاه ، محاولات أصبحت بدون غد ولا نتيجة عملية ، ولا بد من الاعتراف بذلك ، لكنها محاولات من المفيد الإشارة اليها .

على إثر هزيمة إيسلي مباشرة عزم مولاي عبد الرحمن ،وقد أدرك أن الجيش الشريف لن يستطيع أبداً أن يقاوم الجيوش الأوروبية ما لم يتغير ، على إنشاء مدرسة للتقنيين أقامها بمدرسة دار المخزن واتخذت إذ ذاك اسم مدرسة المهندسين[65] ؛ وكانت تعطى بها دروس في العلوم بعض الوقت ، تحت إشراف الشريف مولاي إدريس البلغيتي ،لكن هذه المحاولة لم تكن لها نتيجة .

واستؤنفت هذه المحاولة سنة 1906 من طرف وزير الحرب الحبّاص الذي استحضر إلى فاس مصرياً ، هو رشيد أفندي ، وأسند إليه تعليم الرياضيات التي كان يدرسها في نفس دار الوزير لأحد عشر تلميذاً على نفقة المخزن . ولم تدم هذه المحاولة أكثر من سابقتها .

وحاول الاتحاد الفرنسي ، من جهته ، أن يفتح مدرسة للمسلمين ، كما

---

(65) انظر في هذا الصدد بيل ، كتابات عربية ، ص. 97-116 ، وبيريتي ، مدارس ص. 275

فعل بالنسبة لليهود : وكان الأمر يتعلق بدرس باللغة الفرنسية لفائدة الكبار يقوم به مستخدم بالبريد ، وهو جزائري مسلم . أخفقت محاولة أولى سنة 1899 ـ 1900 ، ولم تعرف محاولة ثانية نجاحاً أكثر سنة 1906 -1907 وذلك لأسباب سياسية في كل مرة[66] .

(66) مذكرة حول التعليم . ولم تفتح بفاس المدرسة الفرنسية ـ الاسلامية الأولى الا سنة 1911 .

الفصل الثاني

2/6

الكتب والخزانات

لم يكن الاتجار في الكتب مزدهراً جداً ، رغم وجود جامعة ، كما بينت ذلك سابقاً[1]،وليس أكثر كذلك من القرن السادس عشر[2] . وذلك ناتج عن صعوبة الاستيراد وضعف الإنتاج المحلي ، وعن المكانة المتفوقة المخصصة للذاكرة في التعليم ، وعن العدد القليل للكتب المستعملة بالقرويين أيضاً . وأخيراً فإن الطلبة لما كانت لهم أوقات فراغ ، فإنهم لم يكونوا يترددون في استنساخ النصوص التي هم في حاجة إليها ، يستعيرونها ممن هم مزودون بها أكثر منهم أو يجدونها بخزانة الجامعة .

الخــزانــات : ـ هذه الخزانة[3] [خزانة القرويين] التي قيل إن السلطان المريني أبا عنان (القرن الرابع عشر) هو الذي أسسها ، والسلطان السعدي أحمد المنصور هو الذي وسعها ، كانت غنية جداً في القديم . وقد

(1) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4 ، ص. 376 -377 .

(2) يدلي ليون الإفريقي برقم 30 دكاناً للكتبيين ، بينما لم يبق منها سوى 10 حوالي 1900 ؛ لكن التفاصيل التي يقدمها كلينار ، عن بيع الكتب بالمزاد (ر . لوطورنو ، كلينار ، ص. 60- 59) تدل على أنها كانت شيئاً نادراً في ذلك العهد ، إذ كانت تباع جزءاً جزءاً .

(3) انظر عن خزانة جامعة القرويين، على الخصوص پيريتيي ، المرجع المذكور ص. 357 - 367 ؛ محمد بن الحسين العراقي ،خزانة جامعة القرويين ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس؛ وأ بيل ، فهرس الكتب العربية لخزانة جامع القرويين بفاس ، 1918 ،وزهرة الآس ، ص. 148 -151 .

تردّت شيئاً فشيئاً إلى حالة مؤلمة من التلف والإهمال ، إذ كانت الكتب مكدسة بعضها فوق بعض بغير نظام ، معرضة بسهولة للأرضة . ونظراً لانعدام أي فهرس ، أو سجل للاستعارة ، فإن الكثير من المستعيرين غفلوا عن رد ما استعاروه من الكتب ، بحيث إنه كان يقدر في بداية القرن العشرين عدد الكتب ب2.000، منها 1600 مخطوط، معظمها ضئيل القيمة. كانت حراسة الخزانة تسند مبدئياً إلى مراقب أحباس القرويين ، لكنه كان يحيل هذه المهمة على طالب (مكلف) يوافق عليه المخزن . ونظراً لاختفاء عدد كبير من الكتب ، فقد مُنعت الاستعارة وأصبح على الطلبة أن يطالعوا الكتب في عين المكان ، ويبدو أنهم قليلاً ما كانوا يلجؤون إلى هذه الإمكانية .

وكان يوجد بالقرويين أيضاً ، في الجامع بالذات ، خزانة صغيرة للكتب المستعملة عادة ، أي بعض المصاحف الشريفة وكتب الحديث ، يكلف بها طلبة يحتفظون بمفاتيحها بالتناوب . وتكونت خزانات مماثلة في جامعي الأندلس والرصيف . وكان هؤلاء الطلبة ، كقيم خزانة الجامعة ، يتقاضون من المخزن أجرة قدرها 10 مثاقيل في الشهر[4] .

وهناك خزانة أخرى هي خزانة دار المخزن ، التي أنشأها مولاي عبد الرحمن ووسعها مولاي الحسن . كانت في بناية ملحقة بالقصر ، قرب مشور باب بوجات تزود من الخزانات الخاصة التي تصبح ، لا وارث لها . ولم يكن الدخول إليها سهلاً لوجودها داخل القصر[5] .

وأخيراً كانت هناك بعض الخزانات الخاصة ، المشهورة بغناها ، أهمها خزانة الشريف مولاي إدريس بن عبد الهادي، الذي كان أحد علماء القرويين والمالكين الأثرياء . وكانت تذكر أيضاً خزانة الفاسيين الواقعةبملحقات ضريح سيدي عبد القادر الفاسي ، وخزانة زاوية سيدي أحمد التيجاني بحي البليدة ،

---

(4) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 359 .
(5) نفس المرجع ، ص. 367 .

وأخيراً خزانة الكتانيين[6] . ومن المعلوم أن عدداً كثيراً من الفاسيين غير هؤلاء كانوا يملكون خزانات ، لكن نظراً لقلة الكتب ، لم تكن تحتوي على أكثر من عشرات ، وقليل منها على بضع مئات من المؤلفات .

الطباعة الحجرية : ـ لقد اكتفى الكتاب المغاربة لمدة طويلة باستنساخ مؤلفاتهم باليد ، اللهم إلا إذا طبعوها في مصر كمؤلف الاستقصا[7] . ولم تنشأ مطبعة حجرية بفاس إلا على عهد سيدي محمد بن عبد الرحمن ، أي في النصف الثاني من القرن التاسع عشر[8] .

ويبدو أن الفكرة جاءت من حجاج أشادوا للسلطان بالوسيلة التي شاهدوا استعمالها في الشرق ؛ كما يبدو أن المخزن منح تسهيلات لأول طابع ، وهو الحاج الطالب الأزرق الذي أقام مطبعته بدرب الحمام ، قرب سوق الجوطية ، بعدما استحضر من الشرق جهازاً وتقنياً تركياً[9] . وأول كتاب طبع بفاس هو شرح الغزالي للشيخ مرتضى(*) . ونظراً لربح هذه التجارة ، فإن عائلتين أو ثلاث عائلات ، هم القادريون ، وآل ابن الخياط ، وربما آل ابن سودة[10] ، أنشؤوا مطابع في مختلف أحياء المدينة ، وخاصة في البليدة

---

(6) نفس المرجع . لقد أصبحت خزانة الكتانيين لحسن الحظ ملكاً للعلامة سيدي عبد الحي الكتاني الذي جعل منها أجمل خزانة بفاس وفتحها بسخاء في وجه الباحثين .

(7) في مثل هذه الحالة ، كان أحد التجار الفاسيين ، الذي له علاقة منتظمة مع مصر يشتري المخطوط من المؤلف ثم يتكفل بالنشر (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 280) .

(8) توجد عن الطباعة الحجرية بفاس بعض المعلومات المتفرقة عند پيريتيي المرجع المذكور ، ص. 363 -366 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص.280 ؛ ودولفان، المرجع المذكور ، ص. 86 ؛ ومولييراس ، المرجع المذكور ، ص. 150 ؛ وبيرك، **نوازل** ؛ ص.17 الهامش 8 . وقد استكملت مراجعي لدى السيد محمد بردلة، طباع بفاس من قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس الذي تفضل بإفادتي عن هذه الحرفة التي عرفها جيداً .

(9) پيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 363 .

(*) بل أول ما طبع على الحجر بفاس هو سنن الترمذي ، واسم أول طابع مغربي الحاج الطيب الأزرق لا الطالب ؛ انظر المنوني ،. **مظاهر يقظة المغرب الحديث** ، 1:215- 216 ، والهامش 2 . (مترجم) .

(10) پيريتيي ، نفس المرجع ، ومعلومات شفوية .

والمخفية . غير أن هذه الصناعة الجديدة التي لم يكن لها منافسون بالمغرب ، لم يَتوفر لها أزيد من أربع مطابع[11]، أنجزت الأشغال الأولى للمخزن[12] على ما يبدو . ثم إن الطابعين عملوا بلا مواد لحساب المؤلفين ، أو بالأحرى كان هؤلاء يُمدونهم بالورق[13]،ويؤدون أجرة عالم مكلف بفحص الكتاب من حيث سلامة الاعتقاد الديني[14] ، وأجرة الطابع الذي كان يقدم هو الآخر المداد واليد العاملة ، أي النساخ[14] وعمال المطبعة ، وكان عددهم اثنين على الأقل . وكان يستعمل أسلوب آخر ، وهو أن الطابع الحجري ، الذي هو كتبي أيضاً ، كان يقوم بدور الناشر ، أي أنه كان يتحمّل جميع مصاريف الطبع ويدفع حقوق المؤلف كلما باع خمس عشرة نسخة أو عشرين[16] .

وحيث إن فاساً هي المدينة المغربية الوحيدة التي تطبع الكتب ، فإن البيع كان سهلاً ، رغم قلة جودة ما يطبع من الكتب بمداد رديء دون اهتمام براحة القارىء . كانت المدينة نفسها تستوعب قسطاً كبيراً منها ، ويباع الباقي في المدن الكبرى الأخرى بالمغرب ، كالرباط، وسلا ، ومراكش ، وتطوان وطنجة . ولم تكن الكتب المطبوعة على الحجر بفاس تباع خارج المغرب ، ومع ذلك اشترى بعضَها أوروبيون على سبيل حب الاطلاع، وخاصة منهم الألمان[17] .

---

(11) وقد أتلفت الأخيرة سنة 1944.

(12) دولفان، المرجع المذكور ، ص . 86 .

(13) وقع استيراد الورق أولاً من مصر، ثم من فرنسا بواسطة دار لحلو وبسوسان. ولم يُصنع قط بفاس .

(14) لم يكن العالم المصحح يمارس مراقبة رسمية ، لكنه يقدم ضمانة بأن العقيدة سليمة . وهو احتياط من طرف الناشر أن يطلب منه رأيه .

(15) كان الناسخ المطبوع اسمه في آخر كل مجلد ، كما هو معلوم ، عالماً ذا خط جميل . وكان أشهرهم ، سنة 1906 هم الفقيه البادسي ، وثلاثة إخوة من أولاد السيد عبد الرحمن ابن سودة ، كانوا يتقاضون من 3 إلى 4 بسيطات حسنية عن كل ملزمة من 8 صفحات (بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص 364)

(16) كانت تعرض أول نسخة على الكاتب أو ورثته الذين كان بإمكانهم توقيف الطبع ، إذا رأوا أن النشرة رديئة .

(17) لم يحاول طابعو فاس أن يُصدِّروا مطبوعاتهم ، وإنما كانوا يسحبون 300 أو 500 نسخة . وحتى =

وقد شكلت الكتب التعليمية (بما في ذلك الفقه ، والنحو ، والتوحيد[18] ، والهندسة ، والتنجيم) الرصيد الأساسي لهذه المطبعة الفاسية ، الأمر الذي يبرهن على علاقتها الوثيقة بجامعة القرويين ، والمكانة المكينة التي كانت تحتلها هذه الأخيرة في الحياة الفكرية بفاس . وقد استهوت الطابعين بفاس أيضاً كتب الرحلات إلى الحجاز[19] والكتب التاريخية . وهكذا نشرت مؤلفات كجذوة الاقتباس لابن القاضي[20] ، والجيش العرمرم لمحمد أكنسوس[21] ، ونزهة الحادي للإفراني[22] ، ونشر المثاني للقادري[23]وسلوة الأنفاس لمحمد بن جعفر الكتاني[24] ، وكتب أخرى كثيرة من نفس النوع. أما الشعر وما قد نسميه الأدب فإنهما لم يحتلا إلا مكاناً صغيراً في هذه المجموعة[25] . وسواء تعلق الأمر بالفقه أو التاريخ أو الشعر ، فإن جل الكتب المطبوعة على الحجر بفاس كانت معروفة لدى الجمهور في شكل مخطوطات : ونسبة الكتب الجديدة ضعيفة جداً .

---

* لو أرادوا ذلك ما استطاعوا لأن طريقتهم في الطبع كانت بطيئة : فكان لا بد من 100 يوم تقريباً من العمل لطبع مؤلف واحد من 400 صفحة في 500 نسخة (معلومات أفادنيها بردلّة)

(18) من جملة كتب التوحيد ، يمكن ذكر المؤلفات السبعة لماء العينين المطبوعة بفاس عند الأزرق ما بين 1310 و 1323 . وقد وضع لها المتبصر تحليلاً موجزاً في مجلة العالم الإسلامي ، عدد 1 (يناير 1908) ص.349.

(19) مثلاً رحلة العياشي . انظر عن هذا المؤلف ، ليفي ـ بروفنصال ، شرفاء ، ص.264.

(20) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.248-250.

(21) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.204-213.

(22) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص. 120-131.

(23) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.319-326

(24) انظر عن هذا المؤلف ، ليفي بروفنصال ، نفس المرجع ، ص.377-385

(25) انظر عن المؤلفات المطبوعة بفاس، ابن شنب ، وإ . ليفي ـ بروفنصال ، محاولة لوضع فهرس مسلسل تاريخي لمطبوعات فاس ، في المجلة الأفريقية عدد 62 (1921) ص . 158 - 173 و 275 - 290 و 63 (1922) ص . 170 و 185 و 333 و 347 . وقد أخذ هذه اللائحة بالترتيب الأبجدي هـ . بيريس وأ . ساميري في مجلة الدراسات العربية ، عدد 32 (مارس ـ أبريل 1947) ، ص . 63 - 70 .

وقد حاول المخزن أن ينشئ بفاس مطبعة حجرية ، وكان مولاي حفيظ هو الذي خطرت هذه الفكرة بباله سنة 1910. فاستحضر آلة ألمانية بحروف من لايبسيش ، بواسطة سوري يدعى يمني[26] .لكن الحماية أقيمت في هذه الأثناء ونُبذت الآلة الجديدة في مخزن اللوازم أو بيعت بخسارة ، لا أدري .

الأوساط الأدبية : لا شيء أكثر غرابة عن فاس من الحياة الأدبية على النحو الذي نتصور فيه بفرنسا منذ القرن السادس عشر على الأقل . فلسنا نجد بفاس ذلك العالم للمفكرين الذين يتعيشون بقلمهم، ملتفين حول العاهل، كما كان ذلك في عهد لويس الرابع عشر ، أو حول شخصيات عظيمة مثل ما كان عليه الأمر في القرن السادس عشر ، أو مجتمعين في الصالونات كما حدث في القرن الثامن عشر ، أو في المقاهي ، كما هو الأمر في القرن التاسع عشر أو في أيامنا هذه . فالكاتب المحض ليس له حق المواطنة بفاس ، لأن الأدب المحض لا وجود له ؛ وبالتالي ، فالعلم هو الذي يشغل الأفكار النيرة بفاس لا الفن : فما فائدة الجمال إن امتُلكت الحقيقة ؟

لذلك كان الذين يتبوؤ ن الصف الأول في الحياة الروحية بفاس طبعاً ، هم العلماء ، والأساتذة ، وفقهاء القرويين . وبدونهم يجب القول بأنه لم يكن هناك أحد. وهكذا كانت الحياة الروحية تظهر مشوبة بنقيصة خطيرة جداً، إذ كانت كلها من صنع رجال صُهروا كلهم في قالب واحد ، وكُوّنوا بالطرق المشددة لجامعة القرويين . كان المستقل نموذجاً لروح لا يتصور ؛ وكانت النساء ذوات ثقافة ضعيفة جداً ، لا يشاركن أو قلما يشاركن في الحياة الفكرية . ومن هنا كانت العقلانية الفاسية تجد نفسها موضوعة تحت علامة المعرفة والعقدية . لم يكن يعرف هناك خيال لمبدع ، وكان الشعر مصوغاً في قوالب ونماذج ، والفقه والتوحيد يحتلان الرتبة الأولى تماماً كما هو الحال بالجامعة .

---

(26) معلومات من السيد محمد بردلّة.

ومن جهة أخرى ، فإن الاهتمامات الفكرية لم تكن تمس سوى وسط محدود جداً : ففضلاً عن أساتذة القرويين ، وبعض الطلبة ، طلبة فاس ، وعدد قليل من الموسرين النيرين ، كان مجموع السكان يبدون احتراماً لمظاهر الفكر ، لكنهم لا يشاركون فيها : فالقيام بالواجبات الدينية ، وهموم الحياة اليومية ، وبعض التسليات كان ذلك كافياً لملء الحياة[26] .

وكانت أهم مظاهر الحركة الفكرية هي الاجتماعات العمومية أو الخصوصية . فإطار الأولى دائماً مبنىً ديني ، من مسجد أو زاوية ، حيث كانوا يجتمعون للإنصات إلى عرض ذي صبغة دينية ، يقوم به أحد علماء المدينة ، أو أحد الغرباء العابرين في قليل من الأحيان . وكانت مثل هذه الاجتماعات تعقد خاصة في رمضان وفي الأسابيع السابقة للمولد النبوي ، والإقبال عليها كبير بصفة عامة .

وكان ارتياد الاجتماعات الخصوصية أكثر بطبيعة الحال ، تنظم في دار أحد الأغنياء أو العلماء الذين يقدم لضيوفه طعاماً أو شاياً حسب الظروف . وكان المشاركون يرتبطون فيما بينهم بصلات ، وتسير محادثتهم بلا رابط ، متخذة أحياناً شكل مناقشة عامة وأكاديمية ، ومتحولة أحياناً إلى مناظرة حادة بين شخصين معروفين بفصاحتهما . وقد أعطى موليراس[28] وغيره كثيرون أمثلة عن هذه الاجتماعات التي كانت الكلمة تؤول فيها دائماً إلى المسنين الذين هم أكثر علماً ؛ وإذا فعل شاب شيئاً آخر غير الإنصات ربما يكون قد ارتكب خطأ كبيراً .

وكانت أشهر الاجتماعات تعقد ، حوالي 1906 ، عند الشريف مولاي

---

(27) ما زالت هذه البيانات صالحة للفترة الحالية . فالطلبة ، سواء منهم طلبة القرويين والمؤسسات العصرية ، أكثر عدداً ، ودائرة الموسرين المثقفين اتسعت أكثر ، لكن بأبعاد ما زالت بعد ضعيفة . ولن يكون الأمر كذلك في آخر هذا القرن ، لأن تطور التعليم والصحافة والإذاعة سيوتي أكله قريباً .

28) المرجع المذكور ، ص.374 وما بعدها .

إدريس بن عبد الهادي ؛ وكان من ضيوفه المعتادين منشد للشعر الملحون (شيخ الكلام) هو الحاج إدريس الغرباوي ، وشريف فيلالي ، هو مولاي علي الملقب « سرواله » ، لأنه كان يترك سرواله دائماً يسقط على رجليه، وكاتب مخزني ، هو الحاج محمد الكردودي ، وشيخ تجاوز عمره المائة ، هو الحاج الحسين مبارك ، وتاجر ثري هو مولاي علي الكتيري . تُعزف الموسيقى في هذه الاجتماعات ، وتُنشد الأشعار وتدور المحادثة حول موضوعات مختلفة[29] .

وكان بعض الملوك يعجبهم أن يجمعوا حولهم الأدباء وأن يخففوا عنهم من هموم الحكم بدراسة المؤلفات الفكرية ؛ وهكذا كان مولاي الحسن يحب قراءة **صحيح البخاري** بصحبة أحد قضاة مكناس ، هو الحاج أحمد بن سودة[30]

وكان ينقص هذه الحياة الفكرية الاتصال مع الخارج . فقد كان أحد الحجاج يحمل معه أحياناً من الشرق بعض الأفكار الجديدة ، لكن لانتقادها على العموم. وفي النصف الأول من القرن التاسع عشر، عندما رجع الشيخ الطيب بن كيران من الأراضي المقدسة، كتب نقداً للمذهب الوهابي؛ وفي أواخر سني القرن التاسع عشر ، قام الفقيه سيدي المهدي الوزاني بنفس الشيء بخصوص مذهب الشيخ عبده .

حقاً إن بعض الصحف والمجلات الشرقية كانت تصل إلى فاس ، **كالمؤيد** **والأهرام** من القاهرة ، وكان للأولى نحو خمسين مشتركاً بفاس ، **والوطن** من بيروت ، ومجلة **الشرق** التي كان ينشرها يسوعيو بيروت[31] . وكانت تقرأ هذه المنشورات بصفة خاصة من أجل الأخبار السياسية التي كانت

---

(29) بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص.334.
(30) نفس المرجع .
(31) نفس المرجع ، ص.369.

تعطيها . ولا يمكن القول إنها أثرت في شيء على الفكر الفاسي[32] .

كل هذا يبدو ـ لأول وهلة ـ تافهاً جداً . وهو كذلك فعلاً إذا حاولنا القيام بمقارنات مع الغرب ، لا حتى غرب القرن العشرين بغليانه الفكري المذهل ، ولكن بغرب القرن الخامس عشر ، مثلاً ، الذي يعطي انطباع عصر توقف على الأقل فيما يخص الأدب الفرنسي ؛ وهو كذلك أيضاً إذا فكرنا في الشرق العربي في بداية القرن العشرين المتحمس كله بنهضته ، الغني بالشعراء والمترجمين والكتاب والمجدّدين .

لكنه من عدم الإنصاف النظر إلى فاس من هذه الزاوية . فإذا ما أردنا أن ننظر إلى الأشياء كما يجب ، ينبغي أن نتذكر المغرب الهائل الغير المثقف في مطلع قرننا : فإنه لا يعيش روحياً إلّا من عادة شفوية تمتزج فيها جميع أنواع العناصر ، وهي اعتقادات محلية لما قبل الإسلام ، وعادات اجتماعية ثابتة ، وبقايا من الإسلام متفاوتة التشويه حسب النواحي . فالمبدأ الوحيد لوحدة هذه البلاد الكبرى المتباينة والمتجزئة ، هو الإسلام الذي يذكي شعلته فقهاء القرى أو القبائل . إن هؤلاء المفكرين البسطاء قد حصلوا بفاس على زادهم الضعيف ، أو أخذوه عن أجدادهم المتعلمين بفاس . وكلما حاولنا ارتقاء سلسلة التكوين لمعلمي القرآن ، والعدول ، والصالحين الذين يحافظون على الإسلام وحضارته في البوادي المغربية ، كلما كنا أكثر حظاً في العثور إن عاجلاً أو آجلاً على حلقة صنعت بجامعة القرويين .

ومن وجهة النظر هذه ، فإن الحياة الفكرية بفاس تكتسب قيمة أخرى تماماً . نعم ، لم يعد بعدُ إشعاع الحاضرة الإدريسية ، في بداية القرن العشرين ، ما كان عليه أحياناً ، إبان كانت فاس دماغ إمبراطوريات قوية يمتد

---

(32) ليس الأمر كذلك اليوم . فالإقبال كبير على الجرائد والمجلات والكتب الشرقية بفاس : تصل جل المجلات الشرقية إلى خزانة جامعة القرويين ، ويقبل الطلبة كثيراً على مطالعتها ، وتساهم السينما والراديو في تقوية اهتمام الفاسيين بأشياء الشرق العربي .

سلطانها على إفريقيا الشمالية كلها وجنوب إسبانيا . ففي العهد الذي يهمنا كان هناك أربعة جزائريين فقط يتابعون دروس الجامعة ، وهم وحدهم الأجانب الذين يمكن العثور عليهم . لكن إذا كان الأجانب ينقطعون ، فإن المغاربة ما زالوا يفدون من كل أرجاء المملكة الشريفة ، سواء من سوس أو من الريف أو من السهول الأطلنطيقية أو تافيلالت ، أو من طنجة وتطوان ، أو من تازا ومراكش. إن فاسا بفضل علمائها وإشعاعها الفكري ، لم تصل إلى شمال المغرب ، ومُثَلَّث تازا ـ طنجة ـ الرباط فحسب ، ولكن وصلت فعلاً إلى المغرب بأسره. ألسنا نرى هكذا أن فاساً تلوح كأنها عامل للوحدة الفكرية في بلاد مقسمة إلى أقصى حد ؟ ومن جراء ذلك تحتفظ في أعين السكان المدنيين وحتى القرويين بحظوة عظيمة ، مرموزٍ إليها ـ إن صح التعبير ـ بالامتياز المعترف به لفقهائها في منح السلطان الجديد الذي يعتلي العرش نوعاً من التنصيب ، وإمداده عند الاقتضاء بسند آرائهم المأذون لها . لأن الجامعة لا تقتصر على تكوين التلاميذ ، بل هي أيضاً مؤتمنة على الحقيقة الدينية ، ومكلفة بالسهر على احترام مبادئها . وبذلك تكتسب سلطة حقيقية .

تلك هي العناصر المتعلقة بالقيمة الفكرية لفاس ، وليست هي الوحيدة . ومهما أمكن أن تظهر لنا هذه الحياة الفكرية ضيقة نحن الأوروبيين القلقين دوماً والمتحركين ، فإن لها على الأقل الفضل في وجودها ببلاد يكون فيها ذلك الشيء نادراً . مما لا شك فيه أن فاساً عرفت كيف تحتفظ في المغرب بتذوق أو على الأقل باحترام أشياء الفكر . ذلك أن مفهوم الثقافة لم يَضِع بها قطّ ، وتبرهن منشآت مثل معامل الطباعة الحجرية بفاس على أنها لم تكن لفظة وهمية ، وأنها ما زالت تستجيب لحاجة ما ، إذ كانت تغذي باستمرار صناعة صغيرة . نعم ، إنها ثقافة جافة شيئاً مّا ، مكونة قبل كل شيء من تحليلات ومناقشات فقهية ، تتفوق فيها بكثير الذاكرة والمؤهلات المنطقية للفكر عل المخيلة والحساسية ، لكنها ثقافة عميقة وفعالة تمنح للفرد في مجال الفكر نفس الموقف الذي كانت تمنحه له القاعدة في ميدان الأخلاق . ربما

كانت الشجرة ضامرة هزيلة المظهر ، لكن ماء الحياة يجري فيها دوماً ، مليئاً بإمكانيات العمل. وحتى تظهر ظروف ملائمة، فإن العقلانية الفاسية ستخضرُّ من جديد ويساعدها الحظ في إعطاء ثمار جميلة ، لأنها ستنطلق من أرومة متينة .

ما كانت هذه الظروف لتأتي بعد ، وإن كانت فاس قد دخلت قبلُ في دائرة العالم الحديث بفضل اقتصادها . كان هناك تباين واضح ، حوالي 1910 ، بين الحياة الفكرية بفاس ونشاطها الاقتصادي . لقد بدأ هذا الأخير يتطور قبل إقامة الحماية الفرنسية بكثير : فأصبحت المبادلات مع أوروبا وعدة بلدان إفريقية متكاثرة منتظمة ، والطرق الغربية في الأداء والقرض متأقلمة ، والعملة الأوروبية ذاتها جارية . وعلى الصعيد الفكري بقيت فاس بعكس ذلك منكمشة تماماً على نفسها ، وفية بإصرار لتقاليد كانت مثمرة ودامت موقرة ، لكنها كانت مفتقرة لهواء جديد . ولم يكن مثل عدم التوازن هذا بين الاقتصاد والفكر ليدوم ؛ فكان من المحتوم أن تدخل المدينة الإدريسية سريعاً جداً في تصال مع الفكر الأوروبي والفكر الإسلامي الشرقي ، ولو تحت تأثير تجارها والحاجيات الجديدة التي كانوا يخلقونها بين مواطنيهم .

7

الكتاب السابع

آداب فاس

إن جميع المؤلفين الأجانب الذين كتبوا عن فاس أُذهلوا من شدة نظمها الاجتماعية والأسروية ، الشيء الذي حدا بهم إلى أن يتناولوا ، بالتفصيل في غالب الأحيان ، آداباً كانت تظهر لهم طريفة . ذلك ما حصل لليون الإفريقي الذي خصص عروضاً مطولة للزفاف والعادات الأهلية للأرستوقراطية الفاسية ؛ وفي فترة أقرب إلينا ، ألف الأخوان طارو مجلداً كاملاً ، لا يتسع المجال هنا لمناقشة استنتاجاتهما العامة فيه ، مخصصاً لأسلوب معيشة أهل فاس .

أما أنا ، فسأحاول تركيب عدد كثير من العناصر المشتتة مضيفاً إليها ، عند الاقتضاء ، ثمرة عشر سنوات من الملاحظات الشخصية ومن اتصالات تكاد تكون يومية .

الفصل الأول

1/7

الثروات والطبقات الاجتماعية

من المحتم أن تلعب الثروات دوراً هاماً في الصرح الاجتماعي بفاس، نظراً لامتداد الحياة الاقتصادية. إلّا أنها ليست العامل الوحيد للتمييز، حيث إن الدين والمعرفة المرتبطين به كل الارتباط، يحتلان مكانة من الدرجة الأولى في حياة الحاضرة ويشاركان من جهتهما في تشكيل النخبة الفاسية. يمكن التفكير في أن مزاولة الوظائف العمومية هو الآخر وسيلة للنجاح، لكن سرعان ما نتحقق بأن خدام المخزن الفاسيين، وعلى الأقل في أواخر القرن التاسع عشر، كانوا كلهم تقريباً، إما تجاراً يحتاج السلطان جيداً إلى تجربتهم، وخاصة في علاقاته مع أوروبا، أو فقهاء تعتمد الحكومة على كفاءتهم في التحرير وتبحرهم في الفقه الإسلامي. فلا يمكن إذن أن نذكر وجود طبقة مخزنية متميزة تماماً بفاس، اللهم إلا من بين أهل فاس الجديد؛ لكن الأمر إذ ذاك يتعلق بحاضرة من جهة، وبعالم على حدة، وبسواد الشعب عامة من أصل قروي في أغلب الأحيان، وبخدام أكثر منهم مساعدين، ليسوا حقاً في عداد المجتمع الفاسي.

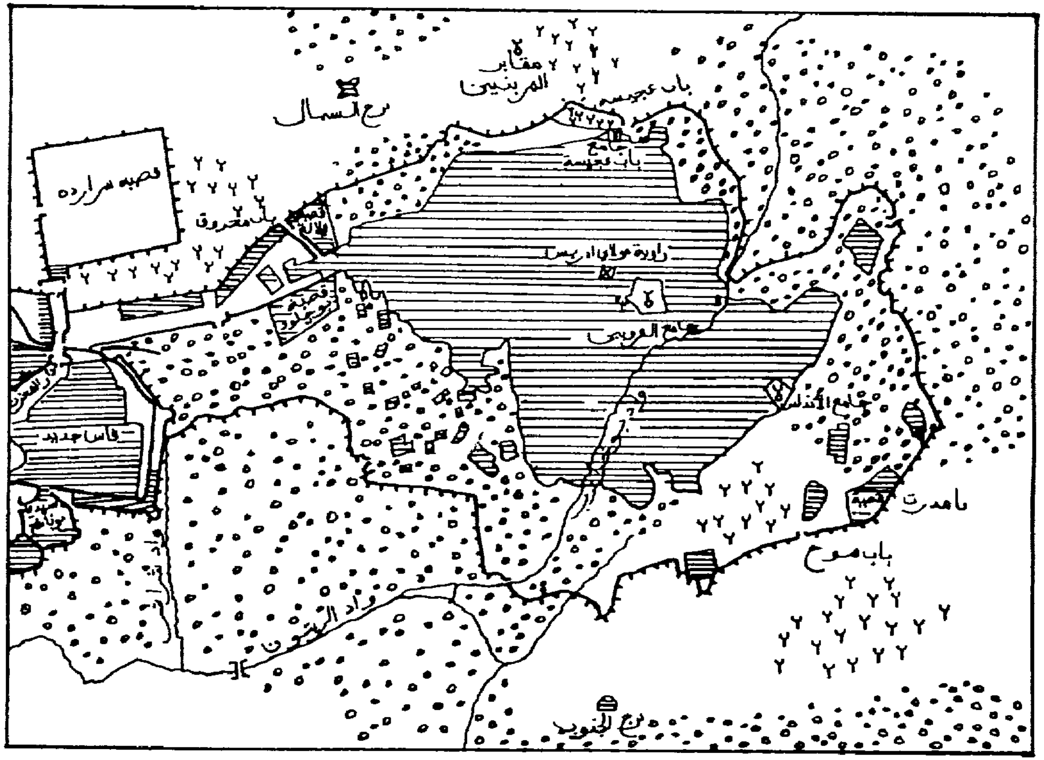
نوع الثروات: ـ يكاد يكون الغني بفاس من أصل تجاري. فإذا تركنا جانباً بعض مجموعات من الشرفاء، كشرفاء وزان الذين كانوا ينتفعون، أباً عن جد، بأوقاف (عقارات أو أراض زراعية)، أمكن القول إن جميع الأسر المثرية بالمدينة كانت تقريباً مدينة برخائها للتجارة. وبما أن التوظيفات

المنقولة كانت محدودة قليلة الثبات مكروهة في نظر الشريعةالإسلامية،فإن جل الثروات المشكّلة هكذا كانت تُستثمر في العقارات . وبمجرد ما كان أحد التجار يحصل على أرباح كافية ، يشتري بقعة أرضية ليشيد عليها داراً . وهكذا ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، شرع آل المقري ، والتازي ، وبنسليمان ، وبنيس ، ونقتصر على ذكر أشهرهم ، في تشييد منازل هامة في حي الدوح ، حيث كانت توجد في ذلك العهد عدة قطع أرضية للبناء . كانوا يبدؤون بتشييد دار سكنية ، أفسح وأجمل من التي كانوا يعيشون فيها سابقاً[1]، ثم إذا ما أضيفت ثروات أخرى إلى الأولى، كانوا يشترون أو يبنون عقارات للإيجار ، كالدكاكين ، والفنادق ، والمعامل ، والمرابط ، والاصطبلات ، والدور السكنية .

كما كانوا يشترون البساتين المسقية ، ليزرعوا فيها الخضر ، والأشجار المثمرة ، والأزهار ، وتمكنهم من قضاء بضع ساعات أو بضعة أيام مع أفراد عائلتهم ، إن ساعد الفصل على ذلك . وكان معظم هذه البساتين يقع داخل الأسوار ، في اتجاه الدائرة[2] ؛ وكان أجملها ، لكونها مسقية أحسن ، هي الواقعة في القسم الجنوبي ـ الغربي لحي العيون والجانب الغربي لحي رأس الجنان والقلقليين ؛ وكانت الأخرى تحد شمالاً الطالعة والشرابليين ، محتلة كل القسم الشمالي ـ الشرقي لفندق اليهودي ، المسمى الزنجفور ، والقسم الشرقي للبليدة ، بين واد زرهون وواد بوخرارب . ولم يكن الحي الحالي للفخارين ، على الضفة اليمنى ، سوى بساتين ، من باب سيدي بوجيدة إلى تامدرت ، مروراً بكْرواوة : ولم يكن يقطع خضرة بهذا القدر إلا وجود المعامل والأفران . وكانت أيضاً كلها بساتين الفضاءات العارية الممتدة بين جامع الأندلس وباب فتوح ، شرقي روضة باب الحمراء ، كلها بساتين أيضاً ، وبالتالي كل القسم الجنوبي ـ الغربي للمخفية كان هو أيضاً مكسواً بالخضرة .

(1) كانوا يحتفظون أحياناً بعقارين ، أحدهما للإقامة في الصيف ، والآخرة للإقامة في الشتاء .

(2) انظر الرسم رقم 31.



الرسم 31
بساتين فاس
(حسب الرسم الإعدادي للضابط لاراس ، 1905)

والحاصل، أنه كانت لجميع الأحياء الدائرية منطقتها الخاصة بالبساتين، ما عدا زقاق الرمان الذي كانت بجانبه الشمالي مقبرة سيدي علي المزالي ومعاصر وحظائر ، وحي واد الزيتون الذي كانت تمتد فيه مقبرة باب الحمراء الواسعة وبعض القطع الأرضية الناتئة الحجر .

كانت البساتين تمتد أيضاً خارج الأسوار ، مغطية المنطقة المكتنفة جنوباً بوادي الزيتون وشمالاً بالمدينة ، من باب جِيَف إلى باب جديد ؛ كما كانت موجودة في وادي بوفكران في اتجاه صفرو ، على الربى الجنوبية وراء مقابر ومصلى الباشا ، على طول منحدر وادي فاس إلى سبو ، وفي منحدر وادي الملاح ، بين فاس وزالاغ ؛ وأخيراً في الوادي الصغير المحاذي للأسوار شمالاً إلى عين أزليطن ، انطلاقاً من باب محروق .

كانت هذه البساتين تحمل أسماء مختلفة حسب نوعها الخاص : فالبستان المسقي يسمى عرصة ، والبستان الغير المسقي يسمى جناناً[3] والبساتين الواقعة في جانب النهر تدعى سهيلات ؛ وأخيراً يسمى البستان الخاص بأسره رويضاً (تصغير روض)[4] وغالباً ما كان يطلق على مقبرة .

وعلاوة على بساتين المدينة أو الضاحية ، كان الفاسيون يملكون عدة أراض زراعية يستثمرونها بواسطة مزارعين ، وكانت ممتلكاتهم عديدة خاصة في لمطة ، وذلك منذ عهد طويل جداً ، حسب ليون الإفريقي[5] .

---

(3) حسب كولان (مراكش ، ص. 234) فإن لفظة عرصة (ج عراصي) معناها بستان صغير ، وجنان (ج جنانات) معناه بستان كبير .

(4) مارتان ، (الكدّان ، ص. 439 و639).

(5) جزء 2 ، ص 196 . انظر أيضاً أوبان ، المرجع المذكور ، ص.388 : ممّا يدل على الارتباط الوثيق بين لمطة وفاس كون سكان هذه الناحية غير مجموعين ضمن قبيلة قائمة بذاتها ، ولكنها خاضعة لعامل فاس .

لم يحدّ امتداد الملكية الفاسية سوى عدم الأمن . وقد تزايدت بكثير ، منذ الحماية ، في جميع الجهات ، وحتى في الجبل البربري .

كانت هذه العقارات على اختلاف أنواعها ، مقسمة عامة إلى أقصى حد ، بسبب العدد الكثير من التركات التي بقيت على الشياع . وهذه العادة التي اتُّخذت في الأصل لصيانة حقوق القاصرين ، أصبحت راسخة جداً في الإسلام كله ، وغالباً ما كانت تقرُّها مؤسسة الأحباس الخاصة وتمنع نقل ملكية العقار المعالج بهذه الكيفية . وحتى بدون أحباس كان الشياع يبطىء كثيراً المعاملات العقارية ويتحول الى وزن ثقيل يسحب بمشقة(6) .

كانت العقارات الحضرية ذات دخل حسن ، لأن المساحات المبنية تكاد لا تكفي لحاجيات المدينة ؛ وقلما كانت المحلات السكنية أو المحلات التجارية والصناعية تبقى شاغرة ، فكانت تكتري بثمن مناسب .

وكانت البساتين أقل إنتاجاً مما كان يتصور ، نظراً لغزارة الماء ، لأن جل المالكين الفاسيين كانوا يريدون أن يكسبوا أشجاراً يتركونها تنمو دون

---

(6) إليكم ما كتبه ميشو- بلّير في هذا الصدد (وصف فاس ، ص.288) :

« إن أولاد الحاج الطاهر يستغلون بانفسهم الفندق الذي بقي على الشياع بينهم مثل تركتهم كلها ؛ وهذه حالة كثيراً ما تعترض بفاس ، تارة لتلافي تشتيت العقارات الأبوية ، خاصة إذا كان أحد الورثة قليل الغنى ليشتري من جديد أسهم الآخرين فيكون لا بد من البيع للأجانب ، وتارة لأن كل الأملاك أو بعضها قد أوقفها الهالك ، لمنع بيعها والاحتفاظ بعقارات الأسرة سالمة .

وتوجد هذه العقارات في ملك عدد من الورثة يتزايدون في كل جيل ، بحيث ينتهي بهم الأمر إلى أن كل واحد منهم لا يَسْتَسلِمُ سوى حصة لا يعتدّ بها . وإن تقسيم الكراءات ، وقد عقّده وجود ورثة في مختلف الدرجات يستحق كل واحد منهم أسهما متفاوتة القيمة ، يفضي إلى مناقشات غالباً ما تنتهي إلى معارك حقيقية ، وإلى دعاوي لا تنتهي هي الأخرى أبداً . يمثل الإرث كله بمثقال واحد ، ويتم تقسيم هذا الإرث حسب تجزآت المثقال الذي يساوي 10 أوقيات ، وكل أوقية 4 موزونات ، وكل موزونة 6 فلوس ، أي 240 فلوس للمثقال الواحد ، الأمر الذي يمكّن من تقسيم إرث الى 240 سهماً وإعطاء كل واحد ما يستحقه تبعاً لتجزآت المثقال . يذهب كل مساء جميع ورثة الحاج الطاهر بناني أو ممثلوهم إلى الفندق الذي يملكونه والذي يحرسه « چلاّس » يقبض واجبات الفندق . تقتطع أجرة هذا الحارس من المبلغ الإجمالي ويقسم الباقي على جميع الورثة . وبالنسبة للكراءات الشهرية ، فإن المداخيل تقسم كل شهر » .

تشذيب ، فتخنق النباتات الواقعة تحتها ، إذ كانت في الغالب بساتين للتنزه أكثر منها للدخل . وفي الأماكن التي يحدد فيها عدد الأشجار الكبيرة والصغيرة كانت البقول أو غيرها من النباتات كالكتان والقنب(7) والبطيخ والقرع(8) تنمو بغزارة . وكان المدنيون يسهرون بأنفسهم على استغلال هذه البساتين ، مستعملين اليد العاملة الريفية لجماعة البستانيين (جناينية)(9) .

وبخصوص الأراضي الزراعية البعيدة عن المدينة ، كان أهل فاس يتعاملون مع مزارعين بالخمس (خمّاس ، ج . خمّاسة) وغالباً ما كانت تنشب بينهم خلافات . كما أنهم كانوا أحياناً يعملون بالمشاركة الفلاحية مع فلاحين أثرياء من الناحية . ولم يكن لبعض سكان فاس ، خاصة في أحياء العدوة ، انشغال آخر غير تدبير ممتلكاتهم التي كانوا يقضون فيها قسطاً كبيراً من وقتهم ، مهتمين بالنفع الذي يكسبونه من ملكهم أكثر من اهتمامهم بالتقنية الفلاحية ، مثلهم في ذلك مثل جميع سكان المدن في العالم . لم يكن أحد منهم يقطن قط في أراضيه ، فلا يزيدون على الإقامة بها بضعة أيام في الربيع مع أفراد عائلتهم إذا كانت القبائل هادئة ، أو الذهاب إليها مدة يومين أو ثلاثة أيام لحاجة ماسة . كانوا يكرهون السكنى خارج فاس ولا يعملون مع ذلك شيئاً ليكون مقامهم أكثر راحة : فبقدر ما كانوا يحبون المنازل الفسيحة الكثيرة الترفيه بفاس ، بقدر ما كانوا يقتصرون في المباني التي يشيدونها في ممتلكاتهم على أبسط ما يمكن(10) .

---

(7) روني - لوكلير ، **المغرب الشمالي** - ص . 159 ؛ وميشو - بلّير ، **إصلاح إدريسي**، ص. 407.

(8) مارتان ، **الكذّان** ، ص . 624.

(9) بحث رقم 161 ؛ وريكار ، رقم 11 . كان يفصل في النزاعات المتعلقة بالسقي نحو ستة خبراء فلاحين (شيوخ الفلاحة) ، وكان على رأسهم قائد يساعده تقني مكلف بتوزيع الماء (مول الواد) .

(10) لقد تغيرت هذه العقلية منذ الحماية ؛ فقد بنى العديد من أهل فاس دوراً عصرية خارج فاس ، لا في محطات صيفية فقط مثل صفرو ، وإيموزار كندر ، وإفران ، ولكن في وسط البادية ، في سايس ولمطة ، أو في نواحي واد إنّاون ، وواد اللبن ، شرقي المدينة .

كانت التوظيفات العقارية تعتبر محقّقة وذات دخل منتظم ، لكنها لم تكن تعطي أرباحاً ضخمة في فترة الاستقرار الكبير للعقار ، كما لم تكن قابلة للمضاربة . ولهذا فإن الفاسيين الأغنياء ، الذين كانوا بطبيعتهم مغامرين ، لم يكونوا يستثمرون كافة رؤوس أموالهم في العقارات . لم تجتذبهم الصناعة التي - كما قلنا -[11] تغذي صاحبها ولا تغنيه ، ولم يزد بعضهم على توظيف قسط من المال في معصرة أو معمل صابون : أما باقي الصناعات فكانت تترك تقريباً للصناع .

بقيت إذن التجارة بجميع أشكالها : تصدير ، ولا سيما استيراد شتى المواد بدون أي اختصاص ، والشركة مع أصحاب دكاكين أو تجار ما زالت ثروتهم قليلة ، والمضاربة ذات الطابع المحلي حول المواد الغذائية والمواد الأولية الصناعية الغير المنتظمة الوصول كمواد الدباغة ، وعمليات الصرف ، وتجارة الفضة أخيراً رغم التعليمات القرآنية التي كانوا يعملون على اتباعها حرفياً[12] .

كانت هذه العمليات تحتفظ بطابع شخصي متميز جداً ، لأن فاسا لم تعرف نظام الشركات المجهولة الاسم ؛ والمشاريع الكبرى المشتركة والاحتكارات كان الرأسماليون يتصرفون فيها بنظام مشتت ، يعمل كل واحد لصالحه ، دون تشكيل تلك المحالفات الظاهرة أو الخفية التي تميز العالم الغربي للتجارة . كانت الجمعيات التجارية موجودة حقاً ، لكنها مقتصرة على اثنين أو ثلاثة من الأقارب أو الأصدقاء ، أو مبرمة بين فاسيين مهاجرين وفاسيين مستقرين بفاس ، كانت تلعب دوراً ثانوياً لا أساسياً ، في اقتصاد المدينة .

إن وجود أسر غنية جداً بفاس أمرٌ لا جدال فيه ؛ ومن الصعب وضع قائمة لها مع انعدام بيانات واضحة في إمكان المصلحة الطبوغرافيا وسجلات

---

(11) أنظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 3 ص.359.

(12) أنظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 6 ص. 448 وما بعدها .

الضرائب أن تعطيها في بلدان أخرى ؛ ويستحيل تماماً ، لنفس الأسباب ، الإدلاء بأرقام لا يمكن أن تزود بنقط مفيدة للمقارنة مع أوروبا ، من جراء التنوع البالغ لطرق المعيشة . إلا أنه مع ذلك يمكن التوضيح بعدم وجود تلك الثروات العملاقة الخيالية ، مثل التي تنسب إلى بعض الأمراء الهنود،وإنّما توجد ثروات عديدة (يستحيل تحديدها بالضبط) مماثلة جداً لثروات البرجوازية الفرنسية العليا لنفس الفترة ، من حيث التسهيلات المعاشية التي نقدمها . تأتي بعد ذلك عدة أسر تملك دوراً بالمدينة وخداماً كثيرين ، وتعيش في رخاء ، تنتمي كلها إلى ما يمكن أن نسميه بالبرجوازية ؛ لكن برجوازية فاس كانت أوسع من ذلك ، متضمنة أيضاً المثقفين ، ولم يكونوا كلهم أغنياء ، وكتاب المخزن أو الأحباس ، وصناعاً مثرين أو مصاهرين لأفضل أسر المدينة .

والحاصل أن الطبقية الاجتماعية لم ترتكز فحسب وبشدة على الغني ، وإنما كانت روابط الأسرة ، والثقافة ، والوظيفة الاجتماعية يُحسب لها حسابها أيضاً ، لا بقدر الصفة الدينية مع ذلك .

الشرفــاء : ـ وفعلاً كان أحفاد الرسول (شريف، ج. شرفاء) يتمتعون على العموم بتقدير كبير جداً . ويجب هنا أيضاً أن نأخذ بعين الاعتبار عدة فوارق دقيقة . حقاً إن الشريف كان في حد ذاته موضوع إجلال ، لكن منهم الغني والفقير ، وينتمي بعضهم إلى أُسر أكثر شهرة من غيرها ، وبالتالي فإن بعضهم لا محالة قد يسترعون الانتباه بفضل شخصيتهم القوية ، ويتمتعون جميعاً بحُظوة إلهية خاصة ، وبنوع من التأثير خاص بهم وحدهم ، يورث أباً عن جد ، يسمى بالبركة ؛ ويمكن لهذه البركة أن تنعكس على كل من يقترب من الشخص المنتفع بها بنشر جو مساعد حولها يجعل الحياة الدنيوية أسهل ويذلل طريق السلامة ؛ ومن هناك النفوذ الأكيد الذي يتمتع به الشرفاء بفاس ،

---

(13) انظر ليڤي - بروڤنصال مادة شرفاء ، في دائرة المعارف الإسلامية ،جزء 4 ، ص . 401 ؛ وفان أراندوك، مادة شريف ، نفس المرجع ، ص. 336-349.

وكذلك في المغرب كله .

كان للشرفاء ، علاوة على هذا النفوذ المعنوي ، مزية حكم خصوصي يجعل منهم أشخاصاً على حدة شيئاً مّا في المجتمع المغربي .

كانوا موزعين إلى عدة مجموعات حسب أصلهم ، وتتميز قبل كل شيء من بينهم طبقتان كبيرتان : أعقاب الحسن من سلالة مولاي إدريس ، وأعقاب الحسين . ينقسم الأولون إلى أسر عديدة : الأدارسة بمعنى الكلمة ، أي الدباغيون ، والعلميون ، والكتانيون ، والوزانيون ، والعلويون[14] . وينقسم أعقاب الحسين وهم أقل عدداً ، إلى فرعين اثنين : الصقليون ، ويسمون هكذا لأنهم جاؤوا من صقلية بعد أن أقاموا بالأندلس[15] ، والعراقيون ، وأصلهم من بلاد ما بين النهرين .

كان على رأس كل من هذين المجموعتين رئيس أو ممثل يسمى المزوار[16]، يعينه نظراؤه ويوافق عليه المخزن، كان صلة وصل بين الشرفاء والسلطات ، خاصة فيما يتعلق بتسليم وتوزيع الهدايا الممنوحة لهم من طرف المخزن ، أو بالأملاك التي كان يخصص لهم ريعها . وفعلاً ، فإن العادة اقتضت أن تساعد الأمة الإسلامية هؤلاء الأشخاص الصالحين على أن يعيشوا عيشة راضية ؛ لذلك كان السلطان يقدم هدايا ، على الأقل للأدارسة ، بمناسبة الأعياد الكبرى ، ويمنح حتى معاشاتٍ لبعضهم . ومن جهة أخرى

(14) أنظر عن الشرفاء الأدارسة ، الذين ينفرعون بدورهم إلى طاهريين ، وعمرابيين إلخ . سالمون ، الشرفاء الأدارسة وابن الطيب القادري ، الدر السني في بعض من بفاس من أهل النسب الحسني . وانظر عن الشرفاء الفيلاليين ، سالمون ، الشرفاء الفيلاليون .

(15) سالمون ، الشرفاء الفيلاليون ، ص.115.

(16) كلمة من أصل بربري ، أنظر عنها ليفي - بروفنصال مادة مزوار ، في دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 3 ص. 616 . كان رئيس الشرفاء الفيلاليين أي العلويين ، يحمل لقب نقيب . وكان على رأس الشرفاء الأدارسة مقدم ليس شريفاً ، وكان الشرفاء الأجانب (وهم جزائريون بخاصة) تحت سلطة شريف اسمه بكراوي ، أصله من فيجيج (أوبان ، المرجع المذكور ، ص 333) .

كانت تخصص لهم مداخيل بعض الأملاك الدينية ، ويتفق أحياناً أن يخصص السلطان لهذه المجموعة أو تلك فتوحات هذا الضريح أو ذاك عندما يصبح لا وارث له . وهكذا فإن الهدايا المقدمة لسيدي أحمد الشاوي التي كانت تعد من أغزر الهدايا بفاس ، كانت تخصص للشرفاء القادريين[17] .

وكان الشرفاء المرموقون أكثر من بين جميع شرفاء فاس هم الشرفاء الأدارسة ؛ إليهم كانت تؤول الهبات نقداً والفتوحات عيناً (شموع وأضحيات) التي كان أهل فاس أو أهل البادية يحملونها بكثرة إلى ضريح ولي المدينة الصالح . كان يدبر هذه الأموال ويوزعها رئيس المجموعة الإدريسية الذي كان يختار ، وهذا شيء غريب ، بالتناوب من بين أسرتين أندلسيتي الأصل ، لكن بدون رابطة شرف ، هما أولاد الرامي[18] وأولاد أكومي . وكان للمقدم الرسمي دائماً مساعد شبه رسمي ، من الأسرة الأخرى[19] .

ومهما كان الفرع الذي ينتمي إليه الشرفاء ، فإنهم كانوا معفين من كل ضريبة ، وحتى من واجبات السوق ، وهي مزية كانوا يحرصون عليها كثيراً ؛ كما كانوا يتمتعون بحرية كبيرة ، غير أن العادة كانت تحرمهم من معظم الوظائف العمومية ، ما عدا وظائف العدول وكتاب المخزن . وكان السلطان يلجأ أحياناً إلى المساعي الحميدة لهذا الشريف أو ذاك في المفاوضات الصعبة ، لأن النفوذ الديني المنوط بشخصهم كان يساعدهم في الغالب على النجاح حيث قد يخيب أي شخص آخر . كما أنهم كانوا يتدخلون في المعاملات بين الخواص ، يتوسطون لتهدئة الخلافات ، أو للمساعدة على عقد الزواج ، وذلك على جميع مستويات السلم الاجتماعي . نرى إذن

---

(17) أوبان ، المرجع المذكور .

(18) كان مقدم مولاي إدريس ، في أوائل القرن التاسع عشر ، هو الحاج إدريس الرامي (علي باي ، المرجع المذكور ، جزء 1 ،ص. 183 وما بعدها) . ولقد تعرفت أيضاً على مقدم يسمى الرامي ، عوضه ابنه ، وهو من قدماء ثانوية مولاي إدريس ، عند موته .

(19) نفس المرجع ، ص. 175-176 ، . إن أولاد أكومي يحتفظون دائماً بمفاتيح الضريح ، ويسكن أحدهم حجرة صغيرة قرب الضريح الذين يفتح بابه لزوار الليل ، في مقابل جائزة .

أنهم ، بحكم نسبهم الخاص ، كانوا يقومون بدور محكّمين ومصالحين ، ويؤثرون لا في المدينة فحسب ، ولكن أيضاً في البادية المجاورة كلها ، تأثيراً عميقاً جداً .

العلمـــاء : ـ كانت الشخصيات الدينية ، أي فقهاء جامعة القرويين ، يلعبون دوراً مماثلاً ويتمتعون بنفوذ من نفس الدرجة . لاشك أنهم لم تكن لهم البركة بمعنى الكلمة ، ولكنهم كانوا يملكون العلم الذي يخول هو الآخر نعماً خاصة . إن اكتساب العلم ، (بالمعنى الإسلامي للكلمة) لم يراع من الزاوية الإنسانية المحضة ، والتربوية المحضة ، بل كان يكتسي أيضاً مظهراً تلقينياً « إن العلم ـ كما يقال عادة بفاس ـ يؤخذ من فم الرجال لا من أوراق الكتب ».وكما أن التدريب على قواعد طائفة دينة لم يكن ممكناً إلا بواسطة أصحاب سلسلة صوفية ثابتة القواعد ، فكذلك لم يكن التدريب على المواد الإسلامية يخوله إلا علماء معترف بهم شرعاً كورثة لسنة صحيحة . ومن الملاحظ نموذجياً أن المترجمين المغاربة لا يفوتهم أبداً ، عندما يتعرضون لحياة عالم ، أن يذكروا أسماء شيوخه ، ذلك أنه لا يكاد يُتصور وجود متعلم بنفسه ، ولا وجود له تقريباً مع مفهوم العلم كهذا .

لم يكن نفوذ العلماء مقتصراً على دائرة الطلبة والمثقفين ، بل كانت المدينة كلها ، من الحمال إلى العامل وحتى السلطان نفسه ، تُكنُّ لهم احتراماً كبيراً . ألم يكونوا ممتزجين كل الامتزاج بحياة الحاضرة ، بواسطة الفتاوي التي كانوا يقدمونها ، وجميع المفاوضات العمومية أو الخصوصية التي كان يطلب منهم إيضاحات بشأنها ؟

فكان إذن كل من العلماء والشرفاء محكمين بحكم طابعهم الديني ، معدودين بصفتهم هذه من جملة أعيان المدينة ، مهما كانت وضعية ثروتهم .

المخزنيـــون : ـ لم يتمتع المخزنيون بنفس التأثير ، لكون سلطتهم زمنية محضة ؛ ولم يكونوا يعتبرون إلاَّ كممثلين لسلطة لا يتحملها الفاسيون في

الغالب . كان منهم نوعان بفاس : إما منتمون إلى أسر التجار والعلماء وكانت لهم من هذا الواقع مكانتهم المرموقة في نخبة الحاضرة ، بصرف النظر عن الوظيفة التي كانوا يزاولونها ؛ وإما مجرد موظفين وخدام المخزن ، وأحياناً عبيد قدامى ، أصلهم من فاس الجديد أو غرباء تماماً عن فاس : ولم يكن هؤلاء يتمكنون إلا نادراً من إحراز مكانة في المجتمع الفاسي . كانوا يقتبلونهم فيه عندما لم يكن بد من ذلك ، لكنهم لم يندمجوا فيه حقاً ، وكانوا يفضلون الدوران حول القصر ويعيشون في أغلب الأحيان بفاس الجديد .

لم يكن التجار والعلماء والشرفاء يشكلون طبقة اجتماعية متماسكة كل التماسك ، حيث إن الأصول الأسروية ، ودرجة الثقافة ، والموافقات والمفارقات التقليدية ، كانت تفرقهم وتجعلهم شيعاً تنعقد بينهم أو تنفسخ محالفات حسب الظروف . كان بعض الأدباء المعززين بتقاليد روحية وثقافية طويلة ، كآل الفاسي ، وابن سودة ، ينظرون بشيء من التسامح الساخر إلى كبار التجار الإسلاميين (من أصل إسرائيلي) دون أن يسلموا من حسدهم سراً على نجاحهم الدنيوي . ولا يمكن القول إن فاسا كانت تقاطع هؤلاء الذين اعتنقوا الإسلام منذ عهد قديم ، وبرهنوا بكيفية غير مشبوه فيها عن تشبثهم بالإسلام وساهموا في إشهار المدينة وتعميرها بتجار موسرين ، وعلماء مشهورين ، وموظفين ماهرين ؛ غير أنها كانت تضع بينهم وبين الفاسيين العريقين بعض الفوارق الطفيفة ، تكاد لا تلمس ، لكنها حقيقية فعلاً ولا يمكن أن يعفّي عليها الزمن . كان الفاسيون الحقيقيون يسمونهم البلديين ، ولم تقبل قط أية خطّابة أن تنظم لهم بعض الاحتفالات المخصصة للأرستوقراطية الفاسية[20] .

وأما الأسر الأندلسية ، فكانت محتفظة بالافتخار أنها وارثة لحضارة لامعة ، وبالشعور أنها ساهمت بكيفية واسعة في الإنماء المتناسق للمدينة ،

---

(20) انظر ما يأتي ، الكتاب 7 الفصل 3 ، ص.519.

لذلك كانت ميالة إلى اعتبار نفسها متفوقة على قوم جاؤوا من جميع جهات المغرب ليستقروا بفاس بعدها ، وينتفعوا بالرفاهية والتهذيب اللذين حملوهما إليها .

وبالرغم على أن هذه التنوعات ، وهذه المنافسات أو هذه الأصناف من الغيرة الكامنة لم يكن لها كبير عاقبة، إلاّ أنها كانت تضفي على الحياة الفاسية فوارق دقيقة غير متناهية من الألوان ، لا يدركها سوى الفاسيين القاطنين بالمدينة منذ عهد طويل .

طبقات السكان الأخرى : ـ كان أصحاب الدكاكين ، والصناع ، والموظفون الصغار يشكلون مجموعة متماسكة ، تحت النخبة التي رسمتُ خطوطها الرئيسية منذ قليل . ولما كانوا مقيمين بفاس منذ أجيال فإنهم يعتبرون أنفسهم مواطنين للمدينة ومشبعين بأفضل تقاليدها . وكان هذا السواد من الشعب المتمدن بعمق ، رغماً عن خمول حياته أو عدم ثباتها ، يشكل الاحتياطي الذي كانت النخبة الفاسية تنتظم فيه ثانية بدون انقطاع . وقد ساعدتهم أجيال الأجداد المستقرة بفاس على أن يكتسبوا شيئاً فشيئاً روح اللياقات المحلية ، بحيث إنهم كانوا على أتم الاستعداد ، بعون الله ، ليمثلوا بشرف في جملة المرموقين من الناس .

وكان يعيش تحتهم سكان لم يستقروا بعد كما يجب ، مؤلفون عامة من عناصر قروية ، ورعاع لم يهذبوا بعد كما يجب ، عنيفون أحياناً ، يترددون على الفنادق وأكواخ حي الفخارين ، والمنازل الحقيرة المعلقة عند قدم الأسوار . لم يتوصل الكثير منهم إلى التكيف مع الطبائع المعقدة لهذه الحاضرة الكبرى ، فيذهبون ليضلوا ثانية في قبيلتهم الأصلية ، بعدما عاشوا خاملين شهوراً أو أعواماً في الأحياء الدائرية . واكتسب بعضهم الآخر ، وهم أكثر ليونة ، شيئاً فشيئاً لياقات إخوانهم الجدد الحضريين ، دون أن يقطعوا مع ذلك كل صلة مع الخارج . لكن سرعان ما تمّحي هذه العلاقات ، فتستوعب الحاضرة ، وأوشك أن أقول : « تهضم » مادتها الجديدة ، فيختفي الحديث

العهد في المدينة ، تاركاً الأحياء القريبة من الأبواب إلى نازحين آخرين ؛ فكان الفيلاليون والجبليون يتحولون إلى فاسيين بتطور بطيء يُذكّر بتحولات بعض الأنواع الحية[21] .

وكانت الطبقية الاجتماعية ، بفاس الجديد ، مرتكزة على أسس مختلفة كثيراً ، لم تكن تعتبر فيها لا التجارة ولا العلم ، وحتى إجلال الشرفاء كان يخبو أمام الشريف الحاكم وأمام أسرته، وكان الصرح كله ينتظم سيراً مع المخزن ؛ والدرجة والوظيفة تحددان للأفراد والأسر مكانتهم . فكان أعيان فاس الجديد إذن هم القواد ، سواء كانت مهنتهم مدنية أو عسكرية ؛ كان بعضهم ، وهم من أصل قبائل الناحية ، يحكمون وحدات القوات المسلحة المقيمة حول فاس أو في المدينة المخزنية ؛ ويأتي بعضهم من جميع نواحي المغرب . وكان كثيرون منهم سمر البشرة لم يعرفوا وضعية الأحرار إلا منذ عهد قريب ، الأمر الذي لم يكن يلطّف من عجرفتهم وفظاظتهم البتة .

وكان يتعيش تحتهم جمهور خدام القصر ، وهم مختلفون جداً أصلاً ووضعية ، ثم العسكر الجائع الساذج الذي كان يشكل فائض سكان فاس الجديد .

كانت المدينة كلها موضوعة تحت الشعار المزدوج ، وهو الطاعة للعاهل وحاشيته ، والجهل البسيط المتأصل . فلا شيء يقارن مع الشخصية القوية للمدينة الفاسية القريبة بهذا القدر . هل هما مدينتان ؟ لا بل عالمان مختلفان ؛ فمن جهة مجتمع مدرج الألوان ، غني بالتقاليد ، متشعب إلى أقصى حد ، يشتبك فيه العلم ، والغنى ، والنشأة بطرق كثيرة لتشكل مجموعاً مليئاً بالحيوية ؛ ومن جهة أخرى ، حاضرة إدارية واضحة الطبقية جداً ، يرتكز الكل

---

(21) لقد رسم زميلي السابق وصديقي ف. بونجان بكيفية مشوقة ودقيقة جداً في نفس الوقت ، هذه الأوساط الفاسية الحديثة ، التي ما زالت بعد شبه قروية ، في روايته : **اعترافات إحدى بنات الليل** .

فيها على الإرادة أو نزوات صاحب الأمر والنهي ، وكانت العادة الوحيدة فيها هي الامتثال بدون مناقشة ، وحتى بدون تأمل ، والهدف الوحيد هو اكتساب مرضاة شخصيات أعلى درجة مؤقتاً ، ومن يدري ؟ ربما استرعاء انتباه السلطان نفسه أيضاً في يوم من الأيام .

* * *

العلاقات الاجتماعية : ـ كانت العلاقات بين مختلف الطبقات الاجتماعية للمدينة مطبوعة بطيبة القلب وبالبساطة ، فلا يمكن أن يشب بينها ـ حسب معرفتي على الأقل ـ أي أثر لمعارضة يتعذر إصلاحها ، ولا أية علامة للصراع الطبقي . لا أريد أن أقول إن الوئام كان سائداً دائماً وإن المشاجرات الداخلية كانت غير معروفة ، فالتاريخ يدل على العكس . لكن هذه الحزازات ، وهي وليدة معارضات زائلة ومتقلبة بين جموع لا بين طبقات ، كانت من نوع سياسي لا من نوع اجتماعي .

كان ذلك ناتجاً عن أسباب عدة . فالناس ، قبل كل شيء ، يعرف بعضهم بعضاً ، كما سبقت الإشارة إلى ذلك؛ ولا شيء أكثر في إذكاء المعارضات بين مجموعات اجتماعية من عدم معرفة بعضهم البعض . وسواء ساعدهم القدر أم لم يساعدهم ، فإنهم كانوا يلتقون جميعاً في المسجد ، أو الفرن ، أو السقاية ، بله وحتى في الحمام . كانت النساء يتجاورن من سطح إلى سطح ويساعدن بعضهن بعضاً ، ويلعب الأطفال جميعاً في الزقاق . لم تكن الخصومات منعدمة بالتأكيد ، ولكن لا بد من أن تكون هناك طبائع متنافرة ومواضيع خلاف طفيفة ما دام يوجد ناس يعيشون جنباً لجنب . لم تكن هذه المشاجرات تتجاوز المرحلة الفردية . وكانت أواصر الأسرة تزيد أكثر في تضامن الفاسيين العميق . لقد تعرفت على أحد أعضاء أسرة من التجار الراسخين تزوجت أخته بإسكاف معوز ، فلم تكن هي ولا زوجها يعاملان بعجرفة ، بل كانا يُقتبلان كما يجب أن يقتبل أحباء أقرباء .

وكانت الآداب الإسلامية تساعد على التناسق الجيد بين الطبقات الاجتماعية : ومن المعلوم أن هذه الآداب في مبدئها قائمة على المساواة العميقة . وكان العمل بفاس مطابقاً للمذهب : فكل ما كان يحصل لهؤلاء أو أولئك كان يعتبر كأثر للمشيئة الربانية : فالله يُعطي يوماً هذا ما قد يعطيه ذاك غداً ، ولا يجب الاستغراب ولا الاستنكار من ذلك ، لأن « الله أعلم » ولا بد للمخلوق أن ينحني أمام أوامره . ومن جهة أخرى ، ففي مقابل النعم التي يمنحها القدر للأغنياء والأقوياء كانت عليهم واجبات : أن يعملوا بحق الفقراء أي حق الله ، بمناسبة الأعياد الشرعية ، والأفراح العائلية، وذلك بإطعام المتسولين والطلبة . كانوا لا يتظاهرون بالاحتفاظ بكل شيء لأنفسهم وحرمان الغير .

لقد رأينا أن الرأسمالية الفاسية لم تكتس الشكل المطلق السلطة واللّافردي الذي اتخذته في مجتمعاتنا العصرية . لم يكن العمال يشعرون بأنهم مستغلون من طرف أقلية شرهة يكدّون لرفاهيتها المفرطة ؛ وقد كان الصناع حينما يستدعون إلى الأفراح العائلية عند الأغنياء الذين يعرفونهم يشاركونهم في رغدهم - إن صح التعبير - ، وكان يخصص في كل زفاف كبير يوم لصغار القوم ، وهكذا كان بذخ البعض يصبح شيئاً مّا بذخ الجميع .

وأخيراً ، كانت المدينة بأسرها ترتكز على هيكل قوي متين من تقاليد تنظّم ، منذ قرون ، الحياة المشتركة وتمتد إلى جميع الطبقات الاجتماعية : لم تكن هناك تقاليد الأغنياء وتقاليد الفقراء ، ولكن حقاً تقاليد فاس يعرفها الجميع ويجتهد في احترامها . وعندما أقول : الجميع ، أعني جميع الأسر المستقرة بفاس المعترف بها بالإجماع كأسر فاسية . كان الغرباء (البرّانيون) أي المياومون ، والفصليون ، وأولئك الذين يحاولون الاستقرار يعيشون شيئاً مّا على هامش سائر السكان ، بعادات خصوصية ومتغيرة حسب أصل الأشخاص . كان أولئك يشكلون ، إذا شئنا ، شبه بروريتاريا يجهلها أهل فاس ولا ينظرون إليها بدون ازدراء . إلاّ أنه لم تنشأ بين هؤلاء القوم أية روح

طبقية : وإذ كانوا قليلين جداً بالنسبة لمجموع الفاسيين ، فإنهم كانوا أيضاً مختلفين كثيراً بعضهم عن بعض حتى يشكلوا كتلة واحدة . ومن جهة أخرى ، كانوا يشكلون جمهوراً غير مستقر جداً : بعضهم يندمج شيئاً فشيئاً ضمن السكان الفاسيين ، وبعضهم يعودون إلى مسقط رأسهم . فكان هؤلاء السكان المتقلبون يتفككون ويتألفون ثانية باستمرار دون أن يستطيعوا أبداً أن يشكلوا مجموعة متماسكة .

2/7

الفصل الثاني

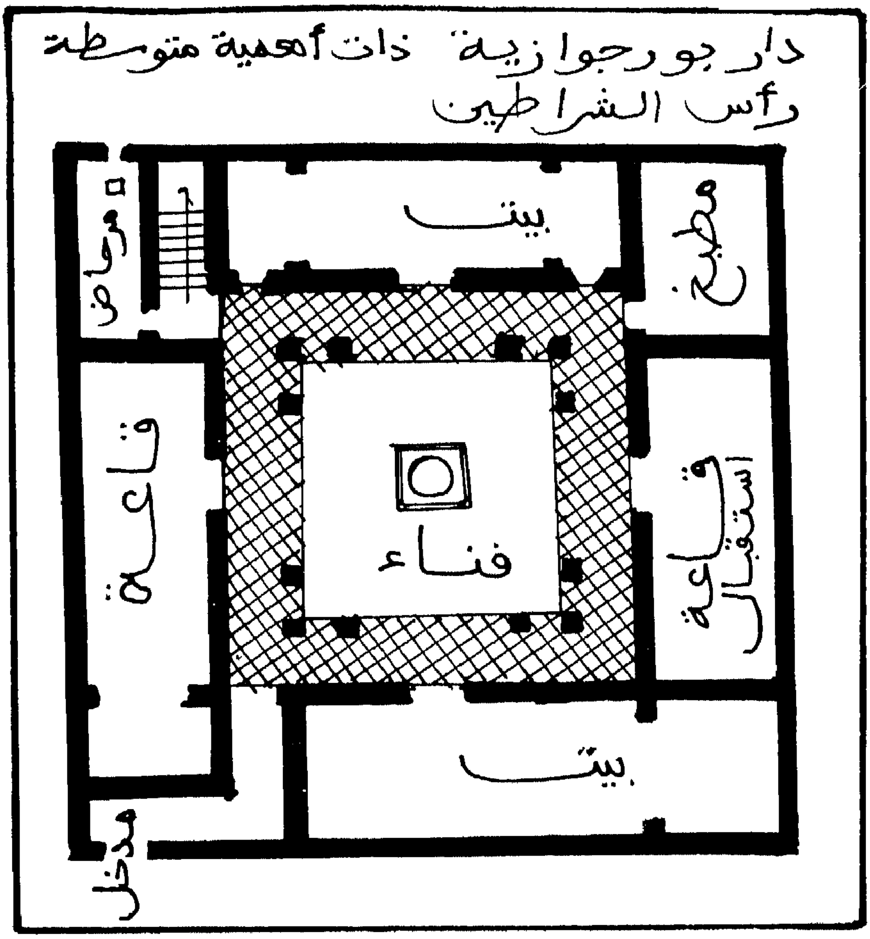
مشهد الحياة العائلية

الـــدار : ـ إن الدار الفاسية على نفس النموذج العام للدور الحضرية في إفريقيا الشمالية كلها : فهي مؤلفة من ثلاث أو أربع حجرات مستطيلة تحيط بصحن مركزي مربع ، مفتوح دائماً تقريباً للهواء الطلق ويجري فيه الماء في فسقيات وسقايات . وهذا التصميم العام قابل لتغيرات حسب ما تكون الدار مُعدة للفقراء أو الأغنياء ، واقعة في وسط المدينة أو في الدائرة ، أو بفاس الجديد .

وإذا اعتبرنا هذه البيانات ، أمكننا التمييز بين ثلاثة نماذج رئيسية لدور فاس ، وهي :

1 ـ دار بدون طابق علوي ، مؤلفة من ثلاث حجرات أو أربع رئيسية ، ومدخل وعدة خلوات تستعمل كمطبخ ومرحاض ، وغرفة المهملات ، حول صحن متفاوت الأبعاد . تلك هي الدار العادية بفاس الجديد وفي الأحياء الفقيرة لدائرة المدينة ؛ وتستعمل غالباً لإسكان أسر عديدة تحتل كل واحدة منها حجرة أو حجرتين .

2 ـ دار ذات طابق أو طابقين (زيادة على السفليّ) منسقة وفق نفس التصميم العام لسابقتها ، لكن غرف المهملات أكثر عدداً بسبب الطبقات ، ويظهر الصحن بها أضيق ، ولو كان فسيحاً بنفس القدر ، بسبب عمقه . ويسلّح



الرسم 32

تصميم طبقة أرضية لدار بالأحياء المركزيّة

(حسب رسم إعدادي لم . جان دولاروزيير)

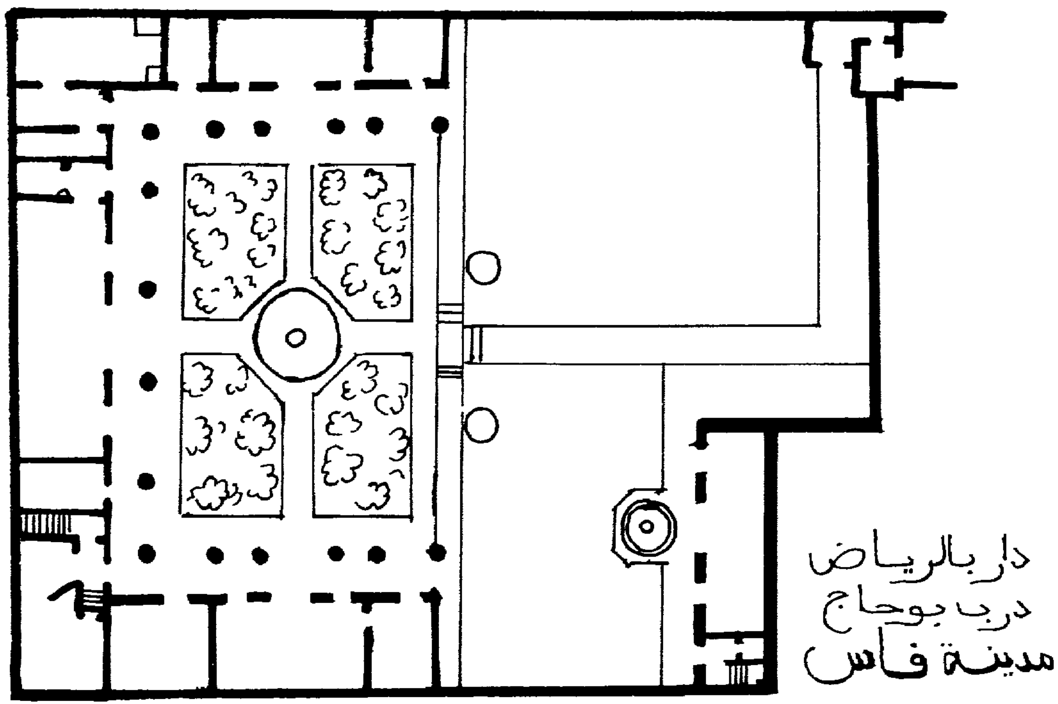
القسم ذو المربعات مغطى برواق الطبقة العلوية .

أحياناً من فوق بقضبان الحديد ليمكن من التظليل في الصيف بالأقمشة ويمنع كذلك اللصوص من التسرب عبر السطح . ويتم الاتصال بين حجرات الطوابق بواسطة شرفة داخلية تمتد على واجهات الصحن الأربع . ويكون الدرج دائماً ضيقاً ، منتصباً ، مستقيماً محتلاً أقل مكان ممكن . وهذا النوع من الدور هو الموجود في جميع الأحياء المركزية للمدينة حيث الفراغ قليل ، وثمن الأرض مرتفع جداً .

3 ـ دار غنية مؤلفة أحياناً من عدة صحون أو من صحن واحد فسيح جداً . وقد يحدث غالباً ، في الأحياء الدائرية ، أن يكون هذا الصحن مسدوداً من ثلاث جهات فقط. ويفضي بجهته الرابعة إلى حديقة مسوَّرة (رياض) . وإذا كانت الدار واقعة في منحدر إحدى ربى المدينة أشرف الطابق الأول على منظر شامل عجيب : قليل من المدينة في المستوى الأول ، ثم رُبى مرقطة بالخضرة ، ثم أفق من الجبال الثلجية . ومن المعلوم أن في جميع المنازل الغنية سقايات وأحواضاً ونافورات يضج ماؤها ، وقد تحتوي أيضاً على حمام خصوصي يغني النساء عن الخروج للاغتسال[1] .

وسواء كانت كل هذه المباني كبيرة أم صغيرة ، حقيرة أم غنية ، فإن الآجر والحجر والخشب والملاط والجير هي موادها الفقيرة . كانت الدور الفقيرة تكتفي بذلك وببعض مربعات الفخار الغير الملمع لتبليط الصحن والحجرات ؛ وكان الصحن في المنازل المتواضعة يبلط بمربعات صغيرة من الفسيفساء الملونة (زليج) وكذلك غرف السكنى . وكلما ازداد الرخاء ، كثر الزليج ، مثلما يكثرعشب‌اللبلاب في أرضية رطبة : يتسلق الأعمدة ، ويغطي الجدران إلى علو طفل ، ويزخرف السقايات بألوانه ورسومه اللامتناهية ،وتتوج نقوش على الجص أعلى الأعمدة وما فوق الأبواب . وكانت جوائز السقف

(1) انظر الرسم 32 و33 . إنني مدين بهاذين الرسمين لصديقي يوحنا دولاروزيير ، مفتش مصلحة التعمير لناحية فاس .



الرسم 33
دار بالرياض في أحد الأحياء الخارجية
(حسب رسم إعدادي لم . حان دولاروزيير)

مصبوغة بألوان ناضرة ، ويوضع الرخام بدل الزليج في الصحون وعتبات الحجرات ، والماء يجري في أحواض منحوتة بفن . وباختصار كان هيكل الآجر والجوائز يزدان بكثير من الزخارف فيشكل مظهراً ساحراً .

وكيفما كانت هذه الديار ، فقد كانت كلها مغطاة بسطوح ، تقضي فيها النساء جزءاً من وقتهن ؛ وكان لابد للوصول إليها من تسلق سلّم وعر غُطي منفذه بشبه محرس مبني بالآجر . وكانت هذه السطوح تزعج المالكين لأن إحكام سدها لا يصمد طويلاً تحت وابل مطر فاس الشديد ؛ لذلك كان لابد من طلائها بالجير مرتين في السنة ، مرة قبل أمطار الخريف ومرة قبل أمطار الربيع .

وكان لجميع ديار فاس مظهر عتيق متجهم إذا شوهدت من خارج : ذلك لأن العادة كانت تقتضي ألاَّ يُعاد أبداً طلاء الجدران المطلة على الزقاق ؛ فكانت لذلك تكتسي لوناً أرمد أسمر تزيده دكنة بيوت العنكبوت المنسوجة في زوايا الظل المثقلة بغبار عتيق ؛ ولا توجد نوافذ أيضاً في هذه الجدران المبقعة ، ولا حتى تلك الشبابيك التي تضفي على الأقل نغمة من التنوع على واجهة عارية ؛ وإنما توجد فرجات فقط ، تكاد تكون كوات رمي ، معدة لإعطاء شيء من النور إلى حجرة السلّم والتمكن من مراقبة الزقاق بكيفية خفية . وكان باب الدار المؤلف من مصراع واحد ثقيل مصفحاً بمسامير غليظة سوداء ، وسرعان ما كانت تقلبات الجو تعطيه مظهر شيء قديم كريه .

لم تكن الحجرات تستمد النور إلا من الصحن المركزي ؛ وبديهي أن الواقعة منها في السفلي ، في دار ضيقة الصحن ، كانت مظلمة جداً حتى في الصيف . وكانت كل حجرة يدخلها الضوء على العموم من باب واسع مفتوح في وسط الحاجز ، من جهة الصحن ، ونافدتين متناسقتين مع الباب . ولا رجاج لسد هذه الفتحات. فإذا أريد الاتقاء من البرد، كان لا بد من إغلاق مصراعي النوافذ ومصراعي الباب الثقيلين ، حيث فتح باب صغير إضافي يكفي فقط لمرور إنسان ، بمعنى أنه كان هناك اختيارٌ بين البرد والظلام . وإذا كانت

هذه الحجرات مستحبة في الصيف ، لكونها تعطي الظل والبرودة ، فإنها لم تكن معدة للشتاء ، لاسيما وأن أية مدخنة لم تكن تمكن من تسخينها[2].

وكانت هناك مرافق في عدة منازل موسرة ، منها الإسطبل لبغلة رب المنزل ، وحجرة ذات مدخل منعزل واقع على الزقاق (مصرية) حيث كان بالإمكان إيواء الضيوف أو استقبال الزوار دون أن يزعج ذلك الحياة العادية للدار .

الأثـــاث : ـ كان الأثاث ، كالمنزل ، هو نفس الأثاث للجميع في مبدئه ، بما فيه من فرش ووسادات ، وستائر الباب ، وصناديق ، ورفوف من خشب ومواقد صغيرة من طين مشوي للفحم ، وأدوات المطبخ (كالمراجل ، وأطباق منيعة للنار أم لا ، وأباريق ، ولوازم الشاي) ، وموائد مستديرة منخفضة لتناول الطعام . لا يوجد شيء أو يكاد مما نسميه بالأثاث : فإن الكراسي ، والمقاعد المريحة ، والمكاتب ، والخزانات ، والطاولات ، والمناضد الصغيرة كانت غير معروفة أو معروفة قليلاً جداً ، حتى عند الأغنياء .

كانت الأشياء المذكورة منذ قليل مختلفة كمية وجودة ، حسب حالة مالية مالكها . كان الموسرون يضيفون إليها زرابي رباطية حيناً ، وزرابي مستوردة في أغلب الأحيان ، ولا تكاد توجد زرابي بربرية إطلاقاً . كما كانوا يملكون أسِرَّة للزينة من نحاس أصفر مستوردة من أنجلترا ، توضع في طرفي قاعات الاستقبال ؛ وكانوا أخيراً مغرمين بالساعات الكبيرة أو الجدرانية لكن كأثاث للتزيين ، لا كآلات لحساب الزمن[3] .

(2) تشتمل بعض المنازل الغنية الحديثة البناء على التسخين المركزي ،لكن ذلك ما زال نادراً جداً. وإذا اشتد البرد كانوا يستعملون المجامر .

(3) أضيف منذ بضع سنوات إلى هذا الأثاث جهاز راديو بحجم كبير في الغالب ، كما يمكن مشاهدة خزانات مكتبات ومكاتب وأحياناً أثاث قاعة الأكل .

ولإصلاح الساعات الصغيرة والكبيرة كانوا يلجؤون إلى ساعتيّين (مواكْنية من كلمة ما كْانة =

قد يتخيل المرء أن هذه الحجرات بدون أثاث ، ولا صور ، ولا تحف ، كانت توحي بالتقشف ؛ كلا ، فإن النور الخفيف كان يُلطف صلابة الجدران البيضاء ، والزليج والزرابي التي تغطيه جزئياً ، تسلي العين بسرور ، لا سيما الفرش المنضدة إلى عمق الحجرة المرتفعة بثلاثين سنتيماً على الأقل ، المحشوة بالصوف المدكوك والمغطاة بأقمشة ظريفة مستوردة ، والمحمّلة بكثير من الوسائد المزخرفة بالطرز الفاسي الدقيق الملون . وغالباً ما كانت توجد أيضاً مرآة مؤطرة تقطع بياض الحيطان الشديد .

اللبـــاس : ـ لم يكن أي فاسي يغامر بنفسه ، قبل 1912 ، ليرتدي شيئاً آخر غير اللباس التقليدي ؛ كان بعضهم ممن سافروا يلبسون الزي الأوروبي إذا كانوا في مانتشيستر أو مرسيليا ، لكن لم يكن حتى يخطر ببالهم أن يرتدوا مثل هذ اللباس بفاس(4) .

إنني لأخص عندما أقول اللباس التقليدي ، لأن اللباس ، حسب أوصاف ليون الإفريقي ومارمول ، أحد الأشياء النادرة بفاس التي تغير شكلها كثيراً بين القرن السادس عشر والتاسع عشر. يصف لنا ليون الرجال «وهم يغطون رؤوسهم(*) بقلنسوة تشبه ما يضعه بعض الناس على رؤوسهم ليلاً في

ج مواكُن = ساعة صغيرة ، ساعة كبيرة، ريكار رقم 105؛ وماسيبيون رقم 62) وكانوا قليلي العدد محدودي الكفاءة ، لأنهم لم يذهبوا إلى أوروبا لدراسة آلية الأشياء التي يخدمونها

(4) لقد اتخذ اليوم كثير من المتطورين اللباس الأوروبي ، حتى في المدينة ، ولا يشكلون بعدُ سوى أقلية قليلة، وغالباً ما يرجعون إلى اللباس التقليدي في الاحتفالات العائلية أو الدينية، إذ هذا من باب اللياقة بالنسبة لهم وتجدر الإشارة ، مع ذلك إلى أن الذين يتخذون هذا الزي لا يتعدى سنهم الأربعين ، ولم يترك أي فاسي مُس لباس آبائه . وليس الأمر كذلك في الجزائر ، وتونس ، حيث تم التطور منذ عهد أطول . أما النساء فقليلات جداً هن اللوائي بدّلن زيهن ، وحتى المتطورات منهن . انظر عن اللباس بفاس قبل الحماية ، ليون الأفريقي ، ص 116-117 ؛ ومارمول ، جزء 2 ، ص 190-193 ؛ وروني لوكلير ، المقال المذكور ، ص 342 ، وتشارمز ، المرجع المذكور ص 175-179 ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ص 315-316 ؛ وفيير ، المرجع المذكور ، ص 214-216

(*) ليون الافريقي ، وصف إفريقيا ، الترجمة العربية المغربية ، الطبعة الثانية 1 :251-252.

إيطاليا (طاقيات النوم)، لكن بدون ما يغطي الأذنين، ويلفون حول القلنسوة عمامة من كتان تدور مرتين حول الرأس وتمر تحت الذقن . . . » وها هم الفاسيون إذن بعمامة الدقن على غرار بعض الصحراويين .

وإليكم ، حسب مارمول ، لباس النساء الكريمات النسب عندما كن يخرجن : « . . . إذا خرجن ، وخاصةً الأندلسيات الأصل ، لبسن سراويل طويلة متموجة جداً للتظرف ، لأن لباسهن لا يصل إلاّ إلى منتصف الساق . وينتعلن خفين بقدر أقدامهن تماماً ، مصنوعين من الجلد المغربي الناعم جداً والمطرز بالحرير الملون. . . »[5]. فنحن بعيدون من امرأة 1900، التي تغطي رأسها بحايكها ، الملتفة في فستانات مسدلة حتى الكعبين ، المنتعلة نعلين أسودين . كان الزي النسوي بفاس ، في عهد مارمول ، ويقول ذلك بصراحة[6] ، هو زي موريسكيات غرناطة ؛ لكن رد الفعل الديني في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر أتى على ذلك وأرغم النساء على حشمة أكثر .

ومن جهة أخرى ، فإن اللباس ، سواء كان مختصاً بالرجال أم بالنساء ، قد تحمّل عواقب تضخم الاستيرادات الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر : فقد انتشر كثيراً استعمال الطربوش المصنوع بأوروبا ، على حساب الشاشية التقليدية المصنوعة محلياً . كما أن الأقمشة المستوردة أزاحت بشدة المنسوجات الأهلية ؛ وبدلاً من أن تكون مخصصة لكبار الأغنياء ، كما كانت عليها الحالة في القرن السادس عشر[7]، فقد تمكنت الطبقة المتوسطة من شرائها .

ورغماً على هذه التغيرات الهامة لأنها كانت تبدل شبح الأشخاص ، فإن الاقتصاد العام للبذلة بقي هو ذاته ، اقتصاد اللباس في جميع البلدان العربية ،

---

(5) جزء 2 ، ص 192

(6) نفس المرجع ، ص 193

(7) ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 100 .

أي: قميص (تشامير)، وسروال، وحذاء (بلغة، ج. بلاغي)[8] كان يلبسها الجميع، رجالاً ونساءً، صيفاً وشتاءً. وكان هؤلاء وأولئك يضعون فوق ذلك ألبسة مختلفة حسب الجنس والفصل.

كان الرجال يرتدون مجموعة مؤلفة من صدريةٍ مسدودة مطرزة، وسروالاً من الجوخ، وسترة قصيرة مفتوحة مطرزة ذات كمين مفتوحين إلى المرفقين. كان الكل من نفس اللون ويسمى جبادور ملطم[9]. وكانوا يلبسون فوقه غندورة رقيقة، بكمين أو بدونهما، وهي أشكال متعددة[10]. وكان بالإمكان شدها في الخصر بحزام يحمل أسماء مختلفة حسب نوعه[11]: كان هذا لباس المنزل، يضيفون إليه في الشتاء رداءً مسدولاً حتى القدمين (قفطان). وكان الرجال عندما يستعدون للخروج، يلبسون جلباباً واسع الكمين فيه غطاء للرأس، يتغير لونه حسب الذوق العام (موضا)، ومعطفاً واسعاً من صوف داكن اللون في غالبِ الأحيان (سلهام)، أو معطفاً أبيض من صوف وحرير أو من صوف وقطن (كساء). وعلى الرأس عمامةً بيضاء (رزة) أو عمامةً من حرير مطرز (شان أو شراشاكر)[12]، أو قلنسوة لينة ملفوف عليها عمامة (شاشية)[13]، أو في الأخير قلنسوة صلبة مخروطية

(8) كان لابد للنساء، إذا أردن المشي في الزقاق، أن ينتعلن نعلين أسودين مربعي الأطراف (ريحية)؛ وكن يرتدين، بمناسبة الأعياد والاحتفالات، أحذية مزخرفة بشرابات فوق الرّجل (شربيل، ج. شرابيل)؛ وفي الدار كن يستعملن أحذية مماثلة لأحذية الرجال.

(9) لم يكونوا يرتدون السترة في الصيف، ويلبسون فقط صدرية خفيفة تسمى (بدعية).

(10) كانت الغندورة الكثيرة الاستعمال، واسعة إلى حد، ذات كمين طويلين تحمل اسم دراعية؛ وكانت غندورة المثقفين مصنوعة من قطن رفيع، تسمى فرجية. وأخيراً كانت هناك غندورة ذات كمين قصيرين جداً يلبسها خاصة الحلاقون وتسمى من أجل هذا حجامية.

(11) كان الحزام المصنوع من الجلد المطرز يسمى (مضمّة)؛ والحزام من الجلد البسيط (سَمْطة)، والحزام من الصوف (كُرْزِيّة).

(12) كان غطاء الرأس هذا يشتريه الحُجاج من الشرق؛ ويدلّ مجرد اسمه على أنه لم يكن من أصل مغربي.

(13) كان المستخدمون التابعون للمخزن يلبسون قلنسوة مستدقة الرأس بدون عمامة.

الشكل ، مستوردة من أوروبا (طربوش) .

كان النساء يلبسن في الشتاء ، فضلاً عن ملابسهن التحتية ، رداءً من جوخ (قفطان) مسدولاً حتى الكعبين ومزرراً من أمام ؛ وفي الصيف رداءً من نفس التفصيل، لكن بلا كمين (بدعية) ؛ وفوق الرداء شبه قميص شفاف[14] ، يتراءى من خلاله ملطفاً لون الرداء . ويُشد في الخصر بحزام من جلد مطرز (مضمة) أو من حرير مطرز بخيط ذهبي ذي أهداب ثقيلة (حزام) . وكانت جدائل متقاطعة في الظهر (تخمال) تمنع كمي القفطان من عرقلة الحركات ؛ وفي الرجلين ، وعلى الأقل في الفصل البارد ، جوربان من قماش قطني (رجلات أو رجلين السروال) ؛ وعلى الرأس زينة معقدة ، لكنها أنيقة جداً (حنطوز)[15] خصص لها كابريال تشارمز الوصف الآتي : « هي شبه تاج أسقف موسع في الجانبين ينتهي إلى أعلى في خطٍ منحنٍ أنيق جداً ، يسمى حنطوز . وإليكم الأشياء الكثيرة والمتنوعة التي يتألف منها . يوضع على الشعر الممشوط المضفور بشكلات سبطة خمار من التول الأسود المنتهي في الطرفين بأشرطة ذهبية عريضة ، هي (الشربية) . ويوضع على (الشربية) التاج المصنوع من حرير أحمر مبطن ينتصب في طرفيه خماران مثلثان مبطنان كذلك عاليان بقدرٍ كافٍ : ذلك هو (الحنـظور) بمعنى الكلمة . ويشدّ بخيط مطاط يمر تحت جديلة شعر مؤخر الرأس ؛ وتبسط على (الحنطوز) عصابتان مطرزتان بالذهب ، تسميان (حفيظات) ؛ وأخيراً ، ينظم على (الحفيظات) بفنٍ منديلان من حرير منسوج بالذهب يسميان (سبنيات) ، يغطّيان الحنطوز تماماً ويتدليان على الظهر بثنيات خفيفة . وتضاف كذلك أحيانـاً لآلئ وجواهر . وإذا ما غير وضع (السبنيات) ولونها وقع التوصل إلى تنسيقات

---

(14) كان القميص الأبيض يسمى (فرجية) ، والقميص المطبوعة فيه الرسوم أو المطرزة في قماشه (منصورية) أو (دفينة) .

(15) لقد ذهبت كلياً هذه الزينة، حتى عند النساء المسنات ؛ فلم تعد النساء يلبسن الآن إلا مناديل ملونة ذات منظر ألطف ، وغالباً ما يكُنّ مكشوفات الرأس وشعرهن مضفور بعصابات مبسوطة . كانت المناديل تسمى (سبنيات الميزان) ، لأنها كانت تُباع بالوزن .

متنوعة جداً. وبأية كيفية وضعت (السبنيات) إذا انتهى تزيين الرأس، يرفع جانباً الشربية ، حتى تسدل هذه اللفائف الذهبية مباشرةً على الكتفين .

« ويوضع أحياناً إكليل على الحنطوز ، ولكن ذلك خطأ في الذوق لا تسمح به لأنفسهن سوى النساء الطائشات أو اللواتي يردن عرض ثرواتهن . . . وتضع (الحنطوز) النساء المتزوجات فقط . أما الفتيات فإنهن يعقدن فقط منديلاً في مؤخر الرأس أو شبه عصابة على الجبين »[16] .

وإذا أرادت النساء الكريمات النسب الخروج تلثّمن لزوماً بلثامٍ أبيض غليظ يترك العينين مكشوفتين ، ويلتحفن بقطعة طويلة من قماش أبيض (حايك) يحجب أشكالهن تماماً[17] .

ولا بد من أن نضيف أن نساء فاس كن يتخضبن كثيراً : الكحل للعينين ، والحمرة للخدين مع المسحوق والنقط السوداء ؛ ولم يكن ينقصهن سوى مراهم التجميل التي بدأت الآن تظهر إلى الوجود. كما أنهن كثيراً ما كن يخضبن اليدين والرجلين بالحناء ، إما بلون موحد ، وإما برسوم كن يلجأن في تسطيرها إلى نساء محترفات (معلمات حنايات)[18] .

وكان الحلي من الذهب والفضة المرصع غالباً بالجواهر الملونة ، موضوع افتخار كبير ، كحلي الجبين ، والأكاليل ، وأقراط الأذن ، والقلادات ، والأساور وحتى الخلاخل . وكان الحلي يُعار عن طيب خاطر بين الصديقات بمناسة الاحتفالات[19] .

---

(16) كانت تدعى هذه العصابة المنسوجة بالحرير والخيط الذهبي (أوقاية) .

(17) يميل الحايك اليوم أكثر فأكثر إلى التنازل للجلابة ، وهي معطف خفيف ذو كمين مع غطاء الرأس يسمح بالتحرك أكثر .

(18) ميشو- بلّير ، قصور ، ص. 649 ، هامش 1 .

(19) فيير ، المرجع المذكور . انظر في هذا الصدد مجموعة الحلي القديمة بمتحف البطحاء بفاس .

كانت هذه الملابس والزينات تخضع طبعاً (للموضا) ؛ فلم يكن يتغير تفصيل الملابس ، وظل ثابتاً إنه لم يخطر ببال الخياطين الفاسيين أن يدخلوا عليه أدنى تعديل. إنما الذي كان يتغير ، بالنسبة للرجال والنساء معاً ، هو اللون وجودة الأقمشة المستوردة : فكان الأنيقون والأنيقات بفاس يولونهما اهتماماً بالغاً. وأظن أن باعثي (الموضا) كانوا هم المستوردين الرئيسيين للمنسوجات ، وذلك لأسباب يسهل إدراكها ؛ وحيث إنهم كانوا يعدون من جملة النخبة الفاسية ، لم يكن يتعذر عليهم « ترويج » لون أو قماش جديد[20] .

(20) إن الحماية لم تكن إلا لتزيد في تنمية ظاهرة (الموضا) : فقد ظهرت شيئاً فشيئاً إلى الوجود ربطاتُ العنق ، والأحذية الأوروبية ، والجوارب الطويلة ، وملابس النساء الداخلية ، وسرعان ما أصبحت موضوعات (الموضا) . وحتى الحوادث السياسية لها تأثيرها أحياناً في هذا المجال ؛ فقد رجع عدة شبان أنيقين إلى الجلابة والعمامة ، على إثر مسألة الظهير البربري مباشرة ؛ وبعد ذلك حوالي 1932 ، انتشرت القلنسوة العراقية بكثرة عند الوطنيين الشباب . وقد أعطى بائعو القماش ، على غرار زملائهم الأوروبيين ، للمنسوجات الخاضعة (للموضا) أسماء جذابة ولكنها ليست دائماً ذات ذوق جيد . وإليكم لائحة وضعها العقيد سالانيي (محاضرة غير منشورة حول فاس) لسنة 1942 : « الشالات : خصلة السيدة ـ قبعة الماريشال بيطان ـ شفاء جلالة الملك ـ الطيور في السما والشاقور في رأس الحما ـ وعجز الرامي ـ ورجلا الزوج المخدوع في الدرج .
الموصليات : الثلج فوق الجبل ـ الْبَسْنِي وانْسَني ـ بعيد عني ـ دعابة ـ سقيتك أيها الحمام الظريف » .

الفصل الثالث

3/7

الــــزواج

إن الأسرة بفاس هي العنصر الأساسي للحياة الاجتماعية ، شأنها في ذلك شأن إفريقيا الشمالية كلها والعالم العربي أجمع . ليس للفرد المنعزل سوى أهمية ثانوية ، لا يقوم بدوره الاجتماعي إلا بصفته عقباً لسلالة ما ، كما أنه لا يعدّ في البادية إلا كعضو من قبيلة أو فخذ منها ، وفي الحياة الاقتصادية ينخرط في طائفةٍ حرفية أو في سوق .

فينبغي إذن قبل كل شيء دراسة سلوك الأسرة بفاس ، ابتداءً بالعقد الذي يشكلها ويؤبّدها ، ألا وهو الزواج[1] .

من الواجبات الاجتماعية المفروضة على المغاربة تأسيس أسرة : لذلك نجد في المغرب العربي عدد العازبين أو العانسات قليلاً جداً ؛ ولا تستثنى فاس من هذه الظاهرة . سوف لا أدرس هنا الأحكام القضائية للفقه الإسلامي التي يخضع لها عقد الزواج ، ولكنني سأتحدث فقط عن الاحتفالات المعقدة الدقيقة الذي تنظم الاحتفاء بالزواج[2] .

---

(1) انظر عن الزواج بفاس ، ليون الإفريقي ، الكتاب 2 ، ص. 120 -125 ؛ وڤيستيرمارك ، حفلات الزواج ، هنا وهناك ؛ وج.ج. طارو ، فاس ، ص. 130 -185 ؛ وأوبين ، المرجع المذكور ، ص. 322 -326 ، وق. بنعبد الجليل ، حفلات الزواج بفاس ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس ؛ وج. جوان ، دراسة رسوم الزواج . للمقارنة مع الزواج بتونس(هـ . دو مونتيبتي ، الزواج الاسلامي بتونس) .

(2) من المفروغ منه أن المعلومات الآتية تهمّ خاصة العائلات الموسرة ؛وفي الأوساط المتواضعة تكون مراسيم الخطبة والزواج أقل دقة ، غير أنها تخضع لنفس القواعد العامة .

الخطبــة : ـ كانت أم الأسرة على العموم هي التي تختار خطيبة ابنها[3]. وقد يتفق أن يكون اختيارها موجهاً حسب التقاليد : فلابن العم الحق في أن يتزوج ابنة عمه ، وهي ابنة الأخ وفق العادة الجارية ببريطانيا ، له الحق قبل كل طالب زواج آخر، «وكل أسرة تحترم نفسها تحترم هذه العـادة »[4]. وغالباً ما تكون أم الأسرة كذلك قد لاحظت أثناء احتفالات كانت قد استدعيت إليها ، فتاة مكتملة ، محتشمة ، خدومة ، خبيرة باللياقات ؛ أو لمحت أيضاً في الحمام فتاة سليمة وخاصة محكمة البنية . فإن لم تتمكن من تحديد اختيارها بنفسها لسبب من الأسباب ، كانت تلجأ إلى صديقات ، وإلى الخاطبات[5]، أو في حالة العائلات المتواضعة الى الدلالات[6] اللاّئي يعرفن الكثير من الناس ويستطعن تقديم معلومات مفيدة . وعلى أي حال ، فليس الفتى هو الذي كانت له المبادرة في اختيار خطيبته ، ويمكن القول إنه لم يكن يعرفها قبل يوم الزفاف إلا بالأوصاف التي قدمتها له أمه ، أو أخواته أو إحدى قريباته[7]. وقد يحدث، في حالة الارتباط بين الأقرباء أو بين العائلات التي تجمع بينها صداقة وثيقة ، أن يقرر الزواج ، وعلى الأقل في ذهن الآباء ، قبل بلوغ الشابين السن اللائق بكثير ؛ لكنهم كانوا ينتظرون للتفكير في الزواج أن يدرك الفتى سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة ، وأن تبلغ الفتاة الحلم أو تكاد[8] .

---

(3) وكان العمل جارياً بنفس الشيء في تونس : انظر هـ . دومونتيلي، المرجع المذكور ، ص. 31 .

(4) بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . فإذا أريد رفض زواج ، قيل إن الفتاة مخطوبة لابن عمها (ڤيستيرمارك ، الزواج ، ص . 22) .

(5) انظر ما ياتي، ص. 526 وما بعدها . وكان الرجوع في تونس إلى سمسارات يهوديات (خطابة ج. خطبات) ، (هـ . دومونتيلي ، المرجع المذكور ، ص. 31) .

(6) ج . ج. طارو ، فاس ، ص. 135 .

(7) ليس للشاب ، في الساعة الراهنة ، بادرة الاختيار ، مع أن حركة لصالح هذا التجديد أخذت تتضح بجلاء شيئاً فشيئاً ، لكنه استطاع في عدة حالات ، أن يرى أو يلمح خطيبته أو أن يطلب مشاهدة صورة فوتوغرافية لها .

(8) لقد تأخر سن الزواج ، منذ الحماية ، لاسيما بالنسبة للرجال : فالتعود على القيام بدراسات ـ

وإذا تم اختيار أم الأسرة ، أفضت بذلك إلى زوجها ، فإذا وافق على الزواج ، قررا معاً إشعار ابنهما بذلك ، لكنه من الصعب التحدث مع شاب حول هذا المشروع ، وهنا نرى الاحتشام البالغ يبرز ، وهو من العادة المتبعة بين الآباء والأبناء . فكان يعهد إذن في الغالب ، من أجل ذلك ومن أجل عدة أشياء، إلى وسيط يكون قريباً أو قريبة، أو حتى صديقاً محترماً، تمكنه تجربته وتأثيره في الشاب من التعرض لهذا الموضوع الصعب[9] . فإذا أخبر الشاب وصفت له أخته ، إن كانت له أخت (وهي مطلعة على الأمر طبعاً) ، الفتاة المختارة قائلةً : « اسمع ، يا أخي العزيز ، إنها غزالةٌ ، لها جسم من حرير ، وقدّ رشيق ، قامتها عجيبة : فلا هي مفرطة الطول ولا مفرطة القصر ، ولا مفرطة السمن ولا مفرطة الهزال ، انسجام تام ! شعر كث ، وردتان في الخدين ، وأنف دقيق كحبة القمح ، وعينان سوداوان عليلتان ، وظلّ الأهداب على خديها . لكن أين هو اللسان الذي يمكنه أن يصف جمالها ؟ »[10] .

وإذا اقتنع الشاب ، قام أبواه فوراً بالمفاوضات من أجل الخطبة ، أي طلب الزواج . وأمه أيضاً هي التي كانت تقوم بالمسعى الأول : تصحب معها عدة قريبات لها في أجمل زينتهن ، وتذهب لزيارة أم الفتاة ، فتطلعها على مشروع الزواج بعد تبادل التحيات المعتادة ؛ وكانت تصطدم أحياناً برفض مهذب لكنه بات ، لا يفيد الإلحاح معه ؛ وإلا فتقول أم الفتاة إنها ستستشير زوجها ويمكنها أن تعطي جواباً مبدئياً بعد بضعة أيام ، ثم على « الرجال » أن يتدبروا الأمر فيما بينهم . وكانت الزائرة تحاول أيضاً أن تغتنم هذه الفرصة لترى فجأة البنت التي جاءت تخطبها ؛ لكن الفتيات كن يحترسن ولا يتركن دائماً أنفسهن للمفاجأة ؛ فكانت اللياقة تفرض عليهن أن يختفين ما أمكنهن

طويلة ، والرغبة في عدم الزواج إلا بعد التأكد من وضعية ثابتة ، كانت أسباباً يقينية لهذا التطور ؛ لكنه يجب أيضاً أن يعتبر التحرير التدريجي للشبان الذين يخشون أن يقرروا الزواج مبكراً جداً ، بينما يميلون أكثر فأكثر إلى المساهمة في اختيار رفيقتهم .

(9) انظر ج. ج. طارو ، فاس ، ص. 133 -135 .

(10) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

ذلك . وفي هذه الأثناء ، كان أبو الفتاة يستخبر ، عند الاقتضاء ، عن أسرة طالب الزواج (أي الحالة المالية ، والمصاهرات ، والكرامة) وحول سلوكه ؛ ولا يفوت النساء من جهتهن أن يقصدن الخاطبات اللواتي يعرفن جميع أسر المدينة ويستطعن إعطاء معلومات نفيسة . وبعد بضعة أيام ، كانت أم الشاب تقوم بزيارة ثانية وتستشف الجواب المعد لها « من مجرد الكيفية التي كانت تُستقبل بها »[11]:كانت ترى حيناً هـل أُنفـق الكثير لاستقبالها أم بالعكس وقع التظاهر بمفاجأة مجيئها . وفي حالة القبول كانت أم الفتاة تنطق بالعبارة شبه الشعائرية الآتية : « حتى لو طلبت مني عيني ، ما ترددت في إخراجهما لك يا للاَّ ، لن يجعل الله إلا خيراً ، لكن لا بد أن يلتقي الرجال ويتحدثوا في ذلك »[12].بالإضافة إلى أنهن يتعرضن ، أثناء هذه الزيارة إلى المسائل المالية التي كانت النساء يتحدثن بينهن فيها بكامل الحرية ؛ وكان كل شيء يسوى ذلك اليوم في خطوطه العريضة .

وإذ ذاك يدخل أرباب الأسرة إلى المسرح . فكان أبو الشاب يذهب عند أبي الفتاة في يوم جمعة بالأحرى ـ لتوفر وقت أكثر ذلك اليوم ـ ، وقد اصطحب معه لأجل المناسبة أربعة أشخاص أو خمسة من الأقرباء او الأصدقاء وذوي المكانة ، من بينهم شريف في أغلب الأحيان[13] . كان الاجتماع يبتدئ عادة بتناول الطعام ، ثم إن اثنين من الزوار يختليان بالمضيف على حدة ويشرعان في الحديث على الوجه التالي تقريباً : « سيدي ، إن الغرض من زيارتنا هو أن نخطب ابنتكم الكريمة الفاضلة ، للاَّ فلانة ، للسيد فلان ، نجل صديقنا كلنا وأخينا الحاضر هنا فلان»، وكان أبو الفتاة يرد على هذا بقوله أخيراً : « ليست ابنتي منذ الآن سوى إحدى بنات السيد فلان ، وأعتبرها ابنة له منذ هذه اللحظة بالذات »[14]

---

(11) نفس المرجع .

(12) نفس المرجع .

(13) كان اللقاء حسب ڤيستيرمارك ـ (ص. 23) يتم في أحد المساجد .

(14) . بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

كان جميع هذا الظرف من المحادثة منظماً من قبل بمجرد ما تم الاجتماع ؛ لكن الشيء الذي لم يكن محدداً مسبقاً والذي كان يفضي إلى مناقشة حقيقية هو مبلغ المهر (الصداق) الذي على زوج المستقبل أن يدفعه . وإذ ذاك يشاهد داخل الحجرة الظليلة الهادئة ، التي لم يقطع صمتها سوى همس المذاكرة وخرير نافورة الماء ، الذهاب والإياب للمفاوضين بين ربي الأسرة ، ذلك الذهاب والإياب الذي يسميه بظرافة الأخوان طارو (بالي المهر)[15] . كان أبو الفتاة يدلي برقم [16] يبلغ إلى أبي الخاطب ، ويقترح هذا الأخير رقماً آخر وينتهون إلى اتفاق في مقابل تنازلات متبادلة . وفي الأخير ، يكون كل شيء قد تقرر ويمكن تحديد تاريخ الخطوبة الرسمية .

وما إن كانت البشرى تزفّ إلى أهل المنزلين حتى تنطلق الزغاريد، وتستعد أم الشاب للقيام بزيارة جديدة لأم الفتاة (كمالة العطية)[17]؛ وقد أرسلت من قبل بعض الهدايا إلى زوجة الابن المستقبلة تتألف من قطع قماش وتمر، وشموع ، وحناء (حناء النسبة = حناء المصاهرة) ، وكان تسليم هذه الهدايا ، الذي يتم تحت حراسة خاطبة ، مناسبة لاحتفال عائلي[18] . ثم تقوم أم الشاب بمسعاها ، بصحبة عدة قريبات ، فتقام لها مأدبة فاخرة ، وبعد تناول الشاي كانت تذهب لتتفقد زوجة ابنها المستقبلة ، مدعية أنها تريد زيارة الدار ، وقد اختفت هذه الأخيرة عن أنظار الزائرات ، بصفتها شابة مؤدبة جداً ؛ وإذا ما

---

(15) المرجع المذكور ، ص. 141 .

(16) يختلف مبلغ المهر كثيراً حسب الأسر . وكان « الصداق » في نظر فيستيرمارك (المرجع المذكور ، ص. 63) حوالي عام 1920 ، يتراوح من 70 إلى 100 ريال بالنسبة للبكر ، ومن 30 إلى 40 ريالاً بالنسبة للأرملة أو المطلقة ، في أوساط البورجوازية الصغيرة ، وقد يصل إلى 600 ريال في الأسر الغنية . وكان المهر ، حسب بنعبد الجليل سنة 1939 من 14 إلى 15000 فرنك في الأسر الموسرة .

(17) كانت تستعمل في البادية ، حيث كان الكلام سليماً أكثر ، العبارة الفصحى : تكميل العطية . التي كان لها نفس المعنى .

(18) كان هذا الاحتفال يكتسي طابعاً أكثر اتساعاً منه في الأوساط البورجوازية ويسمى (الزغاريت) الزغاريد .

اكتشفت أخيراً ، تطاوعت للتقبيل دون أن تنبس ببنت شفة ، لأن اللياقة تفرض عليها التمسك بالصمت[19] .

وإلى هنا لم يعرف الزواج المتوقع إلاّ من طرف الأسرتين ومن عدد قليل من الوسطاء الكتومين الذين وقع الاتصال بهم. نلاحظ أنه يكتسي ، منذ البداية ، طابعاً مخالفاً تماماً للزواج كما تتصوره المجتمعات الغربية : فعندنا ، حسب القانون الكنسي والقانون المدني معاً ، يكمن جوهر الزواج بالذات في إرادة الاقتران التي يعبر عنها بحرية رجلٌ وامرأة : ما زال يحدث في الغالب أن تتدخل العائلات بكيفية قطعية كثيراً أو قليلاً ، لكن العوائد تميل شيئاً فشيئاً إلى أن تنطبق مع المذهب وتجعل من الزواج نتيجة قرارين فرديين . أما في فاس ، كما في جميع البلدان الإسلامية ، فكانت العائلات ـ وما تزال ـ هي التي لها مبادرة القرارات؛ كان الشاب يطالب بالإفصاح عن الاختيار الذي اختير له (والذي كان يقره عادة) لا الفتاة أبداً ، فكانت ملزمة بالخضوع إلى رغبة أبيها بموجب السلطة التي كانت له عليها[20] .

كان الأمرُ يتعلق إذن بقرارات فردية أقل منها عائلية ، إذ أن الزواج كان مصاهرة أسرتين قبل أن يكون اقتران رجل بامرأة .

كانت الخطبة الرسمية تقام بعد ذلك بقليل ، يوم جمعة ، عند صلاة العصر ، حيث يجتمع رجال الأسرتين مع أصدقائهم ، وحلاقيهم الذين يكونون كلفوا بتبليغ الاستدعاءات ، في مسجد أو ضريح المولى ادريس ، أو في زاوية ينتمي إليها أبو الفتاة[21] . وبعد صلاة الجماعة ، تجتمع المجموعتان

---

(19) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

(20) هكذا كانت تسير الأمور مبدئياً وفي الواقع كانت الفتاة تخبر وتستشار ، ما عدا في بعض الأسر البالغة الصرامة تماماً كما في تونس (هـ. دومونتيلي ، المرجع المذكور ، ص. 15) .

(21) يقام بتونس احتفال مماثل بين النساء في منزل الخطيبة ، بينما يقرأ الرجال الفاتحة في إحدى الزوايا (نفس المرجع ، ص. 33) .

وجهاً لوجه ، ويدعوهما أحد أفرادهما : شريف أو مقدم طائفة أو إمام ، بعد أن يقف بينهما ، إلى التهيؤ للدعاء ؛ فإذا اتخذ الجميع الهيئة الشعائرية بِمدّ الأيدي وتوجيه الأكف إلى السماء ، قرأ مسير الاحتفال بصوت منخفض أول سورة في القرآن ، وهي الفاتحة ، فإذا أتم القراءة « مسح وجهه وصدره بيديه » وهو يلثمهما برفق عندما تمسان شفتيه» وينطق بالعبارة: «الحمد لله رب العالمين »[22] . وبعد أن يحذو جميع الحاضرين حذوه ، يصطفون في الصحن في شبه قوس دائرة ، ثم يتقبل كلا الأبوين تهانيَ أصحابهما قائلين لها : « مباركة سعيدة هذه المصاهرة ! » أو : « الله يكمل بخير ! » وأخيراً ، يتقبل كل أب تهانيَ أعضاء المجموعة الأخرى[23] .

كانت الفاتحة هي العمل الديني الوحيد بمعنى الكلمة الذي كان يطبع مراسيم الزواج ؛ حقاً إن الدين لم يكن مختفياً تماماً فيما بعد ، إذ كانت الخاطبات يرتلن في عدة مناسبات أناشيد في حمد الله والصلاة على رسوله ، لكن كل شيء كان يتمّ خارج أماكن العبادة ، وبدون أية صلاة شرعية تقريباً . فليس للزواج الإسلامي قطعاً طابع الأسرار المقدسة الذي تضفيه عليه معظم الفرق المسيحية .

كانت الأسرتان تحددان فترة الخطبة من ستة أشهر إلى سنتين حسب الظروف . وكان الخاطب طوال هذه المدة لا يغفل عن أن يرسل إلى زوجته المستقبلة هدايا (تفكرات)[24] بمناسبة الأعياد الإسلامية ، كقطع من القماش ، وفساتين وحلي . لم يكن الغرض من ذلك أن يسر الخاطب زوجته المستقبلة فحسب ، ولكن ليظهر فعلاً علنياً بأنه ما زال يحتفظ دائماً بالتعهد القائم بينهما .

---

(22) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور ، ڤيستيرمارك ، الزواج ، ص. 25 .

(23) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . ويذكر ڤيستيرمارك (المرجع المذكور ص. 26-28) حفلاً عائلياً يسمى ليلة الفاتحة ، لم أعثر على أثر له في الأوساط الموسرة الفاسية .

(24) من فعل فكّر . يعبر الخاطب هكذا لخطيبته أنه يتذكرها ويخبر الجميع بذلك (ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور)

المهر والعقد : ـ كان أداء المهر يمثل نهاية الخطبة وبداية أفراح الزفاف ، ويقترن بتحرير العقد . كان الأبوان يحددان تاريخه قبل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع ، إذ كان لا بد من القيام بالاستدعاءات والاستعدادات . تقام وليمة كبرى في كلتا الدارين بقائمة طعام تقليدية : الدجاج المحشو ، ولحم الغنم باللوز و(البريوات)[25] . ويكون عدلان قد استدعيا عند أبي الشاب ؛ وبعد تناول الطعام ، يطلب مضيفهما منهما أن يعدّا أمامهما المبلغ المتفق عليه نقداً مدوياً[26] ؛ ويوضع المبلغ في أكياس لحمله إلى أبي الفتاة ، يواكبه العدلان وأربعة من الأصدقاء الأمناء . كان على الوافدين الجدد أن يجلسوا فوراً حول المائدة ، وبعد أداء هذا الواجب ، كانوا يدفعون إلى المسلم إليه المبلغ الذي ائتمنوا عليه ، ثم يحرر العدلان العقد . ونضلاً عن الشروط المتعلقة بالمهر ، كان العقد ينص عادةً على أن زوج المستقبل سيضع في خدمة زوجته أمة ، يذكر ثمن شرائها ؛ كما أنه بالإمكان أن يتضمن شروطاً خاصة كمنع زوج المستقبل مثلاً من إسكان امرأته خارج فاس[27] أو حق المرأة في أن تطلق نفسها إذا تزوج عليها زوجها .

---

(25) تسمى هكـذا حلويات مورقة مصنوعة من العسل واللوز ، على صورة رسالة مطوية على شكل مثلث (نفس المرجع) .

(26) كانت هذه التفاصيل صالحة بالنسبة للفترة السابقة للحماية ؛ وقد استمر العمل مدة طويلة بالنقود المعدنية بعد مجيء الفرنسيين ؛ لكن الآن أصبحت الأوراق البنكية سارية المفعول . وقد أُشعرت (في صيف 1946) بأن (الموضا) الأخيرة تقتضي دفع المهر على شكل شيك .

(27) هذا نص عقد الزواج الذي ذكره ق. بنعبد الجليل (المرجع المذكور) :

« الحمد لله المصدر الوحيد لجميع النعم ، على ما يجب له . والصلاة والسلام على نبينا ومولانا ، وعلى آله وصحبه الذين قاموا بعده بنصرة الدين.وبعد ، بفضل الله تعالى ، ومشيئته الربانية ، ومعونته النفسية وتحت رعايته الكريمة ، زوج السيد الحاج بنسالم ابنه السيد الحسن بالآنسة لـلاّ زيب ، بنت الحاج عبد الله ، البكر المصونة ، في حجر والدها وتحت رعايته ، وهي حِلّ للزواج وذلك بمهر مجموعه أربعة عشر ألف فرنك (14.000 فرنك) بالنقود الجاري بها العمل .

=

لا حاجة إلى التذكير هنا بالتفاصيل بطابع المهر الذي يدفعه الزوج ؛ لا شك أنه كان في القديم يمثل ثمن شراء الفتاة ؛ وقد صار مع مرور الزمان صداقاً يهبه الزوج لزوجته ، ويتحول فوراً إلى أشياء لتجهيز منزل الزوجين الشابين . على أن أبا الفتاة ملتزم عادةً بأن ينفق على الأقل مبلغاً مماثلاً للمبلغ الذي تسلمه لبيت الزوجين الشابين ، اللهم إلَّا إذا كانت شروط مضادة مصرح بها في العقد. وهكذا فإن الصداق لا يشكّل جهاز العروس فحسب ، ولكن أيضاً الأثاث الذي يرى ضرورياً، نظراً للوسط الاجتماعي للزوجين الشابين[28] .

= « وتوصل أبو الزوجة من أبي الزوج المذكور بالمبلغ كله بمرأى من العدلين الممضيين أسفله وأبراه منه إبراءً تاماً .

« وقد تزوج المذكور المذكورة في أسعد طالع ، حسب الشريعة الإسلامية وما يأمر به القرآن من إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان .

« وزوج أبو البنت المذكورة ابنته بما خوله الله له من سلطة عليها وإمكانية التصرف باسمها لصالح مستقبلها ومصالحها .

« وقبل الزوج قبولاً تاماً شخصياً هذا العقد الذي أبرمه أبوه باسمه ، والمتعلق بإقرانه المبارك بالزوجة المذكورة أعلاه ، والتزمه وأقر به .

«جعل الله اقترانهما المبارك مقروناً بالسعادة الدائمة ،والفرح غير المشوب، وساعد في تنفيذ أوامره، وإرادته وعونه الجميل .

«اطلع المذكورون على هذا العقد وتوصلوا به . . .

« فيما يلي إمضاءات العدلين ومصادقة القاضي » . يقارن مع نموذج العقد التونسي الذي ذكره هـ. دومونتيلي، (المرجع المذكور ، ص. 20 -21) .

(28) هذه حسب ق . بنعبد الجليل (نفس المرجع) قائمة النفقات (أرقام 1939) التي يجب أن يتحملها موسر كبير فاسي عندما يزوج ابنته .

« تأثيث منزل مغربي خاص مشتمل على فرش سميكة من الصوف مختلفة الأشكال والأبعاد : 5 لحافات كبيرة ، وشبه لحافين مربعين من الصوف يدعيان « كليسات » توضعان على جانبي مدخل الحجرة .

« وتتطلب هذه اللحافات عامة من مجموعتين إلى ثلاث مجموعات من الوسادات : مجموعة من مطرزات فاس ، وأخرى من الديباج ، وثلاثة من القطيفة المقصبة . وعلى العموم من مجموعتين إلى ثلاث مجموعات من شبه قماش لتغشيتهما مجموعة من قماش قطيفي مقصب ، وثانية من مطرزات فاس ، وثالثة من الديباج أيضاً . تدعى هذه الغطاءات (سنايف مفرد سفيفة ؛ وتلاميط مفرد تلميطة) .

« يشتري الحاج عبد الله 8 قناطير من الصوف لصنع اللحافات
والوسادات المذكورة ثمن الصوف 800 فرنك للقنطار أي 6.400 فرنك .
الكريطون ومصاريف الخياطة 800 فرنك
تدفع 5 غطاءات للتطريز بالرسم الفاسي جميع هذه الغطاءات
مطرزة بالحرير الأسود . تستعمل الطرازة 10 كلغ من الحرير المصبوغ
بالأسود والذي يكلف الحاج عبد الله 120 فرنك للكيلو ، أي 1.200 فرنك .
يؤدي للطرازة 1,50 فرنك للثُمن أو لثمن الأوقية . وتتقاضى
أجرة ، بعد الحساب النهائي ، قدرها 384 فرنك للكيلو ، أي 3.840 فرنك .
كما تدفع قصد تطريزها بالحرير الأسود لفافة من الخيط الأبيض طولها 3 أمتار، مطرزة
بالرسم الفاسي، تدعى (محرمة) تسدل على العروس لدى خروجها من استحمامها
الأخير قبل زفها إلى زوجها سعر التكلفة: رطل حرير، النسيج وأجرة الطرازة 800 فرنك .
ويتطلب اللحافان المربعان أيضاً غطاءات مطرزة كلها بالأسود
تكلف 2 كيلو من الحرير بسعر الكلفة 180 + 768 (الأجرة) أي 950 فرنك .
تتطلب مجموعة من 6 وسادات تقليدية فاسية 8 كلغم من الحرير
المصبوغ بالأحمر بقدر 98 فرنك للكيلو ، أي 784 فرنك .
يؤدي للطرازة 1,25 فرنك لثُمن الحرير أو 1/8 الأوقية ، في
المجموع 320 للكيلو ، أي 1 280 فرنك .
ويشتري كذلك الحاج عبد الله 55,5 متراً من مطروزات ليون ،
بقدر 50 فرنك للمتر ، أي 2.775 فرنك .
تصنع مجموعة من 5 أغطية للحافات (سفايف) ومجموعة من 9 وسادات
مختلفة الأشكال والأحجام ، وتبطين هذه الوسادات وتزيينها وتفصيلها 325 فرنك .
كما يصنع ستار من ديباج ليون يسدل إلى نصف علو باب مدخل
حجرة العرس 1.000 فرنك .
وتتطلب طنفسة من القطيفة الخضراء والحمراء المدعاة (حياتي) 1.100 فرنك .
وتساوي مجموعة من 3 لحايف (مفردها لحيفة) وهي شبه لحاف
ريش تبسطها المرأة الفاسية على الأرائك الثلاث التي لا تستعمل كفراش 400 فرنك .
ويشتري بساطاً من صنع انجليزي 900 فرنك .
ويشتري غطاءي سرير 200 فرنك .
وغطاء سرير من الصوف الأحمر ، من صنع أنجليزي 800 فرنك .
وقطعتين من الكريتون 60 متراً 240 فرنك .
وستارين من الحرير المطرز 600 فرنك .
يستلزم الأثاث بمعنى الكلمة المؤلف من الصوف والمطرزات تقريباً 24.600 فرنك .

ويقتضي جهاز العروس النفقات التالية :

أ ـ الملابس (أقمشة وفساتين ، من المنسوجات ، الخ) 3.000 فرنك

ب ـ 4 قفاطين : واحد من الديباج 400 فرنك ، وواحد من القطيفة

200 فرنك وواحد من الغردين380فرنك، وواحدمطرز بالذهب 200 فرنك 1.180 فرنك .

جـ ـ حزام وحذاء مطرزة بالذهب 300 فرنك .

د ـ (التخمال) حلية الكتفين 250 . فرنك .

هـ ـ 4 مجموعات من اثني عشر منديلاً مطرزة تطريزاً جيداً 1.000

و ـ وأشياء مخصصة للزوج وتتكلف بها الفتاة خصيصاً: ملابس لوازم فرنك.

الحلاقة ، حرام فاس وحزام السراويل طاقة (تازية) 600 . فرنك.

ز . هدايا معدة لأبوي الزوج وأقربائه (فستانات ، ماديل) 2.600 فرنك.

ن ـ ادوات اضافية ذات قيمة معينة . كؤوس من البلور ، اقداح

من الخزف ، لوازم الحلويات ، العطور ، وأوان فضية 2.000 . فرنك.

حـ ـ صندوق العروس 250 فرنك.

ط ـ حزانة صغيرة تصلح كصوان السفرة 300 . فرنك.

يبلع اذن مجموع جهاز العروس 11 400 فرنك .

« اضف الى هذا النفقات التي يتحملها الحاج عبد الله لتوفير لباس لائق لأولاده وبناته بمناسبة هذا الزفاف . 000 4 فرنك ومصاريف الاقتبال أثناء الزواج بذاته : 4.000 فرنك .

« فسيصرف إذن الحاج عبد الله بمناسبة هذا الزواج مبلغاً قدره 44 000 فرنك .»

تقارن هذه القائمة بالمعلومات الآتية التي يدلي بها ليون الافريقي المرجع المذكور ، 1 : 254 - 255 . (الطبعة العربية الثانية ـ1: 121 - 122) .

« واليوم يصرف الأب أو الوالي زيادة على الثلاثين مثقالاً التي هي قدر الصداق مبلغاً من مائتين إلى ثلاثمائة مثقال لتجهيز الزوجة بما يلزم من ملابس وأثاث البيت ، لكن لا يعطي عقار ولا كروم ولا أرض مزروعة .وتقتضي العادة أن تقدم هدية مركبة من ثلاثة أثواب من جوخ رقيق ، وثلاثة أخرى من حرير أو « تمتة » أو مخمل أو دمقس ، وعدد من القمصان وأغطية الفراش المطرزة والموشاة حواشيها بالحرير ، ومخدات ووسائد ، وتهدي كذلك ثمانية فرش ، أربعة منها للزينة ، توضع فوق الحزائن في كل طرف من الغرفة ، وأربعة مغطاة بنسيج صوفي خشن تستعمل للنوم ، بالإضافة إلى فراشين مبطين بجلد يستعملان كذلك لتزيين الغرفة ، وزربية صوف طويلة من نحو عشرين ذراعاً ، وثلاثة أغطية وجهها من جوخ وظهرها من كتان ، وما بينهما محشو بالصوف . وعند النوم يطوى هذا الغطاء شطرين بحيث يكون أحدهما فوق الآخر ، لأن طوله يقل عن ثمانية أذرع . وعلاوة على ذلك تقدم ثلاثة أغطية للسرر غلافها من حرير جميل التطرير من الجهتين ، وبداخلها كتان محشو قطناً ، وغطاء آخر أبيض الغلاف محشو بالقطن ، لكنه خفيف للصيف . وأخيراً يقدم سجف =

كانت هذه النفقات تضاف إلى مصاريف احتفالات الزواج وتفرض تبعة ضخمة على من يزوجون ابنتهم . وقد سبق لليون الإفريقي[29] أن سجل بأن العدبد من الناس أفلسوا في ذلك ؛ وحدث نفس الشيء في أوائل القرن العشرين ، حيث إن عدة أسر متواضعة استدانت للأبد بموجب الحياء البشري ، حتى لا « تبرز » أقل من غيرها[30] .

وإذا دفع الصداق ، حدد تاريخ الزواج الذي كان ينظم دائماً تقريباً في الصيف ، حتى لا يأتي المطر لإيقاف الاحتفالات العديدة التي كانت تجري بالفناءات . كان هذا التاريخ مرتبطاً أقل بكثير بما يوافق العائلتين[31] منه بالأيام التي تكون فيها الخاطبات والأجواق حرة ، لا سيما إذا تمّ الاتصال بأحسن جوق وبأفضل جماعة من خاطبات المدينة : كان لا بد من عدة أشهر سابقة للاتفاق مع رئيس الجوق ومع الخاطبة الرئيسة لتحديد اليوم .

التهييئات : ـ إذا تم الاتفاق على كل شيء، شُرع في التهييئات. كانت أم الفتاة توفد امرأة حاملة معها كبة من الخيط لتأخذ مقاييس الحجرة التي ستسكنها ابنتها بعد زواجها : وبهذه الكيفية كانت تتمكن من تفصيل الأرائك على القدر المرغوب. وفي مقابل ذلك ، كانت المرأة المرسلة تعود بكبتين،

= (حائطي) من صوف رفيع مقسم إلى مستطيلات صغيرة على نموذج علم سفينة أو غير دلك من النماذج ولهذا الحائطي شرائط ملسنة من جلد مذهب علقت عليها خصل من حرير مختلفة الألوان . وقد ثبت على كل خصلة منها زر حريري ليمكن تعليق هذا السجف على الحائط .

هذا ما يضاف الى المهر ، وربما أضيف اليه أكثر من ذلك . . . » .

(29) نفس المرجع . يقارن أيضاً بما ذكره هـ دومونتيتي (المرجع المذكور، ص. 68 — 65) عن نفقات الزواج بتونس .

(30) وحوالي 1925 ، قام بعض العقلاء بمساندة السلطة الملكية بحملة لإرجاع نفقات الزواج إلى أبعاد معقولة . وقد أحرزت نتيجة ، لكن السوق السوداء « بدلت هذا التعقل » . وقد علمت سنة 1945 أن الكثير من الفاسيين يفرضون مهراً قدره 000 20 فرنك لزواج ابنتهم . وكان (المثل) متناسباً بطبيعة الحال .

(31) كان مع ذلك يحسب ألف حساب لتواريخ الخطبة ، لكنها لم تكن تذكر طبعاً · كان أبوها يعين تاريخاً دون إعطاء توضيحات لذلك ، فلا يلح أحد

إحداهما من الخيط الذهبي ، والأخرى من الحرير الأخضر ، تخصصان لضفر جديلة رائعة تمثل طول رجل الفتاة ؛ وهكذا كان الخاطب يتمكن من طلب الأحذية المطرزة التي سيهديها إلى زوجته يوم إتمام الزواج[32] .

كانت الخاطبات يُرسلن إلى دار الزوج ، قبل خمسة أيام من ليلة الزفاف ، كل ما كن في حاجة إليه لتجهيز غرفة العرس . كان هذا النهار يسمى (نهار التنقيل) ويكون مناسبة لاحتفالين تحضرهما العازفات (الطبالات) في كلتا الأسرتين[33] . وكان يوم الغد يسمى (نهار الزينة) أو نهار الفرش[34] . كانت الخاطبات يُعددن فيه بعناية كل ما كان يلزم الفتاة أن تحمله إلى منزلها الجديد (كالأرائك ، والوسائد ، والزرابي ، والمشابك ، والمسامير ، وحلقات الستائر، الخ . . .) ثم يرسلنه إليه . ويذهبن بأنفسهن لتجهيز قبة العرس (دخشوشة) . ولهذا الغرض كن يكدسن اللحافات الواحدة فوق الأخرى لتشكيل حاجز لا يترك بينه وبين الحائط سوى عرض لحاف هو سرير العرس ، كان حاجز اللحافات وجدران الحجرة تزين بأقمشة مطرزة وطنافس (حياتي)[35] .

وقبل ذلك بخمسة عشر يوماً ، كانت الشابة تذهب كل ليلتين إلى الحمام للاغتسال سبع مرات[36]؛ وكانت المرة الأخيرة، المطابقة لليلة ما قبل الدخول إلى المنزل الزوجي ، تتسم باحتفال (التقبيب) : الغسل بالدلاء . كانت العروس تأتي ، محفوفة بالقريبات والصديقات ؛ وكانت مستخدمات الحمام (الطيابات) ينتظرنها بالباب ثم يصحبنها باحتفال إلى أكثر القاعات انعزالاً وهن يصلين على النبي ويزغردن. كانت قريبتان تجردان الفتاة من ثيابها ، وهي مغمضة العينين مطبقة الشفتين ، خوفاً من عفاريت المكان .

---

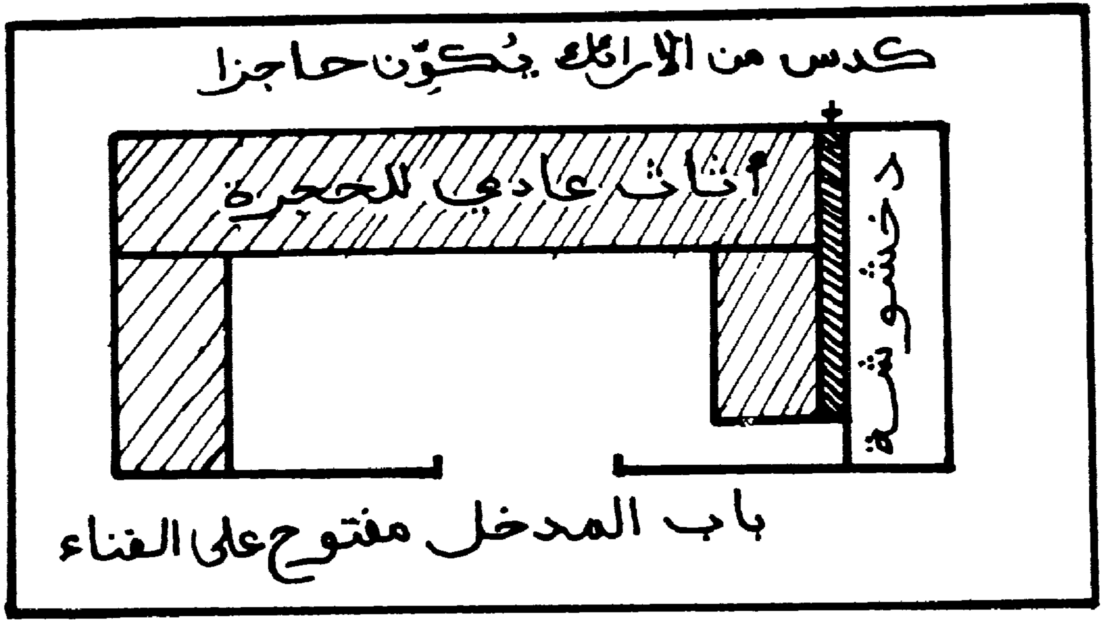
(32) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور

(33) انظر فُيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 118

(34) نفس المرجع ، ص 118 - 119 .

(35) انظر الرسم رقم 34 .

(36) وشاع شيئاً فشيئاً تبسط الأشياء .فلم تعد كثير من العروسات يذهبن إلى الحمام إلا مرة واحدة ، قصد (التقبيب) .



الرسم 34
ترتيب غرفة الزفاف

كانت سبعة دلاء من الماء الدافئ ـ مصففة هناك ، تغرف المستخدمات بالتوالي من كل واحد منها بإناء مكي (طاسة مَكِّويَّة) ويصببن الماء على رأس العروس التي تصبح منذئذ ، عند انتهاء الحفل ، تحت وقاية الملائكة[37] . ثم يلبسنها ملابس جديدة و « يضعن على رأسها ثوباً فاخراً مطرزاً بالاسود (محرمة) يطابق تقريباً خمار العروس الأوروبية » . وتستأنف المستخدمات غناءهن : فبعد التنويه بجمال الشابة وإعادة الصلوات على النبي ، كن يأخذن شيئاً من المال واللباس الذي كانت ترتديه الفتاة عند وصولها والذي لم تعد ترتديه بعد . نرى أن الأمر يتعلق بشعائر تطهير ومرور ، حيث إن الفتاة قد دخلت منذ قليل في مرحلة جديدة من حياتها ، قاطعة على الفور كل علاقة بالماضي .

وبعد عودتها إلى دارها ، كانت توضع في خدر ، وهذا ثاني رمز لقطع الصلة مع حياتها السابقة : وبعد تناول العشاء، كانت إحدى الرسامات بالحناء (معلمة حناية) ترسم على يديها ورجليها الرسم الخاص بالعروسات الذي هو تقليد تقريباً لبعض نماذج تطريز فاس (الحناء بالتقويسة)[38] . ومنذ ذلك الوقت ، وما دامت أفراح الزفاف ، بل كدت أقول : الانسلاخ ، كان على المرأة الشابة أن تعيش على حدة ، إلى أن تتخذ حالة المرأة المتزوجة ، بعد انتهاء الطقوس .

وفي اليوم الموالي ، أو بالأحرى في العشية الموالية (إذ كانت تقام جميع هذه الحفلات تقريباً في آخر النهار وأثناء الليل) كانت الحفلة المدعوة (قوالب صغار)[39] . وابتداءً من الساعة الخامسة ، كان الفناء يمتلئ بنساء أنيقات جئن لتناول الشاي ، بينما تبقى الفتاة في خدرها مع صديقاتها

---

(37) ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 120 (38) نفس المرجع ، ص . 121 .

(39) يطلق لفظ « قالب » (ج قوالب) على قالب سكر . من المحتمل أن هذا الحفل ، كالذي يليه (قوالب كبار) ، كان متسماً في القديم بتسليم قوالب سكر ، وهي مادة نادرة في ذلك العهد . ماختفت هذه العادة وفقد أهل فاس حتى ذكراها

الحميمات اللائي كن يساندنها ويشجعنها في هذه المحنة الكبرى . ومنذ ذلك اليوم وطوال مدة الحفلات، كانت مدعوتان (برزات) تلعبان دوراً خاصاً . كانتا قريبتين من أهل الزوج ، حديثتي عهد بالزواج تقفان على جانبي الباب داخل الغرفة الزوجية غير مخضبتين،ولكنهما مرتديتان لباساً كلباس العـروس. وكان رهن إشارة كل واحدة منهما خاطبة تساعدها على ارتداء لباسها[40] .

وفي عشية الغد (قوالب كبار) ، حوالي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة صباحاً ، تأتي الخاطبات ؛ وبعد أن يتناولن غذاءً فخماً ، ويشربن الشاي ويتحدثن ،كن يستسلمن هنيهةً إلى النوم . وكانت الدار تنتفض في جوف الليل، حوالي الساعة الثالثة صباحاً : كان ذلك الوقت « لخدمة العروس » كما تعبر عن ذلك الخاطبـات برطانتهن . يأخذن في تخضيبها بشدة ، إلاّ إذا كانت شريفة أو عربية ، ويغطينها بفستانات ثقيلة ، وحلي ولفائف من قماش الصلب تحيط بوجهها ؛ وها هي تشبه تلك الصور اللامعة المجمدة للعذراء الّتي يطاف بها أيام العيد في البلدان المتوسطية[41] .

كانت خاطبتان تمسكان بيدها ، بعد أن غطتا وجهها بخمار ، فتقودانها بخطى بطيئة حول الفناء ، في وسط دائرة زاهرة بالزائرات ، بينما تصلي الأخريات على النبي ، حاملات شموعاً موقدة . كان الموكب يعود إلى وسط الفناء ، ويوضع الصنم على طاولة ذات حافات (مائدة) مزدانة بأقشمة مطرزة ؛ ترفع الخاطبات هذا الحمل على أكتافهن فيرقصن في الفناء[42] على ضوء الشموع ، وصوت الطبول والطبلات لجوق من النساء ، تشجعهنّ

---

(40) لا بد أن يفهم بدون شك من هذه العادة الحرص على تضليل الجن الدين يريدون سوءاً بالعروس · فحضور ثلاث نساء مزينات بنفس الكيفية اثنتان منهن خارجتان عن إصابتهم ، من شأنه أن يحدث فيهم البلبلة .

(41) انظر ج جوان ، دراسة رسوم ، ص. 330 - 331،واللوحتين 13 و14 .

(42) انظر ح جوان نفس المرجع ، اللوحة 15 . كان هدا الرقص عبارة عن تحركات بطيئة ، خطوة إلى الأمام وخطوة إلى الوراء ، ربع دورة إلى اليمين وربع دورة إلى اليسار . وكان ممكناً أن يدوم طويلاً جداً .

الزغاريد الحادة للمتفرجات الفرحات .

فإذا انتهى هذا الحَفل الغريب (الدورة) أعادت الخاطبات العروسة إلى قبتها ، حتى تستريح لحظة ؛ وبعد قليل كن يرجعن بها إلى باب الغرفة في مقابل الفناء ، وهي مستقيمة تماماً جامدة ؛ تمر هنيهات من الصمت صمت الانتظار القلق ، فيرفعن عنها الحجاب ، كاشفات أخيراً عن ذلك الوجه الصنمي المطبق العينين ، الذي صار لا يعرف تقريباً من كثرة الخضاب والزينة ، ويصحن حينئذ : « هاي هي مرهونة». فتتقدم أم العروس لتحرير هذه « الرهينة » التي تمكنت منها الخاطبات ، لإخراجها من حالة التماثيل هذه التي وضعتها فيها العادة ، متبوعة بجميع الحاضرات ، فتضع قطعة نقدية في القدح الذي تمسكه إحدى منظمات الحفل (السلام) .

وبعد انتهاء العرض كانت الخاطبات ينشدن مدائح زوجة المستقبل (تعشيق) · كان ذلك شبه لازمة على نفس النموذج دائماً ، لكن تفاصيلها تختلف حسب الخاصيات الجسمانية للعروس : « ها هي ! ، صلاة اللّه وسلام النبي عليك يـا للاَّ ، والسر عليك ، يا تمر العروسات . ها التمر المجهول ، ها العسل المصفى ، ها الزين بلا ملح ، ها تكاك الحمام، ها رشاقة الخيزران ، ها هي، ها هو زين عائلة فلان، ها هي، ها هي»[43]! وكانت جوقة الخاطبات تردد مرتين أو ثلاث مرات لازمة المدائح بأعلى صوت .

وإثر ذلك ، كانت ظِئر العروس تحملها أمام معلمة (نكّافة) ـ الخاطبة الرئبسية ـ تضفر شعرها بالكيفية اللائقة بالعرائس (سلتة)[44] وتعيد على يديها ورجليها رسماً ثانياً بالحناء (الوشي)[45] .

---

(43) ق. بنعبد الحليل ، المرجع المذكور

(44) ڤيستيرمـارك ، المرجع المذكور ، ص. 242 .

(45) يطلق لفظ وشي ، في العربية الفصحى على « نوع من قماش الحرير المختلف الألوان المطرز بالذهب أحياناً » (دوزي ـ ملحقات ، جزء 2 ص. 809

ثم تُجلس على منبر ذي ثلاث درجات ، فتشرع الحاضرات بالتوالي في تسليم هدايا الزواج إلى إحدى الخاطبات ، كقطع من القماش الثمين ، أو حلي[46] ، أو نقود . فكانت الخاطبة تبرز الهدية إلى الحاضرات، وتنطلق بمدح المتبرعة وتشكرها باسم العروس التي - تقول -: «لن يفوتها أن ترد لها هذا الجميل في أول مناسبة وأسعدها»[47]. وكانت تتلقى من كل متبرعة مبلغاً من المال جزاء على عملها الحميد . وبعد تسليم الهدايا ، التي كانت تحمل اسم (غرامة) تدفع الخاطبة إلى رب البيت لائحة الهدايا : فالهبات العينية كانت مخصصة للعروس ، والمال يستعمل لأداء مصاريف الزواج . وأخيراً كانت الخاطبة الرئيسة ، بعد انتهائها من التزيين والحناء ، تسمح للعروس بتذوق راحة تستحقها كثيراً : كان ذلك نهار الراحة .

وكان الخاطب في هذه الأثناء كلها ، يعيش بدوره عيشة غير عادية : فقد سبق لأبيه أن استعار داراً مجاورة لداره تؤوي لبضعة أيام الشاب وأصدقاءه ، تسمى دار إسلان[48] ، بينما كان منزل الزفاف، وهو منزل والد الشاب ، يحمل اسم دار العرس . كان الخاطب يتوجه إلى تلك الدار في العشية السابقة لليلة الزفاف ، أو حتى ليلة الزفاف ، مصحوباً بأترابه الشباب (والناس المسنون كانوا ضيوفاً على أبيه بدار العرس) وكان هذا الشباب يتعاطى دعابات تقليدية : يعتبر العريس كسلطان ، ويخدمه أصدقاؤه كوزراء وجنود[49] ؛ وأهم

---

(46) كان الحلي هدية الأقرباء ، كالأب ، والأم ، والأخوات، والخالات . وكان امتياز المنبر مخصصاً للأسر الكريمة من أصل شريف أو عربي .

(47) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . كانت كل أسرة تتخذ محاسبة حقيقية للهدايا المستلمة ، بمناسبة زواج أو غيره من المناسبات ، وتكون ملتزمة عادة بردها بكل دقة . كان ذلك شبه تعاونية في المناسبات الكبيرة للحياة . ويذكر هـ . دومونتيتي (المرجع المذكور ص. 40) أن نفس الطريقة كانت تتبع بتونس .

(48) إسلان كلمة بربرية معناها أعراس ، وعلى الأقل في بعض اللهجات (ڤيستيرمارك ، المرجع المذكور ، ص. 78).ويعبر عنها ، في العربية الفصحى ، بدار السلوان ، وهذه هي العبارة المذكورة في ورقات الاستدعاء المستعملة حالياً .

(49) ڤيستيرمارك المرجع المذكور ، ص. 240 - 241 .

خدمتهم كانت هي القيام بمهامه ومعاقبة المتأخرين بغرامات أو « رهائن » طريفة .

كان جوق من المغنين يعزف بلا كلل قطعاً من مجموعته، بينما يقوم الحلاقون بتقديم الشاي أو الطعام ، حسب الوقت .

وكان حلاق الأسرة يحمل إلى دار العرس ، في المساء السابق لأول لقاء الزوج بالمرأة ، كرسياً كبيراً من خشب مصبوغ بألوان فاتحة ، ثم يبحث عن الشاب بدار اسلان . يتكون موكب ، فيحمل بعض فتيان الشرف الزوج على أكتافهم، في وسط الضحكات ، ويذهبون به ، مغطى الرأس ، إلى كرسي الحلّاق، الموضوع في الفناء . كان الحلاق يسوي الفوطة ، لكن قبل الشروع في عمله ، كانت الخاطبة الرئيسية تبلل شعر الصبور بغصن ريحان ، ثم يلصق شبان الموكب على جبهته أو يدخلون بين شفتيه قطعاً نقدية معدة للحلاق . وكان أحد غلمان الحلاق يصيح عند كل عطية : « اللّه مع فلان » ، ويضع المال على فوطة ؛ وكان ضيوف الأب يشاركون أيضاً في الاحتفال ، بحيث كان الحلاق يستطيع أن يجمع بمناسبة زفاف كبير ثروة صغيرة[50] كافية لشراء حانوته إن لم يكن بعد مالكاً لها .

---

(50) حتى مائتي ريال ، حسب ڤيستيرمارك (المرجع المذكور ، ص. 117) ، كان ملزماً فقط بإعطاء 2,50 بسيطة حسنية إلى كل واحد من الحلاقين الذين جاؤوا ليساعدوه ، ويقتسم الباقي مع غلمانه الذين كان لهم الحق في خمس المبلغ (ثمن أوجه في المثقال) مهما كان عددهم ، بينما الأخماس الأربعة الأخرى كانت من نصيب الحلاق الرئيسي . وكانت تحدث أحياناً مناقشة بين الحلاقين ،لا من أجل القسمة التي كانت منظمة بدقة وفق العادة ، ولكن لأن حلاق الأب وحلاق الابن ، إذا كان لكل واحد منهما حلاق ، كانا يتنافسان حول الشرف .. وفائدة الاحتفال . وفي حالة عدم وقوع تسوية حبية كان النزاع يعرض على خبراء الطائفة الحرفية ، أو على المحتسب . فكانت الفتوى في المادة كالتالي : إذا كان الشاب زبوناً للحلاق منذ أقل من ستة أشهر ، أُقصي حلاقه ، وإلاّ قسمت الأرباح (بحث شخصي حول الحلاقين 1945) .

كان هذا الحفل يسمى « الغرامة على العريس في الشيلية » ، أو فقط « الشيلية » (الكرسي) فإذا انتهى الحفل ، كان الحلاق يقوم بعمله ، فيحلق رأس الخاطب ويزين لحيته عند الاقتضاء، ثم يعود الموكب إلى دار إسلان بنفس الكيفية .

كانت إذن الأيام القلائل السابقة للزفاف أيام تدريب ، بالنسبة للزوج وبالنسبة للعروس ، لكنه يلاحظ أن الواجبات المفروضة على الرجل لم تكن لها أهمية بمقدار الواجبات المفروضة على المرأة ، بل أبعد من ذلك ، لأن التغيير الذي سوف يطرأ عليه أقل أهمية بكثير ؛ فليس عليه أن يمر من أسرة إلى أخرى ، إذ سيبقى يعيش ، كذي قبل ، في منزل أبويه ، بالإضافة إلى أن خلقته لن تتبدل جذرياً ، فلا حاجة إذن في أن تتخذ له الاحتياطات المتعددة اللازمة لتؤمن له تحولاً سعيداً .

احتفالات الزفاف : ـ بعد انتهاء كل هذه الاستعدادات ، كانوا يصلون اخيراً إلى الزفاف بمعنى الكلمة (ليلة الدخول) . في تلك الليلة كان الفرح في الديار الثلاث التي كان يقام فيها الزواج ، الداران العائليتان ودار الخاطب .

كان منزل الفتاة ، في بداية الليل ، مسرحاً لأهم مشهد . وحتى حوالي الساعة الواحدة صباحاً ، كان الفناء والطابق السفلي محجوزين للرجال ، بينما النساء كلهن ، ومعهن العروس ، ينزوين في الطابق الأول ، حيث يلقين من هناك نظرات عابرة على الفناء المضاء ويستمعن إلى أصداء الجمع : كان هناك جوق للموسيقى الأندلسية يشنف الأسماع ، بينما يُجلس الحلاقون الضيوف الذين استقبلهم رب البيت في عتبة الفناء ويسارعون في خدمتهم. كان الفناء يفرغ حوالي منتصف الليل ، ولا يبقى سوى الأصدقاء الحميمين الذين يتناولون حوالي الواحدة صباحاً العشاء التقليدي في انتظار مجيء الموكب العرسي .

كان ينظم احتفال مماثل عند والد الزوج ؛ وبعد العشاء ، يذهب الحلاقون حوالي الثانية صباحاً للبحث عن شبان دار إسلان الذين يكونون بدورهم قد أولموا قبل ساعة الاحتفال . ويتألف موكب في هذه الدار يتقدمه أطفال يحملون شموعاً بأيديهم ، ثم ينتشرون في الأزقة الضيقة الملتوية للمدينة ، تحت إيقاع صرخات الفرح للأطفال ، والصلوات والأناشيد التي يرتلها الجميع معاً .

وكان موكب آخر قد تألف في فناء دار العروس ؛ فيقتبل الموكب الأول لكن ليس دون مقاومة ، وربما كان ذلك تذكاراً للعهد الذي كان الزواج يبتدئ فيه باختطاف حقيقي ؛ كان مبعوثو الزوج مضطرين إلى قرع الباب طويلاً قبل التمكن من الدخول . فإذا انتهت هذه المقاومة الرمزية ، شرع الموكبان معاً في الغناء إلى أن تتأهب الفتاة . كانت تلك ساعة الفراق والدموع ؛ فإذا ارتدت العروس « حائكها » ذهبت لتودع أباها وهي تبكي . لقد أصبحت هذه الدموع مضرب المثل بفاس ؛ يحكى أن أباً ، وهو متأثر من رؤ ية ابنته البكر في أسى شديد ، اقترح عليها أن يزف اختها الصغيرة مكانها ، فأجابت وهي تشهق : « لا ، لا ، كلّهن بكين ولكنهن ذهبن (كل شيء بكى ومشى)[51] » .

كان الموكب الزفافي يتشكل : في المقدمة رجال أسرة الزوج ، ثم الخاطبات ، تتبعهن العروس في ست أو ثمان من قريباتها ، مرتديات لباساً مماثلاً لها تماماً حتى لا تدري الجن مَن التي سيمسُّونها بسوء ، إذا ما التقوا بالموكب[52] . ويأتي في المؤخرة أقرباء العروس رجالاً وشباناً . وتحمل الخاطبات والأطفال شموعاً تضيء طريق هذا الموكب المرح : كان الفريقان من الرجال يتبادلان في الأزقة خطاباً شعائرياً تقليدياً ، يقول أقرباء الزوج :

(51) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور .

(52) اضمحلت هذه العادة وجعلت عوائد جديدة تخلفها . فقد شوهد خلال صيف 1946 موكبٌ العروس فيه مرتديةٌ جلبابها ، وهي محفوفة بحوالي ثلاثين فتاة لابسات الزي الأوروبي وسافرات : كان جلهن تقريباً من قديمات تلميذات مدارس البنات التي أنشأتها الحماية

« عباها ، عباها والله ما خلّاها » فيرد عليهم الآخرون : « عباتو عباتو ، لوّاتو في كساتو»[53]. ولم يكونوا يترددون في إحداث ضجيج كبير؛ يطرق الأطفال الأبواب بشدة لإيقاظ النائمين حتى يؤمّن للموكب العرسي أكبر إشهار .

كان الموكب يجتنب ما أمكن مجرى الماء الذي هو مقام الجن ؛ فإذا اتفق أنه لا بد من المرور بجدول ، كانت امرأة تقف بين العروس والماء وتلقي شيئاً من الملح ، لإبعاد الخصوم المستترين عن الأنظار .

وإذا كان الزوج شريفاً أو من أسرة عربية زفّت عروسه إليه على شبه « كرسي » تعلوه قبة ، يقدمه ويحمله القبارون (الصحّافة)[54] . ولم يكن للأسر الأخرى الحق في علامة الشرف هذه ، فلا الخاطبات ولا القبارون يسلمون الكرسي إليها ولو بأغلى ثمن .

كان الموكب يتفرق أمام باب دار العرس. يهمّ الرجال بالدخول، لكنهم يُطردون بدون مراعاة . ويعود أقرباء العروس إلى منزلها ، ويذهب أقرباء الزوج إلى دار إسلان ، ولم يكن يدخل مع العروس إلى منزلها الجديد سوى النساء . فتتقبّلها خادمة تعمل مع الخاطبات ، وهي وصيفة (كُلاسة) تساعد العروس طوال احتفالات الزفاف . وبعد أن تستريح قليلاً ، كانت الخاطبات يُلبسنها الرداء الذي كانت قد لبسته في منزلها ويخضبنها . ثم يقدنها وهي محجوبة إلى عتبة غرفة الزفاف، ويقدّمن لها رغيفين تضعهما تحت إبطيها ومجموعة من المفاتيح ؛ تحيط بها اثنتان منهن ، إحداهما تمسك قدحا من لبن ، والأخرى طبقاً من تمر . فتتقدم أم الزوج ، وتعطي قطعة من نقود

---

(53) وﭬيستير مارك، المرجع المذكور ، ص. 147 .

(54) نفس المرجع . ويشير ليون الافريقي (القسم 2 ، ص 122) إلى أن هذه العادة القديمة جداً بالتأكيد ، كانت متبعة في شمال المغرب كله (ويستير مارك ، المرجع المذكور ، ص. 148 - 149) . لقد أهملت هذه العادة ، وما زالت القبة تحمل للأسر الشريفة ، لكن العروس لم تعد تطلع فيها .

للخاطبات ، « وترفع الحجاب الذي كان يغطي وجه امرأة ابنها التي تبقى مطبقة العينين ، وتقبلها بخفة على وجنتها وتسدل الحجاب ؛ ثم تشرب جرعة من لبن في القدح الذي تقدمه لها (النكّافة) وتأخذ تمرة من الطبق الذي تقدمه لها (النكّافة) الأخرى وتعود الى مكانها »[55] .

وهكذا فإن العروس كانت تتقبل بادئ ذي بدء تهانئ (سلام) حماتها ، فكانت تتبناها أسرة زوجها حتى قبل اقترانها به . ثم كانت الخاطبات يحملنها على الأكتاف ، كما فعلن سابقاً ، بعد إعادة حفل المنبر ، كما حدث ذلك ليلة « القوالب الكبار » ، لكن بدون أن يكرر رهن العروس وتسليم الهدايا .

وفي هذه الأثناء ، كانت خاطبتان تذهبان للبحث عن الزوج في دار إسلان حوالي الساعة الخامسة صباحاً ، حاملتين إليه « جلابة » وبرنسا من الصوف الرفيع والحرير الأبيض (كساء) . وكان أصدقاؤه يساعدونه على وضعها فوق ملابسه ويصحبه الجميع إلى باب دار العرس ، شبانا وخاطبات : كان الشبّان لا يدخلون[56] لكنهم يؤدون الغرامة للخاطبات ، ويدخل الزوج وحده إلى الفناء ويفتح لنفسه الطريق بين جمهور المدعوات ليلتحق بغرفة زوجته ، وغطاء رأسه مسدل على عينيه . كان يقف وراءها ، بينما الخاطبات ينوهن بها مرة ثانية . ثم إن الخاطبات يُدرن الشابة إلى جهة زوجها ويُزلن الحجاب عن وجهها ، فيتقابل الزوجان للمرة الأولى ، في أغلب الأحيان . تكون تلك اللحظة مؤثرة بالنسبة لهذين المخلوقين ، لا سيما في المحيط الاصطناعي المتوتر الذي كانا يعيشان فيه منذ أيام عدة ؛ كان كلاهما ينتظر هذه

---

(55) ق. بنعبد الجليل ، نفس المرجع .

(56) حسب ڤيستيرمارك (المرجع المذكور، ص. 198 - 199)، كان أصدقاء الزوج يصحبونه حتى عتبة غرفة العرس بعد أن التحقت المدعوات بالطابق الأول، وقد أنبئن بزغاريد الخاطبات .

وقبل مغادرة الزوج ، كانوا يتلقون هدية التمر والحليب لفائدة الخاطبات . وهذه العادة المذكورة هكذا كانت متبعة في الأوساط الشعبية ، لا سيما في العائلات الوافدة مؤخراً من البادية ، لا في الأوساط البجورجوازية .

اللحظة بإحساس قريب جداً من القلق ، فكان بعض الشبان الضعيفي الأعصاب لا يتحملون صدمة النظرة الأولى فيعرفون فترة من الضعف .

وسرعان ما تضع الخاطبات حداً لهذه النظرة الأولى التي كانت تنبئ بسعادة الزواج أو تعاسته ، فيأخذن العروس إلى قبة العرس ، ثم يدخلن الزوج . كان هذا الأخير يضع يده اليمنى على كتف رفيقته ويهمهم بآية من القرآن تكون عادة هي آية الكرسي[57] . كانت الخاطبات يخلصن الشابة من جميع الحلي التي عليها ، وينظفن وجهها المكسو بالخضاب ، ويتركنها مع زوجها ، وهي لابسة قميصاً رقيقاً وسروالاً « ناصع البياض ، وهو رمز البكارة» . كان هذان المخلوقان ، وهما سيتصلان بعد قليل ، يجدان نفسهما وجها لوجه للمرة الأولى . كانت اللياقة تفرض ألا يتم الزواج ذلك الصباح ، كما كان التعب والانفعال يعززانها[58] .

وكان أول يوم بعد « ليلة الدخول » يدعى الصباح[59].كان الزوج يذهب في الصباح الباكر إلى دار إسلان،حيث يلتقي من جديد بأقرب الأصدقاء إليه، ثم يعود إلى القبة الزوجية لتناول الفطور . وبعد قضاء هنيهة بدار إسلان كان يزور امرأته في منتصف العشية تقريباً ، وهي مزينة مثل صنم ، وجالسة على كدس من الوسائد ، مغمضة العينين ؛ وهذا العرض ، الذي كان سيتجدد في الأيام التالية ، لم يكن يدوم أكثر من ربع ساعة .

وفي هذه الأثناء ، كانت فتيات الأسرة بارزات بفناء الدار التي غادرتها

---

(57) القرآن ، السورة 2 ، الآية 256 .

(58) من المعلوم أن هذه إشارة عامة قابلة لتغيرات فردية متعددة . وبالعكس من ذلك في فاس الجديد عند العائلات الوافدة مؤخراً من البادية ، كان لا بد من أن يتم الزواج ابتداءً من أول لقاء بين الزوجين .

(59) كان جوق مؤلف من الطبالين والغياطين يأتي في الصباح الباكر، بفاس الجديد، وفي الأوساط الشعبية بالرباط ، ليتمنى للزوجين صبيحة سعيدة ، مقابل مكافأة (ڤيستيرمارك ، نفس المرجع ، ص. 199 -200) .

العروس ، وهن متزينات بحلي فاخر (وعددهن ثلاثون أحياناً) . وكانت هذه في الغالب مناسبة تتاح للأمهات ليخترن زوجة لابنهن المقبل على ذلك .

وبعد تناول طعام العشاء ، كان الزوج يعود إلى القبة ، وتكون تلك الليلة عادة ليلة إتمام الزواج[60] . وفي ساعة مبكرة من نهار الغد (الصبوحي) كانت جميع النساء المتزوجات يجتمعن وهن ينتظرن الخاطبات اللوائي كن يحملن بعد قليل سراويل العروس وهي ملطخة بالدم ، بعد أن عرضنها على أبوي الزوج فأعطياهن مالاً كعلامة على فرحهما . وتنصرف المدعوات فوراً لتستأنف الدار حياتها المعتادة[61] . وفي عشية نفس اليوم كانت تجري بدار العرس حفلة يقدم الزوج خلالها هدايا إلى زوجته[62] ، وتقع حين إبراز العروس حسب نفس الطقوس المتبعة في الأمس .

وفي اليومين التاليين (نهار ثاني الصبوحي ونهار ثالث الصبوحي) ، كانت العروس تبرز في آخر العشية ويزورها زوجها ، بينما يستمر توافد المدعوات على دار العرس . وابتداء من يوم الغد (النهار الثاني للصبوحي) كانت دار إسلان تفقد طابعها الخصوصي ، لكن الزوج كان يقضي فيها باستمرار جميع أيامه مع أعز أصدقائه ، وهم يلعبون الورق ، ويتداعبون أو يتحدثون[63] .

---

(60) إذا تم الزواج من أول ملاقاة الزوجين ، كان الخبر يؤجّل إلى يوم الغد ، وذلك حسب اللياقة ، لكن ذلك لم يكن يخدع أحداً ، إذ كان الكل ينشر خبره .

(61) حسب ڤيستيرمارك، (المرجع المذكور ، ص. 201) إذا اتفق أن لم يتم الزواج ذلك اليوم ، كان الضيوف يمكثون حتى يتم ، ولكن مع ذلك بدون تجاوز الأجل الذي هو تسعة أيام . وهذا الشرط الصالح لفاس الجديد لم يكن يهم الأوساط البورجوازية بالمدينة ، حيث إنه إن لم تتم حفلة السروال تفرقت النساء رغم ذلك .

(62) إليكم قائمة هذه الهدايا التي وضعها السيد قاسم بنعبد الجليل (المرجع المذكور) : أربع قطع من النسيج النفيس ، وزوجان من الأحذية المطرزة بالذهب ، وحزام مطرز بالذهب ، وثلاثة مناديل ، وصندوق صغير للتجميل (وهذه طبعاً بدعة متأخرة بكثير عن إقامة الحماية) ، وعطور ، وثلاثة أو أربعة أرطال من خشب الصندل ، وزوجٌ من الأقراط الذهبية المرصعة بالأحجار النفيسة ، ومرآة كبيرة .

(63) كان بالإمكان في المنازل الفسيحة ، أن يقيم الزوج بالطابق الأول ، تاركاً دار إسلان .

وكان اليوم الخامس يحمل اسم « نهار حل الراس » : وفعلاً كانت الخاطبات يحللن زينة الرأس الخاصة بالعروس (سلتة) ويعوضنها بزينة النساء المتزوجات ، وهي ضفيرة في كل جانب من جانبي الرأس . كانت المدعوات كثيرات العدد لمشاهدة هذه الحفلة التي كانت تخلد ذكرى تبديل الحالة للشابة ؛ فكن يرتدين ملابس فاخرة ، « فويل للتي ترتدي نفس ملابس البارحة ، إذ كانت موضوع انتقادات كثيرة ومحط جميع الأنظار »[64] . إلا أن العروس ، وهي دائماً مزينة بأبهى الحلي ، كانت تلبس ملابس أكثر بساطة : كانت الحلي وزينات الرأس تعوّض بمنديل مطرز (سبنيّة) وواسع بقدر ما يسدل على الوجه . وكانت الخاطبات يجلسنها على عتبة الغرفة ، مولية ظهرها للفناء ، فيأتي إذ ذاك الزوج ويتناول من يدي إحدى الخاطبات ضفيرة من شعر زوجته ، ويجدّ في حلها بعض الشيء ؛ وبعد ذلك ، كان يلصق بجبينها قطعة من ذهب ويسلمها للخاطبات ليزين رأسها . وإذا تم كل ذلك ، قدمت إلى المدعوات بدون خضاب فاتحة عينيها . وكان والد العروس يرسل ذلك اليوم أيضاً ، من قبل ابنته ، الهدايا المعتادة إلى أقرباء الزوج وقريباته ملفوفة في أقمشة مطرزة ، وكانت عبَارة عن قفاطين ، وفوط مطرزة ، وَمَناديل مختلفة . كان ذلك ما يسمى بالصواب[65] . وأخيراً كانت العروس تتسلم من أمها ثلاث موائد مملوءة إحداها بالبيض المصلوق ، والثانية بخبز الأبـازير المحلى (قراشل) والثالثة باللوز المقلي ؛ كانت هذه الهدية تدعى « الحمّام » لأن العروس كانت تستحم في المساء بمساعدة الخاطبات[66] .

---

(64) ق. بنعبد الجليل ، المرجع المذكور . كانت المدعوات يبدلن ملابسهن كل يوم ، وفي غالب الأحيان مرتين وحتى ثلاثة مرات في اليوم

(65) تدل لفظة صواب على هذه الهدية في كلام فاس ، ولكن أيضاً بصفة أعم ، على كل تبادل للمجاملات التي كانت تتم في خامس يوم للزفاف وسادسه . الصواب معناه ما يليق ، ما يجب أن يعمل .

(66) كان يجري هذا الاستحمام ، إما في الحمام العمومي (ڤيستيرمـارك ، المرجع المذكور ، ص. 242) وإما في إحدى ملحقات غرفة العرس «المحوّلة إلى قاعة للنظافة » (ق . بنعبـد الجليل ، المرجع المذكور) .

وفي اليوم السادس المسمى (نهار الغسيل)من أجل الاستحمام ليلاً،كانت الخاطبات قبل إبراز العروس للجمهور يسوين على رأسها قلنسوة النساء المسنات من أصل عريق (حنطوز) . ثم يتم العرض ، لكن ثلاث مرات متتالية[67]،ترتدي فيها العروس كل مرة لباسا مغايراً (لباسات) . وغالباً ما كان أبو المرأة الشابة يرسل أيضاً إلى صهره في ذلك اليوم أربع أو ست موائد ، إحداها من كعب غزال ،وأخرى من غريبة ، وواحدة أو اثنتان من المحنشة ، وواحدة أو اثنتان من البسطيلة[68] . وكان قسم من هذه الأطعمة (الفطور) على الأقل يوضع جانباً ترقباً للغداء الذي كان يجمع ، في اليوم الثامن أو بعده ببضعة أيام ، رجال الأسرتين (البوسة أو بوسليت) ، والذي كانت العروس تتعرف فيه على رجال أسرة زوجها .

وأخيراً في اليوم السابع بعد أن يكون الزوجان قد قضيا آخر ليلة في قبة العرس ، كانت الخاطبات يأتين لإصلاح كل شيء ثم يغادرن دار العرس . ومنذئذ يعود الزوجان مخلوقين عاديين كغيرهما ، بعدما خضعا للعوائد التابعة لتبديل حالتهما . ومع ذلك كانت العروس تصنع الخبز في اليوم التاسع « حتى يكثر دائماً في الدار » وتحضر طبقاً من السمك ، لأن « أكل السمك يجلب حسن الحظ »[69] .

وكانت العروس ترتدي بهذه المناسبة لباس الطباخات : فوطة ملفوفة حول الخصر ، وقباقب في الرجلين ، لكن الفوطة كانت من القماش الرقيق المطرز ، والقباقب مرصعة بالصدف . ومن المحتمل أن تحضير السمك الذي

---

(67) سبع مرات حسب ڤيستيرمارك (ص. 243) .

(68) كعب غزال حلويات من عجين اللوز ، وغريبة حلويات أخرى حافة من السميد والسكر ، والمحنشة عجين اللوز ، والقرفة والسكر والسمن معطر بماء الزهر ومغلف في عجين مورق ملفوف على شكل حلزون ؛ والبسطيلة شبه فطيرة مورقة ، محشوة بلحم الحمام ، والبيض ، واللوز والتوابل ، ويذر السكر فوقها .

(69) ڤيستيرمارك ، ص. 261 إني أتساءل هل هذا التفسير صالح إذ لا يعرفه أصدقائي الفاسيون .

كان يعتبر صعباً جداً في القديم ، كان بمثابة تجربة تُمكّن أم الزوج من تقييم الخصال المنزلية لزوجة ابنها ؛ لكن الحفلة لم تحتفظ بعد مع مرور الزمان ، إلاّ بقيمة رمزية ، هي بداية المرأة الشابة في الحياة المنزلية .

كان الزفاف الذي وُصف قبل قليل ، أول زفاف لكلا الزوجين . فإذا سبق لأحدهما أن تزوج ، كانت تطرأ على الحفل تغييرات متفاوتة الأهمية حسب الحالات .

فقبل كل شيء ، إذا كانت الزوجة أرملة أو مطلقة (هجّالة) ، كان الصداق المطلوب من الزوج مبدئياً أقل من الصداق المطلوب بالنسبة للبكر ، فيكون الفارق عادة هو الضعف .

وإذا تزوجت أرملة أو مطلقة من عازب (عزري) كانت الاحتفالات المذكورة تلغى بالنسبة لدار العروس قبل زفها إلى دار العرس ؛ وكان أبو المرأة الشابة يكتفي بوليمة يستدعي لها أناساً من أقاربه . لكن من الوقت الذي تغادر العروس فيه منزل أبويها كانت حفلات الزفاف تجري كما وصف سابقاً .

وفي الحالة العكسية ، أي إذا لم يسبق للعروس أن تزوجت قط ، ولكن الزوج أرمل أو مطلق أو متزوج بأخرى ، فإن الاحتفالات فيما يخص الفتاة ، كانت هي نفس الحفلات الموصوفة سابقاً ؛ لكن تحذف دار إسلان وجميع الحفلات المتعلقة بها . وأخيراً إذا كان الزوجان معاً سبق لهما زواج ، فإن جميع الحفلات تحذف . وفي اليوم المعين يكتفي الزوج بإيفاد امرأة أو امرأتين للإتيان بخطيبته ، عند غروب الشمس ، ويقيم وليمة في منزله مساء .

وبخصوص الطلاق وتعدد الزوجات ، ليس هناك مبدئياً شيء خصوصي يذكر ، لأن فاساً تتبع أحكام الفقه المَالكي كغيرها من مدن إفريقيا الشمالية . إلاّ أنه يجب اعتبار العادة الفاسية (العمل الفاسي) التي تدخل على هاتين المسألتين قيوداً صعبة جداً . فالطلاق بالأخص نادر جداً عند البورجوازية الفاسية . وبمجرد ما يصبح الطلاق مهدداً ، يجتهد الأقارب والأصدقاء في

حمل الزوج على العدول عنه ؛ وفعلاً فإن الطلاق مكروه جداً ويتسبب في الفضيحة ، ما عدا في حالات استثنائية ، وهو بالعكس من ذلك كثير الانتشار في الاوساط الشعبية . كما أن تعدد الزوجات ـ على ما يبدو ـ لم يكن يشكل القاعدة العامة(70) .

* * *

كان من الضروري أن نلح طويلاً على احتفالات الزواج ، وذلك لعدة أسباب . فقبل كل شيء ، إن الزواجات كانت وما زالت ، أحداثاً في غاية الأهمية ، لا في حياة الأفراد والعائلات فحسب ، ولكن في حياة الحاضرة بأسرها . ففي الفصل الجميل تعير هذه المدينة المكتظة بالسكان قسماً من انتباهها إلى الزواجات ؛ ويكون عدد المدعوين عظيماً ، يصل أحياناً إلى عدة مآت ، وتكون النفقات باهظة ، إلى درجة أنها تؤثر تأثيراً حقيقياً في اقتصاد فاس : فلنفكر في الأقمشة النفيسة المستوردة من الخارج ، وفي الطلبات المقدمة إلى الصناعات المحلية ، وفي المواد الغذائية المستهلكة أثناء هذه الأيام من الأفراح ، وفي الأنقال التي يقوم بها الحمالون ، وأخيراً في طوائف الحرف ، كطوائف الخاطبات والعازفين المرافقين للموكب ، والجوق الموسيقي ، والحلاقين الذين يكسبون عيشهم ، طوال عدة شهور بمساهمتهم في احتفالات الأعراس .

إن حفلات الزواج ، وهي عنصر لا يستهان به في الحياة الاقتصادية ، كانت أيضاً تسلية عظيمة : فخلال سبعة أيام ، أو عشرة إذا عددنا الاحتفالات التحضيرية ، كانت أسر كاملة ، لا سيما الأطفال والنساء ، لا يفكرون إلا في ذلك ولا يعيشون إلا له . مهما كان عدد حفلات الزواج قليلاً فإقامة ثلاثة أعراس أو أربعة بين الأهل او المعارف كان ذلك يعني قضاء أكثر من شهر في الأفراح والولائم . فلا نستغرب في هذه الحالات أن يُقبل الفاسيون على دفع

---

(70) إن المتطورين حالياً يعارضون تعدد الزوجات في غالب الأحيان . وفيما يخص الخطبة والحياة الزوجية ، فإنهم يميلون إلى التصورات الغربية التي ليست متناقضة مع الشريعة الإسلامية .

حصتهم لأداء مصاريف هذه الملاهي ، شريطة أن يعاملوا بالمثل . لقد رأينا في عدة مناسبات أن جميع المدعوين أو المدعوات كانوا مقيدين بالعادة ، لا لتقديم الهدايا للعروسين فحسب ، كما هو جار به العمل بأوروبا ، ولكن للمساهمة في دفع أجر الحلاقين والخاطبات[71] .

عندما نشاهد الأشياء من خارج ، نكون ميالين إلى الاحتفاظ قبل كل شيء بذلك المظهر الاحتفالي للزواج الفاسي . يجب ألا نقف عند هذا الحد ، ولكن نعتبر حقاً المظهر الجوهري لهذا العمل ، أي اقتران شخصين وأسرتين ، والوسائل الكفيلة بتسهيل هذا الاقتران . إن لهاتين السلسلتين من الأحداث المتداخلة جداً بعضها في بعض ، نفس الجوهر ، إذ أنهما تشكلان معاً طقوساً عـابرة[72] وتؤثران في الزوجة بالأخص ، حيث إنها تمر من المجموعة العائلية الأصلية إلى المجموعة العائلية المتبناة ، وتمر من حالة البكر إلى حالة المرأة المتزوجة . وأخطر وقت وذروة المأساة هي طبعاً الليلة التي تغادر فيها الفتاة منزل أبويها ، وتجد نفسها ، للمرة الأولى ، أمام زوجها . ينبغي ، تلك الليلة ، أن تتخذ أكبر الاحتياطات ، وأن تحترم بدقة الطقوس التي اشتهرت ، منذ أجيال ، بأنها تستطيع أن تسهل أكثر تغيير الحالة المـزدوجة المفروضة على المرأة . لكن جميع الطقوس السابقة لهذا الوقت الحرج والتابعة ، لها هي الأخرى قيمة كبرى ، لأنها تساهم أيضاً لا في تأمين سعادة شخصين فحسب ، ولكن بصفة خاصة في رسوخ الفرع الجديد الناشئ من شجرة الحياة ، بالإضافة إلى أنها تعطي الزواج كل الإشهار المطلوب في الفقه الإسلامي . ومن ثم الضرورة المعترف بها شيئاً فشيئاً ، لوجود طائفة المحافظاتِ على التقاليد ، وهن الخاطبات .

---

(71) إن الذين يزوجون أولادهم ، في الأوساط الموسرة ، يمكنهم جيداً أن يتخلوا عن هذه الإعانة من المدعوين . فإذا قبلوها ، فذلك للاحتراز من أن تستحي العائلات ذات الوسائل المحدودة من قبول المساهمة ، المواتية لهم كثيراً ، من ضيوفهم في مصاريف الزفاف .

(72) انظر ڤيستيرمـارك ، المرجع المذكور ، ص. 292

الخـاطبــات : ـ لقد رأينا ، طوال الوصف السابق ، أن هؤلاء النساء كن حاضرات بدون انقطاع ، وعاملات بدون توقف ؛ فلا يجب اعتبارهن كمجرد مكريات للملابس والزينات ، ولا أن يخصص لهن دور ثانوي كدور منظمي شؤون جنائزنا ، أو بوابينا أو قواسي كنائسنا مثلاً . بل يجب أن يعتبرن المحافظات على عادة أساسية ، وكاهنات طقوس الزواج ، إن لم يكن هذا اللفظ جارحاً لإحساس مجتمع إسلامي . وفضلاً عن ذلك فهن مؤهلات تماماً بحكم دورهن ، لا سيما الوصيفة التي لا تفارق الزوجين أبداً أثناء الأيام السبعة الأولى من وصالهما ، ليُستعملن كشاهدات إذا ما حدث نزاع في المسائل الزوجية . إن شهادتهن تكتسي لدى العادة الفاسية قيمة تكاد تعادل شهادة عدل .

هذا شيء عظيم لكنه ليس كل شيء : ذلك أن هؤلاء الخاطبات (نكَافة ج نكَاكَف أو نكافات أو ماشْطة أيضاً ، ج ماشطات)[73] لم يكن دورهن يقتصر على إنجاح احتفالات دقيقة ، مؤمّنات هكذا أمن المنازل ؛ بل كنّ يتدخلن بكيفية صارمة في الغالب ، في حياة فاس الباطنية . لذلك ينبغي أن توجه إليهن الأنظار لحظة .

ومن غريب المفارقات أن هؤلاء المحافظات على العادة لا ينتمين إلى

---

(73) معنى الكلمة العربية نكّاف (مؤنثهُ نكّافة) هو : حذِر متحفظ (والنطق بنكّافة تحريف عامي) ولفظ ماشطة هو اسم فاعل مؤنث للفعل مشط فلا بدَّ إذن من اتخاذها في الاشتقاق بمعنى ، ماشطة ، ملبسة . لكنها كانت تطلق ، منذ القرن السادس عشر ، عادة على «التي تصحبُ العروس إلى دار الزوج ، « ليلة الزفاف » (دوزي ، **ملحقات** ، جزء 2 ، ص. 594) . وليس من باب الصدفة في اللهجة الدارجة الفاسية، أن يستعمل دائماً لفظ نكافة، لأن دور هؤلاء النساء يفوق بكثير دور مجرد ملبسات ،«قد يليق جداً هنا استعمال لفظ قابلة»، لو لم يكن له عندنا معنى آخر . ونظراً لتنوع دورهن بفاس ، لم أتردد في استعمال لفظ خاطبات ، وإن لم يترجم حرفياً لا هذا ولا ذاك من اللفظين العربيين .

إن المعلومات التي جمعتها حول خاطبات فاس تكاد تكون كلها نتيجة تحرٍ شخصي قمت به محلياً في ربيع 1945 . وأشكر بالأخص السيد علال الكردودي التلميذ السابق بثانوية مولاي إدريس الذي أدخلني عند الأمينة الحاجة فاطمة التازية .

أصل عريق ، وعلى الأقل في شكلهن الحالي . إن ليون الإفريقي يتحدث حقاً عن « نساء يكلفن بتزيين العرائس »[74] لكن ، حسب التفاصيل التي يدلي بها ، يبدو جيداً أنهن يقمن فقط بدور ملبسات[75]، مقتصرات على « تهييء » العروس قبل ذهابها إلى بيت العرس . ولا يمكن بالضبط تحديد التاريخ الذي أخذت فيه الخاطبات يتظمن أنفسهن ويتخذن الأهمية التي رأيناها لهن ؛ إلا أننا يمكن أن نفترض بأن ذلك كان حوالي بداية القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، وهو التاريخ الذي تكاثر فيه العبيد السود بالمغرب[76] ؛ وحتى بداية القرن العشرين ، كانت الخاطبات كلهن تقريباً زنجيات معتقات .

كن يشكلن ، في أوائل القرن العشرين ، طائفة[77] تديرها أمينة (مؤنت أمين) . كانت تُقترح على المحتسب من طرف معلمات الطائفة وتلعب تقريباً نفس الدور لرؤساء طوائف حرف الرجال : كانت تستعمل كخبير في النزاعات التي قد تحدث بين أعضاء الطائفة ، أو بين الخاطبات والزبناء ؛ ومن جهة أُخرى ، كانت تعرض على المحتسب تعيين المعلمات للموافقة عليهن . وكانت دائماً امرأة مسنة غنية ، محترمة[78] .

كـانت الطائفة مقسمة إلى عدة جماعات تسمى (رباعات)[79] على

---

(75) وإليكم حديثه عنهن (الترجمة العربية المغربية ط. الثانية ، 250:1) : « وفي اليوم التالي تأتي النساء المتخصصات في تجميل العرائس فيمشطن شعرهن ويزين خدودهن بالحمرة ، ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالسواد مع رسوم جميلة ، لكن هذه الأصباغ لا تدوم طويلاً . وفي هذا اليوم تكون الوليمة الثانية ، فتوضع العروس فوق منصة ليشاهدها الجميع ، ويقدم الطعام للسيدات اللواتي قمن بتجميلها » .

(76) انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 .

(77) وهو شيء استثنائي في فاس بالنسبة للنساء : انظر ما سبق ، الكتاب 5 الفصل 2 ،ص. 295 ، هامش 1 .

(78) لقد حظيت لدى الأمينة الحالية باقتبال مشرف جداً . إنها تناهز الثمانين من عمرها ـ حسب ما قيل لي ـ وتظهر السلطة والفطنة . وخلافاً لزملائها رؤساء الطوائف الحرفية ، احتفظت بكل نفوذ الطوائف في العهد القديم.

(79) يرجع هذا الاسم على الأرجح الى العهد الذي كانت الطائفة فيه تضم أربع جماعات فقط .

رأس كل واحدة منها معلمة . كان عددها سبع (رباعات) في دولة مولاي عبد العزيز ، هي رباعة زايدة شقرونة ، وزايدة بنانية ، ومباركة العبدلاوية ، والحاجة مريم ، وزايدة الحبابية ، وهي الأمينة ، والياسمين الميسورية ، وياقوت السلاوية . وبمجرد قراءة هذا السرد ، يتبين أن جميع هؤلاء المعلمات تقريباً كن يحملن أسماء أسر فاسية عريقة : كبنشقرون ، وبناني ، والعبدلاوي ، والحبابي ، والسلاوي . لكن أية واحدة من بين هؤلاء لم تكن فاسية الأصل : ويدل اسمهن الشحصي (زايدة ، مباركة ، والياسمين . والياقوت) بوضوح على أنهن إماء . وفعلاً كن كذلك حقاً ، أو بالأحرى كن معتقات[80] ما زلن يحملن أسماء مواليهن السابقين ، كما فعلن عندما كن يخدمنهم في بيوتهم[81] . ومن جهة أخرى ، كان هذا المولى السابق في أغلب الأحيان هو الضامن لهن ، إذ لا واحدة منهن كانت تستطيع أن تنخرط في الطائفة لو لم يكن لها ضامن معروف جداً بالمدينة : فكان ثمن الزينات المتداولة بأيدي هؤلاء النساء ، والاطلاع الخطير الذي سرعان ما كن يكتسبنه على حياة فاس الباطنية ، يستلزمان أن تكون قيمتهن الأخلاقية مضمونة . فمن كان يا ترى قادراً على ذلك أكثر من المولى الذي عشن عنده ومنذ ولادتهنّ أحياناً ؟ ولم يكن هذا الضامن كافياً دائماً ، إذ كان لا بد من جهة أخرى أن تكون طالبة الخدمة معروفة من واحدة أو عدة خاطبات مثبتات . فكان لمبدإ العلاقات الشخصية ، الراسخ بفاس بهذا القدر ، تأثير بالنسبة لهذه الطائفة أكثر من أية طائفة أخرى .

كانت معلمة كل جماعة تساعدها ثلاث أو أربع نساء ماهرات في المهنة

---

(80) منذ إلغاء الرق واضمحلاله تدريجياً ، فإن الزنجيات الحالكات السواد الموسومات بعلامات في وجوههن قد عُوّض شيئاً فشيئاً بنساء بيض ، جلهن خادمات قديمات ، من أصل بدوي ، لا توجد من بينهن أية امرأة من أصل فاسي . وبما أن هذه الحرفة ليست حرفة امرأة حرة كان من العار أن تزاولها امرأة فاسية .

(81) لم تقتصر علاقاتهن على هذا ، بل إن السيد أو ورثته هم الذين كانوا يرثونهن إذا متن ، لا أبو المواريث ، طبقاً لقانون الولاء .

(صانعة ج صانعات) ومتحليات بضمانات أخلاقية خصوصية ، بالإضافة إلى عدد غير محدد من العاملات (متعلمات) معظمهن على درجة من البلادة ، بحيث لا يرتقين أبداً إلى الدرجة العليا . وكان عدد أكبر الرباعات يصل إلى أربعين زنجية ، وأقلها من خمس عشرة إلى عشرين فقط[82] . كانت للمعلمة على مستخدماتها سلطة واسعة غالباً ما كانت تتجسد في اتخاذ عقوبات بدنية ؛ فلم تكن العاملات ولا المتعلمات يستطعن الولوج في رباعة أخرى بدون إذنها الصريح أو بدون إذن المحتسب ، وكان ذلك نفس الشيء ، لأن المحتسب في الخلافات القائمة بين معلمة وعاملة ، كان دائماً يؤيد المعلمة . وبالتالي فقد توطد تضامن متين بين مختلف المعلمات : فلم تكن أية واحدة منهن تحاول إغراء مستخدمات زميلاتها . بالإضافة إلى أنهن كن يتمتعن باعتبار لا ينكر ، يتناسب وثرواتهن وعدد مستخدماتهن .

لم يكن يقلّ سنُّ أية امرأة من هؤلاء النساء عن الخامسة والعشرين ، ويجاوز معظمهن الثلاثين . كما أن أية واحدة منهن لم تكن متزوجة ، وهذه قاعدة مطردة في الطائفة ؛ فاذا اتفق لإحداهن أن تزوجت ، فإنها تنقطع فوراً عن مزاولة حرفتها . وكان ممنوعاً عليهن أيضاً ربط العلاقات بالرجال من غير زواج ، لكن ألسنة السوء تؤكد بأن المغامرات الغرامية من نوع آخر لم تكن غير معروفة عندهن ؛ إلا أنهن على العموم كن مشهورات بحسن السلوك ، معروفات بالتدين . ألم يكن يشاركن التجار في شراء الرداء الذي يهدى كل سنة لتغطية ضريح المولى إدريس ؟ ألم تكن أغنياتهن كلها مختصة بالتسبيح لله أو بمدح رسوله ؟ وسنرى أخيراً أنهن لم يغفلن قط تقديم هدية إلى المولى إدريس عندما كن يتسلمن عربون الزواج أو عندما كنّ يتقاسمن أرباحهنّ . كانت كل واحدة منهن تسكن في بيتها ، لا يأتين عند المعلمة إلا لحاجيات خدمتهن أو من أجل استقبالات ودية .

(82) عدد جماعات الخاطبات حالياً هو ست جماعات ، ولا تضم أية واحدة منها أكثر من سبع او ثماني نساء . وهذه حجة أكيدة على أن الاحتفالات العرسية فقدت الكثير من روعتها .

كن يتعيشن مبدئياً من حرفتهن لا غير ، فكان كل شيء يسير على ما يرام إبان حفلات الزواج ، لكن عندما كانت تحل البطالة الشتوية ، كان الكثير منهن بدون موارد ، لا سيما العاملات (المتعلمات) ؛ فكان بعضهن يتعاطين حينئذ أعمال التطريز مثلاً ، في انتظار عودة الربيع والأعراس ، وكانت الأخريات يلتجئن بضعة أسابيع أو شهور الى منزل سيدهن القديم ، على أن يساهمن في الأشغال المنزلية كذي قبل ؛ كما كانت أخريات يحصلن على استضافة ثمانية أيام في أسرة زبونة ، وثمانية أيام في أسرة أخرى ، ويقضين فصل الكساد كيفما تيسر لهن . كانت الأسر تقبل هذه الضيافة دون كبير امتعاض لأنها كانت تُكسبها أكثر عناية الخاطبات .

كان نشاطهن الرئيسي يباشر، كما رأينا ذلك، بمناسبةالأعراس. كان لهن دور في بعض الاحتفالات العائلية الأخرى . فكن ينظمن في اليوم الموالي لسابع يوم ولادة أول طفل عرض الوليد (برزة) ، وعلى الأقل في الأسر الكبيرة[83] .

وبمناسبة (الختان) كان يقع استدعاؤهن غالباً لقراءة دعوات مباركة يعرفنها وحدهن ، ويتسلمن أجرة متناسبة مع كرم العائلة . فضلاً عن أن بعض الجماعات كانت تكري ملابس الختان . وبعد مرور يومين على الحفل ، وتحت ستار الرجوع لاستعادة هذه الملابس ، كن يقمن بزيارة ويتسلمن بعض الهدايا علاوة على مقابل الكراء . وأخيراً بمناسبة العودة من الحج والوفيات ، كن يستدعين أحياناً لقراءة الصلوات على النبي .

وكن يشاركن كذلك في الاحتفالات الرسمية : فلدى الدخول الرسمي للسلطان إلى فاس ، وعندما كان عامل جديد أو وزير جديد يتقلد مهامه ، كن يصنعن دُمى (أبيضيات) مزينة كالعرائس بحلى حقيقية تعرض على العاهل أو

---

(83) لقد اختفت هذه العادة تماماً . كان رب البيت يكافئهن كما يجب ؛ وكن يستلمن علاوة على ذلك بعض النقود من المدعوات اللاتي كن قد ساعدنهن في تزيينهن .

الشخصية الكبيرة ، عند مروره ، فيتوصلن بمنحة مالية ، جزاء لهن ، ويستدعين إلى قضاء ثلاثة أيام أو أربعة بالقصر .

وكان نشاطهن في الأعراس يباشر بثلاث كيفيات مختلفة :

أولاً : كانت المعلمات كما أسلفنا ، يُستشرن في غالب الأحيان لاختيار الزوجين ؛ وكان في وسعهن الإدلاء بمعلومات مفيدة لكثرة ما يعرفن من الأسر .

ثانياً : كن يكرين الملابس والحلي الضرورية للعروس . كانت كل الجماعات تملك ملكاً خاصاً الملابس الأساسية ؛ ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للحلي واللوازم اللباسية الأخرى ، لأن جل المعلمات لم يكنَّ غنيات حتى يقتنين كل ما كان لا بد منه . كنَّ إذن يكترينها من بعض الأسر البارزة ، كآل لحلو ، وبنيس ، ومكوار وغيرها كثير ؛ وكان الكراء لمدة شهر ، مقابل عربون . كانت الخاطبات يتصلن عادة بعدة مقرضين ، لأن هؤلاء وهم قليلو الاهتمام بالتعرض إلى المخاطر الكبرى ، كانوا يرفضون التخلي عن كثير من الأشياء النفيسة . وفعلاً ، ففي حالة سرقة (وكان هذا شيئاً نادراً ، لكنه ممكن الحدوث) لم تكن الخاطبة الرئيسة تعوض سوى نصف ثمن الشيء الضائع[84] . وتقوم الخاطبات بدورهن بإكراء هذه الأشياء لأسرة العروس ، لكن باليوم ، لا بالشهر ، ومن ثم يأتي ربح لا يستهان به .

ثالثاً : كانت « النكّافَف » ينظمن حفلات الزفاف ، كما أسلفنا القول ، غير مقتصرات على التخفيف على العائلات من الاهتمام بتهييء العروس وتأثيث غرفة العرس ، بل حريصات على أن تكون جميع الشعائر محترمة بدقة ، حسب الرتبة الاجتماعية للزوجين . ولم تعد بعد المعلمات وحدهن المسؤولات ، في هذا المجال الثالث لنشاطهن ، كما هو الشأن بالنسبة للمجالين الأوليين ؛ فكن يكتفين بإعطاء تعليماتهن وتسليم الملابس والزينات

---

(84) لقد تطورت أحياناً هذه العادة ، حيث إن المقرض يتحمل الآن جميع المخاطر .

المتفق عليها لنائباتهن ، ولا يظهرن إلا نادراً في الاحتفالات ؛ وكن يفضلن المكوث في منازلهن لتوزيع العمل ، وللقيام بأنفسهن بحراسة الأشياء النفيسة التي لم يكنَّ يستعملنها .

لم تكن المعلومات التي تعطيها الخاطبات من أجل قران تكافأ مباشرة ؛ كانت تستوجب للتي أدلت بها غذاء فاخراً ، وهدايا وصداقة (زبانة) الأسرة المعنية بالأمر ؛ كانت تكسبها بالأخص الاعتبار والمراعاة المشوبة بالخوف .

كان ثمن كراء الملابس والحلي يختلف حسب جودة السلع[85] وحسب الرتبة الاجتماعية والحالة المالية للزبناء أيضاً ، كان يتراوح عادة بين 100 و 200 ريال ، ويؤول بكامله إلى المعلمة . كانت هذه الأخيرة تفرض دائماً دفع العربون قبل الحفل بعشرين يوماً تقريباً ، وتبعث بقسط منه في الحين إلى زاوية مولاي ادريس .

كان معظم الأرباح التي تحققها الخاطبات يأتي من جمع التبرعات أثناء حفلات الزفاف . كان تبرعان في ليلة « القوالب الكبار» وواحد في حفل التعاهد، وآخر عند تسليم الهدايا[86]؛ بالإضافة إلى أن الخاطبات الأربع اللائي كن يحملن العروس على أكتافهن (دورة) يستلمن من 10 الى 20 ريالاً . وكان تبرع آخر خلال «ليلة الدخول» بمناسبة الترحيب بالعروس (غرامة الحليب وسلامة البوسة). وكان حفل «السراويل» يستوجب هدايا جديدة للخاطبات : هدية من الزوج ، وهدايا من النساء اللواتي بُشرن بذلك[87] . كما أن تقديم الهدايا من الزوج إلى امرأته كان يأتي ببعض المال[88] ، وكذلك تزيين الشعر ، في « نهار حل الرأس » . وأخيراً عندما كانت الخاطبات ينهين

---

(85) لم تكن الخاطبات يطالبن بأي ثمن كراء ، عندما كان يتعلق الأمر مثلاً بأسرة شريفة توجد في ضيق مادي .

(86) كانت كل مدعوة تعطي ريالاً أو اثنين .

(87) هؤلاء كن يعطين من ريال واحد إلى أربعة ريالات حسب إمكانياتهن .

(88) كانت العطايا هذه المرة رهيدة أكثر ، تتراوح بين قرش وريال .

عملهن ، بعد مرور سبعة أيام ، كان الزوج يسلم لهن هدية أخيرة تدعى « غرامة سبع أيام » .

وفضلاً عن هذه التبرعات الإجبارية ، كانت المعلمة تتوصل دائماً تقريباً قبل الزواج بهدايا عينية ، كمناديل مطرزة ، وسكر ، وعسل ، وشموع ، وحناء ؛ وغالباً ما كانت المستخدمات ، خلال الاحتفالات يأخذن هدايا أخرى من أسرة الزوج . وأخيراً ، كان من العادة أن تهدي الأسر المخزنية ملابس إلى المعلمة ومناديل (خرقات) إلى المتعلمات .

كانت الهدايا العينية تعود إلى قابضتها ؛ أما الهدايا المالية ، فكانت تجمع في صندوق مشترك (قبض) يوكل بحراسة المعلمة ؛ فكانت توزعه مرة أو مرتين في السنة ، أمام اثنتين من مستخدماتها ، غير غافلة عن وضع حفنة من الريالات جانباً لضريح المولى إدريس . كان نصف المبلغ المقسوم يعود إلى المعلمة ، والنصف الآخر يوزع على المستخدمات . ومعلوم أن لمساعدات المعلمة (صناعات) الحق في ضعف ما تأخذ الخادمات (المتعلمات) . من الواضح أنه ، في نهاية فصل مليء جداً ، لا بد أن يكون المبلغ الذي سيوزع جسيماً ، فلا غرابة أن تكون بعض المعلمات غنيات حقاً .

كان زبناء الخاطبات محدودين تقريباً في مدينة فاس ، لأن أهل فاس الجديد والقصبات ، وكلهم تقريباً من أصل بدوي ، كانوا لا يحتفلون بأعراسهم على الشكل الفاسي ، وحتى لو أرادوا ذلك كان جلهم غير قادرين عليه لفقرهم المذقع . أما بالنسبة إلى القصر ، فلم يكن العبيد منعدمين فيه لتنظيم الأعراس الملكية . كانت إذن البورجوازية الفاسية هي التي تستعمل مصالح الخاطبات ؛ وكان يحدث أن تستحضر أسرة فاسية انتقلت إلى مكناس ، أو الرباط أو سلا أو مراكش ، الخاطبات من فاس للاحتفال بزفاف . كان ذلك نادراً ، لأن المعلمة كانت تشترط ، زيادة على الأجور والهدايا المعتادة ، أن تعفى الجماعة كلها من كل نفقة أثناء مقامها خارج فاس ؛ وكان

القليل من الناس يستطيعون تحمل مثل هذا الترف .

هكذا كانت أولئك النساء اللائي كان لهن تأثير حقيقي في الأسر الفاسية ، وبالرغم على أصلهن الوضيع لم يكن محبوبات جداً لشراهتهن الكبيرة ، كما أنهن لم يكن مبجلات إذ كيف كان بإمكان فاسي أن يقدر امرأة بدون ثقافة ، كانت خادمة منذ عهد قريب ؟ لكنهم لم يكونوا يستطيعون التخلي عنهن لكونهن مطلعات أكثر من غيرهن ، على التقاليد العرسية ، ساهرات على احترامها ، ينجين العائلات من كثير من المشاغل المادية . فكانوا يخشونهن بالأخص لكونهن يعرفن المجتمع الفاسي تمام المعرفة ، لا تنقصهن الأسلحة للدفاع عن أنفسهن وحتى للهجوم . فلأن تتفق معهن امرأة كان ذلك بالنسبة لها الأمل في اجتناب ضرة أو طلاق ، لأن الخاطبات ، وهن يتصلن بالرجال ، لم يكن يترددن في وعظهم . لكن الويل للمرأة التي لم تكن تحسن استهواءهن ، إذ كان في استطاعتهن أن يوصين زوجها بطلاقها أو بالتزوج ثانياً . كن ـ وما زلن ـ تخشاهن العائلات التي أدركت لها بنت أو عدة بنات الزواج ، لأن ميلهن إلى الغيبة ، أو حتى النميمة ، كان معروفاً جيداً .

ولما كان للخاطبات سلطة يستعملنها هكذا ، كن يتجنبن بعناية الخوض في المغامرات الغرامية ، حتى لا يوجهن السلاح ضدهن لو قبلن دور الوسيطات ؛ ومع ذلك فان ألسنة السوء تقول إنهن إذا كن يرفضن خدمة (إيروس) فإنهن أقل صرامة إزاء (أفروديت ليسبوس) ، والله أعلم ! .

لا بد أن نتمنى أن يقوم كاتب فاسي يوماً مَّا بتشخيص هؤلاء الخاطبات في مشهد رواية أو كوميديا ؛ فسوف تكون له مادة غزيرة مع هؤلاء النساء الغريبات اللائي يعشن عازبات منقطعات لطقوس الحب ، في بساطة وخشونة ، ومع ذلك يحافظن على عادة ثابتة متشددة ، وهن إماء قديمات ، يفرضن استبداداً صارماً على المنازل البورجوازية بفاس ، طوال أفراح الأعراس . سوف ينطقهن الكاتب بلغة وقار مصطنع ومتدين تتخللها تعجبات وألفاظ تقنية ،

وسيصفهن جشعات، مترقبات كل فرصة للاغتياب والثرثرة، يحسنَّ الحديث إلى الرجال أحياناً ، وهديهم أحياناً إلى الصراط المستقيم ، مولعات بالأعياد ، وصراخ الزغاريد ، وجمهور النساء المتزينات ، مشبعات بشرفهن المهني ، كجميع الاختصاصيين بفاس ، يخشاهن الناس ويكرهونهن أحياناً ، ولكنهن لا يعوضن[89] .

(89) لقد نقصت أهمية الخاطبات منذ أن تزايد بسرعة عدد المتطورات . ومن المحتمل أن تطور الفتيات سيقضي عليهن نهائياً ، وأننا سنشاهد ، بفاس وبتوس معاً (انظر في هذا الصدد هـ . دومونتيلي، نفس المرجع ، هنا وهناك) ، تغريباً لحفلات الزفاف ، وتبسيطاً يجعل تدخل الخاطبات شيئاً فشيئاً عديم الجدوى . وهذا التطور هو الآن في طريق الإنجاز .

الفصل الرابع

4/7

الأولاد

يشجع الإسلام ، كالمسيحية ، على إنجاب الأولاد ، فكانت العائلات الكثيرة الأطفال إذن هي القاعدة في جميع أوساط فاس[1]. وكان الزوجان العقيمان يعرفان بأنهما مصابان بعلة من العلل أو بلعنة غير طبيعية ، وغالباً ما كانت النساء اللواتي لا أولاد لهن يذهبن لشرب ماء عين محاذية لضريح مولاي إدريس ليصبحن حوامل ، ويجتنبن هكذا الطلاق أو مجيء ضرة .

يمكن القول إذن بأن جل الزوجات الشابات كن ينتظرن ولداً ابتداء من أول سنة لزواجهن . وبمجرد ما يحملن يصبحن موضوع عناية خاصة ، كان يكفيهن ، لاسترعائها ، استعمال العبارة الطريفة الشائعة : « إنني بين روحين » (راني بين روحين)[2] .

---

(1) يمكن القول حالياً بأن تحديد النسل لم يطبق بفاس ، ما عدا من طرف بعض المتطورين الذين يعملون على تحديد عدد أولادهم أقل مما يعملون على الإبعاد بين الولادات ، وذلك حتى لا يفرضوا كبير عناء على زوجاتهم . كانت الرغبة الدائمة لمن يتزوجون هي أن ينجبوا أولاداً ، وأولاداً كثيرين .

(2) انظر عن الولادة وما يحيط بها من حفلات ، أوبان ، المقال المذكور، ص. 428 -429 . وقد حظيت من جهة أخرى بالتمكن من تصفح محاضرة لأحمد الصفريوي بعنوان : شعائر الولادة (وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس) ودراسة للسيدة ماص (الطفولة الصغيرة بفاس والرباط)، دبلوم للدراسات العليا غير منشور .

الطفولة الصغيرة : - كانت المرأة في حالة المخاض يحيط بها جمهور من القريبات ، والصديقات ، والجارات والمتطفلات ، وتساعدها قابلة[3] . وللتخفيف من آلام الوضع والتعجيل بالولادة، كن يلجأن إلى أدوية امرأة مسنة ، كما يوجد ذلك هنا وهناك عبر العالم ؛ فكانت المريضة مثلاً تشد بيديها على حبل موثوق بمسمار مثبت في الجدران (حبـل للاَّ فاطمـة الزهراء)[4]، ولإنزال غشاء الجنين كن يدعون النفساء إلى النفخ في قنينة واستنشاق مسحوق طابة لتعطس ، وما إلى ذلك . . .[5] وفي حالة صعوبة الولادة العسيرة ، كن يلجأن إلى أطفال الكتاب المجاور الذين يمسكون قماشاً وضعت في وسطه بيضة من أطرافه الأربعة ، ويتجولون في أزقة الحي وهم ينشدون : « امرأة تتوجع من ولادتها ، اعتقها يا مولانا ، بحق آيتي طه وياسين وبالقرآن الحكيم »[6] .

كانت القابلة تتسلم الوليد في خرقة بيضاء ، ومن هناك المثل القائل بخصوص السيء الحظ : « لا شك أنه استلم في خرقة سوداء». وبمجرد ما تنتهي النظافة ، كانت الحاضرات يسرعن لمشاهدته ويضعن عليه قطعة نقدية ، قائلات « تبارك الله ! » كان الأب يُخبر فوراً فيذبح ديكاً . وكانوا يرحبون بالوليد البكر إذا كان بنتاً ، ويعتبرونها من حسن الطالع[7] .

وابتداء من يوم الغد ، كانت أفراح الولادة تبدأ بشاي يقدم إلى النساء

---

(3) معناه حرفياً : التي تقتبل . كانت لكل أسرة قابلتها الرسمية ، وهي عادة أرملة من أصل وضيع ، كانت تكتفي بمزاولة حرفتها ، وليس لها لا سلطة الخاطبات ، ولا جشعهن ، ولا تأثيرهن . كانت تتوصل بهدية يوم الولادة (بشارة) وتجازى في سابع يوم ، حسب موارد الأسرة ، فضلاً عن هـدايا عَينية ، وتساهم في جميع الولائم المنظمة بمناسبة الولادة (السيدة ماص ، المرجع المذكور)؛ وكانت تتسلم زكاة الفطر بمناسبة عيد الفطر ، أي القمح الممنوح للفقراء (الصفريوي ، المرجع المذكور) .

(4) السيدة ماص ، المرجع المذكور .

(5) نفس المرجع .

(6) م . الزغاري ، المسيد ، ص.2 .

(7) أوبان ، المرجع المذكور .

اللواتي كن يأتين في ملابس فاخرة ، حاملات هدية نقدية (زرورة) . كانت العائلات الكبرى تستحضر مغنية ، وتكتفي العائلات الأخرى بالغناء فيما بينها على إيقاع الطبلات ، وعلى كل حال كانت تحدث ضجة كبرى. يقول مثل فاسي : إن تجمعات النساء شبيهة بتجمعات الضفاضع ، إذ أنها تجري بالضجيج[8]. ومنذ ذلك الحين إلى اليوم السابع كانت النفساء والطفل يزورهما العديد من النساء ، ولمعظم هؤلاء الزائرات نوايا خالصة وتهانئ كثيرة بحسن الطالع ؛ لكن قد يحدث أن تكون من بينهن من يحاولن الإساءة باستعمال « العين الشريرة » ، الأمر الذي من أجله كن يكثرن من الأدعية الكفيلة بإبطال تأثيرهن السيء .

وفي اليوم الثالث كان الولد يطلى بالحناء ، وهي عشبة مانعة للعفونة ونافعة ، وقد رأينا ذلك بصدد الزواج[9]. وفي اليوم الخامس كان موكب يحمل جهاز الوليد الذي يهديه أهل النفساء : فكانت تلك مناسبة لإقامة حفل جديد وأغنيات جديدة .

وأخيراً ، كان اليوم السابع (السابع أو نهار السمية) هو الأكثر احتفالاً . يجتمع الرجال باكراً في فناء الدار ليشاهدوا الأب وهو يذبح كبشاً قائلاً : « بسم الله والله أكبر ، على سمية فلان (ـ اسم الولد ـ). » وكانوا يقولون أحياناً : « إني أسميك فلاناً ، ابن فلان » . ولم يكن الاسم يختار قبل الولادة قط ، خشية أن يسبب مصيبة ، وكان هذا الاختيار خاضعاً لقواعد متغيرة جداً حسب العائلات . وكان الأب ، بعد ذلك ، يقدم لأصدقائه طعاماً تقليدياً (عقيقة) والنساء يعدن إلى المسرح عشية للحفل المدعو تهليلة (تطهير): كان الولد يغسل لأول مرة ثم ، بعد إلباسه ملابس جميلة ، كن يجتزن به في شكل موكب عتبة البيت الذي ولد فيه ويطفن به في الدار كلها لتقديمه إلى حيز المكان ؛ وأخيراً كان يوضع في مهده ، والشموع موقدة على رأس السرير .

---

(8) أحمد الصفريوي ، المرجع المذكور .
(9) الكتاب 7 ، الفصل 3 ، ص . 514 .

كان كل ذلك مصحوباً بالغناء والرقص (تحضيرة) .

كانت هذه الأيام السبعة تشكل أول فترة من حياة الوليد ، ثم كانت تفتح فترة جديدة لم يكن الطفل يغادر خلالها مسقط رأسه . وفي يوم الأربعين ، يحمله موكب من النساء الى ضريح مولاي إدريس ، وهناك كانوا يقصون له شعره ، دون أن يهملوا ذبح أضحية وتسليم هدية إلى المقدم . كانت هذه الحفلة تشكل تقديم الولد إلى ولي المدينة . وقبل إعادته إلى أمه ، كانوا يذهبون به ليقدموه إلى أقربائه . والحاصل أن ذلك يكون أول اتصال للولد بحياة الحاضرة .

وأخيراً ، وفي تاريخ غير محدد ، كانوا يحملونه إلى الحمام ليستحم فيه لأول مرة ، وكانت الأسر الغنية تنظم به حفلاً .

نرى إذن أن الوليد ، بعد أن أُعطي اسماً يحمله طول حياته ، كان يقدم بالتوالي إلى الجن المقيمين بالمكان الذي سيعيش فيه ، ثم إلى الولي حامي المدينة ، وأخيراً إلى الأهل والأقارب ، وهكذا كان يندَمج تدريجياً في الوسط الذي سيعيش فيه سنوات طوالاً ، إن شاء الله . ونشير كذلك إلى أن معظم الحفلات التي أعطينا عنها نظرة وجيزة منذ قليل ، كانت وقفاً على النساء .

وفعلاً كانت الطفولة الأولى كلها خاضعة للنساء ، لم يكن للرجال دخل فيها إطلاقاً(10) ، حتى إنه غالباً ما كانت النساء يقلن عن الرجال : « ما عندهم

---

(10) وبخصوص هذه النقطة ، وغيرها كثير ، فإن المتطورين بصدد تغيير العادة بفاس . فسرعان ما تيقنوا بأن الكثير من العوائد السلمية كانت قليلة الاتفاق مع مبادئ الصحة العصرية . لذلك فقد أخذ العديد منهم على عاتقهم العلاجات التي ينبغي أن تعطى للوضع ، معلنين الكفاح ، في كثير من الحالات ، ضد جميع نساء أسرتهم ، من جدات، وقريبات ، وخادمات عجائز ، وأحياناً حتى ضد أزواجهم . يهتمون خصيصاً بتغذية الطفل ، وكثيراً ما يلجؤون إلى هيئات مثل « نقطة الحليب » التي يعرفون أنهم سيجدون بها ما يليق بالرضع . وقد آتى تشبثهم أُكْلَه ، حيث إن النساء اللاتي يلجأن من تلقاء أنفسهن إلى الطرق العصرية للرضع كثيرات الآن ، ويحملن رضيعهن إلى المستوصف ؛ كما أن تنمية مدارس البنات الإسلامية ساهمت في هذا التطور بكيفية واسعة .

كبدة في أولادهم»[11]. وهذا تصريح في غاية الإطلاق ، لأن الآباء سواء بفاس أو غيرها من الأماكن ، كانوا يحبون أطفالهم ، لكنه تصريح حقيقي بمعنى الكلمة أنهم لم يكونوا ينشغلون كثيراً بهم في الحياة اليومية ، تاركين للنساء مهمة تربيتهم وتكوينهم . ولم يكن الأب يهتم بابنه اهتماماً فعالاً إلا عندما يدخل إلى المدرسة ؛ أما البنات فكن دائماً يدرن في فلك أمهاتهن ونساء المنزل .

وإذا كان الطفل الفاسي يترعرع في وسط هؤلاء النساء المتباينات كثيراً سواء من حيث السن أو الوضعية، ولكنهن يعشن مجتمعات طوال اليوم بما فيهن الأم، والجدات، والخالات، وبنات العم، والإماء بالنسبة للأغنياء، والجارات بالنسبة للفقراء ، فإنه لم يكن يتمكن من اتخاذ العوائد المنتظمة التي نجتهد في إعطائها لأولادنا منذ سنهم الباكر . إلا أن الكل كان مجمعاً تماماً أو تقريباً على تلقينه احترام اللياقات « والقاعدة » ، ولو تطلب الأمر عقوبات بدنية . ومن جهة أخرى ، فبمجرد ما كان الطفل يبلغ السن الكافي لإدراك ما يجري حوله ، كان يكسب أيضاً حساً دقيقاً للملاءمات الطبيعية والمخالفات المواتية . وهذه تربية تختلف عمقاً عن تربيتنا ابتداء من المواقف والحركات إلى الانشغالات الأخلاقية ؛ لكنها متكيفة جداً مع غاياتها ، لأنها كانت تنمي في الطفل على جميع أنواع المظاهر ، الشعور بالانتماء إلى مجموعته ، وتقدم له الطرق للتصرف الحسن إزاءها .

المسيـــد : ـ كان التعليم يلقن خارج الدار ، ما عدا في حالات استثنائية . كان الصبيان يذهبون إلى الكتاب (المسيد)[12] وإن كانوا لا يذهبون إليه كلهم لأن التعليم كان قليل الانتشار نسبياً في الأوساط الفقيرة ،

---

(11) مدام ماص ، المرجع المذكور .

(12) انظر عن « المسيد » بفاس بيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 309 وما بعدها . وكذلك الدراسة الممتازة لصديقي السيد محمد الزغاري « المسيد » في مجلة التعليم العمومي للمغرب ، عدد 159 .

حيث كان الآباء غالباً ما ينقصهم تقليد فكري ولا يملكون خاصة المال الكافي لأداء تكاليف التمدرس . وعلى العكس من ذلك يمكن القول إن جميع أبناء الأسر الموسرة كانوا يختلفون إلى الكتاب بكيفية متفاوتة ؛ بحيث إن شباب فاس ، على العموم وبقدر ما يمكننا أن نحكم عند انعدام المعلومات الإحصائية ، كان متعلماً جداً بالنسبة لمجموع المغرب ، وحتى بالنسبة لمدن أخرى من مدن المملكة الشريفة . فكان عدد الكتاتيب ، في المدينة وحدها ، 120 كتاباً ، منها 24 في عدوة الأندلس و96 في عدوة القرويين وقصبة فيلالة[13] .

لا فائدة في وصف قاعة الدرس ، والأدوات المدرسية والطرق التربوية «للمسيد» ، لأن جميع كتاتيب العالم الإسلامي منظمة بنفس الكيفية ومعروفة منذ عهد قديم . لذلك سوف أكتفي ببيان بعض التفاصيل الخاصة بفاس .

وأغرب من هذا كله أن معلمي القرآن (فقيه ج فقهاء) لم يكونوا فاسيين ؛ فبينما كانت العادة تقتضي أن يكون الحلاقون وكثير غيرهم من أهل الحرف مدنيين منذ عهد طويل ، كان معلمو الشباب كلهم تقريباً يستخدمون من خارج فاس من بين جبالة وفيلالة . حقاً إنه كان يعترف لهم بتدين وورع ، لكنهم مع ذلك لم يكونوا سوى قرويين خشنين ، تهذبوا قليلاً أو كثيراً بفضل بضع سنوات من الدراسة بفاس . ورغم هذا الأصل المتواضع، كان معلمو القرآن محترمين من لدن التلاميذ بطبيعة الحال (كانت القضبان الموضوعة دائماً في متناول المعلم تساهم في ترسيخ الاحترام في هذه الأدمغة الفتية) ، وكذلك من لدن أولياء التلاميذ ، لا سيما الآباء الذين يكنّون الاحترام الواجب لخدام الدين وملقني العلم ؛ ولم يكن يغضبهم أن يروا أبناءهم خاضعين لسلطة عنيفة أحياناً ولكنها صارمة ، من شأنها أن تعادل بنجاح التسامح الطبيعي لربات البيت .

---

(13) انظر القائمة المفصلة عن هذه الكتاتيب ، عند پيريتيي، المرجع المذكور ، ص. 309 .

إلا أن هذا الاحترام لم يذهب إلى مكافأة الفقيه بسخاء . فكان كل واحد من التلاميذ يدفع له ، بموجب شبه عقد تقليدي[14] من 0.25 إلى 0.50 بسيطة حسنية كل يوم أربعاء[15] ، وذلك ما كان يؤمن له ربحاً يتراوح بين 5 و 10 بسيطات حسنية في الأسبوع . بالإضافة إلى أنه كان يستلم هدايا نقدية أو عينية بمناسبة الأعياد المدرسية والأعياد الدينية ، وكل ذلك لم يكن يغنيه .

كان الأب هو الذي يقدم ابنه إلى المعلم الذي اختاره ، عندما يبلغ الطفل ست سنوات تقريباً من عمره . لم يكن يسجله ، بل يسلمه إلى الفقيه مستعملاً العبارة التقليدية : « ها هو ابني ، وهو ابنك منذ الآن فصاعداً تسهر على تربيته . اضربه ، وإذا قتلته أنت دفنته أنا »[16] .

من البديهي أن المعلمين لم يكونوا يعبؤون باتخاذ هذا التصريح حرفياً لكنهم لم يكونوا يدخرون وسعاً في العقوبات البدنية : وهي عبارة عن مجرد ضربات بالقضيب على الرأس أو الكتفين بالنسبة للأخطاء الطفيفة ، وجلد باطن الأقدام بالنسبة للمخالفات الأكثر خطورة . وكان يوم الثلاثاء يعتبر من هذا القبيل مشؤوماً بكيفية خاصة[17] .

لم تكن مدة الإقامة بالكتاب محددة ، إذ كان الغرض المقصود هو حفظ الكتاب المقدس عن ظهر قلب ؛ فكان البعض في تحصيل ذلك أسرع من البعض الآخر ، كما أن الكثير كانوا يتوقفون في الطريق ويغادرون الكتاب بعد خمس سنوات أو ست أو حتى في أقل من ذلك .

---

(14) كان معلم القرآن يسمى : الفقيه المشارط (الفقيه المتعاقد) (مذكرة حول التعليم) .

(15) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 277 . نتذكر أن الأربعاء كان يوم سوق بفاس (انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 4 ، ص 389 ، هامش 6). كان المعلم في البادية يؤجر يوم السوق ، وقد ثبتت هذه العادة العريقة القروية في المدينة الكبيرة .

(16) الزغاري ، المرجع المذكور . كان آباء التلاميذ ، وعلى الأقل في بداية الحماية ، يستعملون نفس العبارة عند تقديم أبنائهم إلى المدرسة الفرنسية .

(17) نفس المرجع .

كانت الحياة الدراسية متسمة بشتى التسليات[18] ، يُحتفل بالأعياد الدينية قبل كل شيء : فكان عيد الأضحى مناسبة لولائم الصبيان (عشيشة قديرة) التي تنظم عند الأسر ؛ وكان سابع المولد النبوي يقضيه الأطفال في الكتاب أو في مسجد مجاور وهم يمرحون ويولمون ؛ وكانت عاشوراء تُحمل فيها الشموع إلى المعلم ، ويسهرون في الكتاب المضاء بالأنوار ، ويحفظون فيه منذ الفجر درساً قصيراً ليبدؤوا السنة على أحسن حال .

وكانت أيضاً أعياد خاصة بالكتاب ، أحدها يسمى الختمة ، عندما يحفظ أحد التلاميذ الحزب الأول من القرآن[19] .

كان الفائز يصحبه رفاقه إلى منزله ، وهو مرتدٍ ملابس مطرزة بالذهب ، ومحمول على الأكتاف كالعروس . وإذا حفظ تلميذ القرآن كله ، أقيم احتفال يدعى « حبيبنا »[20] . وبعد تناول الأطعمة والاستماع إلى أناشيد المغنيين الدينيين (المسمعين)[21] ، يبسطون سفرة بيضاء وضعت في وسطها لوحة بطل الاحتفال ما زال مكتوباً عليها آخر نص حفظه ، محفوفة بإطار من رسوم فنية . كان الحاضرون يلقون قطعاً نقدية على اللوحة إلى أن تغطى : كان ذلك يوفر أكبر ربح للفقيه[22] .

إن أساليب التربية في الكتاب تبدو لنا بدائية ، حيث إننا نشك في أن يكون تعليمٌ هو عبارة عن مجرد تقوية للذاكرة بهذا القدر مكوِّناً حقاً ؛ إلاّ أنه لا بد من الاعتراف بأن كل الذين مروا من الكتاب قد انطبعوا به انطباعاً عميقاً واحتفظوا له بذكر جيد . إنهم نسوا ضربات القضيب على باطن الأقدام ،

---

(18) الزغاري ، المرجع المذكور .

(19) إننا نعلم أن القرآن مقسم إلى 60 قسماً (حزب) موحدة الطول ، وذلك تسهيلاً للتعليم .

(20) يسمى هكذا لأن إحدى القصائد التي كانت تنشد بهذه المناسبة كانت في مدح حبيبنا سيدنا محمد (الزغاري نفس المرجع) .

(21) انظر عن هؤلاء المعنيين ، أ. شوطان ، الموسيقى المغربية، ص. 108 .

(22) نفس المرجع ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 278

والأصوات المتنافرة الأنغام التي تحفظ بأعلى صوت نصوصاً مختلفة ، ليحتفظوا فقط بذكر الحفلات البالغة الرونق بالنسبة للمخيلات الصبيانية ، وتلقين الحقيقة الدينية ، والمعلم العجوز الذي كانوا يسمونه "احتراماً ، « نعم آس »[23] ، والذي يعطي دروساً في الأخلاق والاستقامة في نفس الوقت الذي يُحفِّظ فيه القرآن الكريم .

مؤسسات البنـات : ـ كانت البنات يلازمن الدار ، على العموم ، وتسهر على تربيتهن كلّ من أمهاتهن ، ومرضعاتهن ، وجميع نساء المنزل . ومع ذلك كانت هناك دور للتربيةالنسوية على نوعين : معامل التطريز (دار معلمة) ، ومدارس بمعنى الكلمة تدعى مدارس البنات .

كانت المعامل[24] عادة تحت إشراف امرأة واحدة ، أرملة أو مطلقة من أصل محترم ، محتاجة إلى كسب قوتها . كانت تجمع عشر بنات صغيرات ، أو اثنتي عشرة من أسر فاضلة ، فتعلمهن التطريز وآداب اللياقة . ويتعلق الأمر هنا بمؤسسة حرة صرفة ، لا نستطيع أن نعطي عنها أي رقم ولو تقريبي .

كما كانت هناك مدارس حقيقية للبنات ، مماثلة لمدارس الصبيان ، لكنها أقل عدداً . كان عددها حوالي خمس عشرة مدرسة في أوائل القرن العشرين[25] موجودة في الأحياء البورجوازية وحدها تقريباً . كانت بنات الطبقات الفقيرة لا يختلفن إلى المدرسة ، وقليل منهن يختلفن إلى معامل التطريز .

---

(23) هو اختصار « نعم يا سيدي » . وقد أصبحت هذه العبارة اسماً علماً للفقيه من كثرة استعمالها للاستجابة إليه فيقال (« ذهبت عند نعم آسي . . وقال لي نعم آسي . . . وفعل نعم آسي . . . ») .

(24) انظر في هذا الصدد ما دام ش. برونو ـ دافيد ، مطروزات الرباط ، ص. 3-12 ؛ وف. بونجان ، اعترافات بنت الليل ، هنا وهناك .

(25) أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 278 ، وبيريتيي ، المرجع المذكور ، ص. 312 الذي يضع قائمة لها .

وسواء هنا أو هناك كن يتلقين تكويناً خلقياً واجتماعياً أكثر منه فكرياً . وحتى إذا كن يذهبن إلى المدرسة ، حيث كان اجتهادهن أقل من اجتهاد الأطفال ، لم يكن يتجاوزن قط مرحلة التعليم الأولي .

الختـــان : ـ كان الختان حادثة مهمة في حياة الأطفال ، ويجري في تاريخ غير محدد ، فيما بين السنة الثانية والسابعة أو الثامنة من العمر . ويحمل الطفل إلى المسجد المختار و (غالباً ما كان زاوية المولى إدريس) . كانوا يضعونه على فرس أو بغلة ، بعد أن يلبسوه ملابس جميلة مطرزة بالذهب ، غالباً ما كانوا يكترونها لأجل المناسبة ؛ ثم يتحرك الموكب على صوت المزامير والطبول ، ويرجع بعد انتهاء العملية ، متبعاً نفس الاحتفال . وكان القيام بهذه الشعيرة مناسبة لاحتفال عائلي .

كان حلاق الأسرة هو الذي ينجز العملية . لقد رأينا آنفاً[26] أن الحلاقين كانوا يتدخلون في الأعراس والاستقبالات، محتلين في الحياة الفاسية مكانة كبيرة تستحق أن نتوقف عندها هنيهة[27] ، لكن دون أن تكون لهم أهمية الخاطبات .

الحلاقـــون : ـ كان الحلاقون (حجامة) يشكلون ، مثل سائر أرباب المهن ، طائفة يديرها أمين[28] ، وتضم حوالي أربعين معلماً . كان يساعد كل واحد منهم عامل إلى ثلاثة عمال ، ومتعلم إلى ثلاثة متعلمين ، أي في المجموع 140 شخصاً تقريباً . كانوا كلهم فاسيين منذ عهد قديم ، ويزاول الكثير منهم الحرفة خلفاً عن سلف[29] ، بينما يدخل الآخرون إلى الحرفة عن

---

(26) انظر ما سبق ، ص. 508 -517 .

(27) لقد جمعت في عين المكان المعلومات التي ستأتي ، وذلك خلال بحث قمت به في ربيع 1945 . انظر كذلك موليراس ، المرجع المذكور ، ص. 431 ؛ وأوبان ، المرجع المذكور ، ص. 328.

(28) كان ذلك الأمين ، في دولة مولاي عبد العزيز ، هو المعلم العباس الفاسي .

(29) تضم حالياً هذه الطائفة بعض الغرباء ، وكانت قديماً مخصصة للفاسيين وحدهم ؛ غير أن جميع المعلمين المشهورين ما زالوا ينتمون إلى المدينة الإدريسية ، وما زال الاستخدام الوراثي معمولاً به ولا يقبل الغرباء إلا بتزكيات جدية .

طريق العلاقات[30] .

كانت دكاكين الحلاقين مجتمعة خاصة في أحياء وسط المدينة ، حيث كانت المعاملات التجارية وحيث النشاط كثير ، كما كانت توجد في الشارعين الكبيرين بفاس الطالعة الكبيرة والطالعة الصغيرة . ولم يكن منها بعدوة الأندلس كلها سوى خمسة (واحد بالصفاح ، وأربعة بالنخالين) ، وهذا دليل آخر على نقص عدوة الأندلس بالنسبة لعدوة القرويين . وكانت عدة أحياء ، كسويقة ابن صافي ، والبليدة ، ورأس الجنان ، والمخفية ، خالية منها تماماً . كانت هذه الدكاكين مؤثثة فقط بمقاعد ، وقد علقت على جدرانها المواسي والمقصات[31] . وفيها كان يجتمع العاطلون ، بالرغم على ضيق المكان وفقره ، ليتبادلوا الأخبار والقيل والقال ، أو لقراءة جريدة من جرائد المشرق .

كان الحلاقون يعملون أيضاً في المنازل ، لأن فنهم لم يكن مقتصراً على حلق الشعر واللحية ، ولكنه كان يمتد أيضاً إلى عمليات أخرى متنوعة لا يستطيعون إنجازها في دكاكينهم . كانوا ، على غرار حلاقنا فيكّارو وأضرابه ، يضعون المحجمات ، ويشرطون ويفصدون[32] ، وينزعون الأسنان ،

---

(30) لقد أصبح أحد مخبري حلاقاً في الظروف التالية : كان يذهب إلى الكتاب وهو ابن صانع . فاتفق يوماً أنه تشاجر مع شريف شاب وأشبعه ضرباً ؛ فكانت الفضيحة كبيرة إلى درجة أنه لم يتجرأ على العودة إلى المدرسة . فاقترح عليه حلاق صديق لأبيه أن يأتي عنده ليتعلم الحرفة ، وكان قد رآه مضجراً لا يلوي على شيء . فأحب المهنة ، وأخيراً خلف الذي أنعم عليه .

(31) فضلاً عن المواسي الست التي كان الحلاق يحتاج إليها لمزاولة حرفته ، كانت عنده قرابة عشرين يضعها رهن إشارة الزبناء الذين كانوا يستعيرونها منه للذهاب إلى الحمام .
لقد تغير جداً أثاث دكاكين الحلاقين، إذ أنه يتضمن الآن مرايا وأرائك على غرار الدكاكين الأوروبية التي توجد بها مجموعة من العطور المستوردة .

(32) كانوا يفصدون دوماً مرة في الربيع ، في القفا بالنسبة للرجال ، وفي الذراع بالنسبة للنساء والأطفال .

ويعرفون بعض الأدوية التجريبية ، ويجيدون بعض العمليات الجراحية البسيطة ؛ كما كان البورجوازيون الأنيقون يستدعونهم ليلفوا لهم العمائم حول رؤوسهم أيام الأعياد ، وغالباً ما كانوا يلجؤون إليهم لذبح دجاج وليمة . وأخيراً كانوا المنظمين للأفراح والخاتنين(33) .

هكذا لم يكن الحلاق الفاسي مجرد حرفي مثل الآخرين ، ولكن بحق صديق متواضع للأسرة ، يُلجأ إليه في عدة مناسبات . وكان لا يأخذ في مقابل ذلك إلا أجرة تافهة . كان للزبناء الرسميين شبه اشتراك يؤدونه أسبوعياً أو شهرياً ولا يمثل شيئاً كثيراً . بل كان الحلاقون يعملون أحياناً مجاناً : إذا وقعت أسرة في ضيق وكانوا قد خدموها مدة طويلة رأوا ذلك واجباً عليهم ، ثم إنهم كانوا يعلمون أنهم سيقبضون أجرتهم إن عاجلاً أو آجلاً . لقد رأينا أن الأعراس كانت بالنسبة لهم نعمة غير متوقعة(34) ، وكان نفس الشيء بالنسبة لعمليات الختان ، وقص شعر الطفل لأول مرة ، والرجوع من الحج ؛ كانوا لا ينسونهم في الاستقبالات ، وتصلهم بعد الدراس حصتهم من الحبوب ، وكذلك بعد جني الزيتون ؛ وفي وقت أداء الزكاة كانوا يعدون من جملة أصحاب الصدقات .

كان الحلاقون يعرفون ، كالخاطبات ، فترة أقل نشاطاً في الشتاء ، لقلة الأفراح من جميع الأنواع في ذلك الفصل . وكان زبناؤهم الرئيسيون هم الفاسيون الموسرون كما هو الحال بالنسبة للخاطبات . ولم يكن يتم لهم الولوج إلى القصر أكثر منهن(35) : ذلك أنهم كانوا يُعتبرون فقراء ، فلا

---

(33) لم يكونوا يطالبونهم بإجلاس الضيوف والقيام بالخدمة فحسب ، ولكن يستشيرونهم مسبقاً فيما يشترون . فإذا أراد فاسي أن يستقبل جماعة كبيرة، استدعى حلاقه فبين له عدد الأكباش ، والدجاج ، والحمام ، التي لا بد أن تُشترى ، حسب عدد المدعوين ، والدرجة الاجتماعية للمضيف ، والرونق الذي أراد أن يعطي للحفل . ولو كان (هاريا كُون) فاسياً لاستشار حلاقه .

(34) انظر ما سبق ، ص. 517 .

(35) كان حلاقو السلطان ، الذين لا يعملون بالمدينة ، يؤخذون كلهم تقريباً من مكناس .

يساهمون في « الهدية » المقدمة إلى العاهل من طرف مختلف الطبقات الاجتماعية للمدينة ، ولكن كانوا يأتون في هيئة كسائر الطوائف لتحية السلطان لدى دخوله الرسمي إلى المدينة .

كانوا ينظمون كل سنة ، في يوم أربعاء من فصل الخريف ، موسمهم الطائفي بضريح سيدي علي بوغالب[36] وليّهم . كان المعلمون الرئيسيون (المعلمين الكبار) يحددون تاريخ الموسم ويعلنونه بواسطة مناد عمومي ، ليتصلوا بأكثر عدد ممكن من الناس ، بما فيهم القرويون العابرون . وفي عشية الموسم مساء ، كان كل معلم يحمل طابقاً من إعداده أو مالاً لشراء ما يتطلبه الحفل ؛ وكانوا يستحضرون مغنين وأناساً قادرين على قراءة دلائل الخيرات[37] قراءة جيدة . كان أعضاء الطائفة يدخلون إذ ذاك إلى جناح الضريح المخصص للرجال ويقرؤون الدعوات التقليدية ؛ ثم يحتفلون مع ضيوفهم طوال الليل ، وفي الصباح الباكر ، من يوم الغد كانوا يقيمون بصحن الضريح ويختنون جميع الأطفال الذين يعرضون عليهم ، حتى منتصف النهار . لم يكن المعلمون يقبلون أي أجر ، بينما العمال والمتعلمون يرخص لهم باستلام هدية نقدية (حلاوة) . كان عدة مئات ، وأحياناً عدة آلاف من الأطفال يمرون بين أيديهم ذلك النهار . وكان عملهم ينتهي في آخر الصباح ، لكنهم كانوا يمكثون في عين المكان العشية كلها لمراقبة الجراح[38] .

---

(36) انظر عن هذا الولي ، الذي كان في حياته حلاقاً جراحاً ، سلوة الأنفاس ، جزء 2 ، ص 17 - 24 .

(37) هو مجموعة من الصلوات على النبي ، من تأليف الإمام الجزولي ، وعنوانه الكامل هو : دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على النبي المختار ، وانظر عن الجزولي محمد بن شنب ، مادة الجزولي ، في دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 1 ، ص. 1062

(38) كما كان يحدث أن يستدعيهم إلى سيدي علي بو غالب أحد زبنائهم ، قدم إلى هناك ليلتمس من الولي شفاء خارقاً للعادة ، لأنهم كانوا يستطيعون أن يسهّلوا تحقيق الكرامة المنتظرة ، لكونهم الأبناء الروحيين للولي . وكان حلاق عجوز لذلك العهد مشهوراً خصوصاً بنجاح تشفعاته . وقد أخذ هذا الجانب من نشاط الحلاقين يتقلص مع تطور علم المداواة العصري . ورغماً عن ذلك فإنهم يحتفظون بقسط كبير من خصائصهم التقليدية .

وإذا كان الحلاقون يشبهون الخاطبات في كونهم يشاركون مثلهن في عدة حفلات عائلية، ويعدون كأجراء يؤدون خدمة معينة في مقابل مبلغ معين أقل منهم كأصدقاء من نوع خاص ، تربطهم بالأسر أواصر شخصية ، فإنهم كانوا مع ذلك بعيدين كل البعد من أن يباشروا تأثيراً بهذا القدر على المدينة ولعل مرد ذلك إلى أن التقاليد التي كان عليهم أن يحتفظوا بها كانت قليلة جداً ، ولأنهم لم يكونوا قط المحافظين ولا المحتفلين بشعيرة معقدة ، لكن ليس هذا سوى تعليل ثانوي . فالمهمّ ، في نظري ، هو أنهم لم يكونوا يعرفون حقاً الأسر ، لعدم مشاركتهم في الحياة النسوية التي لم يكونوا يطلعون عليها أكثر من سائر رجال الحي . في حين كانت الحياة العائلية ترتكز طبعاً على النساء .

الفصل الخامس

5/7

الحَيَاة العائلية

لا يمكننا أن نتحدث عن حياة عائلية موحدة ، إذ كان لكل واحد من مختلف الأوساط الاجتماعية حياته الخاصة ، وكانت تقاليد خصوصية تتغير من أسرة إلى أخرى داخل نفس الوسط .

كانت نساء الشعب بحكم قوة الأشياء يعشن عيشة أكثر حرية من نساء البورجوازية ، لعدم وجود خدم عندهن ، واشتراكهن في غالب الأحيان مع عائلات أخرى في نفس المنزل . كما أن نساء التجار كن خاضعات لقواعد أقل صرامة من نساء الأسر العربية أو الشريفة أو المخزنية[1] . إلا أنه يمكننا أن نستخلص بعض القواعد الأساسية ، وهي بالتالي مشتركة بين جميع الأوساط المدنية بشمال إفريقيا ، قبل اتصالها بالحضارة الغربية .

كانت للأم ، قبل كل شيء ، المسؤولية التامة في تربية الأطفال من الجنسين ، ما داموا في صباهم ، وفي تربية البنات إلى أن يتزوجن ؛ تساعدها في ذلك قريباتها وجاراتها في الأوساط الشعبية، وقريباتها وإماؤها في الأوساط الموسرة . وكان الزوج لا يتدخل إطلاقاً ، ولا يلجأ إليه إلا في حالات استثنائية .

---

(1) انظر عن الحياة السوية بفاس ، أ.م. ڭواشون ، المرأة البورجوازية المتوسطة الفاسية ؛ وج. ج. طارو ، المرجع المذكور ، (الفصل 9 ، النساء والحب) ؛ وعن الأوساط الشعبية ، ف. بونجان ، المرجع المذكور ، هنا وهناك .

ومن جهة أخرى ، كانت النساء يخرجن أقل ما يمكن ، إذ كان مجالهن هو المنزل . لا ينبغي أن يبالغ في هذا الاحتجاز الذي كان نسبياً ورسخ في العوائد حتى إنه لم تكن تتصور كيفية أخرى للحياة ؛ غير أنه من الأكيد أن النساء كن يقضين حقاً أياماً كاملة دون أن يخرجن من منزلهن ، وأنهن كن لا يخرجن وحدهن إلا نادراً في الأوساط البورجوازية على الأقل . كان كل ذلك يعطيهن انطباعاً غامضاً جداً لحرية يشتقن إليها ، أو إلّا أن يأخذنها أخذاً .

كان لنساء الشعب ما يشغلهن في المنزل ، إذ كان على عاتقهن العبء الكامل للأشغال المنزلية ؛ كما كن يقضين الوقت الباقي في غزل الصوف أو التطريز ، ليضفن الموارد الأخرى إلى ربح أزواجهن الهزيل . فكن لذلك منشغلات بجد على العموم . فبعد إعداد الغذاء ، والغسيل ، ومعالجة الأطفال ، والغزل أو التطريز بضع ساعات ، لم يكن يبقى لهن بعد ذلك وقت طويل للثرثرة في الصحن أو السطح .

وكان لنساء البورجوازية والأسر الكبيرة انشغالات من نوع آخر : كان وجود خادمات عديدات يعفيهن تقريباً من كل الاهتمامات المنزلية والعلاجات المادية للأطفال ، لكنهن كن يحتفظن في هذا المجال بدور المراقبة . وكانت لهن ، من جهة أخرى ، التزامات اجتماعية كثيرة وصارمة في هذا المجتمع المتمسك بالشكليات ، كالاجتماعات ، والزيارات ، والحفلات العائلية والإعداد للاستقبالات التي يُقيمها الزوج ، والاهتمامات بالزينة . كان بعضهن يتعاطين أعمال الخياطة في مقابل أجرة ، ولا سيما الطرز ، موفرات بذلك بعض الموارد الشخصية ، بكيفية خفيفة ، لأن مثل هذه الأعمال لم تكن تتلاءم ومرتبتهن الاجتماعية . وبعد الانتهاء من هذه الأشغال ، كانت تبقى أمامهن ساعات طوال من الفراغ يقضينها في المذاكرة بينهن في الدار ، وفي لعب الورق ، والتعاطي للموسيقى ، أو في السطح عند آخر النهار ، عندما تميل الشمس إلى الأفق ، وذلك هو الوقت الذي كان السطح محجوراً لهن .

لقد وصف عدد من الكتاب[2] المنظر الساحر لسطوح فاس في الأصيل ، وهي مليئة بنساء في ملابس متعددة الألوان ، تتناسق ظلالها الباهتة التي تلطفها « المنصورية » مع عذوبة العشي ، يتحدثن من دار إلى دار ، ويتسلقن أحياناً الجدران الصغيرة المنصوبة بين السطوح المتجاورة. ويقال في هذا الصدد إنه يمكن لمن يعرف جيداً سطوح فاس ، أن يقطع مسافات طويلة في المدينة دون أن ينزل إلى مستوى الأرض . وفي ليلة الأعياد ، تغطى جميع السطوح بحشود من النساء ـ الأزهار ، يراقبن ظهور هلال العيد[3] . وكثير من الرجال يشاهدون هم أيضاً الغروب اللامع ، متسلقين التلال المحيطة ، دون أن تفوتهم الفرصة لإلقاء نظرة عابرة على العديد من الحسناوات النائيات . ويتفق حتى أن بعض الخاطبين يتجهزون بمنظار ، وهم متلهفون لرؤ ية ملامح زوجتهم في المستقبل من قبل . تلك هي ساعة التسلية ، ساعة الحياة في الهواء الطلق وفي العشي الحلو.

كانت الفرص المتاحة للخروج متعددة نسبياً ، حتى بالنسبة لسيدات البورجوازية ، كقضاء مسائل شخصية ، إذ كانت النساء يتصرفن بحرية في ممتلكاتهن ، وزيارات عند القريبات أو الصديقات ، حيث كن يقضين عادة أياماً كثيرة ؛ وولائم أو حفلات عائلية ، وزيارات المقابر يوم الجمعة ، حيث كن يذهبن عادة مع الأولاد ويثرثرن وهن جالسات على القبور[4] ؛ وزيارات أضرحة الصالحين ، وخاصة زاوية مولاي إدريس[5] ، وضريح سيدي أبو جيدة يوم الأربعاء على بعد بضع مئات من الأمتار خارج الباب الذي يحمل نفس

---

(2) وخاصة لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 192 -193 ، وتشارمز ، المرجع المذكور ص. 175 وما بعدها .

(3) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 ، ص. 588 .

(4) لقد اضمحلت هذه العادة منذ 1900 تقريباً ، إذ أن باشا فاس ارتأى ، بإيعاز من بعض الأزواج المتشككين ، أنها قد تشجع على الفحور .

(5) كانت هذه الزيارات أحياناً كوسيلة للنساء اللاتي كن يسأمن في الدار ويرغبن في القيام بجولة (محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص . 60) .

الأسم[6] ، والاغتسال في الحمامات .

هل كانت زيارات أضرحة الصالحين تظهر تقوى حقيقية ؟ لا يسعنا تأكيد ذلك ، لأن نساء فاس كن بصفة عامة متطيرات أكثر منهن متدينات ، مع اعتبار جميع الاستثناءات الفردية ، لقلة ثقافتهن عادة ، ولعدم تمكنهن من الاختلاط بالرجال في الحفلات العمومية . وهذا مانع خطير في دين تكتسي فيه أعمال الإيمان المشترك أهمية بهذا القدر . والحاصل أنهن كن بعيدات عن المذهب والشعائر ، بقوة الأشياء . كان الفرض الوحيد الذي يتشبثن به هو الصيام[7] : فكان أول صيام الطفلة مناسبة لحفل عائلي يقام يوم 26 رمضان ، عندما كانت تبلغ السابعة أو الثامنة من عمرها ؛ فكانت المدعوات يجتمعن في السطح ، عند صلاة العصر ، ويؤتى بالطفلة وهي في تمام الزينة ، فيشرعن في الغناء على إيقاع الطبلات ، إلى غروب الشمس ، ثم يدخلن إلى الدار فتفطر الطفلة في أبهة بشرب اللبن ، ويختم النهار بحفلة عشاء . وفضلاً عن الصوم ، كانت بعض العجائز يذكرن الله بسبحاتهن . ولا تذهب هذه الأعمال إلى أبعد من ذلك .

كان نسك نساء فاس موجهاً بالأحرى إلى الصلحاء والجن ؛ إلى الصلحاء لكونهم شفعاء عند الله أقل منهم أشخاصاً ذوي طاقة خارقة للعادة وقادرين على مساعدة الناس حيث لا يكون مفعول للوسائل الطبيعية[8] ؛ وإلى

---

(6) لم يكن سيدي أبو جيدة فحسب ولي النساجين ، ولكن أيضاً حامي النساء : فكان الزوج الذي تؤثر عليه زوجته يسمى : « خدام سيدي أبو جيدة » . وقد تُركت هذه الزيارة سنة 1908 ، لعدم استقرار البادية ولو قريباً من الأبواب (مارتان ، الكدّان ، ص. 147) . ومنذئذ ، طفقت النساء يذهبن يوم الأربعاء إلى ضريح سيدي بو غالب ، حيث كن يستمعن إلى الروائيين وإلى التنبؤ بالمستقبل (ميشو- بلّير ، وصف فاس ، ص. 272).

(7) انظر أ. م. كُواشون ، المرجع المذكور ، ص. 9 .

(8) كان سيدي عبد الدائم يؤمن انقياد الأزواج ، وسيدي حنين الفاسي يهدىء صراخ الصبيان لدى فطامهم ، وسيدي المهدي يؤدب الأطفال العنيدين ، وسيدي البصري يقوي ذكاءهم ، ولِلاّ يـدونة تشوقهم إلى العمل إلخ . . . ، أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 314 .

الجن بصفة خاصة حيث كن يعتبرنهم كمرافقين مستترين ، وكشبه سكان روحيين مختلطين كامل الاختلاط بالسكان العاديين ، قادرين على القيام بحيل خبيثة للإخوان الإنسيين أو على مساعدتهم ، حسبما كونهم على استعداد تام أم لا .

إن الأمر محتمل مع ذلك بالنسبة للجن ، إذ أن القرآن يعترف بوجودهم ؛ لكن نساء فاس كن يلجأن كذلك إلى السحر والعرافة ، فكن يتصلن من أجلهما بشرذمة يستغلون سذاجة العامة ، كطائفة كُناوة[9] وعرافي سوس[10] و (الشوافات)[11] وحتى أحبار اليهود الشيوخ[12] . كان هؤلاء وأولئك يبيعون لهن « حروزاً » ومسحوقات سحرية ورُقى ناجعة لتحقيق رغباتهن[13] .

---

(9) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(10) انظر عن « الطالب السوسي » ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 6 ، ص 193 . كان السحرة ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، وكانوا يستأجرون امرأة لتخبر العائلات بقدومهم. أ ـ م كْوانشون ، المقال المذكور ، ص. 7 .

(11) كن زنجيات ، إماء قديمات مثل الخاطبات ، يوفقن على أي حال بين الإسلام وبعض شعائر الأرواح التي كن يحتفظن بذكراها . كن يعالجن الأمراض التي تسببها الجن ، ويتكهن بالمستقبل . وكن في اتصالات تجارية ـ إن صح التعبير ـ مع كْناوة الذين كن يوصين بتوسطهم في الحالات الخطيرة ، وكذلك مع بعض التجار الذين كانت بَضائعهم ناجعة ـ حسب قولهن ـ لتجنب هذا الداء أو ذاك . كانت أسر عديدة تضع فيهن ثقة مطلقة . وقد أدى تأثيرهن مضافاً إلى تأثير الخاطبات والإماء الخادمات ، إلى أن جميع نساء فاس تقريباً كن يمزجن كلامهن، في بعض الأحيان ، بعبارات مأخوذة من لغات إفريقية .

(12) محمد الفاسي وديرمينغم ، **حكايات فاسية** ، ص. 237 ، هامش 1 .

(13) نفس المرجع ، هنا وهناك . كانت بعض الآيات القرآنية تستعمل طبعاً كطلاسم،منها الآية 256 من السورة 2 (البقرة) ، والسورة 72 (الجن) والسورة 112 (الإخلاص) والسورة 113 (الفلق) . كان جل هذه العوائد يستعمل لغايات غرامية . كانت المخطوبات مثلاً يلجأن أحياناً إلى (عشاء الفال) حتى تكون لهن فكرة عن زوجهن في المستقبل . وكانت الفتاة ، عملاً بتعليمات « طالب » ، تلطخ الجانب الأيسر من وجهها باللون الأحمر والأسود ، وتعد طابقاً من الكسكسو بيدها اليسرى ، ثم تذهب إلى سبع حمامات ، وسبع طواحن ، وسبعة أفران للخبز ، وسبعة جداول للماء ، لتستدعي جن هذه الأماكن لتناول العشاء . وكان نساء=

وهكذا فإن العالم الذهني لنساء فاس ينبغي أن يعتبر مختلفاً بعض الاختلاف عن عالم الرجال : كانت تختلط فيه المعتقدات الجاهلية ، والخرافات التي جاء بها العبيد من إفريقيا السوداء ، وبعض طرق عزائم اليهود ، مع تقديس الصلحاء المسلمين ، ومع عوائد خارجة تماماً عن الإسلام . فسواء كن عجائز أم شابات ، غنيات أم فقيرات ، كان لجميعهن تصور مماثل تقريباً للعالم الذي كن يرين فيه العمل المستمر لقوات خفيفة .

* * *

كان لكل واحد من الزوج والزوجة وسيلتهما الخاصة في العيش وأفكارهما واعتقاداتهما . فلم تكن حياتهما المشتركة منظمة كحياتنا ، من جراء هذه الفوارق الهامة[14] . قد يكون من عدم التبصر المجازفة هنا ببيانات عامة ، إذ أن الطبائع ، وسن الزوجين والتقاليد العائلية ، كانت تُلوّن بدرجات كثيرة سلوكهما ، وكان للوضعية الاجتماعية طبعاً حصتها الوافرة في التأثير . إلاّ أنه يمكننا إعطاء بيانات صالحة في معظم الحالات .

كانت المرأة تشتغل بالحياة الداخلية للمنزل : المطبخ ، والأشغال المنزلية ، وغسل الملابس ، ومعالجات الأطفال ، كان ذلك ميدانها الخاص

= الدار يجتمعن ، يوم الخميس في منتصف الليل ، بباب المنزل ويتلون في الظلام عبارة الترحيب الموجهة إلى الزوار المستترين عن الأنظار . كان الكسكسو جاهزاً ، فيجلس الضيوف الغير الطبيعيين على المائدة . وبعد انتهاء الوقت المناسب للفراغ من تناول الطعام كان جميع الحضور يصعدون إلى السطح ، وهنالك توقد نيران ويقذف فيها « الطالب » باحتفال كبير، بشتى العقاقير باسم الفتاة التي تستشير الغيب . وكان يصف زوج المستقبل حسب الأشكال التي يكتسبها اللهيب (وكان من قبل قد أخذ عنه جميع المعلومات الضرورية)، فكان يستلم جائزة مهمة بعد انتهاء الحفل . (أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 314 ، نقله ل. هارّيس ، المرجع المذكور ، ص. 179 -180) . وكانوا أحياناً يناجون النجوم (أ ـ م. ݣواشين ، المقال المذكور ، ص. 8) .

(14) وهنا أيضاً بدأ احتكاك الحضارة الغربية يعطي أكله . يمكننا أن نذكر بعض الفاسيين الحديثي العهد بالزواج تبنوا منذ بضع سنوات ، عدداً معيناً من العوائد الأوروبية ، كالذهاب معاً إلى السينما ؛ لكن هذا التطور ما زال بطيئاً بسبب سلطة العادة الفاسية .

الذي لا يتدخل فيه الزوج إلا لتقديم انتقادات أو تهنئات ، لكن دون الدخول في التفاصيل . كانت للزوج اليد العليا على النفقات التي كان يراقبها عن كثب ، إذ هو الذي ينفق . كما كان يتكلف بالتموين والشراءات بصفة عامة ، لأن زوجته لم تكن تستطيع الخروج إلى الشارع باستمرار للاتصال بأصحاب الدكاكين ، ولأن الخادمات لم يكنَّ يوحين دائماً بالثقة الكافية لتكليفهن بمثل هذه المهام . وكان الزوج يقوم بدور المقتصد في عدة أسر ، وغالباً ما كان ذلك باتفاق تام مع زوجته ، يطلعها عما يقوم به لا بالنسبة للمنزل فحسب ، ولكن أيضاً بالنسبة لمسائله الخاصة ؛ ومع ذلك يبدو أنه بقدر ما يمكننا أن نأخذ فكرة عن أشياء دقيقة إلى هذا الحد ، أن وحدة النظريات والعمل القائمة في عدة منازل غربية كانت نادرة أكثر بفاس ، من جراء التكوين بالذات المغاير للرجل والمرأة .

وهنا يطرح مشكل سلوك الزوجين . فلأن يكون هناك أزواج تخونهم زوجاتهم ، ولأن تكون الأخبار الفاضحة تغذَّى بفاس بقدر ما تغذَّى في أنحاء أخرى من العالم ، لا أحد يستطيع أن ينازع في ذلك . سيقول المتفائلون إن المغامرات كانت أصعب وبالتالي أقل منها في أماكن أخرى ، وذلك بسبب مكوث النساء في المنزل المفروض عليهن بالعادة . وسيجيب المتشائمون بأن الاحتياطات لا تفيد في شيء وأن جاذبية الصعوبة تعوض ـ وزيادة ـ الحواجز الموضوعة في طريق العشاق . والشيء الوحيد الذي يمكننا أن نقوله ، هو أن المغامرات الشاذة ، وعلى الأقل في الظاهر ، كانت تحتل مكانة في هذا المجتمع الذي كان الجنسان يعيشان فيه منعزلين أكثر منها في المجتمعات الغربية .

* * *

لم تكن الحياة الزوجية سوى أحد مظاهر الحياة العائلية ، إذ كان من النادر ، لا سيما في الأوساط البورجوازية ، أن يعيش زوجان منعزلين ؛ فكان كل منزل يؤوي أسرة ، أي رب المنزل مع زوجته أو زوجاته ، وبناته غير

المتزوجات ، وكذلك أبناؤه مع نسائهم وأولادهم ؛ ويكمل الأسرة خدم أو عبيد ، بعدد متفاوت حسب اليسر .

كانت لرب المنزل مبدئياً سلطة مطلقة على أهل البيت كلهم . وفعلاً كان الكل يُكنُّ له كبير الاحترام ، ولكن ، في حالة ما إذا أراد أن يطغى ، كانت العادة تضع حداً لطغيانه . هذا ، وقد كان في غالب الأحيان ، يكتفي بدور المشرف على النفقات العائلية ، والحكم المحترم من أعضاء الجماعة ، إذ لم تكن المناقشات تنعدم ، لا سيما عند النساء .

إن هذه المجموعة البشرية الصغرى ، الخاضعة لسلطة شخص واحد خضوعاً تاماً والمقيمة في منزل واحد ، لم تكن تمثل مع ذلك التماسك الذي نتصوره بطبيعة الحال ، إذ كانت الفوضى كامنة وراء واجهة من النظام . ففي معظم الأسر الفرنسية ، مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي تنتمي إليها ، كان تناول الطعام مناسبة للاجتماع تكتسي طابعاً يوشك أن يكون مقدساً ، لا يطاق أي تأخير عنه . ولم تكن البورجوازية الفاسية نفسها تعرف هذه العادة ، وبالأحرى العمال[15] . كان الرجال ، في غالب الأحيان ، يتناولون الطعام في حجرة ، والنساء والأطفال في حجرة أخرى ، والخدم في حجرة ثالثة . مع أنه لم يكن من النادر أن يضطر الأبناء إلى الأكل جانباً إذا استدعى الأب ضيوفاً . ومن جهة أخرى ، كان كل واحد يأتي في الساعة التي تلائمه: فإما أنه كان يجلس للطعام عندما يكون الآخرون قد أكلوا نصفه ، وإما أنهم كانوا يقدمون له الطعام على حدة . وكان شاي المساء بعد العشاء « يجمع العائلة كلها ، وهو الوقت الوحيد للحياة العائلية الكاملة »[16] . وغالباً ما كان الشاي يطول في

---

(15) كانوا يتناولون ثلاث وجبات في اليوم ، بصفة عامة : الأولى بعد صلاة الصبح (وهي عبارة عن حساء في غالب الأحيان) ، والثانية بعد صلاة الظهر ، والثالثة بعد صلاة العشاء . كانت أهم وجبة عند البورجوازيين هي وجبة الغداء في الظهر . وكان العديد من الصناع ، بالعكس من ذلك ، لا يتناولون إلا أكلة خفيفة في الظهر في مكان العمل ، ويتناولون وجبتهم الرئيسية في المساء . (انظر أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 313) .

(16) نفس المرجع .

سهرة تتناول فيها امرأة الكلمة أحياناً لتقص حكاية[17] ؛ فكانت تبدؤ ها في أبهة بعبارة شائعة تسترعي الانتباه وتخلق الجو الملائم[18] ، ثم تشرع في الحكاية التقليدية ، مثل الحكايات التي جمعها محمد الفاسي وديرمينغم في مجموعتها الشهيرة[19] .

كان يحدث طبعاً أن تكون الخلية العائلية مضطرة إلى التفكك ، عندما تتضخم الأسرة حتى لا تستطيع الدار أن تؤويها ، أو عندما كان أحد الأبناء المتزوجين يجد الفرصة ليتخذ له منزلاً خاصاً ، ولا سيما لدى وفاة رب الأسرة . عندئذ ، كان أحد الأبناء ، وهو البكر عادة ، يصبح رب المنزل ، فيذهب إخوانه المتزوجون ليسكنوا في مكان آخر .

---

(17) كانت بعض النساء معروفات في المدينة كلها بموهبتهن في الحكاية ، لكنهن لم يكن يستعملنها إلا ليلاً ، لأن العادة كانت تمنع أن تروى القصة في النهار ، تحت طائلة « أن يكون لهن أولاد قرع» ؛ ما عدا إذا استطعن بكيفية خارقة للعادة أن يعددن إحدى عشرة جائزة في السقف (محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص. 16) .

(18) ها هي العبارة شبه الشعائرية كما يذكرها محمد الفاسي وديرمينغم في حكاياتهما الفاسية : (إنني أحترم طريقة كتابة الكلمات التي استعملاها وكذا ترجمتها) : « كان حتى كان ، حتى كان الله في كل مكان ، ما تَخْوَى منه لا أرض ولا مكان ، حتى كان الحبق والسوسان ، في حجر النبي عليه الصلاة والسلام ، حتى كان ، إلخ . . » .

(19) حكايات فاسية ، وحكايات فاسية جديدة .

الفصل السادس

6/7

الموت

إذا حضر أحدَهم الموتُ حثوه على النطق بالشهادة ؛ وإذا اشتد النزع ، استدعوا طالباً لتلاوة بعض آي القرآن حتى يخفف الله ختام أوقات عبده . وفي نفس الوقت كان رجال الأسرة والأصدقاء يجتمعون في مسجد أو زاوية للدعاء لنفس الغاية[1] .

وبعد الموت مباشرة ، كان أحد أعضاء الأسرة يذهب لإخبار (الصحافة) المكلفين بالجنائز[2] . كانوا يحددون معهم ساعة الدفن ومكانه ، وذلك في أقرب وقت ممكن ، لا سيما في حالة مرض مُعدٍ . وكان من النادر ألّا يوارَى ميت في قبره في ظرف أربع وعشرين ساعة . وكان أنسب الأوقات هو منتصف النهار عند صلاة الظهر وصلاة العصر ، ونادراً عند غروب الشمس .

---

(1) أ ـ م . ݣواشون ، المقال المذكور ، ص. 37 .

(2) كان أهل فاس وحدهم الذين يلجؤون إلى (الصحافين) . ففي فاس الجديد ، وقصبة فيلالة ، وأوساط المدينة التي ما زالت بعدُ شبه قروية ، بما فيها الفيلاليون وغيرهم ، كان رجال العائلة والأصدقاء هم الذين يدفنون الميت . لقد جمعت المعلومات التالية حول (الصحافين) أثناء تحرٍّ قمت به سنة 1945 ، لدى أمين الطائفة : انظر أيضاً ميشو ـ بلّير ، وصف فاس ، ص. 314 وما بعدها .

كان رئيس طائفة (الصحافة) يمكث باستمرار بباب سوق الحناء المفضي إلى سوق الفخارين ، وبمجرد ما كان يُخبر ، يعين اثنين أو ثلاثة من الصحافين وعدداً مماثلاً من الحفارين[3] من أجل الدفن . وفي هذه الأثناء ، كانت العائلة تشتغل بغسل الميت ، إما باستحضار الغسالين[4] أو بقيام أهل الدار بهذه المهمة .

وفي الوقت المعين ، كانوا يأتون من أحد المساجد المجاورة بمحمل الأموات[5] . وفي وسط صراخات الألم للنساء ، يتقدم بعض الأصدقاء لحمل الجثة إلى عتبة المنزل ، حيث كان (الصحافون) يتكلفون به ، فيحمله اثنان بينما يبقى الثالث مستعداً لينوب عن صاحبيه عندما يحسان بالتعب . وكان الرجال المؤلفون للموكب ، أثناء المسير ، يقرؤون في لحنين جماعيين عبارات دينية مثل : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، « ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

كان الموكب يتوجه مباشرة إلى المقبرة ، إذا تعلق الأمر بناس فقراء ؛

---

(3) كان (الصحافون) والحفارون ، حسب ميشو- بلير (المترجم المذكور) يشكلون طائفة واحدة ، إلا أن معلوماتي في هذه النقطة لا تتطابق مع معلوماته . ففي 1945 على الأقل كان الحفارون يشكلون طائفة صغيرة مؤلفة من ستة معلمين بأمينهم الخاص ، لكنهم كانوا يعملون باتصال وثيق مع (الصحافين) . وكان لهم ، مثلهم ، مقرهم بباب سوق الحناء ، حيث كانت أدواتهم مرتبة في حجرة صغيرة . ولم يكن الحفارون يقفون قديماً في سوق الحناء ، ولكن قرب سوق العشابين ، في زقاق حي فندق اليهودي الذي ما زال يحمل اسمهم (الحفارين) .

(4) كان عدد الغسالين نحو العشرة ولم تكن لهم طائفة . كانوا قوماً فقراء لا يكسبون عيشهم جيداً ، حسب المثل الفاسي الذي يقول : « الحفار لابد من إغنائه . والصحاف لابد من إعطائه ما يليق به ، والغسال تفاوض معه» . ولم يكن بالإمكان أن يُحمل إلى المدينة من كان يموت خارجها قبل الدفن : فكان يغسل في مكانين ، قرب باب محروق بجوار ضريح سيدي بلقاسم ، وفي مقبرة باب فتوح قرب ضريح سيدي درّاس بن إسماعيل .

(5) كان النعش (أو المكب) يعوض بالنسبة للنساء بتابوت يستعمل فقط لحمل الجثمان إلى المقبرة .

فإذا تعلق الأمر بشخص متدين أو هام ، كان الموكب يمر دائماً بمسجد تختاره الأسرة ، هو جامع القرويين أو جامع مولاي إدريس ، دائماً بالنسبة للجنائز الكبرى . كان الإمام بعد الصلاة العادية ، يدنو من النعش[6] ويقرأ دعاء خاصاً ، وكان هذا الاحتفال يدوم وقتاً قصيراً جداً.

ثم كان الموكب يستأنف سيره نحو المقبرة[7] متبعاً نفس الاحتفال كذي قبل . وكان القبر قد حفره الحفارون . كان إما مجرد حفرة مستطيلة قليلة العمق ، على عرض الجسم بالذات ، أو كانت أوسع من ذلك. فتملأ جوانبها بالآجر المعد لعمل البناء المتواضع على العموم الذي سيشيد فيما بعد[8] .

كانت الجثة توضع على حصير (سجادة) بجانب الحفرة ؛ ثم إن العميان الذين كانوا يستدعون بالمناسبة يرتلون سورة ياسين ، كما كان يحدث أن يأتي الفقهاء لقراءة الدعوات . وبعد انتهاء هذه الواجبات ، كان أحد (الصحافين) ينزل إلى القبر ليتسلم الجثة ، فيضع تحت رأسها الكفن المثني على شكل وسادة ، ويدير الوجه إلى اليمين . كان الذي يساعد (الصحاف) على وضع الجثة في القبر يتلو هذه الكلمات الشعائرية : « أنا وإيّاك في حماية النبي » . إذ ذاك ، وبينما الأقرباء يتقبلون تعازي الحاضرين ، كان أحد أعضاء الأسرة يدفع في عين المكان الأجرة (للصحافين) والحفارين ،

(6) كان يوضع تحت الثريا الكبرى بالقرويين وقرب القبة التي فيها ضريح مولاي إدريس . وقد أعد ، في الجوامع الهامة ، موضع خاص يسمى جامع الجنائز ، ولا يُحمل إليه الجثمان إلا عند خطر القذارة .

(7) ليس في المقابر العمومية (باب محروق وباب عجيسة خاصة) مصاريف لشراء الأرض . والأمر بخلاف ذلك في المقابر المحاذية للزوايا ، فلابد من دفع واجب شراء الأرض فيها . وكانت قيمة ذلك تتراوح بين 50 و200 ريال في أوائل القرن العشرين . (ميشو بلير ، وصف فاس ، ص. 315) . ومن جهة أخرى ، كانت كثير من الأسر البورجوازية لها مقابر خصوصية ، (روضة) على أرضية تملكها .

(8) في هذه الحالة كان يأتي الحفارون وعددهم ثلاثة : المعلم ، ومساعد وسقاء لبل الأسمنت . والبناء بمعنى الكلمة يقوم به البناؤون .

فيذهبون فورا إلى حال سبيلهم[9] .

نلاحظ أن مراسم الجنازة تختلف جداً عن مراسم الولادة أو الزفاف . فلها طابع إسلامي محض . فالطفل الذي يولد ، والزوجان الملتحقان بالحياة الزوجية ، سوف يحسبون حسابهم في هذه الدنيا ، ليس فقط مع السلطة الإلهية ، ولكن مع السلطات الخفية التي تخالط حياة الإنس ، ومن هناك مراسم الولادة والزواج المعدة لاكتساب عطف الجن أو على الأقل حيادهم . أما المؤمن الذي يموت فلا يبقى له حساب إلا مع ربه . فلا تأثير للجن عليه ؛ لهذا فإن المراسم الدينية بمعنى الكلمة هي الوحيدة التي تصحب الجنائز .

وسيلاحظ كذلك كم تختلف هذه المراسم عن المراسم المسيحية : كل شيء يدعو المسيحي المشرف على الموت إلى أن يلقي نظرة أخيرة على حياته وأن يتوب من خطاياه ما دام الوقت باقياً . إن الجنائز المسيحية مطبوعة بعلامة الخوف ؛ وما الصلوات على الموتى سوى توسل طويل إلى الله ليرحم . أما الصلوات الإسلامية ، فهي بالعكس تشف بالهدوء والثقة : فما دام المؤمن قد نطق بالشهادة ، فلا حاجة إلى الخوف على سلامته ، لشدة ما يتغلب الإيمان على الأفعال .

كما أن شعائر الموتى لا تكتسي نفس الطابع كما هي عليه في البلاد المسيحية : فمن المعلوم أن المقابر ليست مُسَوَّرَة وبالإمكان التجول فيها بكامل الحرية . ليس من النادر بفاس أن يصادف فيها مجرد متجولين ، وحتى الدباغون ينشرون فيها جلودهم إذا كانت جدران المدابغ وسطوحها غير

---

(9) لم يكن هناك سعر محدد للصحافين ، ولم يكونوا يقبضون أجرة مبدئياً ، ولكن صدقة ، تماماً كالعُمي الذين كانوا يتلون القرآن العظيم . فكان إذن كل واحد يعطي حسب إمكانياته ؛ ولم يكن من النادر ، في الجنائز الكبرى ، أن يعطي الحاضرون صلة للصحافين ؛ كان المبلغ المتوسط ، حوالي 1940 من 10 إلى 15 ريال . ولم يكن الأداء دائماً بدون مناقشة . كانت جميع المبالغ التي يقبضها الصحافون تسلم إلى أمين الطائفة الذي كان يوزع في المساء حصيلة النهار على جميع أعضاء الطائفة بالتساوي .

كافية[10] ؛ وكانت النساء قديماً يزرنها يوم الجمعة ، مع الأطفال والجواري ، ويتناولن فيها الشاي وهن يتحدثن . فلا شيء يُذكر بيوم الموتى وزياراتنا الحزينة لمقبرة أجدادنا . ليس هذا حكماً مسبقاً على المشاعر الكمينة في صميم الأفئدة ، لكنني أستطيع القول إن الموتى بفاس يحتلون مكانا أقل في فكر الأحياء مما هو عليه في فكرنا .

(10) هذا صحيح خاصة بالنسبة لمقابر باب الحمراء ، وسيدي علي مزالي وباب عجيسة .

الفصل السابع

7/7

التسليات

لفاس ، بالمغرب ، سمعة مدينة متقشفة : فالجدران القاتمة ، والأزقة الضيقة ، وثقل هواء مشبع في غالب الأحيان بالرطوبة ، كل ذلك يساعد على إعطاء هذا الانطباع للضيف العابر . ويشعر بذلك أيضاً[1] الفاسيون الذين سافروا وتمكنوا من القيام بالمقارنات ؛ لأنهم يحسون ، منذ طفولتهم ومهما كانت وضعيتهم ، بالعادة الاجتماعية تضغط عليهم ، وهي أطغى من جميع الأحكام المكتوبة ومن جميع القوانين . ليس معنى هذا أن التسليات كانت منعدمة فيها قبل الحماية[2] ، لكنها كانت خاضعة ، كغيرها « للقاعدة » القهرية . كانت متسمة بطابع المنتظر ، وطابع المماثل دائماً ، وطابع المنظم

---

(1) انظر روني ـ لوكلير ، المغرب الشمالي ، ص. 161 .

(2) لقد تكاثرت التسليات منذ قدوم الفرنسيين . إن أجهزة الراديو متعددة عند الخواص ، وهناك مقاهٍ أكثر عدداً يختلف إليها الناس أكثر من ذي قبل ، وعلى الأقل الشباب ، والكثير منها مجهز بمكبرات الأصوات المدوية . وتوجد بالمدينة « قاعتان للسينما » ، وأصبح البستان العمومي لبوجلود ومقهى المرينيين من قبيل العوائد ، يملك الكثير من الفاسيين الموسرين سيارتهم . وأخيراً ، بقطع النظر عن الملاح الذي كان موجوداً قبل الحماية ، فإن المدينة الجديدة تقدم لأهل فاس ، في أيام فراغهم ، مناسبات للتجول وتمنح عدة جمعيات رياضية للشباب المسلمين : مدرجات ، وملاعب للقوى ، ومسابح ، وملاعب لكرة المضرب ، الخ . . . فالملاهي أكثر عدداً وتنوعاً من ذي قبل . ورغم ذلك تبقى فاس مدينة متعجرفة ، بينما كانت مراكش لها دائماً سمعة البهجة حرة طليقة وقد احتفظت بذلك .

مسبقاً الذي يمنع الشخص من التفتح تحت وقع الأمر المفاجئ .

التسليات اليومية : ـ لقد رأينا فيما سبق أن وتيرة الحياة الاقتصادية كانت بطيئة إلى حد ما : فلا شيء من الحركة المضطربة المتواصلة لكبريات مدن الغرب ، بل مجهود مقدر بحذر يترك للجميع ، أغنياء كانوا أم فقراء ، ساعات من الراحة اليومية . فإذا كانوا يستيقظون باكراً ، فإنهم كانوا يتوقفون عن العمل ابتداء من منتصف العشي ، فتبقى الأمسية حرة .

كانت العامة تختلف إلى بعض المقاهي التي كانت في نفس الوقت مكاناً لتدخين الكيف[3] ؛ وهي ضيقة ، مظلمة ، قذرة ، يديرها جزائريون[4] في غالب الأحيان ، وبعيدة عن أن تكون لها نفس الأهمية الاجتماعية التي لمقاهينا في الغرب ، ولا حتى لمقاهي المدن الإسلامية في الجزائر وتونس .

لهذا كان الناس المساكين يفضلون الذهاب ، إذا كان الجو جميلاً ، إلى بوجلود ، وباب فتوح أو باب عجيسة ، وهي الأبواب الثلاثة المسلوكة ، ليقفوا في حلقة بعض مسلي الجماهير ، أو حول مشعوذ ، أو عراف ، أو مرقص قردة أو حيات ، أو ممثل بالإيماء ، أو مسايف بالعصا ، وبخاصة حول قصاص . كان جل هؤلاء غرباء عن فاس يترددون من مدينة إلى مدينة لكسب معاشهم وهم في حالة فاقة . إلا أنه كان من بينهم بعض الفاسيين ، من

---

(3) كان استعمال « الكيف » (وهو مخدّر من القنب) كثير الانتشار بفاس في الأوساط الشعبية . انظر ل. هارّيس ، المرجع المذكور ، ص. 133 ؛ وش . دوفوكو ، المرجع المذكور ، ص. 34 ، هامش 2 . وقد يكون شارب « الكيف » أحد أشخاص الكوميديا الفاسية لو كُتبت : هو شخص معروف في المدينة مخبل وغريب الطبع . ويتناول هذا المخدر عدد كبير من الصناع ، وعندما شكلت وكالة التبغ ، أخذت تصنع « كيفاً » غير مؤذ لا يُرضي المتعودين عليه . لذا ، نشط تهريب « الكيف » جداً بين المنطقة الإسبانية وفاس .

(4) انظر ما سبق ، سكان فاس ، ص. 199 ؛ وليناريس ، رسالة غير منشورة بتاريخ 25 ديسمبر 1894 : يشير ليناريس إلى أن الحكومة الشريفة ، بعدما أمرت بإغلاق المقاهي وأماكن تدخين (الكيف) لأسباب سياسية (كان ذلك بعد وفاة مولاي الحسن بقليل) احتج أصحاب المقاهي الجزائريون وأيّدهم نائب قنصل فرنسا .

الصناع أو قليلي الدخل ، يتحولون في المساء إلى مهرجين ، مضيفين هكذا شيئاً إلى أجرتهم الزهيدة ، دون أن يفوتهم السرور بأن يراهم الناس أو ينصتوا إليهم .

القصاصـــون : كان جل القصاصين (فـداوي . ج فداويـة أو فداوة)[5] يُعرفون باسم قصاصي الغزوات . كانوا ينشدون ، على إيقاع دف ، غزوات العرب في قديم الزمان . كان جل المستمعين (وعددهم نحـو الخمسين في الشتاء ، وحتى مائتين في الفصل الجميل) مطلعين على الحكايات ، فيصححون أخطاء الراوي أو يلقنونه إذا اتفق أن خانته ذاكرته ؛ لكنهم كانوا يشعرون بسرور كبير وهم يستمعون مرات متعددة إلى رواية الانـطلاقات على الأفـراس ، والمبارزات ، والخيـانات ، والإقـدامات ، متهدهدين أو متأثرين بالعبارات الرتيبة المتكررة دوماً[6] .

وكان القصاص الأكثر تفوقاً الذي يجمع حوله حفلاً حفيلاً هو قصاص باب عجيسة ، أبا إدريس الفداوي . كان يقوم كل يوم ، بين صلاة العصر والمغرب ، عند مخرج باب عجيسة على تلال المقبرة الصاعدة نحو قبور بني مرين[7] ؛ وفي ظل الأسوار الصهباء كان يروي يوماً بعد يوم قصة طويلة يعرف كيف يجعلها حية ، وأحياناً مؤثرة[8] . ومع ذلك فإن أبا إدريس ، وهو خراز

---

(5) انظر عن القصاصين ، ميشو- بلّير ، وصف فاس ، ص. 272 . ولفضلاً عن تجربتي الشخصية ، فقد استفدت كثيراً من المعلومات التي تفضل تلميذي القديم وصديقي ، السيد أحمد الصفريوي ، فزودني بها .

(6) لنتذكر عبارات الإليادة أو المفاخرة ، أو أبسط منها ، الجمل الشائعة في خرافاتنا .

(7) كان أبا إدريس يحكي أثناء الفصول كلها . فإذا كان الطقس رديئاً ، انحاز كل من القصاص والمستمعين إلى الأسوار لتسير الحكاية سيرها رغماً عن الريح والبرد القارس والمطر .

(8) تروى في شأنه الحكاية الآتية : ذات مساء ، بعد غروب الشمس ، دخل أحد الصناع إلى منزله ، وبمجرد ما وصل إلى الباب صاح بزوجته في لهجة من الغم الشديد : « مات اليوم أعظم الرجال، قالت المرأة: «ومن هو يا ترى» وقد فوجئت بهذا النبأ ـ هو معروف» (وكان أحد الأبطال الذين يحكي أبا إدريس مغامرتهم المأسوية) . قالت : «معروف ؟ إنك تحكي علي حماقات » فأجاب « كيف ! ألا تهتمين بمعروف ؟ إنك طالق » فطلقها .

حرفة ، لم يكن يعرف لا القراءة ولا الكتابة . كان قد استمع إلى حكايات رائعة فطفق يرويها بدوره بموهبة عجيبة ؛ حتى يقال إن شهرته قد بلغت إلى مولاي عبد العزيز الذي رغب في أن يستمع إليه وتستمع إليه نساء القصر (وقد همّ بأن يفقأ عينه من أجل ذلك) ؛ لكن ابا ادريس امتنع من مغادرة باب عجيسة للالتحاق بدار المخزن ، وتدخل الناس لدى العاهل ليتركه لأهل فاس .

كانت ذخيرته تشمل ثلاث قصص كبرى : قصة عنترة التي تدوم عاماً ، وقصة الإسماعيلية التي تدوم ستة أشهر ، وقصة سيف ذي اليزن ، وهي حكاية عجيبة على شاكلة ألف ليلة وليلة ، تدوم أربعة اشهر . وكان يدرج بين قصتين كبيرتين قصة قصيرة لا تستغرق أكثر من جلستين أوثلاث جلسات . وقبل نهاية العشية ، كان أحد المستمعين يجمع التبرعات ويسلمها إلى أبا إدريس[9] .

وكان أيضاً بإمكان الصناع والفقراء أن يتعاطوا لعبة الورق[10] ، وهم يتحدثون فيما بينهم ، أو أن يتجولوا في مسالك مدار فاس مع كناريهم المغرد[11] .

كانت تسليات البورجوازيين أكثر تنوعاً ، إذ كانوا يتعاطون لعبة الورق ، مثل الصناع ، كما يلعبون الشطرنج[12] أيضاً ، وذلك منذ قرون[13] ؛ بالإضافة

---

(9) مات أبا إدريس ، وخلفه صاحب مقهى في الهواء الطلق ، قد جمع شيئاً فشيئاً كل حكايات المعلم ، وهو يبيع القهوة للمستمعين ، لكنه لم يحصل على موهبته .

(10) يتعلق الأمر بالورق الإسباني . كانت الألعاب الأكثر استعمالاً ، والتي تسمى « الرندة » ، و« شكامبة » و« التريس » ، تطابق المعركة و« التعبيدة » والماتيل ، مع بعض التعقيدات الإضافية (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 331) .

(11) انظر أحمد الصفريوي ، كاناري عزور .

(12) يروي موليبراس (المرجع المذكور ، ص. 460 -461) أنه لعب الشطرنج ، بفندق التطوانيين ، مع بائع ثياب غني يسمى محمد بن عبد القادر بنيس .

(13) يشير ليون الإفريقي (قسم 2 ، ص. 129) إلى لعبة الشطرنج بفاس . كان الفاسيون ماهرين فيها : ألم ينتصر أحد زملائي بالثانوية الإسلامية بفاس ، وهو مولاي احمد الأشبيهي ، على ...

إلى أنهم كانوا مولعين بالعلب الموسيقية والحاكيات ، منذ أن أرسلتها إليهم أوروبا[14] .

ألم تكن المذاكرة هي التسلية المرغوب فيها أكثر ؟ إن أهل فاس قوم يألفون ويحبون المحادثة في المساء مع الأصدقاء : كانت الجواري يُحضرن ما يلزم لصنع الشاي ، وكان ابن الدار ، إن وجد هناك ، يُهيؤه دون أن ينبس ببنت شفة ، بينما يتحدث أبوه بصوت خفي مع الصديق أو الأصدقاء الذين يستقبلهم ذلك اليوم ، كانت المحادثة تجري بدون رابط ، تختلط فيها الحالة السياسية ، والأخبار المحلية ، والنكات الساخرة ، والأخلاق ، والدين ، متقطعة بفترات صمت هادئة أو بصوت الحناجر وهي تحتسي الشاي الحار .

وكانت الاستدعاءات للغذاء أو العشاء[15] متكررة ، كانت توجه في الليلة السابقة أو حتى في الصباح ، لكن لا تُقدَّم إطلاقاً . كان الغذاء يشتمل على بعض الأطباق من اللحم بالخضر ، متفاوتة العدد حسب أهمية الاستقبال ، والكسكسو باللبن ، والفواكه ، والحلويات بالعسل ؛ وكانت الجواري يُدرن الطست قبل الأكل وبعده ، حتى ينظف كل واحد يديه وفمه . وكان الشاي يقدم إثر الطعام وتُدار مبخرة ليطيب كل واحد ثيابه . كان كل ذلك يتم وفق قواعد اللياقة ، وفي غاية الدقة والأدب .

هذه كلها مُتع في الداخل . أما متع الهواء الطلق ، فكانت أقل اجتذاباً

اللاعب الشهير إليخين ، الذي لم يتعرض إلى هذه الخيبة سوى مرتين أثناء جولته في المغرب ؟

(14) انظر موليبيراس، المرجع المذكور ، ص. 181 . كان للأنجليز الاحتكار التام تقريباً في بيع الحاكيات بفاس . وأدركوا فوراً أنهم سوف لا يبيعون منها إلا إذا استطاع الفاسيون أن يستمعوا إلى الموسيقى التي تروقهم . لذلك سجلوا في عين المكان أغنيات وألحانا جوقية ، فكانت النتيجة هي المنتظرة ، ولم يكن رضى النساء أقل من رضى الرجال .

(15) إنني أستعمل كلمة « عشاء » عمداً ، إذ كانوا يستدعون لا لتناول الطعام ، ولكن لقضاء الليل ، نظراً للصعوبة التي كانوا يجدونها في الالتحاق بمنازلهم ليلاً ، بسبب إغلاق أبواب الحي (انظر أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 332)

لهؤلاء السكان الفاترين . إلا أن بعضهم ، ولا سيما الشبان ، كانوا يذهبون للصيد في ناحية واد فاس بعالية المدينة وسافلتها[16] ؛ وكان آخرون يمارسون المسايفة بالعصا ، والمصارعة ، وكان هنالك حتى موضع مخصص للاعبي الكرة[17] . وأخيراً فقد أشرنا فيما سبق[18] إلى جمعيات الرماية التي كانت موجودة بفاس . لم يذهب كل ذلك إلى بعد كبير ، لذلك لا يسعنا ذكر الافتنان بالرياضة[19] .

البغاء والحياة الغرامية :ـ كان البغاء نادر الظهور ، منعزلاً في الأحياء الفقيرة ، ويكاد يكون معيباً في المدينة التقية البورجوازية . ليس معنى هذا أن الفاسيين كانوا أعفَّ من غيرهم ، لكن احترامهم للياقات ، والسهولة التي كانوا يجدونها عند الإماء والمغنيات وبعض الأرامل أو المطلقات ، والسن الباكر الذي كانوا يتزوجون فيه ، وكراهيتهم للعفوية والسوقية ، كل ذلك كان يقصيهم عادة عن المومسات الحقيقيات .

كانت هؤلاء من نصيب القرويين العابرين ، والعمال الفصليين ، والجنود ، وعدد معين من الصناع . كن يعشن ، وهن أيضاً قرويات ، في الطابق الأول ببعض الفنادق ، بجوار الأبواب الرئيسية للمدينة[20] . كن يكترين

(16) نفس المرجع ، ص. 339 .

(17) توجد بسلوة الأنفاس (جزء 2 ، ص. 42 و43) إشارة إلى ملعب الكرة برأس القليعة .

(18) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 3 ص. 254 ؛ والكتاب 5 ، الفصل 3 ، ص. 364 .

(19) لقد تغيرت الأشياء كثيراً منذ إقامة الحماية . فأصبح الشباب الفاسي مولعاً أكثر فأكثر بالرياضات والحياة في الهواء الطلق ، وأخذ عدد الهواة يتزايد بدون انقطاع ، لاسيما منذ حوالي عشر سنوات ، في الكشفية من جهة ، وكرة القدم وكرة السلة والسباحة، وألعاب القوى ، في درجة أدنى ، في الميدان الرياضي بمعنى الكلمة .

(20) يذكر مارتان (الكدان ، ص. 625 ، وهنا وهناك) اثنين منها ، أحدها مباشرة قرب جامع الأندلس ، في طريق باب فتوح ، والآخر في أسفل درب اللمطي ، قرب قنطرة بين المدن . كان بعضها أيضاً قرب باب عجيسة ، كما كانت قصبة تامدرت وقصبة بوجلود مكانين للبغاء . وكذا بعض مناطق حي مولاي عبد الله بفاس الجديد الذي أصبح منذئذ الحي الرسمي للبغاء (ميطرودو لاموط ـ كابرون وطرينكا ، المرجع المذكور ، ص . 27) .

غرفتهن من صاحب الفندق الذي كان يطالب بإضافة دفع واجب قدره 0,25 بسيطة حسنية عن كل زائر . كان بواب الفندق يُستعمل كخادم ويوفر لهن ، مقابل مال ، الكؤوس والصينيات اللازمة لإقامة الشاي . كن مستقلات بعضهن عن بعض ، فلا شيء يشبه « ماخوراً » .

وكانت مومسات أخريات ، فاسيات في غالب الأحيان ، يعشن في دور خصوصية[21] . تكتري منازلهن عجائز يقمن بدور وسيطات وربات الماخور . وكان يحدث أن تذهب هؤلاء النساء إلى منزل الرجال في بعض « المصريات » الخفية .

كن جميعهن تحت مراقبة مقدم الحي الذي يعشن فيه ، وكان هذا الأخير يقتطع العشر للمومسات التابعات له كما أسلفنا[22] ؛ وإذا امتنعن من الأداء تعرضن للإزعاجات أولاً ، والى مضايقات خطيرة إذا أصررن على موقفهن .

كم كان عدد هؤلاء النساء ؟ لا تسمح أية علامة بإعطاء أدنى بيان عنه . والذي يبدو يقيناً ، هو أن عددهن كان ضعيفاً باعتبار عدد السكان . كم كان الفرق كبيراً مع بغاء مراكش المنتشر في كل مكان ، لإرضاء آلاف المتجولين الوافدين كل يوم من البادية على مدينة الجنوب الكبرى ! .

عندما كان البورجوازيون يريدون مغامرة غرامية ، وجهوا أنظارهم نحو المغنيات ، وهن النساء الوحيدات ، مع الخاطبات ، اللائي كان في استطاعتهم ان يروا وجوههن . كما كان في وسعهم أن يفكروا في الأرامل والمطلقات العديدات اللواتي كن يعشن وحدهن ، مشكلات ما يمكن أن يسمى « عالم الغانيات » بفاس . كان التصريح عادة مسبوقاً بإرسال قالب

---

(21) يشير مارتان، المرجع المذكور، إلى وجودها بزنقة الياسمينة، وزنقة الفواح، وقرب فندق العطار . وكانت هذه الدور طبعاً تحدث ضجة وتتسبب دورياً في احتجاجات الناس المستقيمين بالحي .

(22) انظر ما سبق ، الكتاب 4 ، الفصل 2 ، ص. 128 .

سكر[23]؛ وإن لم يكن للراغب محلّ مناسب ، وجد بسهولة صديقاً مراعياً يُعيره حديقة أو مقصورة ملائمة للمغامرة يقضي فيها بضع ساعات : فإذا كانت المبادئ الأخلاقية صارمة ، فإن تطبيقها كان يترك المجال للتوفيقات[24]. وأخيراً كان العديد من الرجال ، وليسوا فقط من الطبقات الشعبية ، جريئين إلى درجة أنهم كانوا يقتربون من النساء في الزقاق عند الخروج من الحمام أو عند كل مناسبة أخرى ، فيعرضون عليهن اقتراحاتهم بدون مراوغات[25]؛ لأن الفاسيين ، وهم قوم عمليون ، لا يحبون ضياع الوقت في تغزل معقد فيتعرضون تواً إلى المهم ؛ لم يكونوا يدخلون دائماً على المسائل الغرامية التهذيب الذي كانوا يحسنون إدخاله على عدة مظاهر أخرى لحياتهم .

التسليات الغير العاديـة : ـ وهناك تسليات أخرى خارجة عن العادة ، كان أكثرها جرياناً هو حقّاً الأفراحُ العائلية التي سبق أن أشرت إليها . كانت ثلاثة عناصر تعطيها القيمة : الأناقة ، والموسيقى ، والطبخ ؛ ويمكن أن تضاف إليها ، بالنسبة للمسـنين ، المحادثة ، لأن اجتماعات الأسرة كانت تعطيهم فرصة أخرى للقاء من جديد وللمذاكرة .

سوف لا ألح على التزين ، كانت النساء أكثر اهتماماً به من الرجال ، كما هو الشأن في أماكن أخرى ، مع هذا الفارق وهو أنهن لم يكن يتزين إلا ليسترعين إعجاب النساء الأخريات ، لا ليرضين الرجال . ورغم ذلك ، فإن أناقة الرجولة لم تكن لفظة وهمية بفاس : كان التنسيق الجيد للعمامة ، ورقة المعطف وبياضه ، وشكل النعال ولونها ، كل ذلك يميز الذين يحسنون لباسهم الأنيق بالأخص . وكان في الطبقة الفقيرة بالنسبة للرجال والنساء على حد سواء ، ما يقابل « لباسنا ليوم الأحد » .

---

(23) لوتي ، المرجع المذكور ، ص. 195 .

(24) انظر ڤيير ، المرجع المذكور ، ص. 209 وما بعدها .

(25) انظر في هذا الصدد مشاهد عديدة نموذجية في الرواي الآنفة الذكر من تأليف ف. بونجان ، اعترافات بنت الليل .

الموسيقى : - كان أهل فاس يحبون الموسيقى حباً جماً ، وبالضبط موسيقاهم ، أي الموسيقى الأندلسية[26]. كانت وقفاً على أربعة أجواق أو خمسة تتألف من ستة موسيقيين على الأقل . كان رئيس الجوق مع واحد أو اثنين من أصحابه فقط لا يشتغلون إلا بالموسيقى ، أما الآخرون ، وهم صناع أو أصحاب دكاكين ، فكانوا يجدون فيها ملهاة تروقهم وفرصة لتحسين أرباحهم المعتادة . كان لكل جوق تقاليده الخاصة ، ومقاطعه المعروفة عند رئيس الجوق وحده في جميع تشعباتها . وكان المعلم الشيخ (وهكذا كان يسمى رئيس الجوق) لا يفشي سره إلاّ في آخر لحظة إلى مَن اختاره ليكون خلفاً له . كان الجوق الأكثر اعتباراً هو الذي يستطيع أن يعزف أكثر عدد من المقاطع . لقد شاخ هذا الفن الرفيع الملون الموروث عن إسبانيا المجاورة ، كعدة أشياء أخرى بفاس، وَبَلِي دون أن يتجدد. إن عدد مقاطعه تتناقص ببطء، وربما جودتها كذلك، فلم يبق سوى بقايا ما زالت ساحرة، لكنها بدون قوة[27] .

كانت العامة لا تحتقر الموسيقى الأندلسية ، ولكنها لا تستطيع إلا نادراً أن تسمح لنفسها ، على غير العادة ، بأن تستأجر جوقاً ، فكانت تلجأ في أغلب الأحيان إلى موسيقيي المواكب من الطبالين والغياطين[28] الذين كان

---

(26) انظر عن الموسيقى الأندلسية ، أ . شوطان ، الموسيقى المغربية ، ص. 107 -153 ؛ واوبين ، المرجع المذكور ، ص. 343 -344 .

(27) حاولت مصلحة الفنون الأهلية ، التي أنشأها الماريشال ليوطي ، أن تحيي هذا الفن المحتضر ، فأحدثت بفاس ، بإيعاز من منشطه م. پروسپير ريكار ، وبمساعدة الباحث في الموسيقى المجرب م . أليكسيس شوطان ، معهدا للموسيقى الأندلسية أدى خدمات كبرى ، موقفاً على الفور تقهقراً زاحفاً . إلا أن رؤساء الأجواق المسنين أظهروا تقاعساًوعدم كفاءة في التجديد . ومن المؤمل ، كلما زاد تأثير الشباب ، أن تستعيد الموسيقى الأندلسية بهاءها العتيق ، في شكل جديد . ولابد أيضاً من الإشارة إلى تأثير الموسيقى الشرقية التي يتذوقها الشباب الفاسي الآن جداً ، والتي تشهرها الأسطوانة ، والراديو ، والسينما الناطقة .

(28) انظر عن هؤلاء الموسيقيين ، ميشو-بلّير ، وصف فاس ، ص. 323؛ وأ . شوطان ، المرجع المذكور ، ص. 165 -168 . كما أن صديقي أحمد الصفريوي أفادني عنهم بمعلومات قيمة .

فنهم أقل تهذيباً ، لكن نفسهم طويل لا ينفد ، فكانوا يحدثون الضجيج على الأقل وينجزون أحياناً ما هو أحسن[29] . كان أمينهم ، لأنهم كانوا يشكلون طائفة[30] ، يقيم بدكان في درب الكَزولي ، بحي زقاق الرمان . كان يُبحث عنه هناك لاستخدام الموسيقيين .

كما كان هناك أشياخ[31] ينشدون قصائد من الملحون ويصحبونها بلحن يسمى « كُريحة » (خلافاً للموسيقى الأندلسية المسماة « آلة »)[32]؛ كان منهم نحو خمسين بفاس ، لا يستطيع سوى بعضهم أن يكسبوا معاشهم من فنهم . وكان يوجد من بينهم كذلك ممثلون بالإيماء ومضحكون يقدرهم أهل فاس من جميع المستويات كل تقدير ، رغماً عن فكاهاتهم الإباحية أو من أجلها .

وأخيراً كانت بفاس مغنيات[33] أدركت بعضهن الشهرة . كن يشكلن طبقتين متميزتين : «المغنّيات» و« الشيخات »[34] . كانت الأوليات ، وهن

---

(29) أتذكر أني سمعت ، في إحدى ليالي رمضان الباردة ، عزفاً منفرداً صافياً كالبلور ومؤثراً جداً « لِغياط » يعزف من أعلى صومعة . كان ذلك تعبيراً لروح قلقة ، ومحتدمة ، وآسفة ، ومجردة . كان فناناً بسيطاً ، ولكنه فنان بالتأكيد .

(30) وبمعنى أدق طائفة ثنائية ، لأنهم كانوا ينقسمون إلى مجموعتين ، إلى طبالي فاس ، وطبالي الجبل . كان الأولون ، وعددهم نحو العشرين ، ينتمون إلى المدينة ويقيمون عادة كل أيام الجمعة جلسة موسيقية في ضريح المولى إدريس،وكان الآخرون ينقسمون إلى عدة مجموعات يدير كل واحدة منها شيخ ، حسب قبيلتهم الأصلية : كان هناك مجموعة بني حسن ، ومجموعة بني وليد ، ومجموعة التسول ، ومجموعة صنهاجة ، ومجموعة الحياينة . كان لكل واحدة لواؤها الخاص لا يُنشر إلا في مناسبات خاصة،(كاقتبال الملك أو شخصية كبيرة،، أو موسم ولي). كان هؤلاء جبالة لا يقيمون جلسة موسيقية في ضريح مولاي إدريس . ومن جهة أخرى كانت هذه المجموعة أو تلك تؤمن لنفسها خدمات راقص شاب . وسواء كانوا جبليين أم فاسيين ، فإن الطبالين كانوا يخصصون حصة كبيرة للارتجال .

(31) انظر عنهم ، أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 344 .

(32) انظر عن هذا النوع من الموسيقى ، أ . شوطان ، المرجع المذكور ، ص. 153 -165 .

(33) انظر عنهن أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 345 ، وڤيبر ، المرجع المذكور ، ص. 206 وما بعدها . ومن جهة أخرى جمعت بعض المعلومات الإضافية لدى مغنية قديمة أصبحت خاطبة ، في ربيع 1945 .

(34) تجدر الإشارة إلى وجود « الحضارات » وهن مغنيات مسنات متخصصات في الأغاني الدينية .

أكثر عدداً بكثير[35] المغنياتِ من الدرجة الثانية ؛ كان تفوقهن ناتجاً عن فتنتهن على الأقل بقدر ما هو ناتج أكثر من صوتهن . كانت « الشيخات » يشكلن أربع جماعات أو خمس ، في كل واحدة ستة أشخاص على الأقل[36] . وكانت قائمتهن ، وهي متنوعة جداً ، تشتمل على أغنيات أندلسية[37] ، وقصائد من الملحون ، وحتى أغنيات جزائرية . وكانت نجم الفرقة[38] تغني بانفراد ، على إيقاع دف صغير (داب) وتصفيق صاحباتها اللائي كن يستأنفن اللاّزمة معاً[39] . كانت الشيخات يشاركن في عدة احتفالات عائلية (زفاف ، وسابع يوم الولادة ، إعذار ، إلخ . . .).وكن مطلوبات جداً من بورجوازية المدينة . كان رب المنزل ، يُهدي فوراً إلى زاوية مولاي إدريس ، وقد سبق له أن دفع لهن العربون ، ويجازيهن على خدماتهن بمبلغ قليل من المال ، وهو خمسة ريالات أو ستة ، لكنه كان يستضيفهن لمدة عدة أيام أحياناً ، وفي كل جلسة كان يتم جمع تبرعات من الضيوف لفائدتهن . وأخيراً كانت العادة تقتضي ، عندما كن يرقصن ، أنهن يجثون أمام كل ضيف فيلصق على جبينهن قطعة نقدية ؛ فكانت المنافسة تساعدهن على تحصيل حتى 80 إلى 100 ريال في المساء الواحد ، لشدة ما كان شغف البورجوازيين الفاسيين[40] عظيماً بهنّ . ومن جهة أخرى كانت المغنيات

---

(35) كن يشكلن حوالي ثلاثين جماعة .

(36) كانت مجموعة الحاجة زينب التي غالباً ما كانت تشتغل عند السلطان ، تضم ست عشرة عازفة (متعلمات) .

(37) لقد أورد أوبان (المرجع المذكور) ترجمة أشهر هذه الأغنيات (وهي : يا أسمي التي تذكر بالفردوس المفقود . . .) .

(38) كانت أشهر المغنيات في بداية القرن العشرين هي خدوج السبتية ، والحاجة بريكة بنت ابن علال ، التي يورد أوبان حكايتها ، وكذا الحاجة زينب الآنفة الذكر .

(39) كان الكثير منهن لا يعرفن سوى اللازمات ؛ وكانت أخريات بالعكس يحفظن تدريجياً قائمة « المعلمة » .

(40) يقدر أوبان ، حسب ما استقاه من معلومات ، أن بريكة كانت تقبض من 3000 إلى 4000 ريال في السنة . كانت المبالغ المحصل عليها تقسم إلى قسمين ، كان النصف منها يؤول للمعلمة ، والنصف الثاني يقسم بين المتعلمات . ومع ذلك لم تكن المغنيات غنيات ، إذ كن مبذرات . تقول السنة السوء إنهن كنّ في الغالب ميالاتٍ إلى شرب الخمر .

الشهيرات يخترن زبناءهن ولا يذهبن إلا عند الأغنياء والمرموقين من الناس ؛ كن مطلوبات أحياناً حتى من مراكش ، بينما لم تكن أية مغنية غريبة لتقدم على أن يستمع إليها بفاس .

الطبخ : - لم تكن الاستقبالات بالتالي تجري بدون أكل فاخر . فإذا نظم أحد الأغنياء الفاسيين احتفالاً جميلاً بجوق ممتاز، لم يكن يستطيع أن يقدم لضيوفه أقل من غداء جيد . كانت الأسر العظمى تملك في المنزل خادمة طباخة ، ولكن في حالة احتفال كبير يستدعى إليه عدة مئات من الأشخاص ، كان لا بد من مدها بالمساعدة . فكانوا يلجؤون من أجل ذلك إلى خدم إضافيين (طباخ ، مُؤنثه طباخة)[41] وكانوا من الجنسين . كان الرجال قليلي العدد ، حوالي عشرة ، لكنهم كانوا يديرون الطائفة[42] ، وهي الطائفة الوحيدة المختلطة بفاس ، حسب علمي . كانت النساء كلهن زنجيات معتقات ، وعددهن نحو خمسين[43] ، كن يشتغلن تحت مسؤولية أمين الطائفة الذي لم يكن يتردد في توبيخهن وضربهن عند الاقتضاء . كن خرافيات للغاية ، لا يشعلن مواقدهن إطلاقاً قبل إحراق شيء من البخور الطيب (الجاوي ، والشب ، إلخ . .) ، ودون تلاوة بعض العبارات التعوذية . وكن يغنين أغنيات سودانية وهن يشتغلن في عملهن ، ولا ينقطعن عن الحديث والحكايات .

كانت المهمة الوحيدة للطباخين والطباخات هي تهييئ قائمة طعام معدة مسبقاً ، بتوابل معينة ؛ وكانوا في الغالب يأتون بأدواتهم . كان الرجال يؤجرون عيناً ، فيأخذون بعض الأطباق ويتسلمون كذلك قطعة أو قطعتين من

---

(41) جمعت المعلومات التالية ، خلال تَحَرٍّ شخصي ؛ ومن جملة من سألتهم أمين الطباخين ، الحاج محمد كَنون ، وهو يعمل الآن في فندق أهلي بقصبة بوجلود أنشئ حديثاً .

(42) كان أمين الطباخين يعين من طرف المخزن ، لأن طائفتهم بدون شك كانت كثيراً ما تستدعى لتعمل بالقصر حيث كانوا يحتاجون إلى قوم ثقات .

(43) حسب أمين الطائفة ، كان ظهير شريف يمنع النساء الحرات من مزاولة الحرفة ، لا لكون الأمر يتعلق بشغل من عمل الرق ، ولكن حتى لا يكون الطبخ من إنجاز نساء تكون لهن روابط بفاس ، وقد يغتنمن حرفتهن لبلوغ ثأرهن .

الثياب[44]! وكان يحق للطباخات أن يأخذن سلب الدجاج فيبعنه ، وأجرة قليلة مناسبة للعمل المطلوب منهن . وكانت الحرفة مربحة في الصيف والخريف ، لكن ، نظراً لأن البطالة تكاد تكون شاملة في الشتاء ، كان لجميعهم ، رجالاً ونساءً ، حرفة أخرى[45] .

كانوا كلهم يعرفون التشكيلة العادية للأطعمة المستعملة بفاس ، لكن كل واحد منهم كان له طبقه المفضل الذي يحسنه بكيفية خاصة . وكان أكبر تنوع يسود طبعاً في القوائم ، حسب الوسط الاجتماعي للمضيف وأهمية الحفل : كان يسير من الطابق البسيط للحم الضأن المشوي باللوز ، المتبوع بالكسكسو بالدجاج ، إلى ولائم المخزن الفاخرة التي كان يُقدم فيها نحو عشرين طبقاً متتالية[46] .

ورغم أن هذا الطبخ مغاير لطبخنا وغريب عن ذوق الأوروبيين، فإنه مع ذلك لا يقل لذة ورقة، وإن كانت المقومات الأساسية قليلة العدد، وهي : الضأن ، والدجاج ، والحمام ، والكسكسو ، والدقيق ، واللوز ، والليمون الحامض ، وتوابل مختلفة ، والعسل ، والسمن ، والزيت ، والبيض ، واللبن ، والسمك نادراً ، وقليل من الخضر ، وقليل من الفواكه ، ولحم

---

(44) كانت الأشغال المنجزة لفائدة المخزن استثنائية . فكان الطباخون يقبضون جائزة نقدية ، قد حددها حتى مولاي حفيظ .

(45) كانت النساء يغزلن الصوف أو يغسلن الثياب في فصل الكساد .

(46) إليكم قائمة أطعمة قدمت في بلاط مولاي عبد العزيز : البسطيلة (فطيرة مورقة مصنوعة بالحمام) ـ تفاية (لحم الضأن المشوي المصنوع باللوز) ـ المروزية (لحم مشوي بالتوابل والعسل واللوز) ـ الدجاج المعمّر (دجاج محشو بالكسكسو أو الأرز مع الزبيب واللوز) ـ دجاج مشرمل (دجاج مقطع بالبصل والمعدنوس) ـ دجاج مفند (دجاج بالبيض) ـ قمامة (لحم مطبوخ جيداً بالبصل والعسل والتوابل) ـ الصويري (دجاج أو لحم ضأن بالزعفران) ـ كسكو مدفون بالدجاج (كسكو بالدجاج مع البصل والزعفران) ـ كسكو مسوس (كسكسو بالسكر والقرفة) ـ الروز بوفلفل (أرز بالفلفل) ـ الروز المكوي (أرز مبخّر) والروز المحلبي (أرز باللبن) ـ والسفّة (سميد) ـ الحلاوي (وهي حلويات متنوعة) .

الطرائد المنعدم تقريباً . بهذا الزاد القليل ، كان الطباخون الفاسيون ، وهم ورثة تقاليد أندلسية حسب جميع الاحتمالات ، قد استطاعوا أن يشكلو قائمة من الأطباق متنوعة بقدر كاف ، وأن يحققوا تجانسات مدهشة للتوابل لكنها لذيذة ، وأن يشكلو فناً حقيقياً للطبخ كان أهل فاس يعتزون به عن جدارة ويعطي برهاناً آخر عن حضارتهم العتيدة[47] .

كانوا هكذا ينظمون استقبالات بمناسبة أهم أحداث الحياة العائلية أو الأعياد الدينية ، كما كانت هناك مجرد استقبالات حبية واستقبالات رسمية ، تقدمها خاصة الشخصيات المخزنية على شرف ضيف عابر ، أو سفير أوروبي ، مثلاً[48] . وحسب المجاملة الشرقية ، فإن المضيف لم يكن يساهم في الغذاء ، حتى يراقب حسن تنسيقه ويسهر على ألاَّ يفوت أحدَ ضيوفِه شيء .

فأناقة اللباس وسحر الموسيقى ورقة الأكل الفاخر ، وتهذيب المجاملة ، كل ذلك كان يتضافر على أن يجعل من هذه الاجتماعات شيئاً متمماً ، ومرضياً للحواس والفكر معاً . وإننا لندرك مدى السرور الذي كان أهل فاس يجدونه في ذلك .

وفي الفصل الجميل الذي كان هو « فصل فاس » ، كثيراً ما كانوا يذهبون إلى البادية ليقضوا فيها النهار ، يتناولون الأكل ويتنزهون ، ذلك ما يسمى هناك « النزاهة »[49] . كانت بساتين المدينة ، داخل الأسوار أو عند

---

(47) لقد شرع بعض فرنسيي فاس في جمع أهم وصفات الطبخ الفاسي واستخلاص موجز طبخي منها . وفعلاً ، فإن مثل هذا الموضوع يستحق أن يخصص له مؤلَّف ، يكون طبعاً مبنياً على تجربة طويلة .

(48) كان الوزراء ، في هذه الحالة ، يبدون غالباً اللياقة في أن يقدموا إلى ضيوفهم الرفاهيات المعتادة عندهم : كخوان ذي ارتفاع عادي ، وكراسي ، وسكاكين ، وملعقات ، وشوكات ، وقد يستعيرونها منهم لانعدامها بفاس ، (الكونت دوبويسوري ، المرجع المذكور ، ص. 65) .

(49) عادة « النزهة » قديمة بفاس : يشير إليها ليون الإفريقي (القسم 2 ، ص 111) ، وكذا المؤلف=

قدمها ، المسرح المعتاد لها[50] ، فيكلفون « زرزاية » بأن يحملوا إليها الحصر والزرابي واللحافات التي كانوا يضعونها في ظل أوراق الشجر . وفي وقت الأكل ، كان الخدم يأتون حاملين على رؤوسهم أطباقاً ما زالت حامية . وكان جوق من العازفين أو المغنيين يُستدعى أحياناً لتنشيط الاحتفال، فيقضون النهار في عفوية لطيفة . وإذا أبصروا صديقاً عابراً أو حتى غريباً يبدو عليه أن الفرح اجتذبه ، استدعوه عن طيب خاطر[51] .

الأعياد والحفلات العمومية : ـ وأخيراً كانت الأعياد الدينية والحفلات الرسمية تتيح لأهل فاس نوعاً أخيراً من التسلية . كانت المدينة كلها تساهم في الأولى بنفس الحماس الديني[52] ، ولم يكن الأمر كذلك بالنسبة للحفلات الرسمية . فالبورجوازيون لم يكونوا يتذوقون كثيراً هذه الأفراح المفروضة ، لأنها كانت أولاً تتطلب منهم ثمناً غالياً ، ولأنها كانت ثانياً تزعجهم في عوائدهم ، دون أن تحمل لهم أي تعويض .

كان تبوُّءُ سلطان جديد العرش ودخوله الرسمي إلى فاس ، ووقوع حدث سعيد في الأسرة الشريفة ، مناسبة حتماً لتقديم هدية إلى العاهل ؛ وكان الأعيان طبعاً يتحملون أثقل عبئها . فإذا أُعلن عن مجيء سفير أجنبي ، كان ذلك ينبئ عن « مؤونة »[53] قد تدوم طويلاً . وإذا كانت مجرد رسالة من

المجهول في تاريخ الدولة السعديه (ص. 30، وعلى ناي (المرجع المذكور، ص. 194-195) .
كانت النزهة في البادية التي استدعي إليها هذا الأخير .

(50) لقد اتسع كثيراً مجال « النزهة » ، منذ أن ساد الأمن وانتشر استعمال السيارة بين أهل فاس ، يذهبون الآن قصد التنزه إلى صفرو ، وعلى ضفتي سبو ، وفي سهل سايس ، أو حتى في الجبل جهة إيموزار كندر أو إفران . وقد أعطى الفرنسيون المثال .

(51) حدث لي نفس الشيء في أول إقامتي بفاس ، وكان ذلك في يوم رائع من شهر فبراير . كنت ذلك اليوم ضيفاً على فاسيين لم يعرفوني وقد تفضلوا باستدعائي الى نزهتهم ، عندما لاحظوا أنني أنظر ـ بدون تحفظ ـ إلى ما كان يجري في بستانهم .

(52) انظر ما سبق ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

(53) انظر عن هذه الكلمة ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2 ، ص 170 .

السلطان تخبر بانتصار على قبيلة متمردة ، كان من اللازم أن يعطلوا ، ويزينوا بالأعلام ويدفعوا الأجرة للاجواق في الأسواق الرئيسية ، ويقدموا هدية إلى رسول العاهل : ومن ثمة زيادة في نفقات ونقصان في الربح[54] . ومن جهة أخرى ، كان لا بد من الصعود إلى باب دكاكن ، وباب ساكمة أو مشور باب بوجات ، في الغبار وسط الازدحام . ولم يكن جمال المشهد ليعوض دائماً هذه المضايقات .

أما سوقة فاس الجديد والتصبات والأحياء الدائرية ، فكانوا على العكس من ذلك يحبون كثيراً هذه التسليات المجانية ، ويزدحمون عند مرور العاهل أو الأسرى الذين تأتي بهم « المحلة » الشريفة ، ويحضرون أفواجاً تظاهرات الطوائف الصوفية[55] ، أو عقوبات اللصوص والثوار[56] . وكان هؤلاء السوقة ، وهم هادئون عادة ، يصابون في مثل هذه الأوقات بهياج جماعي قد يؤدي بهم إلى ارتكاب أبشع العنف[57] . كانت الأنظار تلمع بوميض تائه ، والصدور تلهث ، والمشية تسرع ، وكان صراخ أول من تثور أعصابهم يحفز الآخرين ؛ ولم تكن النساء أقل تحمساً ، وإن كن يقفن في المؤخرة بعض الشيء . فكان إذ ذاك هذا الجمهور الجاهل كأنه رفعه موج من الهمجية ، آتٍ من أعماق التاريخ ، وقت أن كانت الوحوش تمرح في شِعْب إدريس(*) .

وفي نهاية مطاف هذه النظرة الإجمالية عن الحياة الاجتماعية لمسلمي

---

(54) انظر الرسالة المؤرخة في 33 مارس 1898 ، التي يذكر فيها نائب قنصل فرنسا أن مولاي عبد العزيز يخبر سكان فاس بالانتصار الذي أحرزه على قبائل الشاوية الثائرة ، وذلك يترتب عنه حتماً البطالة والمسرات ، تحت طائلة الغرامة وحتى السجن .

(55) انظر ما سبق ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(56) انظر عند لوكلي (موت الروكي ، ص203 -205) رواية النكال بأصحاب بو حمارة .

(57) هكذا تفسر الاحداث الدامية لابريل 1912 .

(*) لقد أخرجت ذكرى « أيام فاس الدامية » المؤلف عن تظاهره بالاعتدال فراح يتفنن في شتم مواطنينا بما ينبىء عن كامن الحقد والاحتقار. (مترجم) .

فاس ينبغي أن نجمع هذا المقدار من البيانات المتفرقة ونحاول تمييز الظاهرة في عموميتها الكاملة .

فأول علامة تعريفية ، تفرض نفسها بادئ ذي بدء وتبرز معززة من التحليل ، هي وجود عادة قوية كانت تنظم تقريباً جميع أعمال الحياة الاجتماعية . ليست هذه ظاهرة شاذة في بلد إسلامي ، ولكنها كانت تتجلى هنا بحدة غريبة[58] . كانت هذه العادة تتحكم في جميع أعمال الحياة الفردية ، وجميع العلاقات الاجتماعية ، وذلك منذ قرون . وفعلاً ، إذا تعذر القول ، عند انعدام الوثائق ، في أي عهد يمكن اعتبار هذه العادة قد نشأت ، فلنا اليقين في أنها كانت سائدة بكامل قواها في أوائل القرن السادس عشر ، عندما كان ليون الإفريقي يعيش بفاس . فالوصف الذي خلفه لنا عنها يمكن أن يطبق ، نقطة نقطة تقريباً ، على فاس في بداية القرن العشرين . والفارق الوحيد الهام ، هو أن الخلاعة كانت أكثر انتشاراً في وضح النهار على عهد الوطاسيين : كان الأشرار الذين يحدثنا عنهم ليون[59] يشكلون عصابة حقيقية معترفاً بها رسمياً تقريباً ، إذ كانوا يستفيدون من وضعية عسكرية خاصة ، وكانت الخمر تباع جهاراً[60] . إن الإصلاح الديني الذي كان سيفضي بعد سنوات قليلة من مجيء الدولتين الشريفتين لم يكن قد أعطى أكله بعد ، ولم يكن قد أرغم الفسقة على التستر . ولكن فيما عدا ذلك ، سواء تعلق الأمر بحفلات الزفاف أو الإعذار أو الأطعمة ، أو الاعتقادات الخرافية ، والمغنيين ، والمهرجين ، أو النزهات في البادية ، فكل ما يرويه ليون يمكن أن يقال أيضاً في دولة مولاي حفيظ .

كانت هذه « القاعدة » موجبة ومدققة خاصة في الأوساط البورجوازية ،

---

(58) إن عادة سلا وحدها ، في المغرب ، هي التي يمكن مقارنتها بعادة فاس ، وربما تجاوزتها شدة في بعض النقط . وفي تونس ، لا بد من الذهاب إلى صفاقس للعثور على شيء مماثل .

(59) القسم 2 ، ص 84 -87 .

(60) القسم 2 ، ص 109

ولكنها كانت تمتد أيضاً إلى العائلات الأكثر تواضعاً ، ولو بأقل حدة : كان الغرباء المقيمون بفاس يتركون شيئاً فشيئاً عوائدهم القديمة ليتكيفوا مع العادة الفاسية ؛ وحتى المارّون بها ، كالحمالين البربر ، كانوا يخضعون إلى عدد معين من الأحكام القرنية ، بمجرد ما كانوا يصلون إلى المدينة الإدريسية . وباختصار ، إن الشخصية الفاسية كانت قد اكتسبت ، على مر القرون ، قدراً من القوة ، وقدراً من المتانة ، إلى درجة أنها أصبحت منيعة على المستوردات الخارجية[61] .

إن قاعدة اجتماعية بهذا المقدار من الدقة مطبوعة حتماً بالشكلية . فيكفي ، في عدة حالات ، أن تكون المظاهر سليمة حتى يكون جميع الناس مسرورين، ما عدا « ألْسِيسْت » (المتشائم) المولَع بالمطلق . ومن ثم جاء النمو الحتمي للنفاق : فليس من الصدفة أو النزوة الفردية إذا كانت ترجمة « تارتوف » (المنافق) لم يمكن تمثيلها بفاس[62] . كانت هذه الرواية تكشف عورة عدد مفرط من البورجوازيين حتى إنهم لا يمكنهم إلَّا أن يؤ يدوا منعها ، وعلى الأقل في صميم أفئدتهم . ولا يتعلق الأمر هنا فقط بالنفاق الديني ، ولكن بكل أنواع النفاق . وما الحكاية التي أوردتها بصدد الربا[63] إلا دليل عن ذلك . وهي الانتقام الوحيد للأفراد تجاه واجب اجتماعي ضاغط بإفراط ، لأن نموذج الثائر المتمرد ، الكثير الوجود في المجتمعات الغربية ، كان منعدماً بفاس . كان الشواذ الوحيدون المسموح لهم هم المتوهمون المعتدلون الذين جعل منهم الرأي الشعبي أولياء ، وأحياناً أثناء حياتهم[63] . أما الباقون فلم

---

(61) كان لا بد من نحو عشرين سنة من الحماية حتى يبدأ التأثير الغربي يُحَسُّ به جلياً بفاس ، ومع ذلك فإن التعبيرات الأولى لم تمس سوى عوائد سطحية .

(62) ترجم قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس هذه المسرحية سنة 1928 ، وكانوا يتهيئون لتمثيلها بلباس مغربي ، فإذا بتدخلات فاسية قوية جداً حملت السلطة الفرنسية على منع هذا التمثيل . ولم يقع حتى الآن

(63) انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل 6 ، ص 448 .

(64) يوجد وصف هؤلاء الأشخاص « على الهامش » في جميع مجموعات المناقب . وتتضمن سلوة الانفاس العديد منهم . ويمكن حتى أن يشاهد في كتاب الكونت دوبويسوري الآنف الذكر صورة امرأة وسط كانت تتجول في الأزقة دون أن تحدث أية فضيحة .

تكن لهم سوى وسيلة للتخلص من القاعدة الاجتماعية ، ألا وهي الانصراف . لكن النفاق كان هناك ليحجب النقائص الفردية ، منقذاً في نفس الوقت تماسك الهيكل الاجتماعي .

وهناك علامة أُخرى مميزة هي أن المحافظين على هذه العادة لم يكونوا دائماً من سكان المدينة ، كما قد يُظن ذلك ، ولكنهم أحياناً غرباء ، مثل معلمي الكتاتيب الجبليين الذين كانت أفضل أُسر المدينة تسلّم إليهم أبناءها ؛ أو حتى إماء قديمات ، مثل الطباخات والخاطبات . فكأنَّ أهل فاس كانوا يخشون أن يسهروا بأنفسهم على حسن تنسيق أخلاقهم ويفضلون أن يستأجروا على ذلك مرتزقة هم أقل ميولاً إلى المجاملات . وعلى كل حال ، فإن هؤلاء الغرباء قد أصبحوا ضروريين . فلْنفكر فيما عسى أن يكون لا مصير الاقتصاد فحسب ، ولكن أيضاً مصير الحياة الاجتماعية بفاس ، في حالة ما إذا اقتضى تقلب القدر أن تغادر جميع طوائف الأجانب المدينة : فمن يا ترى يخبز ؟ وكيف يتم الزواج ؟ ومن يحسن تلقين القرآن للأطفال ؟.

كما يلاحظ أن تماسك أهل فاس لم يكن يبعد الحواجز العازلة . لا يمكن التحدث عن المعارضة ، كما هو الشأن في المجتمعات الغربية ، وعن صراع الطبقات ؛ لكن يجب أن نقتنع بأن سهولة وأُلفة العلاقات بين الصانع والتاجر الغني ، كانتا تسيران جنباً إلى جنب مع أخلاق متباينة تماماً ، فاللياقات كانت تختلف جداً من وسط إلى آخر . وكان للناس المساكين ، كما هو الشأن في كل مكان ، مجاملات أقل تعقداً من مجاملات الأرستوقراطيين ، لأن التهذيب كان قد عودهم أقل على تمالك أنفسهم . وكانت ردود فعلهم أكثر عفوية ، وانقيادهم إلى الحركة الجماعية أكثر سهولة .

وكان التناقض كبيراً أيضاً ، في كل طبقة اجتماعية ، بين حياة الذكور وحياة الإناث ، ويتفاقم ذلك كلما وقع الاقتراب من الطبقات المسيرة .

فالرجال ، والنساء ، والعلماء ، وأصحاب المخزن ، والتجار ،

وأصحاب الدكاكين ، والصناع ، والعمال اليدويون ، والعمال الفصليون ، كل ذلك كان يمثل جماعات تسلك سلوكاً حسب آداب خصوصية ، في وسط التجانس الفاسي .

ومن جهة أخرى ، يندهش المرء عندما يلاحظ أن هذه المدينة، التي هي وليدة الإسلام ومؤلفة في الأصل من عناصر اعتنقت الإسلام منذ قديم ، بقيت متشبثة بعوائد وشعائر جاهلية أو شبه إسلامية : فالاعتقاد في الجن ، والعفاريت ، والسحر ، والشعوذة ، أصبح جزءاً لا يتجزأ من حياة فاس ، يقع العثور عليه في كل لحظة ، سواء تعلق الأمر بالحب ، أو الأطفال أو الطبخ أو معالجة النظافة . هل كان ذلك بقية رصيد بربري عتيق متجدد على الدوام ؟ أم هو تأثير العبيد السود ؟ كلها تفسيرات صالحة ، لكنه يمكن أن يُرى فيها كذلك بكيفية أعم الموقفُ المعتاد للبشر أمام رموز الحياة وشكوكها ، ذلك الموقف الذي يصبغه الدين والأخلاق بشتى الألوان ، ولكنه يثبت دائماً في أفئدة الناس . ومن هذا الجانب ، فإن فاساً إنسانية لا غير .

وأخيراً فإن عامة النسق اللوني رمادي سوداوي ، فالمرح ، واللامبالاة ، والنزوة ليست من القسمات الفاسية ، لأن القاعدة الصارمة لا تساعد على العفوية ، إنها تلبس الناس لباساً موحداً وتجعلهم ينتبهون دائماً إلى أدنى حركاتهم . يعيشون في فاس محترسين بدون انقطاع ، قلقين من أنفسهم . هناك مدن أخرى مقنَّعة بهذا القناع من التحفظ أو التحسب ، كلْيُون بفرنسا ، وعدة مدن في الشمال يُكسبها ذلك حسن الهيئة، ولكن يسلُبها الفتنة ، لأنها أماكنُ لا يضحكون فيها إلاَّ إذا كان من اللائق أن يضحكوا ، ولا يبكون فيها إلاَّ إذا كان من اللائق أن يبكوا . وعلى التمادي فإن تحفظاً بهذا القدر يُتعب ؛ لا يُخفي العديد من أهل فاس أنهم يملون أحياناً حاضرتهم : فمن يستطيع منهم مغادرتها غادروها لوقت ما ، يذهبون ليتفتحوا في مكان آخر ، ولكنهم ولو أقاموا بعيداً عنها ، فإنهم يتركون أفئدتهم بفاس الرمادية ، المُجبرة ، اللائقة ، وينتهي جلّهم بالعودة إليها .

8/7

الفصل الثامن

عوائد الملاّح

إطار الحياة الاجتماعية : ـ لما كان يهود فاس منطوين على أنفسهم، مالكين شخصياً جزءاً من حياتهم الاقتصادية ، متشبثين كثيراً بدينهم ، فمن البديهي أن تكون لهم مؤسسات اجتماعية خاصة .

كانت بيئة الحياة الاجتماعية مختلفة إلى حد مًّا مع بيئة الفاسيين المسلمين ؛ وكانت المنازل أحياناً مشيدة حسب نفس التصميم العام للمدينة ، أي فناء محاط بحجرات مستطيلة في ثلاثة جوانب على الأقل، ولكن نظراً لضيق المكان الذي فيه اليهود ، كان حجم الأفنية أصغر ، والحجرات أضيق ؛ على أن كثيراً من الدور كانت تبتعد عن هذا التصميم النموذجي : فالعديد منها ينقصها الفناء لربح حجرة أو حجرتين، ولم يكن من النادر وجود دُور ذات شُقق . وعلاوة على ذلك ، وهذا فارق هام ، كانت في الجدران نوافذ مفتوحة على الخارج وذات شبابيك بصفة عامة . وهكذا لم يكن الملاح يعرف الألفة الغيورة التي للمنازل الإسلامية . وأخيراً كانت جدران الدور الخارجية مبرقشة بألوان براقة ، كالأزرق ، والأصفر ، والوردي، والأحمر القاني ، التي كانت تشكل مفارقة مع الرتابة القاتمة لجدران المدينة .

كما كان اللباس موحياً هو الآخر . فزيُّ الرجال[1] مفروض عليهم

(1) انظر عن زي الرجال ، برونو ومالكة ، نفس المرجع ، ص. 239-241 ، هامش 3 و 4 و 5 .

بالعادة الإسلامية[2] : أي طاقية سوداء جاثمة على القفا[3] ، ومعطف أسود ، ورجلان في نعال بدون جوارب . كانت مختلف أجزاء اللباس وتفصيلها تُذَكِّر عن قرب بالأزياء الإسلامية[4] ، لكن زينة النساء كانت من نوع آخر ؛ فكن يخرجن سافرات الوجوه ، مغطيات شعرهن بمنديل ذي أهداب « معقود في شبه تاج شبيه بحنطوز المسلمات ، مع شبكة لإمساك الشعر »[5] . وكان خمار ذو أهداب أيضاً يغطي أكتافهن ، ويلبسن قميصاً يغطي القسم الأعلى من جسمهن وإزاراً يغطي القسم الأسفل ، وينتعلن خفافاً عريضة في الأعلى أضيق من نعال المسلمات . وكن يرتدين داخل المنزل فستانات ذات ألوان براقة « مزينة بشرائط ومطرزة بالذهب ، وسترات من الجوخ مزينة كذلك بشرائط من ذهب ، وواقيات الصدر مطرزة ، وحزامات من الحرير »[6] وربما وجب البحث عن أصل هذا الزي في إسبانيا ؛ وعلى كل حال ، فإننا نرى أنه لم يتأثر البتة بزي النساء المسلمات ، ويمثل تشابهاً مع الزي النسوي لأوروبا .

كان الأثاث أيضاً يشهد بذوق يهود فاس ، وعلى الأقل أغناهم ، في حب التجديد . وإليكم وصف أندري شڤريون لداخل منزل زاره بالملاح :

---

(2) لا نعرف بالضبط في أي عهد فُرض اللون الأسود على اليهود ؛ إن العادة الشعبية للملاح تعزو المسؤولية إلى مولاي اليزيد أواخر القرن الثامن عشر (برونو ومالكة ، نفس المرجع ،ص 199) . هذه علامة ولكنها ليست حجة قاطعة .

(3) أو بالنسبة لبعض الشيوخ ، منديل أزرق قاتم بنقط بيضاء (انظر أوبان ، نفس المرجع ، ص 365) .

(4) كان الرجال مهملين غالباً في أزيائهم ولو كانوا أغنياء ، ويرتدي جلهم الآن اللباس الأوروبي

(5) برونو ومالكة ، نفس المرجع ، ص. 316 ، هامش 10 ؛ وأوبان ، نفس المرجع ص 362 ؛ ودو أمسيس ، نفس المرجع ، ص 274 وفي الحالة الراهنة يضع الكثير منهم على رؤوسهم قبعات أوروبية ، وآخرون مناديل من الحرير زاهية الألوان ، موضوعة فقط على الشعر . وأما زينة الرأس التي يصمها أوبان ، فإنها لم تشاهد ألبتة ، ما عدا بالنسة لبعض العجائز .

(6) انظر دو أميسيس ، نفس المرجع ، ص. 236 و 274 .

« نحن الآن في غرفة الشرف ، بالطابق الثاني ، جالسون باحتفال على كراسي وأرائك مزخرفة من طراز العهد الأمبراطوري الثاني ، . . . ومناضد صغيرة متلوية ، وعدد وافر من المرايا في أطر من الذهب الأمريكي ، وصوانات من خشب أصفر ، كل هذا الأثاث حُمل من الشاطئ على ظهور الجمال . ثم علامات الدين : مصورات ملونة ألمانية ، يلمع فيها داوود وسليمان متوجين ، وكتابات عبرية بحروف مربَّعة . . . ولكن الأكثر غرابة من هذا الخليط من الزينة ، هو سرير حقيقي بْرُوطُونيسي ، سرير مقفل ذو نوافذ ، مزخرف بنقوش أزهار ، موضوع في طرف الغرفة » .

كان الفقراء مضطرين كثيراً إلى الاكتفاء بنفس الأثاث كالمسلمين الذين هم في وضيعتهم ، أي لحافات من صوف ، وصناديق ومائدات مستديرات قصيرات من الخشب الأبيض[7] .

كان يهود فاس يعيشون عيشة تقليدية في هذه البيئة الملونة بالتجديد ، وكـان للشريعة الدينية تأثير عظيم : لم يكن الغرب قد وضع عليها طابعه بعد[8] .

الطبقية الاجتماعية : ـ كانت توجد بالملاح ، كغيره من الأماكن ، طبقات اجتماعية ، لكنها أقل ما يمكن تفرقة . فكما هو الشأن في المدينة ، كان الأغنياء والفقراء يحتكون بسلام ، يكادون لا يميزون بأزيائهم[9] ،

---

(7) من البديهي جداً أن تكون ميول اليهود الموسرين إلى الأثاث الاوروبي قد نمت مع إقامة الحماية وقد شيدوا « فيلات » في المدينة الجديدة حيث يقيمون في سعة ، واشتروا أثاثاً كاملاً ، مفضلين طراز هانري الثاني أو الأثاث العصري الخالص.

(8) لقد تغيرت الأشياء جداً منذ الحماية ، إذ أن اليهود ، وخاصة منهم الشبان ، اتخذوا عدة عوائد غربية وحرصوا عليها : فالأطفال يؤمنون بالأب نويل ويحملون أسماء شخصية فرنسية ، ويذهب الفتيان والفتيات إلى المسبح والتنس ، ويتغازلون ، ويرقصون ، وتنظم العائلات حفلات راقصة خاصة ويبدو في بعض الأوقات أن الشبان الذين تهذبوا في ثانوياتنا ومدارسنا يكرهون ماضيهم ، ليس فقط فيما كان يشتمل عليه من عبودية وخزي ، ولكن في كليته .

(9) هذا صحيح خاصة بالنسبة للرجال . أما نساء الأسر الموسرة فكنّ يتأنقن في لباسهن أكثر من الفقيرات .

ويلتحمون بعضهم ببعض خوفاً من أخطار مهددة باستمرار. كانوا كلهم مهددين في حالات الاضطرابات ، ولم تكن لهم في فترة العنف وسيلة أخرى عارضة جداً غير الاتحاد . ومن جهة أخرى ، كانوا جميعاً يتعارفون ، أكثر مما عليه سكان المدينة الإسلامية ، وذلك من جراء ضيق الحي .

كانت الثروات من المنقولات على الخصـوص . فاليهود يملكون معظم منازلهم[10] لكن تكتلاً في هذا القدر الضئيل من المساحة الذي كانت فيه ملكيات الجماعة متعددة ، لم يكن يصلح كقاعدة لثروات عقارية حقيقية . ومن جهة أخرى كان اليهود يملكون بعض الدور بفاس الجديد وعدداً قليلاً من الغرف بفندق النجارين . وفي خارج فاس لم يكونوا يملكون ولو شبراً واحداً من الأرض[11] .

فكان إذن متاع الاسرائيليين مؤلفاً خـاصة من النقـود ، والسلع ، والحلي ، وكلها أشياء يسهل حملها أو إخفاؤ ها عند وقوع أحداث خطيرة .

لم تكن الثروة العنصر الوحيد للطبقية الاجتماعية . كان آل كوهن وآل ليفي ما يزالون يتمتعون بمزايا دينية تقليدية ، دون أن يستفيدوا مع ذلك بنفس القدر من الاعتبار الذي كان للشرفاء في الوسط الإسلامي[12] . وبالعكس من ذلك ، كانت الأسر الرِّبِّينية ، وخاصة أسر الربِّيين الكبار ، تتمتع بنفوذ عظيم مهما كانت درجة يُسرهم . كان علم الرِّبِّيين وطابعهم الديني يفوق كل شيء آخر . ولعلهم وهم كهان ، كان لهم في الملاح تأثير أكثر من فقهاء الجامعة الإسلامية في المدينة .

---

(10) غير أنه يُذكر بعض المسلمين الذين لهم أملاك بالملاح ، كآل التازي مجبر (وهم ولا شك يهود قدامى أسلموا) الذين كانوا يملكون به ثلاث عمارات .

(11) يملك يهود فاس الآن قطعاً أرضية وعمارات في المدينة الجديدة ، وقد اكتسبوا عدة ممتلكات في البادية المحيطة . إن نوع الثروة اليهودية قد تغير بكيفية مدهلة .

(12) انظر بونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 321 و322 - 323 ، هامش 9 و 10 .

الحياة العائلية : ـ كان الزواج باكراً في غالب الأحيان[13] أكثر مما هو عليه في المدينة . إن هذه العادة قد رسخت في الأخلاق إلى درجة أنها كانت تنظم مصير الزوجات غير البالغات : فلم يكن باستطاعتهن العودة إلى المنزل الأبوي ما دام لم يتم الدخول بهن . وخلال كل هذه الفترة التي قد تطول ، كان على أمهاتهن أن يهتممن بهن في بيت الزوجية .

كان الأبوان يدبّران الاتصالات وطالما دامت الخطوبة[14] التي كان يحتفل بها باكراً جداً في وقت يكون الزوجان المستقبلان ما يزالان طفلين، كان على الخاطب والمخطوبة أن يتظاهرا بعدم تعارفهما ؛ وقد كانا يتعرضان لتوبيخات كبيرة إذا لم يكونا قد تحاشيا في الزقاق بعناية . كانت الاتصالات الزوجية تتم بالعلاقات ، دون حاجة إلى وسطاء أمثال الخاطبات وبائعات الزينة بالمدينة .

كانت الأعراس تدوم[15] رسمياً سبعة أيام وسبع ليال ، ولكن نظراً للاستعدادات : (الحمام ، والحناء ، وعرض جهاز العروس ، إلخ . .) ومختلف واجبات العروسين ، كان لابد حقاً من قضاء شهر على الأقل في حياة غير عادية . كان كل شيء يجري بين الأهل والضيوف ، ولا شيء يُذكِّر بخاطبات المدينة .

كانت الحفلات بمعنى الكلمة تبدأ يوم الأربعاء مساء (ليلة الروحان). فينظم موكب من طرف الجمعية الخيرية (لهيبرا)[16] يسوق الزوج إلى منزل

---

(13) لقد جمعت قسماً كبيراً من التفاصيل التي ستأتي خلال تَحَرٍّ قمت به في عين المكان ، وتمصل م . يهودا بسمحون، الآنف الذكر ، فساعدني في ذلك أكبر مساعدة . انظر أيضاً **النصوص اليهودية العربية بفاس** ، مس تأليف لـوي برونو وإلياس مالكة ، وي . د . سيماخ . تاريخ .

(14) كانا في الواقع يتعارفان جيداً ، حيث إن الجنسين لم يكونا منعزلين ، كما هو الشأن في المدينة ، وكان جميع من في الملاح يعرف بعضهم بعضاً .

(15) انظر برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص 332 - 343

(16) انظر عن هذه الجمعية ما يأتي ، ص 576 .

العرس[17] ويتيح فرصة لمهزلة كان الشبان يقلدون فيها السلطان ، والوزراء ، والباشا ، مثلما يفعل المسلمون يوم عاشوراء[18] . وكان موسيقيون إسرائيليون يصحبون الموكب ويساهمون بعد ذلك في جميع الاحتفالات غير الدينية ، ويتولّى رِبّيٌّ إذ ذاك منح بركة قصيرة . كان بالإمكان أن يتم الدخول ذلك اليوم ، حسب الظروف ؛ وعلى كل حال لم يكن باستطاعة الزوج أن يخرج من منزله مدة سبعة أيام ، كما أن الأطعمة الغزيرة والاستقبالات كانت تتوالى لمدة سبعة أيام كذلك ، متسببة في مصاريف باهظة ، مثلما هو الحال في المدينة . كانت الأسر المثرية تستدعي الْجَفَلَى ، فكان هناك نهار الرِّبِّيِّين ، ونهار الطلبة ، ونهار التجار ، إلخ . . . وطبعاً لم يكونوا ينسون عامة السوقة .

كان الخميس يوم الهدايا (هدية) المعلن عنها جهراً ، كما هو الشأن في المدينة ، وبهذه المناسبة توزّع الصلات على الفقراء . وكان السبت هو يوم الاحتفال الديني : يذهبون إلى البيعة ، وبالأحرى بيعة الزوج ، حيث كانت تتعاقب الصلوات والأناشيد الطقوسية ، ويُقرأ عقد الزواج . وفي المساء يقام حفل كبير يسمع فيه جوق موسيقى ؛ ويوم الاثنين يحق للمرأة الشابة الطلوع إلى سطحها الجديد ، وكانت هذه مناسبة لاحتفال آخر يحضره المغنون ؛ وأخيراً يوم الأربعاء ، كان يحق للعريس أن يخرج من منزله ليلتحق وحده بوالدي زوجته ، فيقدمان له غداء ؛ كما كان يقوم بعدة زيارات عائلية أخرى . كانت الروعة تنقطع آنذاك ، فيتمكن الزوج من استئناف أشغاله المعتادة يوم الخميس . وبعد خمسة عشر يوماً من تمام الدخول ، كانت تقام مأدبة ويتاح للزوجة الشابة أن تذهب لترى أمها : وكان هذا الحفل يحمل الاسم الإسباني « طورنا بودا » .

ويمكن أن يلاحظ ، من خلال هذه البيانات الوجيزة ، أن الاحتفالات

(17) كانت العروس تمشي راجلة ، ولكن إذا كانت صغيرة جداً ، تجلس في أريكة يحملها حمال على رأسه (برونو ومالكة ، ص. 344) .

(18) انظر عن هزلية عاشوراء ، ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 2 .

اليهودية بالزفاف تأثرت إلى حدّ ما بالعوائد الإسلامية : فخطبة الزواج ، والهدايا المقدمة إلى العروس خلال الخطبة ، والموكب العرسي ، والهزلية التي تصحبه ، ونشر الهدايا ، والاستقبالات التي كانت تستدعى إليها مختلف هيئات الحاضرة ، وزيارة الزوج لأبوي العروس ، وإلزامه قضاء حياة غير عادية طوال سبعة أيام ، كل ذلك كان أكثر شبهاً بما يجري في المدينة الإسلامية من ألاَّ يتأثر بها . لكن الطابع الديني للزواج كان متسماً بحفل في البيعة ، وهذا جزء عبري خالص ، وبذكريات إسبانية عتيقة كانت ما زالت قائمة في حفل «الطورنابودا» . وأخيراً فإن عدة تفاصيل ، مثل الأهمية المنوطة بتمام الدخول ، ومنع العروس من رؤية أمها قبل أن تصبح امرأة فعلاً ، لم تكن لا إسلامية محضة ، ولا يهودية محضة ، ولكنها سامية .

* * *

لم يكن اليهود يتصورون الزواج بدون إنجاب ، مثلهم في ذلك مثل المسلمين . لذلك ، وإن كان القانون يبيح أربع نساء شرعيات ، فإن العادة لم تكن تسمح بتعدد الزوجات إلا إذا كانت المرأة لم تلد في ظرف عشر سنوات من الزواج[19] .

كان أَبَوَا الزوجة الشابة يهديان جهاز الوليد ، عند دخول الشهر التاسع من الحمل : وكان ذلك فرصة لفرح عائلي[20] . وتحاط المرأة عند المخاض بقريباتها وتساعدها قابلة يهودية[21] . لم يكن الأب يحضر عند الوضع ، وإنما

---

(19) كانت جل العقود تنص بكيفية قاطعة على أن المرأة إذا كان لها عدة أبناء لا يمكن أن تفرض عليها ضرة . إلا أن روني ـ لوكلير (المغرب الشمالي ، ص. 150) يشير إلى أن تعدد الزوجات بالملاح كان شيئاً جارياً به العمل وربما نستطيع حل هذا التناقض بين المذهب والواقع بالتذكير أنه من جراء الزواجات المتخذة دوماً العديدة ووسائل الصحة التي يُرثى لها ، كانت حالات العقم أكثر عدداً من الحالة الطبيعية .

(20) برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 287 ، والهوامش .

(21) كانت هؤلاء القابلات ، وكلهن مسنات تقريباً ، مشهورات بعملهن في المدينة كلها . كانوا يستحضرونهن أحياناً للولادة الصعبة في القصر ، أو حتى في المدينة ، عند الأُسر التي كان =

كان يُخبر بمجرد ما يولد الطفل . وفور الولادة والنظافة الأولى ، تُتخذ بعض الاحتياطات ضد التأثيرات الشريرة التي من المحتمل أن تحدث ، فكانت القابلة تخط في جبين الطفل علامة سحرية بسواد الدخان ، و« يعلقن فوق باب الدخول رأس ديك ، وأكاليل من العجين المشوي ، وخمسة فلافل حمراء وبعض الأشواك »[22] وفي اليوم التالي للولادة ، كان أحد أقارب المرأة يطوف في الحجرة التي ينام فيها الوليد عند منتصف الليل ، شاهراً سيفاً حتى يبعد العين الشريرة ، ويتكرر نفس الحفل يومياً إلى اليوم السابع[23] . وكانت النفساء ، في هذه الأثناء ، تتقبل زيارات عديدة .

كان اليوم السابع يكتسي أهمية رئيسية على الأقل بالنسبة للصبيان[24] ، إذْ كانوا يختنونهم ويعطونهم أسماءهم خلال حفل نصف ـ ديني ، ونصف ـ عائلي[25] .

إننا ندرك أن المخطط العام لما كان يجري بالملاح عند الزواج وعند الولادة يشابه كثيراً الوسط الإسلامي ؛ ويتعذر تحديد الحصة الحقيقية من الواقع لهذين العنصرين في الصلات المعينة مقدماً ، وتناقض مجتمعين كانا يعيشان جنباً لجنب ويؤثر الواحد منهما على الآخر بكيفية جذرية .

لها علاقة مع التجار الإسرائيليين (معلومات يهودا بنسمحون ، انظر أيضاً برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 289 هامش 6)

(22) نفس المرجع ، ص. 290 ، هامش 15 .

(23) نفس المرجع ، ص 262 و 293 .

(24) كانت ولادة البنت أقل تقديراً جداً ، نفس المرجع ، ص . 387 ، هامش 53) من ولادة الذكر ، إضافةً إلى أن حياة الذكور ، حسب أحكام القانون ، كانت مطبوعة بحفلات طقسية أكثر .

(25) نفس المرجع ، ص . 296 - 300 . كان الأبوان هما اللذان يختاران الاسم ، ولم يكن قط اسم الأب أو الأم ، ولكن بصفة عامة اسم جد متوفى أو صالح يُجلّ خاصة . وكان الإعذار يشهره ، وكانت البنيّة تتلقى اسمها في تاريخ غير معين بحضور ربّي ، وكان حفل عائلي صغير يطبع هذا الحدث .

كانت المماثلات تبقى واضحة في ميدان تربية الأطفال . ففي السنوات الأولى يخضعون للنساء : الأم ، والجدات ، والقريبات أو الخادمات[26] . ونظراً للتكديس ، كان الأطفال يعاملون بشدة أكثر مما هم عليه في المدينة ، لكن طرق الصحة والتربية كانت تكتسي عدة ملامح مشتركة .

كان أبناء الأسر المتشبثة بالتقاليد - وهي الأكثر عدداً - يذهبون قصد تعلمهم إلى مدارس تلمودية (صلاة) شبيهة جداً بالكتاتيب القرآنية : نفس المعلم من أصل متواضع ، ونفس الأماكن غير المريحة[27] ، ونفس الطريقة البيداغوجية المركزة أساساً على الحافظة . غير أنه ، ابتداء من السنوات الأولى للقرن العشرين ، كان يلاحظ بها بعض آثار يسيرة للتجديد ، إذ كان التلاميذ يدرسون نصوصهم في أوراق مطبوعة ، ولم يكونوا يطالبون بالكتابة إلا إذا تقدموا في دروسهم . ومن جهة أخرى ، كانوا لا يكتبون إلا يوم الجمعة صباحاً ، بقلم رصاص في البداية ، ثم بقصب مبري ؛ وكانوا يستعملون لهذا الغرض « ورق الرسائل من مقاس تجاري ، ذا مربعات من اللون الأزرق الفاتح ، ومداداً أسود مستورداً من أوروبا . . . »[28] .

كان الشبان الراغبون في متابعة دراساتهم يذهبون إلى إحدى المدارس العليا الأربع أو الخمس ، (إيشيبا أو ياشيبوط) بفاس ، حيث كان لهم معلم رِبِّيٌّ شهير[29] . وعند تخرجهم منها قد يصبحون كهنةً يحتفلون بالقداس ، أو معلمين في مدرسة تلمودية ، أو عدولاً . أما أحبار المستقبل ، فكان تكوينهم يتم عند سلفهم ، بعد تخرجهم من « إيشيبا » ويعترف بهم كأحبار بعد مدة غير

(26) لم يكن بالملاح عبيد ، وعلى الأقل منذ انعدام الأسرى المسيحيين ؛ ولكن كانت هناك خادمات يهوديات أو حتى مسلمات ، لأن نساء فاس الجديد الفقيرات كن يقبلن أن يخدمن في وقت عادي عند الأسر الموسرة بالملاح .

(27) كانت توجد عادة في بيعات صغيرة ، وكان عددها نحو عشرة في ملاح فاس .

(28) نفس المرجع ، ص. 239 . ومنذ 1917 أُدمجت مختلف المدارس التلمودية في واحدة يلقن فيها التعليم حسب طرق بيداغوجية عصرية ، وبأدوات مدرسية من الطراز الأوروبي .

(29) كانت كل مدرسة تضم من 15 الى 20 تلميذاً .

محددة عندما يكتسبون سمعة كافية من المعرفة ، والحصول على ضمان (شبه إجازة) من معلميهم[30] .

وكان المتطورون ، ـ وكانوا يوجدون بالملاح قبل الحماية ـ يرسلون أبناءهم إلى مدرسة الاتحاد الإسرائيلي العالمي التي أنشئت بفاس منذ 1880 ، فيتعلمون فيها اللغة الفرنسية ويتلقون تعليماً ابتدائياً عصرياً[31] .

لم تكن هاتان السلسلتان من المدارس معاً كافيتين لاستيعاب جميع أطفال سكان الملاح ، وكثيراً ما كان من بينهم الأميّون لاسيما البنات .

كان الصبيان يلجون الحياة الدينية للجماعة ، في حوالي الثالثة عشرة من عمرهم ، ويحملون التميمة[32] ؛ وفي صبيحة ذلك اليوم كان الأبوان ينظمان بالمنزل العائلي اجتماعاً مساء يحضره رِبّي ومنشدون ؛ ويكون مناسبة ليُظهر فيه الشاب معرفته الدينية ، وذلك باستظهار خطبة يكون رِبيُّه قد لقّنه إياها . وكان الحلاق ، أثناء هذا الاحتفال ، يقص شعر بطل الحفل فيجازيه الحاضرون بصلاتهم[33] . وفي يوم الحفل بمعنى الكلمة كان الطفل الصغير ، وهو لابس خمار الصلاة والتميمةُ على ذراعه ، يقاد إلى البيعة من طرف الرِّبّي وأقربائه الذكور ، فيلقي خطاباً جديداً حفَّظه إياه رِبيّه عن ظهر قلب ؛ ثم يجلس على أريكة عند الخروج ، فيحمل حمالُ الكلِّ على رأسه ويذهب الموكب المؤلف من رجال العائلة ونسائها ، وقد جاؤوا لينتظروا بباب

---

(30) يبدو أنه كان بفاس في القديم مدرسة رِبّية « حاخامية تحمل الاسم التقليدي » « بيت حميدراس » ، وقد حطمت البيعة التي كانت تؤويها أيام مولاي اليزيد فذهبت المؤسسة بذهاب البيعة (برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص . 201 ، هامش 1) .

(31) لقد عرفت مدارس الاتحاد ، منذ الحماية نمواً هائلاً . فالذين يتجاوزون مرحلة التعليم الابتدائي ـ وهم كثيرون ـ يلتحقون بالثانويات الفرنسية لمتابعة دروسهم

(32) ذلك هو الحفل المدعو « تفيلِّين » . انظر برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 319 - 324 .

(33) نجد هنا ثانية الحلاق ، كما هو الشأن في المدينة ، في دوره كمساعد في الاحتفالات العائلية ، ويجازيه الضيوف ، مثل ما يجري عند المسلمين .

البيعة ، وليلتحق بالمنزل على إيقاع جوق موسيقي وفي وسط ابتهال شعبي . ولم يكن الحفل ينتهي بدون مأدبة[34] .

* * *

كانت الحياة العائلية شبيهة بالحياة في المدينة : فالعائلات في الملاح أيضاً مجموعة لا بحسب الزوجين ، ولكن حول رب الدار الذي كان يحتفظ بأبنائه إلى جانبه ولو كانوا متزوجين ، ما دام التكديس لم يَعُدْ مفرطاً . ولم يكن هناك أيضاً الزوجان مستقرين تماماً ، وعلى الأقل نظرياً ، إذ كان يحق للزوج أن يطلق زوجته؛لكن هناك أيضاً كانت العادة والمصالح تفرض حدوداً لنزوة الرجال ، لأن الزوج ، في حالة الطلاق ، كان ملزماً برد الصداق الذي أتت به إليه امرأته عندما تزوّجها[35] ؛ غير أنه ينبغي الإشارة إلى أنه لا وجود في الملاح لأولئك الإماء السود اللائي كان لهنّ دور مهم في الأسر الإسلامية بفاس . ويبدو أن الالتحام العائلي بالملاح كان أقوى ، وأن تأثير الأب على أولاده كان أشد ، وأن العائلة كانت تجتمع أكثر[36] . قد يعزى ذلك إلى أن الرجال والنساء كانوا يعيشون في تفرقة أقل بكثير .

المـوت : ـ إذا دنا الأجل ، دخلت الطائفة (هيبرا)[37] إلى المسرح . كان فعلاً لملاح فاس ، على غرار كل الجماعات اليهودية ، طائفة

---

(34) يقارن الموكب بموكب الإعذار عند المسلمين .

(35) لقد احتفظ يهود فاس بعادة العيشة ضمن الأسرة أكثر منها حسب الزوجين ولو نزحوا إلى المدينة الجديدة غير أن المتطورين ، وهم قدماء تلاميذ الاتحاد والثانوية ، يميلون إلى اتخاذ عوائد أوروبية في ذلك كما في الباقي .

(36) كانوا يتناولون الوجبات الرئيسية على الأقل مثلاً جماعةً . كان عددها أربعة في النهار : الفطور بعد صلاة الصباح حوالي السابعة أو الثامنة ، والغداء في منتصف النهار ، والأكلة الخفيفة وعلى الأقل بالنسبة للأطفال في العشي ، والعشاء الذي كان يقدم متأخراً ، حوالي التاسعة أو العاشرة ليلاً .

(37) انظر برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص. 231 - 234 ؛ وسيماخ ، المرجع المذكور ، ص. 90 .

موضوعة تحت إشراف الحاخام سيميون بار يوحاي[38]، تضم نحو أربعين عضواً ينتمون إلى جميع الطبقات الاجتماعية ، ويتحلون كلهم بتديّـن كبير[39] . كانوا مقسمين سبعة أقسام ، بعدد أيام الأسبوع ، يمتثل كل قسم لأوامر « مقدم » يتولى الحراسة مرة في الأسبوع ، وعند أدنى إشارة يجمع فريقه في أقرب وقت للقيام بالواجب الديني المطلوب منه . كما كانت هناك طائفة للنساء[40] وأخرى للأطفال[41] . كان يدير الطائفة « شيخ » لم تكن مهامّه وراثية بمعنى الكلمة ، لكن العادة كانت تقتضي أن يختار دائماً تقريباً من نفس العائلة .

كانت الطائفة تلعب دوراً هاماً في الشعائر الجنائزية ، كما سنرى ذلك ، لكن نشاطها لم يكن يقف هناك ، إذ كانت تساهم أيضاً في حفلات الزفاف ومعظم الحفلات العائلية . وكان أعضاؤ ها أحياناً يتدخلون لإصلاح ذات البين بين الزوجين ، ويحرصون على المراعاة الصارمة لعوائد السبت[42] ، ويقومون جميعاً يوم السبت بتلاوات دينية متبوعة بشروح[43] . وهكذا يقدر التأثير الذي كان لهذه الجمعية على الحياة الخلقية والروحية للملاح . ونميل طبعاً إلى مقارنتها بجماعة القربان المقدس التي كانت مزدهرة بفرنسا في القرن السابع عشر ، والتي يبدو أن موليير فكّر فيها عندما ألف روايته « تارتوف »[44] .

كان أعضاء « هيبرا » يسرعون بمجرد ما كانوا يستدعون إلى فراش مريض في حالة خطيرة للسهر عليه وتلاوة صلوات من شأنها أن تخفف آلامه .

---

(38) انظر عن العلاقة الأسطورية لهذا القديس الإسرائيلي الكبير (القرن الثاني للميلاد) مع الطائفة ، برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص . 233 ، هامش 2 .

(39) حسب ياهاس فاس ، فإن « الهيبرا » ، التي كانت تحمل كذلك اسم « غميلوث حسيديم » ، كانت تضم 70 عضواً سنة 1879 (سيماخ ، المرجع المذكور ، ص . 90) .

(40) برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص . 233 .

(41) معلومات م . يهودا بنسمحون .

(42) نفس المرجع ، ص. 232 .

(43) نفس المرجع .

(44) انظر راوول ألّيي ، **تفسير الأتقياء للتوراة** .

وإذا أشرف المريض على الموت ، حفزوه على الاعتراف بذنوبه ، ورتلوا صلوات المحتضرين وقرؤوا عوضاً عنه الشهادة (شيما) الآتية : « اسمع يا إسرائيل ، ربنا الإله رب واحد . والصلاة على اسم مجد ملكه ، دائماً وأبداً ، إن الرب هو اللّٰه »[45]. وبمجرد ما كان يلفظ نفسه الأخير، يقوم بعضهم بالغسل الجنائزي ، بينما يشتغل الآخرون باختيار مكان القبر وحفره ؛ وفي وقت الدفن ، الذي كان يلي الوفاة عن قرب[46] يتكفل بعض الزملاء بالمحمل ، بينما يتبع الآخرون الجثة وهم يرتلون صلوات على روح الراحل[47] . كان موكب الجنازة يلتحق بالمقبرة على إيقاع عويل العائلة . وهناك وبعد صلوات أخرى « كانوا يعرضون للبيع بالمزاد حظوة إنزال الميت في قبره »[48]. وقبل مغادرة المقبرة كان ولد الراحل يتوقف بالباب ليقرأ صلاة أخيرة .

وكانت الأسرة، رجالاً ونساء ، تستمر في الصلاة سبعة أيام ، لا تخرج البتة إلا للذهاب ، كل صباح ، لقراءة الزبور على الرمس المغطى بالتراب الطري ، وتكفّ حتى عن الغسل ؛ وكان الرجال منذئذ لا يقصون شعر رأسهم ولحيتهم طوال سنة كاملة . وكان يقدم طعام جنائزي في اليوم السابع ، وهو عبارة عن وجبة خفيفة شعائرية لا مأدبة فاخرة . ثم كانت تأتي سلسلة الذكريات مع زيارة المقبرة في كل مرة : السبت الموالي لليوم السابع ، وآخر سبت من الشهر الأول ، واليوم الثلاثون ، وأول سبت من آخر شهر السنة ، وهو الذكرى بمعنى الكلمة. كان القبر يبقى على حاله مدة تسعة أشهر ، ثم كانت العائلة تشيد عليه ضريحاً صغيراً بسيطاً جداً ، ويوم تدشين هذا الضريح ، كانت العائلة تتناول غداء في المقبرة وتوزع الصدقات . وبعد

---

(45) نفس المرجع ، ص . 377 .

(46) كان بالإمكان أن يحدث ذلك حتى في الليل : لهذا السبب كان كل عضو من أعضاء « الهيبرا » يحمل فانوساً .

(47) كانت جميع هذه الخدمات بالمجان تماماً ، وكانت الجماعة تتلقى صلات بمناسبة الأعياد فتعوض الأعضاء المعوزين .

(48) نفس المرجع ، ص . 376 .

الذكرى الأولى كانوا يذهبون إلى المقبرة بمناسبة الأعياد والذكريات . وكان الأطفال يصومون في تلك الأيام[49] .

يلاحظ أن الشعائر الجنائزية كانت أكثر تعقيداً بكثير مما هي عليه في المدينة ، وأن الأموات ـ على ما يبدو ـ كانوا يحتلون مكاناً أكبر وأعظم في انشغالات الأحياء . كانت التأثيرات الاجتماعية تتراجع أمام الاعتقادات تجاه الموت : كان المجتمع اليهودي بقدر ما يتأثر بالمجتمع الإسلامي ، في حفلات الزفاف والولادة، والإعذار ، بقدر ما يحتفظ بشخصيته إذا مات أحد أعضائه . حقاً إن الجنائز الإسلامية كانت مطبوعة بالألم ، لكنها لم تكن تخلو من هدوء ؛ أما الجنائز اليهودية ، وهي أقرب جداً من الجنائز المسيحية في هذا الجانب ، فكانت مطبوعة بالأسى ، والرعب ، واللجوء المؤلم للرحمة الإلٓهية : فكانت الحفلات الدينية بها أكثر عدداً بكثير ، وتمتدّ فترة أطول .

* * *

التسليات : ـ رأينا منذ قليل أن الحفلات العائلية ، حزينة كانت أم فرحة ، عديدة بالملاح ؛ ومع أنها ذات طابع ديني بصفة عامة، إلَّا أنها لم تكن تجري بدون طعام ولا موسيقى .

والطبخ اليهودي ولو أنه كان يعد بنفس توابل الطبخ الإسلامي ، وعلى الأقل في تهييء اللحم ، لم يكن يتسم لا بنفس النوع ولا بنفس الرقة بصفة خاصة . ويظهر أحد ألوان الطعام الأكثرة شهرة ، وهي « السخينة »[50] ، ثقيلاً

---

(49) يشار إلى أنه ، إذا مات يهودي خارج الملاح ، لا يمكن إدخال جثته إليه، وتؤدّي مخالفة هذه القاعدة إلى تعرض المدينة لأسوإ الكوارث (وهذه العادة صالحة أيضاً بالنسبة للمدينة ، وكذا بالنسبة للجماعات الإسرائيلية بأوروبا الوسطى ، حسب م . بنسمحون) . فكان إذن اليهود المتوفون في هذه الظروف يدفنون في مقبرة خاصة ، تقع على ربوة ظهر المهراس قبالة الملاح .

(50) تسمى هكذا لأنها تطبخ ليلة يوم استهلاكها ولأنها تبقى ساخنة ، إذ تحفظ في إناء محكم السد

وبسيطاً جداً ، إذا ما قورن بأنواع الطبخ الإسلامي . إنه طبخ قوم في ضيق شديد غالباً ، لا يتمتعون بالتفتح ولا بالاطمئنان الضروريين لفن طبخي جيد[51] .

بمجرد ما كان يفد عليهم زائر ، يقدّمون له شاياً بالنعناع مهيئاً بنفس طريقة المدينة ومصحوباً « بكعب غزال » وحلويات جافة شبيهة بالتي عند المسلمين . وكان اليهود يهيؤون ، بمناسبة أعيادهم الدينية ، أطعمة طقسية أو مجرد تقليدية ، كحلويات « بُوريم »[52] أو رغائف عيد الفصح[53] . وأخيراً كان أكثر ما يميز اليهود عن المسلمين ، هو تناول المشروبات المسكرة ، كالخمر « كاشير » ، وماء الحياة[54] المصنوع بالزبيب ، والمشروبات الروحية المستوردة من أوروبا . كان بائع الخمور يقيم بالملاح منذ ما قبل الحماية[55] .

وبخصوص الموسيقى ، قلّما كان اليهود يستحضرون الأجواق الأندلسية بالمدينة ، إذ كان لهم جوقان شبيهان تماماً بالأجواق الإسلامية . كانت قائمة أغانيهما مؤلفة من مقاطيع عِبرية ، ولا سيما من ألحان أندلسية . وكان بعض الموسيقيين اليهود يذهبون حتى إلى نظم أغنيات عربية ملحونة لا يستنكفُ البورجوازيون المسلمون عن الاستماع إليها. كان هؤلاء الموسيقيون يتعلمون عند موسيقيين مسلمين أو عند موسيقيين يهود من الصويرة مشهورين لدى كل

= إلى يوم الغد في منتصف النهار ، لأن الإسرائيليين يحرم عليهم استعمال النار يوم السبت ، حتى غروب الشمس . انظر عن « السخينة » برونو ومالكة ، (المرجع المذكور ، ص . 253 ، هامش 2) .

(51) انظر عن الطبخ بملاح فاس ، برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، هنا وهناك ؛ بالنسبة للتحليات ، ص 253 ، هامش 3 ؛ وبالسبة للحلويات ، ص 315 هامش 6 إلخ .

(52) نفس المرجع ، ص . 262 ، هامش 5 و 6 .

(53) نفس المرجع ، ص . 272 ، هامش 7 .

(54) انظر عن الخمر « الكاشير » نفس المرجع ، ص . 365 ، وعن ماء الحياة ، نفس المرجع ، ص. 267 ، هامش 20 ، وص 281 هامش 15 .

(55) كان رعاع المسلمين ، وبخاصة مسلمي فاس الجديد ، يترددون عليه باستمرار .

الجماعات اليهودية بالمغرب[56] . وكان يوجد بجانب الأجـواق ، مغنون شعبيون أمثال « أشياخ » المدينة ، ومضحكون . ولا بد بالتالي من ذكر المنشدين (بّيوتيم) ، المتخصصين في الأناشيد الدينية الذين كانوا يشاركون في الحفلات العائلية[57] . وقلما كانت أجواق « الشيخات » المسلمات تُطلب في الملاح[58] .

فبالنسبة للموسيقى ، وكذا بالنسبة لأشياء أخرى كثيرة ، كان اليهود إذن يعتزلون، بمعنى أنهم كانت لهم أجواقهم الخاصة ؛ وإن المبادلات الموسيقية لم تكن كثيرة بين الملاح والمدينة ، لكنهم لم يكن تأثرهم أقل عمقاً بالألحان الأندلسية ؛ ولا غـرابـة في ذلـك ، لأن كثيـراً منهم ينتمي إلى أصـول أندلسية .

كانت جميع طبقات المجتمع اليهـودي تُقبل على لعبتي الضـامة والورق ، والشطرنج بكيفية أقل ؛ وكان الافتتان باللعب كبيراً بالملاح ، بالرغم على استنكار المتدينين منهم ؛ فكان الحلوانيون يذهبون حتى إلى المراهنة بحلوياتهم مع الشبان والأطفال بمناسبة عيد « پّوريم »[59] .

---

(56) نفس المرجع ، ص. 323 ، هامش 12 ، ومعلومات م. يهودا بنسمحون . انظر أيضاً شهادة دولاكروا (رحلة أ. دولاكروا إلى المغرب ، ص. 96) .

(57) برونو ومالكة ، المرجع المذكور، ص. 293 ، هامش 7؛ وشوطان المرجع المذكور ، ص. 149 -153 .

(58) لقد نشرت ، منذ إقامة الحماية ، آلةُ الحاكي والراديو الموسيقىٰ الغربيةَ بالملاح ؛ وفي نفس الوقت تقهقرت الأجواق اليهودية وتراجعت في الغالب أمام أجواق المدينة ؛ وأخيراً فقد ظهرت إلى الوجود « الشيخات » اليهوديات .

(59) نفس المرجع ، ص. 262 ، هامش 5 . انظر عن الافتتان باللعب ، نفس المرجع ص. 265 ، هامش 15 . كان اللعب مخصصاً للرجال ؛ أما النساء اللائي كن يتعاطينه فكن يُعتبرن عاهرات . ويوجد بتونس نفس الميل إلى اللعب بين شبان وأطفال السكان اليهود . وكان يشاهد سنة 1941 دكاكين مليئة فقط بألعوبات كرة القدم الميكانيكية ، يحَاصرها ، من الصباح إلى المساء ، شباب جائع . وفضلاً عن الشبان ، كان هناك نظارة يتراهنون حول نتيجة الأشواط ؛ لم تكن المناقشات نادرة ، وتفضي أحياناً إلى سباب وطعنات سكين ، وحتى الشرطة كانت مضطرة إلى التدخل من حين إلى آخر.

كانت الطبقة السفلى تختلف إلى الحانات المسماة (تبرنة) باسم إسباني، وإلى مقهى مغربي يدخن فيه « الكيف ». وكان الشبان يستطيعون أن يمرحوا ويلعبوا - لا نستطيع أن نقول يتريضون - في فضاء من المقبرة ما زال بعدُ خالياً من القبور .

كان البغاء متستراً جداً ، إذ يُقمع بصرامة من طرف الشرطة : كانوا يحلقون للعاهرة رأسها ويرغمونها على التجول عبر الملاح كله وهي تعترف بخطئها تماماً كبائعي اللحم الفاسد بالمدينة (التطويف) ؛ بالإضافة إلى أن المومسات كن يُدفنَّ في زاوية خاصة بالمقبرة .

وكان اليهود يغامرون بأنفسهم ، في الربيع أحياناً ، فيخرجون من الملاح ليتنزهوا على ضفاف واد فاس أو في حدائق دار دبيبغ ، في الموقع الذي كانت ستشيد فيه المدينة الجديدة. وكان يتفق حتى أن يضع بورجوازيون مسلمون حديقتهم في دائرة فاس رهن إشارة عائلة يهودية صديقة لتقيم بها نزهة[60] . ولم يكن مثل هذا الخروج ممكناً طبعاً إبان الفتن .

الأعياد الدينية : - كان السبت يوم ابتهاج[61] تستعد النساء له منذ الليلة السابقة ، فينظفن الدار ويهيئن الأطعمة ليوم الغد وينجزن جميع طقوس السبات . كانت الصبيحة تخصص للصلاة التي تقام جماعة بالبيعة ، لكن العشية كانت تشكل وقتاً للراحة والتسكع : كانت النساء يتجولن في الزقاق الكبير وهن مرتديات أبهى ملابسهن ، ويتحدثن فيما بينهن ، بينما ينظر إليهن الرجال شهوة من طرف خفي : نتذكر التفسح التقليدي في المدن الإسبانية آخر العشي . وبعد تناول العشاء ، كانت السهرة تستمر غالباً إلى وقت متأخر جداً .

وأخيراً كانت الأعياد الدينية مناسبة لحفلات وشعائر مختلفة ، ولكن

---

(60) نفس المرجع ، ص. 273 ، هامش 11 .

(61) برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 251 -259 .

أيضاً لأفراح يساهم فيها جميع السكان . كان عيد الفصح (پّيساح) المحتفل به في الربيع يدوم ثمانية أيام (يعطل العمل في اليومين الأولين والأخيرين) ، وكان يُسبق بتنظيف المنازل تنظيفاً دقيقاً ، ويشتري الأغنياء ملابس جديدة ، توزع منها الجماعة على الفقراء . كان ذلك وقت النزهات والزيارات العائلية . و (الحلُّولة) في أول ماي هي ذكرى وفاة الرِّبِّيّ الشهير سيميون باريوحاي ؛ وتخلد أيضاً في هذا اليوم ذكرى الحاخام الشهير عمران بن ديوان المدفون في أسجن قرب وزان ، ويذهب إلى زيارة قبره العديد من الإسـرائيليين[62]. ويذهب الذين يبقون بفاس إلى المقبرة لقضاء الليل فيها ، فينصبون الأخبئة وترتل فيها الطائفة أناشيد دينية . ويأتي عيد الحصاد (سابعوط) بعد سبعة أسابيع من عيد الفصح: ويدوم عيد الحصاد هذا أو عيد البواكير يومين . ويكون عيد إستير (پّوريم) ، في بداية مارس ، مناسبة لتقديم هدايا إلى الأطفـال: يُعطَون مالاً لشراء الألعوبات التي يشتاقون إليها وحلويات كثيرة . ويأتي في الخريف عيد المظال ، المسمى بفاس « سكّوت » (نوايل) لأن اليهود يتناولون طعامهم ، طوال ثمانية أيام ، في (نوايل) من قصب تقام على السطوح أو في إحدى زوايا زقاق هادئ تذكيراً بإقامة اليهود في الصحراء .

ويخصص اليوم التاسع لعيد « سمحت ـ تورا » (فرح التوراة) تختم فيه القراءة السنوية للتوراة ، ويُعطل فيه العمل مثل عيد الفصح ، يومين في ابتداء العيد ويومين في الأخير ؛ ويكون رأس السنة (روش الشنة) ، الذي يُحتفل به في آخر سبتمبر ، مناسبة ليومين من الابتهاج ، وصلاة طويلة ، وقراءات دينية ، وزيارات رأس السنة . ويتسم الصفح الكبير (كيپّور) الذي يحل عشرة أيام من « روش الشنة » بصيام 26 ساعة وذبح عدد كثير من الدجاج يحمل جميع خطايا السنة[63] . وأخيراً ، فإن « حانوكا » في أوائل ديسمبر ، يُحتفى

---

(62) انظر سيماخ ، قديس وزان .

(63) انظر عن جميع هذه الأعياد ، برونو ومالكة ، المرجع المذكور ، بالنسبة لعيد الفصح ، ص. 268 -271 ؛ وبالنسبة لحلُّولة ، ص. 276 -278 ؛ وبالنسبة لعيد الحصاد ، ص. 317 ، =

فيه بذكرى معجزة يهودا ماكابي الذي أوقد جميع مصابيح معبد أورشليم وجعلها تشتعل ثمانية أيام بقنينة واحدة من الزيت فقط . ويوقد اليهود خلال الأيام الثمانية التي يدوم فيها هذا العيد بالتعاقب القناديل (الفتايل) الثمانية لمصباح يستعملونه للمناسبة .

* * *

تتجلى من هذا التحليل الوجيز الخطوط الآتية :

1 ـ كانت الحياة الاجتماعية لليهود محدودة بأسوار الحي : فإذا خرجوا منه لم يعودوا سوى أشخاص خاضعين للأحكام التي كانت الجماعة الإسلامية تحددها لهم من طرف واحد، فاقدين هكذا قسماً كبيراً من شخصيتهم ومبادرتهم. وباستثناء بعض النزهات في البادية عندما يكون الأمن سائداً، وإيفاد بعثة من الأعيان في المناسبات الكبرى لتقديم ولاء الملاح إلى السلطان أو ممثلة ، فإن التظاهرات الجماعية لليهود لم يكن مسموحاً بها خارج حيهم .

2 ـ أن عادات المسلمين وأعرافهم كانت قد دخلت إلى الملاح واندمجت في الحياة الاجتماعية اليهودية، وذلك في عدة نقط . وقد تم هذا التأثير المتبادل بكيفية أسهل بقدر ما كان المجتمعان المتواجدان ، وكلاهما من أصل سامي ، يملكان رصيداً مشتركاً من النظم والتقاليد . ومن جهة أخرى احتفظت الجماعة الإسرائلية بفاس ببعض العادات الإسبانية ، نظراً لعدد اليهود المنتمين إلى إسبانيا .

3 ـ كانت الحياة الاجتماعية خاضعة للدين ، أكثر بكثير مما كانت عليه عند المسلمين . إننا نعلم الدقة التي تنظم بها الشريعة العبرية أقل أعمال وحركات كل واحد من أتباعها . وكانت جماعة فاس خاضعة لها بدقة ، على

= هامش 13 ، وبالنسبة لپُوريم ، ص. 260 -261 ؛ وبالنسبة لعيد المظال ، ص.282 -286؛ وبالنسبة للفصح الكبير هنا وهناك .

غرار سائر الجماعات الإسرائيلية بشمال إفريقيا ؛ إلاّ أنهم ، وحتى في الميدان الديني الذي كان الإسرائيليون مع ذلك يحاولون في غيرة على أن يحتفظوا فيه بنظمهم الخاصة ، قد تأثروا بالبيئة المحيطة بهم . وفعلاً ، فإننا نميز فيهم، مثلما نميز في المسلمين ، ميلاً واضحاً إلى إجلال الصلحاء ، سواء كانوا قدامى يقدسهم قسم من العالم الإسرائيلي ، كالحاخام سيمون باريوحاي ، أو اقتصرت سمعتهم على اليهودية المغربية ، كقديس أسجن ، أو تعلق الأمر بقديسين محليين ، كالشابة سليكا ـ هاتشوال التي فضّلت الموت على التخلي عن دينها ، حوالي 1830[64] .

وفضلاً عن تقديس الأولياء ، كان يهود فاس يُقبلون كثيراً ، هم كذلك ، على تعظيم الجن والعلوم الخفية (السحر ، والعرافة ، والكيمياء) الكفيلة بإبعاد التأثيرات المؤذية عن طريق التعزيم . ومثل هذه العمليات كانت تتذوقها خاصةً النساء والطبقات الشعبية[65] .

إلاّ أنه لا يجب الاعتقاد بأن الجماعة اليهودية بفاس قد فقدت الاتصال ببيت المقدس : إنها كانت تبعث إليه دورياً حُجّاجاً وطلبة كانوا يشكلون هنالك ، مع يهود مغاربة آخرين ، جالية صغيرة نشيطة . وكانت فاس في المقابل تستقبل كل عام تقريباً زيارة حاخام يجمع التبرعات . كان يأتي تارة من بيت المقدس ، وتارة من طبرية ، وأخرى من صفد ، مكلفاً في مهمة جمع الأموال للجالية المغربية بفلسطين ، بالإضافة إلى تبليغ السلام إلى جماعات المغرب[66] .

---

(64) انظر عن سليكا ـ هاتشوال القصة المحولة إلى شبه رواية لرأي ، ذكريات رحلة إلى المغرب ، ص. 139 -176؛ وبرونو ومالكة ، المرجع المذكور ص. 139 -176 ؛ وبرونو ومالكة ، المرجع المذكور ، ص. 213 -217 .

(65) برونو ومالكا ، المرجع المذكور ، ص. 368 -374 . انظر أيضاً بيارني ، إثنوغرافيا مغربية ، ص. 57 .

(66) معلومات شفوية . انظر أيضاً برونو ومالكة ، ص 221 ، هامش 13 .

ومن جهة أخرى ، وبالرغم من وجود مطبعة بالملاح ، كان إسرائيليو فاس يتزودون بكتب التوراة من فيينا بالأخص ، ويستوردون مسائل التعبد من النمسا وألمانيا ؛ وأخيراً فإن الملفات المخطوطة للشريعة كانت تُستنسخ دائماً في بيت المقدس لحساب شخص يُهديها إلى بيعة يختارها .

4 ـ لقد نشأ في بداية القرن العشرين ميل للتجديد من بين قدماء تلاميذ مدرسة الاتحاد الإسرائيلي ، وهو ميل مغذى بأفكار فرنسية كانت تتسرب شيئاً فشيئاً إلى الملاح بواسطة معلمي الاتحاد . لم تكن بعد سوى خيالات ، لأن السلطة الإسلامية كانت ما تزال ذات ثِقل قوي ؛ والمدافعين عن التقاليد كانوا من الكثرة والقوة بحيث لا يتمكن مثل هذا الميل من أن يتفتح بحرية . ومع ذلك فمن الأهمية بمكان الإشارةُ إلى هذا الغليان الفكري، والأمل في التحرير الذي كان يساور عدداً معيناً من الأفكار الشابة منذ ما قبل الحماية .

8

الكتاب الثامن

الحياة الدينية

نجد الإسلام في كل مكان هو الذي يشكل حقاً جو الحياة الفاسية ، سواء تعلق الأمر بالنظم الحضرية ، أو بالتجارة والصناعة والحياة العائلية . ويكتسي الشعور الديني أشكالاً مختلفة بحسب ما إذا كنا على صلة بالنساء أو بالعامة أو التجار أو المثقفين ؛ لكنه كان إجماعاً مَهْمَا كان المظهر الذي يتخذه : فالمفكر الجريء ، واللاديني ، أو حتى اللاّمبالي ، قوم لا يُعرفون بفاس في الواقع[1] .

فلا بد إذن من التعرض لهذا الموضوع ، على دقته ، إذ لا يمكن تصور فاس بدونه . أريد أن يقتنع المسلمون الذين سيشرفونني بقراءة ما أكتبه جيداً بأنني أُكِنُّ للإسلام وقواعده احتراماً تاماً ، أتمنى أن أكون قادراً على التعبير عنه في الصفحات التالية . وإن اتفق أن بعض كلماتي أحرجت هذا أو ذاك ، فإنني أريد ألا يستنتج منه سوء نيتي ، حيث إنني قد أكون مخطئاً فقط أو غير معبِّر كما ينبغي .

---

(1) إنني أستعمل هنا صيغة المضارع عمداً ، لأن الأشياء لم تتغير قط منذ الحماية . فإن كان بعض المتطورين ، وعددهم قليل جداً ، قد زُعزعوا في عقيدتهم الإسلامية ، فإنهم لا يُظهرون أي شيء في سلوكهم : فقد بقوا وما زالوا على ما كانوا عليه ، من الوجهة الاجتماعية ، ويتصرفون كمسلمين مقتنعين ، لا في الزقاق فقط ، لئلا يثيروا استنكار الجمهور ، ولكن أيضاً في منازلهم ، حتى يداروا الحساسية الدينية لآباء مسنين . فإذا كانوا فقط بين أصدقاء من نفس العمر أشعروا بمروق نامٍ أو أكدوه بصراحة : فحرية التفكير بخصوص الدين ليست بعدُ واقعاً مكتسباً .

1/8

الفصل الأول

واجبات المؤمن

من المعلوم أن الإسلام يفرض على المسلمين خمس فرائض تسمى « أركان الدّين » ، هي الشهادة ، والصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج .

الركن الأول واجب باطني لا يُعبَّر عنه إلا بالنطق بعبارة الانتماء إلى الإسلام ، وهي « شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله » . وهي بفاس مثل ما هي عليه في سائر العالم الإسلامي ، بدون أدنى تفاوت خاص .

* * *

الصـلاة : ـ كذلك ليست هناك أية ملاحظة خاصة عن الفرض ذاته ؛ يعلن المؤذن عن صلوات الإسلام الخمس اليومية من أعلى المنارات ، ويرفع في آن واحد وفي أهم الجوامع كلها علماً أبيض فوق الصومعة المعدة لهذا الغرض . ويستجيب الرجال بانتظام لفريضة الصلاة ، فإن لم يكن البورجوازيون متيقنين من الذهاب الى المسجد في الساعة المعينة ، حملوا تحت إبطهم (لبدة) من الملف الأحمر أو الأزرق أو الأخضر ، متأكدين هكذا من القيام بالصلاة أنّى كانوا[2] . وصلاة النوافل منتشرة جداً ، إذ ليس من النادر أن يشاهد تاجر في دكانه أو برجوازي في منزله وهو يُسبِّح(*) .

(2) اصبح حمل سجادة حتى عادة لكثير من الفاسيين ، لا سيما المثقفين والشرفاء منهم . ويكاد هذا الشيء يكون جزءاً ضرورياً من لباسهم لدى خروجهم إلى الشارع .

(*) (كذا) . وقد اختلط على المؤلف أمر الذكر بصلاة النوافل (مترجم) .

وكما هو معمول به في جميع البلاد الإسلامية ، فإن صلاة الظهر ، يوم الجمعة، تكتسي احتفالاً خاصاً: يُرفع في بداية النهار علم أزرق قاتم على الصوامع ، ويعوض حوالي الساعة العاشرة صباحاً بعلم أبيض ؛ وفي الساعة المعينة التي تختلف في ذلك اليوم بحسب المساجد[3]، بجتمع المؤمنون بكثرة في أحد الجوامع السبعة عشر حيث الصلاة تعقبها خطبة[*]، وتسمى جوامع الخطبة ، أو المساجد الجوامع كذلك ، بسبب المنبر الذي يصعد اليه الخطيب[4] .

يُختار عادة الخطباء من أسرتين شهيرتين بفصاحتهما وديانتهما ، هما آل ابن سودة ، وأعقاب سيدي عبد القادر الفاسي[5] ؛ وينقاضون أجرهم من موارد أملاك الأحباس المخصصة بالذات لهذا الغرض[6] ، وقدرها حسب بيريتيي[7] من 80 إلى 100 ريال شهرياً في الصيف ، ومن 40 إلى 50 ريالاً في الشتاء .

وتتميز الأعياد الرئيسية (عيد الفطر وعيد الأضحى) بصلاة رسمية في

---

(3) منتصف النهار بالنسة للجامع الأعظم بفاس الجديد ، ومولاي إدريس ، وجامع الأندلس ؛ والساعة الواحدة والنصف زوالاً بالنسبة للقرويين ، والثالثة زوالاً بالنسبة لباب عجيسة (أوبين ، المرجع المذكور ، ص. 272)

(*) هنا أيضاً خلط واضح عند المؤلف ، فالصلاة هي التي تعقب الخطبة. (مترجم) .

(4) وها هي لائحة الجوامع السبعة عشر بفاس ، حسب بيريتيي (مدارس ، ص. 327) : القرويين ، مولاي إدريس ، الرصيف ، سيدي أحمد الشاوي ، الشرابليين ، المُنْيَة (قرب قنطرة بوروس)، البوعنانية ، سيدي أحمد ابن ناصر (حي العيون) ، الديوان ، باب عجيسة بالنسبة لعدوة القرويين ، الأندلس ، والواد ، بالنسبة لعدوة الأندلس ، جامع قصبة فيلالة ، جامع بوجلود ، الجامع الأعظم ، جامع الحمراء ، مولاي عبد الله بالنسبة لفاس الجديد . يضاف إلى هذه اللائحة الآن جامع الفخارين الذي شُيد سنة 1934 . وانظر أيضاً بهذا الصدد دولفان ، المرجع المذكور ، ص. 66 .

(5) كان خطيب جامع الأندلس والمُصلّى بباب الفتوح دائماً من أسرة ابن سودة ، وكان خطيب الجامع الأعظم بفاس الجديد ومصلى باب الساكمة دائماً من أسرة الفاسيين .

(6) فعلى سبيل المثال ، كانت موارد الرحبة بالطالعة تستعمل لأداء أجرة خطيب جامع بوجلود .

(7) المرجع المذكور ، ص. 328 .

الهواء الطلق بمصلى باب فتوح ومصلى باب ساكُمة[8] . وهذان المصليان عبارة عن مجرد جدار صغير أبيض فُتح في وسطه محراب يُبين اتجاه مكة ، وعن يمينه ثلاث درجات للخطيب . وتُنشر على الأرض ، أيام العيد ، حصر يجلس عليها المؤمنون لأداء الصلاة .

وفضلاً عن أماكن الصلاة هذه التي هي في متناول العديد من المؤمنين ، فإن لأهل فاس عدداً هائلاً من أماكن عبادة أخرى ، كالمساجد الصغيرة ، والزوايا ، وقاعات الصلاة بالمدارس ، إلخ . . . وعددها 700 بناية في المجموع ، حسب ليون الإفريقي[9] ، وهي مئات عديدة بالتأكيد .

من المعلوم أنه لا رهبانية في الإسلام ، لكن لا بد من وجود مستخدمين قارين لصيانة أماكن الصلاة وتحضير مراسم العبادة . وها هو ، على سبيل المثال ، مجموع مستخدمي جامع للاّ غريبة بفاس الجديد ، كما تُعرِّفنا به كتابة من القرن الخامس عشر[10] : إمام ، قيّم الخزانة ، يتقاضى 12 ديناراً عشارياً[11] في الشهر ؛ وقارئ لكتاب الشفا[12] ، يتقاضى 6 دنانير ؛ ومؤذن ، كان يحرص أيضاً على صيانة المصابيح والميضآت ، ويتقاضى 10 دنانير ؛ وخادم مكلف بتنظيف الميضآت والنافورة ، يتقاضى دينارين ؛ وحارس

---

(8) ويسمى أيضاً مصلى باب الشريعة ، أي باب محروق . وهذه العبارة طبعاً من بقايا العهد الذي لم يكن فيه بعدُ أيُّ حاجز بين هذا الباب والمصلى ، إذ لم تكن قصبة الشراردة قد شُيدت بعد .
ويدعى الآن عادة مصلى باب الساكْمة أو مصلى السلطان . (انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 138) .

(9) المرجع المذكور ، ص. 68 .

(10) بيل ، كتابات عربية ، ص. 68 - 69 .

(11) كان الدينار العشاري في ذلك العهد قطعة تساوي عشرة دراهم ، ومن ذلك اتخذ اسمه .

(12) كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، تأليف في سيرة الرسول (عليه السلام) للقاضي عياض كاتب أندلسي من النصف الأول للقرن الثاني عشر . انظر دائرة المعارف الإسلامية ، جزء 2 ، ص. 602 - 603

(*) بل القاضي عياض مغربي سبتيّ المولد مراكشيّ الوفاة . (مترجم) .

يتقاضى 4 دنانير ؛ وقيم على استحضار الزيت وإنارة المصابيح ، وأجرته ديناران ونصف . بالاضافة الى أن الامام والمؤذن كانا يسكنان في حجرتين صغيرتين ملاصقتين للجامع . وجميع مصاريف إقامة الشعائر على نفقة أملاك الأوقاف .

رمضـــان : ـ كان صوم شهر رمضان مطبقاً بالإجماع[13] . من المعلوم أنه يحرم على المؤمنين طوال هذا الشهر ، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، تناول الطعام والشراب ، والتدخين والجماع ؛ وهي أوامر شاقة في كل فصل من فصول السنة لا سيما في الصيف .

وكان الاستعداد لهذه الفترة الطويلة من التكفير عن الذنوب يتم في ثلاثة أيام من الابتهاج ، هي الأيام الثلاثة الأخيرة من شهر شعبان . كانت النساء يصعدن إلى السطوح ويقذفن بالمفرقعات والصمامات ، بينما يفرقع الأطفال المفرقعات في الأزقة . كانت هذه الطلقات النارية غير المنقطعة ، ودخان البارود المتصاعد من المدينة ، تجعل الطيور (الخطافات) تتردد في طيرانها للالتحاق آنذاك بأوكارها في عقيق واد فاس . وفي اليوم الأخير تكون السطوح أكثر اكتظاظاً ، ويتسلق الرجال الربى المجاورة ليرقبوا من جهة الغرب الهلال الدقيق الذي يُعلن عن الشهر المعظم . وفي أعلى برج المنجمين ، قرب جامع القرويين ، كان رجال الفن مستعدين ليشهدوا ظهور الكوكب ، وبأيديهم آلات عتيقة . وبمجرد ما كانوا يرونه ، يخبرون القاضي الذي يأمر بطلقة مدفعية لإطلاع السكان على الحدث .

كانت حياة الحاضرة إذ ذاك ، ولمدة شهر ، تغير وتيرتها . ففي الصباح بعد صلاة الفجر ، كان يُظنُّ أن فاسا مدينة ميتة ، لولا أن الصبيان الذين لم يكونوا يصومون يستولون على الأزقة ليتعاطوا بحرية ألعابهم ويقوموا بضوضاء

---

(13) وما زال مطبقاً كذلك حتى اليوم ؛ ولعل الذين يخونون أنفسهم اليوم ـ يوجدون وسيوجدون دائماً ـ لكنهم ما زالوا يتسترون ليأكلوا ويشربوا . أما مجموع السكان ، فإنهم متمسكون بهذا الواجب الديني ، على جميع المستويات .

شديدة . وأما الكبار فكانوا يستريحون جزءاً لا يستهان به من الصبيحة ، اللهم إلا إذا كان لهم واجب مستعجل . وقبيل منتصف النهار ، كان بعض التجار ، وبعض الصناع ، وما زال أثر النعاس فيهم ، يفتحون دكانهم لزبناء قلائل . ولم تكن الحركة تُستأنف إلا اعتباراً من منتصف النهار ، عندما يشرع الناس في التزود لطعام الليل .

وكلما مرت الأيام ، ازداد القلق ، وانتظر المؤمنون بفارغ الصبر الأذان والطلقة المدفعية[14] لصلاة المغرب والإفطار . وكان المساكين يتزاحمون حول الطهاة وبيدهم قدح من حساء يتصاعد بخاره ، مستعدين أن يتناولوا منه جرعة بمجرد ما يصبح ذلك حلالاً ؛ ويتأهب المدخنون ، وعددهم قليل إذ ذاك ، لإيقاد سيجارتهم[15] ، بينما المتأخرون ينزلون بسرعة من الأزقة المنحدرة، مسرعين للالتحاق بمنازلهم . وما أن يعلن عن الإفطار حتى تتصاعد ضجة الانبساط من الحاضرة كلها[16] . ويقطع الصيام حيناً بتناول قدح من الحساء الساخن (حريرة) المعد خصيصاً خلال شهر رمضان .

يتناولون الشاي ، بعد العشاء ، وغالباً ما كانوا يستقبلون بعض الأصدقاء فيقضون وقتاً طويلاً وهم يتحدثون ويلعبون الورق أو الشطرنج ؛ بحيث إنهم ينامون في وقت متأخر، ليس قبل أن ينصتوا إلى النفارين[17] وهم يرسلون من أعلى إحدى الصوامع أنغاماً جشاء وخفيضة من آلاتهم الطويلة ، ثم إلى الغياط[18] وهو يبث في الليل نغمته الرقيقة . وبينما الناس غارقون في النوم ،

---

(14) كانت الطلقات المدفعية بتطوان تعوض بصوت البوق (ويندوس ، المرجع المذكور ، ص. 128) .

(15) إن تبرم المدخنين في شهر رمضان أصبح يضرب به المثل .

(16) لقد سمعتها مراراً متعددة من أعلى ربوة المرينيين .

(17) كان صوت النفارة ، وهم دائماً اثنان ، يسمع ثلاث مرات في الليل .

(18) كان الغياط يسمع صوته مرتين، بعد مرور ساعة ونصف على صلاة العشاء ، ثم قبل الفجر . وانظر عن الأنغام التي يلحنها النفارون والغياطون ، أ. شوطان ، أنغام شعبية ، ص. 285-283 .

حوالي الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً حسب الفصل ، كانت أبواب المنازل تُزعزع بضربات الدقاقين (أو الدقاقة)[19] الذين لا يتراجعون ما لم يسمعوا صوتاً ناعساً . فكان ينبغي تناول طعام الليل الثاني (السحور) قبل الصبح بكثير ، لاجتناب كل مخالفة لقاعدة الصيام . فكانوا إذن يأكلون في كل دار تحت ضوء الشموع ، ثم يعودون إلى النوم بعد أداء صلاة الصبح .

لم يكن منتصف رمضان ، كمنتصف الصوم الكبير عندنا ، فرصة لمسرات كبرى أو لإمساك قصير عن الصوم ، لكن الاجتماعات العائلية كانت أكثر عدداً وأكثر مرحاً تلك الليلة . وفي اليوم السادس والعشرين ، كانوا يُلزمون الأطفال الذين سيبلغون الحلم في السنة الموالية بالصيام ، وتُقام حفلة عائلية من أجل ذلك[20] . لكن أكبر احتفالات الشهر كانت بدون منازع هي ليلة السابع والعشرين أو ليلة القدر ، التي يُحتفل فيها بذكرى أول وحي أنزله الله على رسوله . وجرت العادة بأن يتلى القرآن بكامله في أهم مساجد المدينة . كان قراء متطوعون ، وقد يكونون أطفالاً حافظين لكتاب الله ، يتعاقبون طوال الليل لترتيل الآيات الكريمة في قاعات الصلاة المضاءة ، بينما يلعب الصبيان في الصحن بكامل الحرية . وفي الأزقة كان يسير جم غفير من الناس : كانت فاس كلها هناك . والتجار والصناع يقدمون الشاي في أسواقهم أو فنادقهم . وكثير من نظرات الابتهاج تفحص السماء ، إذْ حسب التقاليد الشعبية تطوف الملائكة حول الأرض ، مستعدين لتبليغ دعوات العباد إلى الله ، وعلى كل من شاهد نوراً في السماء أن يدعو بدعاء يستجاب لا محالة . ليلة إيمان قوي ، ليلة رجاء يكاد يكون يقينياً ، بعد شهر من كبح الشهوات إرضاء لله ! لا بد من معاينة مشهد هذا الحبور الجدي الواثق بنفسه لإدراك

---

(19) كان عدد الدقاقين نحو أربعين بالنسبة للمدينة ، اثنان أو ثلاثة لكل حي . وبطنجة كان يصحبهم عازف على طبلة (سحار) . انظر أوبين، (المرجع المذكور ، ص. 81) . كان كل من العازفين والدقاقين يتقاضون من الأوقاف أجرة قليلة (نحو خمسين فرنكاً للشهر سنة 1937) ، لكن سكان حيهم كانوا يقدمون لهم هدايا عينية ، لا سيما الدقيق.

(20) انظر ما سبق ، الكتاب 7 ، الفصل 5 .

مدى المشاعر العميقة التي تُنشط التقوى الجماعية لفاس .

وكانت الزكاة ـ وهي الفرض الرابع للمسلمين ـ تُعطى يوم عاشوراء . كان لكل واحد فقراؤه المعتادون الذين لم يكن يقدّم لهم الطعام فحسب ، كما هو معمول به في كل الأعياد الكبرى ، ولكن أيضاً مبلغاً من المال ، كما تفرضه شريعة الزكاة .

الحــج : ـ من المعلوم أن فريضة الحج ليست مطلقة ، بمعنى أنه واجب فقط على من استطاع إليه سبيلًا : فالشريعة الإسلامية تمنعه منعاً كلياً على كل من كان ذهابه ، مثلًا ، سيُوقع أسرته في الفاقة . فكان إذن عدد الفاسيين الذين يؤدون هذه الفريضة غير كبير نسبياً بطبيعة الحال ، ومع ذلك كان الحجاج يتوجهون تقريباً كل سنة إلى مكة ، ويعود منها آخرون .

وقبل غزو الجزائر ، كان السفر يتم عن طريق القوافل حتى القاهرة ، حيث كان المغاربة ينضمون إلى الجماعات العديدة للحجاج المصريين . وكانت فاس نقطة تجمع حجيج شمال المغرب : فكانت تشكل بها قافلة تسمى محملًا ، كالقافلة المصرية ، وتوضع تحت إدارة (شيخ الركب)[21] . وكان الجمالون يؤخذون بالأخص من قبيلتي الخلط وطليق ، المنتميتين إلى الحجاز ، ويطلق عليهم اسم حمارة النبي[22] . من المفروض أن القافلة كانت هامة ، على الأقل عندما كانت الظروف مواتية ، لأن جل الحجاج كانوا يحملون معهم بضائع لتغطية نفقات سفرهم بتعاطي التجارة . كانوا يحملون

---

(21) نجد عند ويندوس ، المرجع المذكور ، ص. 207 -208 المعلومات الآتية حول تنظيم قوافل الحج في القرن الثامن عشر :

« يرأس هذه القوافل شخص يستأجر أكبر جزء من شمع السلطان ويسمى من أجل ذلك « سطا نكيرو » . وعمله ضخم إلى حد أنه يستخدم إخوانه أو بالأحرى يقبلهم ضمن شبه شركة معه . توكل القوافل إليهم وتذهب كل ستة أشهر ، برئاسة أحدهم . وأثناء المسير يلتحق بها دائماً تجار من الجزائر وتونس يجعلون أنفسهم تحت حماية أخي « السطانكيرو » ويسمى « ملك القافلة » . وتنطلق عادة اثنتان من هذه القوافل في نفس الوقت : عندما تخرج الواحدة من فاس ، ترجع الأخرى من مكة » .

معهم منتجات من الصناعة الفاسية (كالأقمشة، والأنسجة الحريرية، والنعال، وأشياء من النحاس)، وزرابي مغربية، وقرمزية، وحتى بعض سلع إفريقيا السوداء، مثل ريش النعام[23] .

كانت القافلة تنطلق من باب فتوح، في وسط تزاحم كبيرللجمهور[24]، مُتجهة شطر الشرق . وكانت الرحلة العامة معلَّمة بمدن تازا، وتلمسان، ومَـدية، وقسنطينة، وتونس، وطرابلس، والطريق الساحلية . وكانت تحدث تغييرات محتملة حسب الظروف : فإن كانت الطريق غير آمنة، أمكن الالتحاق بقافلة تافيلالت عبر صفرو، ووادي ملوية، ووادي زيز[25]، ومن هناك مباشرة إلى طرابلس، بمحاذاة الحد الجنوبي للأطلس الصحراوي ؛ وكان بالإمكان هنالك أيضاً الاتجاه شطر الجنوب، إن اقتضت الظروف ذلك، والالتحاق بالقاهرة عبر سبوا، أو حتى الفزان . وكثيراً ما كان يحدث أن تُعرِّج القافلة على الجزائر أو بسكرة، مثلاً، بطلب من التجار الذين تكون لهم قضايا هنا أو هناك . وأثناء السير كان الحجاج ينضمـون إلى الجماعـة المغربية . ولما أقامت فرنسا الحماية بالجزائر، انقطعت القوافل واضطر الحجاج إلى الإبحار من طنجة .

---

(22) مارتان، **الكدان**، ص.621 .

(23) طوماسي، **المغرب وقوافله**، ص. 33 وما بعدها، ويندوس، المرجع المذكور، ص. 207 -208 .

(24) وإليكم الكيفية التي يتحدث بها صاحب كتاب **الاستقصا** عن هذا الذهاب (والمعلومات التي يدلي بها تتعلق بدولة مولاي سليمان [أوائل القرن التاسع عشر]) : « جرت العادة بخروجه - الركب النبوي - من فاس على هيئة بديعة من الاحتفال وإبراز الأخبية بظاهر البلد، وقرع الطبول وإظهار الزينة. وكانت الملوك تعتني بذلك وتختار له أصناف الناس من العلماء والأعيان والتجار والقاضي وشيخ الركب وغير ذلك مما يضاهي ركب مصر والشام وغيرهما » . 8 -120 من طبعة الدار البيضاء .

(25) انظر **نشر المثاني**، ترجمة كُرول، ص. 90 -91 .

ومهما كانت الطريق المختارة ، فإنهم كانوا يتغيبون مدة طويلة ، تدوم عدة أشهر وحتى عدة سنين أحياناً . ولم يكن بعضهم يرجع البتة ، إمّا لكونهم هلكوا في الطريق ، وإمّا لكونهم استقروا بالقاهرة[26] أو غيرها .

وكانت عودة الحجاج مناسبة لأفراح كبيرة : كان الناس ينتظرونهم بأبواب المدينة ، ثم يصحبونهم إلى صريح المولى إدريس ، حيث كانوا يصلون حتى قبل اجتياز عتبة منزلهم . وبعد ذلك كانوا يُقيمون في دورهم حفلات كبرى يستدعون إليها العديد من الناس[27] .

2(انظر ما سبق الكتاب 5 ، الفصل 6

(2) انظر ما سبق الكتاب 7 ، الفصل 7 .

الفصل الثاني

2/8

الأعيـــاد الـديـنيـة

كانت هذه الأركان تشكل هيكل الحياة الدينية ، ثم أضافت اليها التقاليد الإسلامية والعادات المحلية قواعد كثيرة جداً .

كانوا يحتفلون في فاس بأعياد دينية كل سنة ، كما هو الشأن في العالم الإسلامي كله ؛ وكان عدد هذه الأعياد أربعة : العيد الصغير (عيد الفطر) ، والعيد الكبير (عيد الأضحى) والمولد النبوي ، وعاشوراء ، ولكل واحد منها طابعه الخاص .

العيد الصغير : ـ أو عيد الفطر يقام مباشرة عقب انتهاء رمضان ، في فاتح شهر شوال . كان الجمهور يحتشد في المُصلَّيين بباب ساكْمة وباب فتوح ، يجتمع في الأول أكبر عدد من الناس ، لأن السلطان أو خليفته كان يأتي إليه في موكب فخم ليترأس الصلاة ؛ ثم بعد ذلك يمتطي فرسه ليتلقى ولاء ممثلي المدينة والقبائل المجاورة[1] . وكان قائد المشور يقدم الوفود بهذه العبارة التقليدية : « أهل فاس ، نعم سيدي » . فينحني طويلاً أهل فاس ، وعلى رأسهم العامل ، قائلين جميعاً : « الله يبارك في عمر سيدي»، ويجيبهم قائد المشور بقوله : «الله يبارك فيكم ويصلحكم ، قال لكم سيدي » . ثم يأتي

---

(1) انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص 138 .

دور فرسان القبائل الذين ينحنون على أعناق خيولهم وهم راكبون ، فيرددون عبارة الولاء. وفي بعض الأحيان كان أحد المعتمدين الدبلوماسيين الأوروبيين أو البعثات العسكرية المعتمدة لدى الحكومة الشريفة يأتون لتقديم تهانئهم للعاهل . فكان قائد المشور يجيبهم إذ ذاك بقوله : « مرحبا بكم ، قال لكم سيدي » .

وعندما كانت شمس الصباح تضيء هذا المشهد ، كان المنظر عظيماً : كان النظر يمتد بعيداً على المدينة الملكية القريبة جداً ، وسهل سايس المفتوح نحو الغرب ، وجبال تغات ، وزلاغ ، والريف ، والأطلس المتوسط . وفي هذا الإطار الفخم ، كان بياض البرانس ، وبرقشة الجلاليب والرايات ، والبذلات الأوروبية ، تنشر ارتسامات رائعة . وكانت حفلة الولاء تجري بدون تباطؤ لا فائدة فيه أمام سلطان ساكن صامت .

وبعد أن يتلقى السلطان ولاء الوفود الحاضرة ، يلتحق بقصره في الموكب التقليدي ، بينما يعود الناس إلى منازلهم للاحتفال بالعيد . لكن لم يكن الناس ينسون تهييء زكاة الفطر (الفطرة) قبل كل شيء، حتى لا يكون المعوزون مضطرين في ذلك اليوم إلى مغادرة منازلهم بحثاً عن القوت . وهذه الزكاة تساوي مبدئياً أربعة أمداد من القمح . وكان يستفيد منها أيضاً معلم القرآن ، والقابلة ، والعجائز الفقيرات من العائلة التي فقدت مواردها[2] .

وكانت الأفراح تدوم نظرياً سبعة أيام ؛ إلا أنه في الواقع ، كان الكثير من الناس يستأنفون أشغالهم المعتادة منذ اليوم الرابع أو الخامس ، ليعطلوا مرة أخرى في اليوم السابع . كان العيد عبارة عن وجبات عائلية وزيارات يتبادلون أثناءها التهاني .

العيد الكبير : - أو عيد الأضحى ،يُحتفل به في العاشر من ذي الحجة ، وهو نفس اليوم الذي كان الحجاج الوافدون من جميع أقطار العالم الإسلامي يضحون فيه بكبش في منى ، قرب مكة ، تخليداً لتضحية

---

(2) أحمد الصمريوي ، الليلة السابعة والعشرون لرمضان ، في وثائق غير منشورة لأصدقاء فاس .

إبراهيم(*) . كان الاحتفال يقام بفاس على الشكل الذي يقام به في العيد الصغير : يتوجه السلطان أو ممثله في موكب عسكري إلى مصلى باب ساكْمة ، حيث يترأس الصلاة في الهواء الطلق . ثم يجتاز باباً صغيراً مفتوحاً في جدار المصلى ، على يمين المحراب ، فيجد هنالك كبشاً يمسكه بقوة خدام القصر . وفي وسط جمهور متعطش لرؤية كل شيء يَصُدُّه الجنود والخدام بعناء كبير ، كان السلطان يتولى إذ ذاك ذبح الحيوان . فيأخذ على الفور الحمارون والبغالون بالمدينة الأضحية التي ما زالت تختلج ، ويحملونها على دابة ، منطلقين في عَدْوٍ سريع إلى منزل قاضي فاس الجديد ؛ فإذا وصلوا إليه قبل أن يموت الكبش ، كانت تلك علامة على أن السنة ستكون مباركة . وفي تلك الأثناء ، كان السلطان يمتطي فرسه باحتفال ويذهب لتلقي الولاء من الوفود الحاضرة ، على نحو ما يقع في العيد الصغير . ويجري احتفال مماثل ، وإن كان أقل رسمية ، بمصلى باب فتوح ، ولا يتضمن طبعاً تقديم الولاء .

تذبح طوال الصباح أكباش في معظم منازل فاس . يشتري الأغنياء منها لأفراد دارهم الكثيرين ، ولفقرائهم المعتادين ، وغالباً ما كان الضعفاء يشتركون مثنى أو ثلاثاً في شراء ضحية يقتسمون لحمها . وكان المحتاطون منهم الذين لهم الإمكانيات يقتنون كبشهم قبل عدة أسابيع ، ويُسمِّنونه في منزلهم ، لأن الأثمان ترتفع قبيل العيد[3] . وبعد أن يكون رب البيت ، أو صديق أو جزار قد قطع الكبش ، يوضع الفخذان على حدة ، لأنه كان من الظرف إهداؤهما إلى مَن له الفضل عليهم ، ويؤكل الباقي خلال العيد . وكان هذا العيد يدوم سبعة أيام ، كالعيد الصغير ، ويحتفى به بنفس الكيفية .

(*) اختلط الأمر على المؤلف فظنّ أن الحجّاج يضحون بمنى . والكل يعلم أن الأضحية سنة في حق غير الحجاج . ولا يَذْبَح منهم في منىً إلاَّ مَن وجَب عليه الهديُ بسبب محالفة ارتكبها . أما سائر الحجاج فلا يضحّون . (مترجم) .

(3) عن شراء الأكباش للعيد الكبير ، انظر ما سبق ، الكتاب 5 ، الفصل الرابع .

المولد النبوي : ـ يقع المولد في 12 ربيع الأول[4] ، وقد قرر السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق أن يحتفل رسمياً بهذا العيد[*] ، فأصبح منذئذ يوازي تقريباً العيدين السابقين من حيث الأهمية . وقبل شهرين ، يشرع في القرويين وعدة مساجد بفاس في شرح قصيدة في مدح النبي من نظم الشيخ المصري البوصيري بعنوان **الهمزية** . وكانت تقرأ ، ليلة العيد ، في أهم زوايا المدينة ، قصيدة أخرى لنفس المؤلف ، هي **البردة** . وطوال الليل كله تفتح المساجد وهي مضاءة للمؤمنين الذين يتوجهون إليها بوفرة ، بينما تخصص العائلات سهرتها لقراءات دينية . وعند الفجر ، وهو الساعة المفترضة لولادة النبي ، يُطلق الرجال عيارات نارية ، وتولول النساء ، ثم تبدأ الأفراح : الأطعمة والاستقبالات ، وتجمعات النساء في السطوح تتعاقب مدة سبعة أيام ، بينما يحتفل خصيصاً باليوم السابع . وهي أيضاً الفترة التي تقيم فيها الطائفتان الشعبيتان حمادشة وعيساوة احتفالهما المختص بأرباب المهن[5] .

عاشوراء : ـ كان الطابع الديني لعاشوراء ، وهي عاشر شهر محرم ، أقل ارتساماً بكثير من طابع الأعياد السابقة ، ذلك اليوم هو ذكرى وفاة الحسين ، ابن فاطمة وعلي ؛ وحسب العادة الشعبية بفاس ، كانت تخلد ايضاً وفاة فاطمة وحتى وفاة النبي[6] . ومهما يكن من أمر ، فقد كان بالتأكيد يوم حداد في الأصل : وفعلاً كانت عدة جموع من الشرفاء يتخذون الحداد ،

---

(4) انظر ب. باكينيون ، **المولد بالمغرب** ؛ وجوبان ، المرجع المذكور ، ص. 428 وما بعدها .

(*) أول مَن سنَّ الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب هو أمير سبتة العالم أبو القاسم الْعَزْفي ، مؤلف كتاب الدرّ المنظم في السيرة النبوية . وبعث بنسخة منه إلى الخليفة المرتضى الموحدي بمراكش ، فصادف منه ذلك قبولاً واستحساناً ، وصار المغرب كله يحتفل بالمولد النبوي إلى أيامنا هذه (مترجم) .

(5) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 4 .

(6) معلومات تفضل م. لـوي بـرونو ، المدير الشرفي لمعهد الدراسات العليا المغربية ، فأطلعني عليها .

بعضهم من فاتح محرم ، وبعضهم شهراً كاملاً قبل عاشوراء . وربما يعزى إلى فكرة الحداد هذه منع الطبالين والغياطين من استعمال آلاتهم طوال شهر محرم ؛ وعند انتهاء الشهر يعزفون أمام أحد أبواب ضريح المولى ادريس ، بينما تغنّي (الشيخات) في إحدى ملحقات الضريح ، وهي دار القيطون[7] . وبعد ذلك ينقضي كل شيء ويسمح لهؤلاء وأولئك باستئناف أجواقهم .

وفي الحقيقة ، فإن مظهر الحداد لعاشوراء كاد يختفي تماماً ، وأصبح هذا العيد بالعكس عيداً للأطفال ، وعيداً للضوضاء ، وحتى عيداً لكرنڤال هزلي . فمن العسير تصور تبديل أتم للوجه .

توزع يوم عاشوراء هدايا على الأطفال ، مثلما نفعله بمناسبة رأس سنتنا . وهو حقاً شبه رأس سنة ، مع عشرة أيام من التأخير . هل كانت عدوى بين عاشوراء ورأس العام ، مثلاً ، الذي يحتفل به في تونس[8] ؟ ولماذا هذا التوزيع للعب آنذاك ؟ تعطي العادة التقليدية بفاس تفسيراً، له على الأقل فضلُ الفتنة والظرف ، فتقول إنه عندما كان النبي محتضراً أخذ أطفال البيت في البكاء ، فأُعطوا لعباً لتسليتهم ؛ كما أنها تروي أن أبناء الحسين غُمروا بالهدايا للتخفيف من حزنهم يوم أن مات أبوهم ؛ وتؤكد في الأخير أنه ، عقب موت فاطمة مباشرة ، اقتربت ملائكة على صورة الإنس من ابنيها وهما عائدان من الكتاب لم يعرفا بعدُ مصيبتهما ، فأهدت إليهما لعباً حتى لا يستسلما بإفراط للألم . وهذه ثلاث شبكات رائعة طرزت في نفس الموضوع .

ومهما يكن من أمر ، فقد رسخت جيداً عادة القيام بإدخال السرور على الأطفال في ذلك اليوم ، وكانت تَفِدُ بعدُ لعبٌ عديدة من أوروبا ليلة الحماية : طيور من الصفيح مصبوغة بألوان زاهية وهي ترفرف بأجنحتها ، وطواحين هوائية ، ونواقيس ، وصفارات زهيدة الثمن . وقد برع الألمان في هذا

---

(7) انظر ما يأتي ، الكتاب 8 ، الفصل 3 .

(8) انظر ب. مارتي ، السنة الطقسية الإسلامية بتونس ، ص. 2-3 .

الميدان وأخذوا يزوّدون بهذه المناسبة دكاكين العطارة الذين تعاطوا هذه التجارة ؛ وكانت الصناعة المحلية تساهم هي الأخرى في العيد : فكان الفخارون ، قبل بضعة أسابيع ، يصنعون كمية وافرة من أنابيب موسعة الفوهة في الطرفين ومتفاوتة الحجم ، تغطى الفتحة الكبرى بمعى بقر مجفف وممدّد ، ويزخرف الخزف برسوم مزركشة ، مقتبسة من الزخرفة العادية لخزفة فاس ، ويشكل الكل طبلة (تعرجة) يستطيع كافة الفاسيين تقريباً شراءها ، نظراً لزهادة ثمنه . ومن آخر الصبّيحة إلى ساعة متأخرة من الليل ، كانت أفنية الدور وسطوحها ترنّ بمرح من تناغم الطبلات .

وبالنسبة لتلاميذ الكتاتيب القرآنية على الخصوص ، كانت عاشوراء كذلك عيد النور . فقبل أسبوع كان كل تلميذ يحمل إلى معلم القرآن قدحاً من الزيت ، ثم يهيؤون كلهم إنارة قاعة الدرس ، خلال الأيام التالية ، تحت إشراف المعلم . كانوا يذهبون إلى مُراقب أحباس القرويين ليتسلموا الثريات والمصابيح فيملؤونها زيتاً ويعلقونها في السقف . وكان التلاميذ يأتون من بيوتهم ، ليلة العيد ، باللحافات والزرابي فتتحول قاعة الدرس إلى بهو . وبعد صلاة المغرب ، توقد المصابيح ، ويحضر الضيوف ، ويقدم الشاي ، ويُقضى الليل هكذا[9] . يقال إن كل هذه الأضواء تسطع تخليداً لذكرى الشمعة التي أوقدت عند رأس النبي وهو في الاحتضار . ومن جهة أخرى ، كانت توقد أيضاً في عدة بيوت قناديل ذكرى الطهارة ؛ كما كان يخلِّدُ ذكرى الرسول قصاصون (مداحة) يروون حكاياتٍ متعلقة به ، أحدهم يقيم أمام سيدي فرج ، والآخر أمام دكان يسمى حوينت النبي (دكان النبي الصغير)[10] .

هل كان استعمال النور هذا من أصل إسلامي محض ، كما تريده الرواية التقليدية ؟ إننا لنتردد في تأكيد ذلك عندما نعلم أن الأطفال ، ليلة العيد

---

(9) انظر الزغاري ، المسيد (الكتاب) ، ص. 204 .

(10) كان هذا الدكان ، حسب سلوة الانفاس (جزء 1 ،ص. 221) لحلاق رأى النبي محمداً في المنام . ويوجد هذا الدكان في أسفل زقاق الحجر ، مواجهاً لمدخل درب الدرماني .

مساء ، كانوا يشعلون نيران المباهج في الأزقة ويقفزون فوقها[11] ، وأن النساء كن يوقدن على السطوح نيراناً من التبن أو من بقايا الحطب .

وهناك عادات أخرى كانت تزيد أيضاً في هذا الشعور بتأثير العوائد الغريبة عن الإسلام . كان أطفال الكتاب القرآني ، عقب الليلة المضيئة التي وصفناها منذ قليل ، يحفظون درساً قصيراً لتكون بداية السنة جيدة ؛ كما كان الصناع يذهبون إلى معاملهم ، والتجار إلى دكاكينهم ، ليكون العام مزدهراً . وفي البيوت عند مطلع الفجر ، كانت تفتح جميع الحقائب ، والصناديق ، والخزائن ، والأبواب ، حتى ينشر الله بركته بدون عائق . وتعطى الزكاة للمساكين تذكيراً بالمال الذي أعطي للفقراء في جنازة النبي ، ولكن كذلك حتى لا ينقص أي شيء العام كله . فمن العسير ألا تظهر في كل هذه الأعمال آثار السحر السري[*] .

بالإضافة إلى أن عاشوراء كانت أيضاً عيد تجديد : تُشترى فيها ثياب جديدة ، ويحلق الرجال رؤوسهم ، ويقصون أظفارهم . وتؤكد الرواية التقليدية أن ماء بئر زمزم يأتي بمعجزة ، ليغذي يوم عاشوراء العيون ، والسقايات ، والحمامات العمومية[12] ، وكل من اغتسل بهذا الماء تيقن من أنه لن يمرض العام كله . كما أنهم كانوا يصومون أيضاً بوصية من الرسول ـ حسب ما قيل ـ للنجاة من الموت خلال السنة الجديدة .

وأخيراً ، فإن بعض العادات كانت تظهر بجلاء أنها غريبة عن الإسلام . فحوالي المساء ، وخاصة في العائلات الموسرة ، كانت النساء يصعدن إلى السطوح ثم يغنين أغنية للاَّ متانة[13] تحت إيقاع الآلات حول شعلة من نار .

---

(11) ڤيستيرمارك ، بقايا ، ص. 179 .

(*) يخلط المؤلف بين العبادات الثابتة في الإسلام كالزكاة ، وبين العادات العابرة التي لا أصل لها وتختلف من مكان إلى آخر ، وسيتكرر مثل هذا الخلط دون أن نعلق عليه لظهوره .

(12) يسجل نفس الاعتقاد في مكان آخر بنضرومة مثلاً .

(13) يعطي بيارني (إيثنوگرافيا ، ص.146) عن هذه الأغنية روايتين ، إحداهما بطنجة والأخرى بالرباط .

ومن جهة أخرى كانت العادة جارية ، في عدة عائلات ، أن يُلبسوا مكنسة جديدة حِليةً جميلة ويجلسوهـا على كرسي كشخص جالس ، محتفلين هكذا بزفاف المكنسة التي يسمونها بهذه المناسبة « أبليسة »[14] .

= تذكر سلوة الانفاس (جزء 1 ، ص 212) امرأة تدعى للاّ مـنانة المجذوبية ، التي توفيت في بداية القرن الثالث عشر للهجرة (آخر القرن الثامن عشر) ودفنت في حي زقاق الرمان . لا يعطي المؤلف أي تفصيل عن حياتها ولا يذكر هل كانت لها أية علاقة مع غناء عاشوراء. يشير أوبان (المرجع المذكور ، ص. 90) إلى أن مدينة العرائش كانت تحت ولاية امرأة تدعى للاّ منانة ، دون أي بيان آخر .

وحسب الرواية المحلية ، كان لأمر يتعلق بولية الغرب ، لكن هذا كل ما تعرف عنها الرواية . وها هو نص الأغنية كما هي معروفة بفاس ، وتتضمن عناصر من أغنية طنجة وأخرى من أغنية الرباط .

آلـلاّ مـنـانـة
أكبيـرة المصـرانـة
آجي تكـوني بنتي
نـدير لـك عبـانـة
من الخوخ والرمانة
السـاقية تسقينـا
والـواد مـا يـدينـا
بـابا علي خَـرُّوبـة
شـاشيتُ مثقـوبـة
دازْ لغـرابْ يْقاقي
قال له بابا لاين ماشي؟
ـ ماشي عـند القاضي
ـ فايْنْ هو القاضي ؟
ـ القاضي مْشى يتغذى
ـ الله يعطيه الغدّة

لا أدري هل يجب إعارة هذه الأغنية أي معنى من المعاني ؛ لعلها تروق النساء فقط ، لأن كلماتها تناسب تماماً إيقاع الطبلة .

(14) لقد استفدتُ كثيراً من هذه المعلومات التي تفضل م . ل. برونو فأطلعني على مذكرات غير منشورة حول هذا الموضوع .

وأخيراً كان جنود الجيش الملكي ، ولا سيما المنتمين إلى الحوز ، ينظمون بمناسبة عاشوراء استعراضاً هزلياً يدعى « بساط » باسم الدار - اللعبة المصنوعة من الكاغد المقوى ، تركب على إطار من خشب ، يطوفون بها على رأس موكبهم(15) . كان بعضهم يحملون فوانيس ، وآخرون يعزفون ، بينما بعضهم مقنَّعون ، وآخرون متنكرون في صورة حيوانات ، وقضاة ، وزنوج ، وبَغيات ، ويهود ، ويهوديات ، ونصارى ، وجن ؛ وكان يذهب بعضهم إلى صنع صورة هزلية لباخرة بخارية . وكان الاستعراض يجري بدار المخزن ليلة عاشوراء ، وفي الأيام التالية عند الأعيان في مقابل هدايا بطبيعة الحال . ويتخلل الموكب تمثيليات قصيرة متنوعة ، لا يراعى فيها اليهود ، ولا النصارى ، ولا حتى الأعيان وذوو السلطة ، والكل بكلام خليع جداً .

وفضلاً عن كل العوائد والاحتفالات التي مر وصفها ، كان الفاسيون يقضون صباح يوم عاشوراء في الزيارات لسنة سعيدة ، وفي تجوال الأطفال في أجمل ثيابهم .

كان لا بد من الإلحاح على عيد عاشوراء ، لأنه توجد بها نقطة اتصال بين الْبِرّ الإسلامي ، كما هو موجود في العالم الإسلامي بأسره(16) ، وبين اعتقاد شعبي مغربي محض ، أو على الأقل شمالي - إفريقي ، مؤلّف من عناصر دخيلة ، ربما كانت سابقة للإسلام . فتارة يوصل بينها حسب الاستطاعة وبدون دلائل يقينية ، بالحديث النبوي ، وتارة أخرى ، كما في حالات احتفال التنكر العسكري أو عرس المكنسة ، تستمر بدون صبغة ، ولا لباس إسلامي .

---

(15) انظر عن هذا العرض ، قيستيرمارك ، بقايا ، ص. 186 وما بعدها ؛ أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 288 ، ول . لاووست ، نيران الابتهاج ص. 255 -256 ، الذي ينقل صوراً فتوغرافية للدور - اللعبات (اللوحات ، 1 ,2 ,3) .

(16) بالرغم على أنها لم يسنّها النبي ، فإن عاشوراء يُحتفى بها في العالم الإسلامي كله ، وفي الأوساط الشيعية أكثر . (انظر ماسينيون ، حولية العالم الإسلامي ، ص. 17 -19) .

ولجميع هذه الأعياد الدينية تأثيرها طبعاً في الحياة الاجتماعية : فهي مناسبات لولائم ، واستقبالات ، وزيارات ، وجولات في الأزقة ، ولأفراح عمومية بالنسبة للأطفال . فكان مقاولون ينصبون في ساحة بـوجلود أو بالساحات العارية في باب فتوح لعبة خيل من الخشب ، تدور عمودياً (ناعورة) كان صبيان فاس يتدربون بواسطتها وفي مقابل مبلغ زهيد ، على مناهج المنطاد[17] .

(17) انظر لاووست ، المقال المذكور ، اللوحتان 9 و 10 . وفي الحالة الراهنة ، تكاد لعبات خيل أكثر حداثة وتنوعاً تعوّض الناعورة العتيقة .

3/8

الفصل الثالث

إجلال الأولياء

إننا نعلم كم هو منتشر بإفريقيا الشمالية إجلال الأولياء ، وليست فاس شاذة عن القاعدة ، إذ الصلحاء بها مبجّلون في جميع الأوساط . وأحسن دليل على ذلك المؤلفات العديدة في مناقب الصالحين المزدهرة فيها . غير أنه تجدر الإشارة إلى أن إجلال الأولياء لم يعرف دائماً الصيت الذي عرفه في أوائل القرن العشرين : فقد ازداد أهمية من القرن الخامس عشر إلى القرن السابع عشر ، وعلى الأقل في المدن . لكن ينبغي الاعتقاد بأنه كان يجد أرضية خصبة بالأخص ، إذ أنه تكاثر بكيفية مدهشة ، وثبت إلى أيامنا هذه بدون وهن .

المولى إدريس : ـ يوجد المولى ادريس على رأس الأولياء المعظمين بفاس دون منازع ، وقد أتيحت لي الفرصة مراراً متعددة خلال هذه الدراسة[1] لبيان علامات الاحترام التي كان المولى إدريس موضوعاً لها . غير أن هذا الاحترام لم يكن قديم العهد جداً . يبين سالمون في مقال نشر **بالوثائق المغربية**[2] أن أمراء زناتة ، الذين خلفوا الأدارسة جهدوا في محو جميع ذكريات أسلافهم ، وحذفوا كل الاحتفالات المقامة حول ضريح إدريس الثاني ، حتى إنهم تمكنوا ـ على ما يبدو ـ من أن يجعلوا الناس ينسونهم .

---

(1) انظر بالأخص الكتاب 5 ، الفصل 2 .

(2) إجلال مولاي إدريس ، في وثائق مغربية ، جزء 3 .

لكن في عام 1437/841 ، عندما كان يهيأ لترميم جامع الشرفاء ، كُشف عن قبر الولي وكذا عن جثمانه ، فإذا به لم يتغير إطلاقاً[3] . أحيت حيناً هذه الكرامة الإجلال المتروك ، وقد وسع السعديون المقبرة الخاصة (الروضة) التي توجد فيها الجثة الشهيرة . ومن 1130 إلى 1717/1132 - 1719 ، عمل الفاسيون بالمجان لتشييد القبة الحالية ، بإيعاز من السلطان مولاي إسماعيل[4] . وأخيراً أمر السلطان مولاي عبد الرحمان ، عام 1824/1240 ، ببناء الجامع الجديد الواقع حالياً شرق القبة .

لم يزل هذا الضريح يجلب لاسكان فاس الذين يقصدونه في شتى المناسبات فحسب[5] ، ولكن تهوي إليه أيضاً أفئدة القبائل المجاورة وحتى البعيدة ، بحيث لا يمكنهم المرور بفاس دون أن يؤدوا فروض الولاء للمولى إدريس . ففي كل وقت من النهار يُملأ بجمهور من الرجال والنساء من جميع الطبقات يزورونه للتوسل ببركة الصالح في شتى الظروف . يدخل جلهم إلى الضريح للاقتراب من القبر ، لكن منهم من يكتفون ، في توسلهم بلمس الفتحة النحاسية حيث توضع من خارج الهدايا في صندوق مولاي إدريس. وذلك كاف للاستفادة من بركة الصالح . وقبر مولاي إدريس مكان يحج إليه الناس حسب مراسم مقررة [6] .

لا يُكتَفى بطلب الإعانة من ولي فاس الصالح ، بل تُطلب منه أيضاً

---

(3) انظر محمد بن جعفر الكتاني، الأزهار العاطرة، المطبوع على الحجر بفاس عام1314هـ.

(4) يحكى حتى أن الملك أمر بإخراج الجثمان من القبر ليتحقق شخصياً من صحته . فوجده كما كان عليه تماماً قبل ثلاثة قرون ؛ بحيث إنه ، عندما ضغط بإبهامه على خد الصالح ، شاهد به نفس العلامة التي تشاهد على جسم حي . إني مدين بهذه المعلومة وغيرها كثير مما يلي لتلميذي السابق وصديقي الشريف السيد محمد بن إدريس الإدريسي ، حفيد مولاي إدريس .

ملاحظة : كذا نقل المؤلف هذه الحكاية دون تعليق . والكلّ يعلم أن المولى إدريس توفي عام 213 هـ أي أنه كان قد مرّ على وفاته ستة قرون لا ثلاثة ! (مترجم) .

(5) انظر ما سبق ، الكتاب 5الفصل 2 ؛ والكتاب 7، الفصل 3 و 4 ؛ والكتاب 8 ، الفصل 1 .

(6) وصف سالمون هذه الشعائر في مقال بعنوان : إجلال المولى إدريس ، ص. 421 -427 .

الحماية ، لأن حق الالتجاء منوط بهذا الضريح الموقر[7] ؛ نحن لا نعرف التاريخ الذي أحدث فيه ، إلا أنه ينتمي - على ما يبدو - إلى القرن السادس عشر أو السابع عشر ، على عهد السعديين أو العلويين . وعلى كل حال ، فإن الرواية تنسب إلى مولاي إسماعيل تحديد المنطقة المقدسة (الحرم) ، وهو الذي أمر بترصيف الأزقة داخل هذا النطاق ووضع علامات للحدود بجذوع من خشب تسدّ المسالك في مستوى قامة الإنسان .

ويتضمن الحرم الإدريسي على نحو ما وضع عليه ، فضلاً عن الضريح ذاته ، عدة أزقة تجارية ومبانٍ مختلفة هذا بيانها[8] :

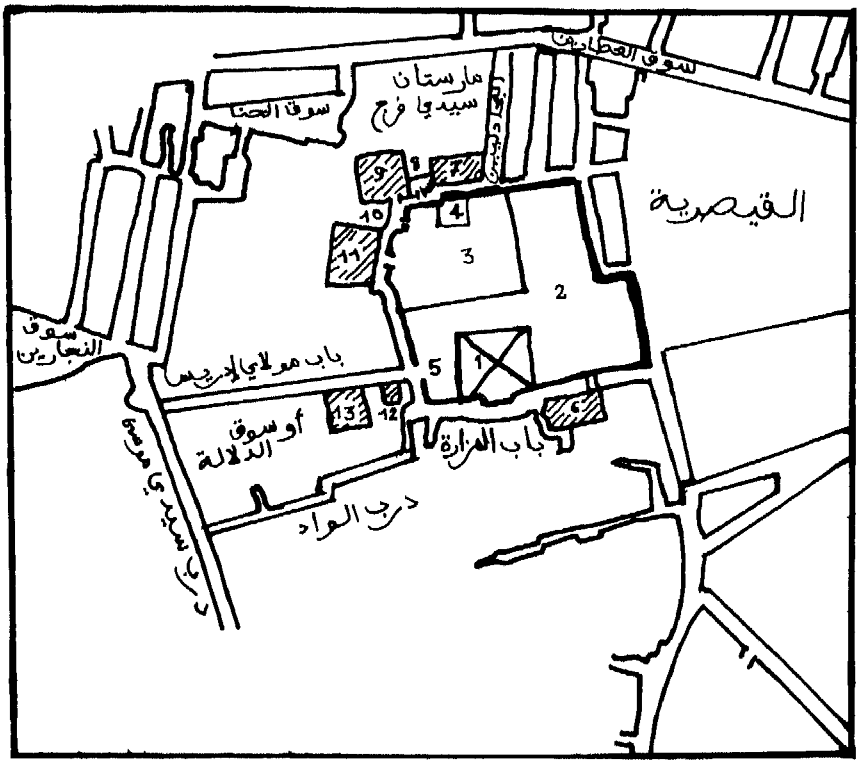
1 - دار (بلّارج) المفضية إلى سوق الدلالة (سوق البيع بالمزاد) المسماة أيضاً باب مولاي إدريس ، التي سميت هكذا لأنها شيدت بثمن بيع قلادة من الجوهر حملها لقلاق في منقاره . وهذه الدار ملك لأحباس مولاي إدريس . وبجوارها قبر للاّ كنزة . تعتقد المخيلة الشعبية بأنها أم الولي الصالح ، لكن المثقفين يؤكدون بأن للاّ كنزة هذه إنما هي حفيدة للولي ، كانت تملك دكاناً بهذا المكان وحصلت على الإذن بإقبارها فيه . وفي هذا القبر صندوق يمكن للمؤمنين أن يضعوا فيه هدايا توزع على أعقاب هذه المرأة الصالحة .

2 - دار القيطون أو دار الزاوية ، المفضية إلى درب الدويرة ، الواقعة - على ما يقال - في نفس المكان الذي نصب فيه المولى إدريس خباءه ، عندما أقام في العدوة الحالية للقرويين . وتستعمل هذه الدار كملجإ للنساء اللائي يحتمين بالولي .

---

(7) كان حق الالتجاء هذا المنوط ببعض الأضرحة جارياً به العمل بالمغرب ، وكان يُقره عادة ظهير شريف . وتتمتع عدة أضرحة بفاس بهذه المزية ، وهي زوايا سيدي أحمد الشاوي ، وسيدي عبد القادر الفاسي ، وسيدي أحمد التيجاني ، وسيدي علي بو غالب ، ومولاي أحمد الصقلي (رسالة من معتمدنا القنصلي بفاس بتاريخ 15 رجب 23/1311 يناير 1894) ؛ انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص. 291 -292 .

(8) انظر الرسم رقم 35 .



الرسم 35

الحرم الإدريسي

(حسب رسم إعدادي للشريف سيدي محمد بن إدريس الإدريسي)

1. ضريح الولي الصالح 2. قاعة الصلاة (الجامع الجديد) 3. ساحة 4. الصومعة 5. باب التومية 6. دار الخطيب 7. المجزرة 8. دار الوضوء 9. جامع المقلقين 10.. باب الطباليين 11 . دار القيطون 12. قبر للاكنزة 13. دار البلارج درب الدويرة هو الزنقة المحيطة بالحرم . ومحيط الحرم مُعلّم بخط غليظ وكذلك الجذوع التي تعترض طرق مدخل الحرم .

3 ـ وعلى بعد قليل من هناك ، في نفس الزقاق ، يوجد جامع الْمُقَلِّقِين[9] الذي يُستعمل كملجإ للمحتمين بالحرم . يسدل بعضهم ستائر بين السواري ليتخذوا شبه غرفة ، ويؤتى لمن هم أكثر غنى باللحافات والأغطية ، وينام الآخرون على حصر المسجد .

4 ـ ومجزرة ، مفصولة عن هذا المسجد بكنيف ، تذبح بها الحيوانات المقدمة إلى مولاي إدريس . وكانت تصلح أيضاً كملجإ لليهود الذين كانوا يحتمون بالولي . كانوا يدخلون إلى الحرم من سوق العطارين القريب جداً[10] . ولم يكن يبقى لهم إلا مسافة قصيرة للالتحاق بملجئهم ، اذ كان لا بد لهم من اتخاذ ما أمكنهم من الحذر في هذا الحرم الممنوع مبدئياً على غير المسلمين[11] .

5 ـ وقبالة صندوق المولى إدريس ، دار الخطيب الموصولة بالضريح بممر هوائي يمكن الخطيب من الذهاب من منزله مباشرة إلى الزاوية .

فالحرم المقام حول ضريح مولاي إدريس يجاوز إذن بكثير حدود الزاوية بالذات ليمتد إلى جزء من الحي[12] وقد أُعد هكذا لاستقبال عدد كبير من اللاجئين ، وهو بالتالي بقدر الولي الكبير الذي هو مدين له بوجوده . يقتبل كل الذين يستطيعون الوصول إليه ، مهما كان أصلهم ومهما كانت الدواعي التي

---

(9) سمي هكذا لأن الصلاة تقام به عند أول أذان .

(10) انظر الرسم رقم 35 .

(11) ألغي هذا المنع بالنسبة للنصارى منذ إقامة الحماية ، وأُقِرّ مبدئياً بالنسبة للإسرائيليين المغاربة .

(12) كان قد ترتب عن ذلك واجبات خاصة على المستعملين لهذه الأماكن ، كانوا كلهم ملزمين بالاحترام التام لأحكام الشريعة الإسلامية : يمنع عليهم التدخين ، والنطق بكلمات غير لائقة ، وبيع أو شراء أشياء محرمة كالتماثيل ، وإلقاء نظرات شهوانية على النساء والأطفال الصغار ، ومكالمة النساء الأجنبيات .

ولم تكن تحترم دائماً هذه القواعد ، إذ كان درب الواد ، وهو درب يفضي إلى قرب الباب الرئيسي للضريح (باب التومية) ، معروفاً بكونه أحد محلات اجتماع المهربين وشاربي الكيف .

دفعتهم : من لصوص ، وموظفين مخلين بوظيفتهم ، ولاجئين سياسيين[13] ، وعبيد آبقين ، ومدينين عاجزين عن سداد دينهم ، ونساء بائسات في منازلهن ، وحتى القتلة[14] ؛ فما داموا قد اجتازوا الحدود المحرمة ولم يخرجوا عنها فإنه يتعذر انتهاك أشخاصهم ، ولا أحد ، حتى السلطان نفسه ، يستطيع أن يخرجهم منه بالقوة[15] . كان يصل عددهم قديماً حتى أربعين مجتمعين ، بينما يكون أحياناً ثلاثة أو أربعة فحسب ، ونحو العشرة في المعدل . ونادرة هي الأيام التي لم يكن يوجد فيها هناك أي لاجىء[16] .

يستقبل الشرفاء الأدارسة اللاجئين ، لكنهم لا يعولونهم ، ولهذا كان عليهم أن يطلبوا من الخارج قوتهم وكل ما يحتاجون إليه . ولم يكن ذلك بالشيء العسير ، إذ كان لأي واحد الحرية في الوصول إليهم . ولا يستفيدون من هذه الحرية ليُحمل اليهم ما هو ضروري فحسب ، ولكن أيضاً للتفاوض عن طريق وسيط مع من يتابعونهم إن كانت هناك إمكانية للتصالح . ولا مُخاطرة في هذه المفاوضات بالكشف عن مخبإ اللاجىء ، لأن مقدم مولاي إدريس مضطر إلى إطلاع الخصم ، سواء كان المخزن أو الخواص ، على وجود ضيفه الجديد ، وذلك في مقابل الحماية التي يقوم بها . وعليه، تكاد تكون منافذ الحرم كلها محروسة دائماً في حالة ما إذا حاول أحد اللاجئين الفرار ، وهو أمر غير محتمل .

(13) هكذا فإن أخا السلطان مولاي الحسن نفسه ، وهو المولى الحسين عندما فشلت مؤامرته ضد أخيه ، التجأ إلى ضريح مولاي إدريس ومكث فيه سنين عديدة إلى أن وقع العفو عنه .

(14) يضاف إلى هذه القائمة ، منذ الحماية ، الهاربون من الجندية ومُهَرِّبو الكيف .

(15) لا تعرف إلا حالة استثنائية لهذه القاعدة ، وهي أن مولاي عبد العزيز ، الذي ضُغط عليه بإلحاح من لدن ممثلي الدول الأوروبية ، أمر بأن يُخرج من الحرم قاتل المبشر كوبير (انظر ما سبق ، الكتاب 3 ، الفصل 2) ويُعدم . ومع ذلك فقد لجأ إلى حيلة ، لأنه لم يجرؤ على اختطافه عنوة (انظر ما يأتي) .

(16) ففي شهر نونبر 1944 مثلاً ، كان نحو عشرة أشخاص يستفيدون من حق الالتجاء : ثلاثة هاربين من الجندية ، وقاتل ، وسارق ، ومهرب كيف ، وموقد حريق ، وثلاث أو أربع نساء تخاصمن مع أزواجهن أو عائلاتهن .

وقد يكون أحياناً من اللازم ، مع ذلك ، أن يغادر هذا اللاجئ أو ذاك ملجأه ، لبضع ساعات على الأقل ، إما لكون حالة المفاوضات تتطلب اتفاقاً مباشراً ، وإما لكون المسطرة القضائية تفرض استنطاقاً أو مقابلة . فابتكر الشرفاء إذن وسيلةً لبسط حمايتهم مؤقتاً إلى ما وراء الحرم : يُسلِّمون لمن يُستخرجُ لوحةً قرآنية قيل إنها كانت في القديم للمولى إدريس ، يضمها اللّاجئ تحت ثيابه ويذهب ، مصحوباً بالمقدم نفسه أو بأحد مستخدمي الضريح . وإذا كان على عدد من اللاجئين أن يخرجوا في آن واحد ، فإن المقدم يصحبهم ، وهو يحمل اللوحة المقدسة[17] . وكانت المفاوضات تنجح على العموم فيطلق سراح اللّاجئ بعد أيام قلائل .

لم يكن إجلال المولى إدريس محدوداً في الضريح ذاته ، بل يمكن أن يُشاهد في عدة نقط بالمدينة ، وخاصة في الطالعة الكبيرة ، وفي عالية قنطرة بوروس ، والزقاق الرئيسي لحي الكدّان كُوىً صغيرة داخل حائط يحفظها شباك ، تسمى مزارة مولاي إدريس . وهكذا فإن الذين لا يسعهم الوقت للذهاب إلى الضريح يمكنهم من ذلك أن يُعَبِّروا هناك عن ولائهم للولي الكبير .

لا حاجة للعودة إلى صلحاء فاس الآخرين الذين هم كثيرون جداً وسبق أن أعطيت عنهم معلومات في عدة مقاطع من هذه الدراسة[18] . غير أنه تجدر الإشارة إلى أن جل هؤلاء الأشخاص المعظمين لا ينتمون إلى ما وراء القرن الخامس عشر الميلادي ، أي العهد الذي انتشر فيه إجلال الصلحاء انتشاراً كبيراً في المغرب كله .

---

(17) هذه هي الطريقة التي استعملها مولاي عبد العزيز لإلقاء القبض على قاتل كُوبير . أقنعه بالخروج تحت حماية لوحة مولاي إدريس . وصحبه بعض الجنود إلى القصر كأنه لم يكن شيء ، لكن ، لمّا وصل إلى ساحة دار المخزن ، نُزعت منه اللوحة : فبطل السحر واستطاعوا أن يقبضوا عليه . انظر سالمون ، حق الالتجاء للقوانين ، في وثائق مغربية ، جزء 3 ، ص. 146 .

(18) انظر بالأخص ، الكتاب 5 ، والكتاب 8 ، هنا وهناك .

يجب ألاّ نعتقد بأن الفاسيين يقتصر تعظيمهم على صلحاء فاس ، بل إنهم يساهمون برغبة في المواسم المنظمة على شرف صلحاء المناطق المجاورة . وهكذا ، ففي شهر ماي يصعدون جماعات منهم إلى ضريح سيدي أحمد البرنوصي ، الجاثم على ربوة بين زلاغ وتغات . يقام الموسم في المنحدرات الصلبة للسفح الشمالي ؛ وفي وسط شجيرات البطم المثوية ، يأتي إليه جبالة لإقامة مسابقتهم وهم راجلون ؛ ولا يخلو من التجار المتنقلين ، ولا من العرافين ونشالي المعاطف ؛ وخلال يومين وليلة يقضون أوقاتاً في التسلية تحت حماية الولي الصالح . كما أن موسمي سيدي حرازم ومولاي إدريس زرهون يجتذبان الفاسيين أيضاً .

ولا يكتفي التدين الشعبي ،حتى بفاس، بتعظيم الأولياء ، بل يلجأ إلى عوائد طبيعية بلا منازع ولا علاقة لها بالإسلام . . وفضلاً عن الأهمية المعارة للجن ، والعفاريت ، والقوات الخفية ، التي ليست في تناقض صريح مع السنة الإسلامية ، فإن بعض الأشجار موضوع إجلال حقيقي . وأحسن مثال لذلك الشجرة المقدسة المجاورة لضريح سيدي ميمون الفخار بحي الفخارين . وهذا الرجل الصالح مدفون في قبر بسيط يكاد يكون مهجوراً ، وتنمو فوقه شجرة قوية أغصانها مكسوة بخيوط من الصوف وخصلات من الشعر وأشياء خليطة يعلقها عليها السكان المجاورون . هل الشجرة هي التي اجتذبت الصالح ، أم أنها صرفت لفائدتها شيئاً فشيئاً الإجلال الذي كان الفخار الصالح موضوعه ؟ لا أحد يستطيع أن يجيب عن ذلك ، لكنه من اليقين أن للشجرة في الساعة الراهنة أتباعاً أكثر عدد من أتباع الصالح[19] . . ويمكن ذكر أمثلة أخرى لا لبس فيها ولا غموض داخل أسوار فاس ، مع هذا التحديد ، وهو أنها توجد فقط في الأحياء الشبه القروية بأرباض المدينة .

---

(19) لقد اختفت الشجرة منذ أن كتبت هذه الأسطر : وقد تمكنت من معاينة الحدث في شهر يونيو 1948 . هل كان ذلك ناتجاً عن موت طبيعي ، أم عن انتصار للسنة على الاعتقاد الباطل ، أم نتيجة أشغال الطرقات والبناء المنجزة في هذا الحي ؟ لا أستطيع أن أوضح ذلك .

4/8

الفصل الرابع

الطرق الصوفية

إن الطرق الصوفية ، سواء بفاس أو في سائر أنحاء المغرب وإفريقيا الشمالية كلها ، كانت منتشرة جداً . فكان بهذه المدينة ـ حسب إحصاء أُنجز سنة 1939-235 .16 طرقياً ، بالنسبة لعدد السكان المسلمين الذين قُدروا آنذاك بـ 125.000 نسمة[1] . إن الإحصاءات ، في هذا الموضوع الدقيق ، ليس لها سوى قيمة بيانية ، فينبغي إذن ألَّا يعار كبير أهمية لهذا الرقم ؛ لكنه تجب الإشارة إلى أن النسبة المـئوية للطرق باعتبار مجموع السكان أكثر هنا من أية مدينة أخرى بالمملكة الشريفة .

من المعلوم أن الطرق كإجلال الصلحاء والشرفاء ، اتسعت بالأخص منذ القرن الخامس عشر إلى القرن الثامن عشر ، في الوقت الذي اتخذ فيه الإسلام بالمغرب المظهر الذي هو عليه الآن[2] .

إنها جمعيات لأناس أتقياء يجتمعون ليقوموا ببعض الأذكار التي أوصى المتصوف الكبير المسلم بأنها كفيلة بتسهيل تحصيل معرفة الحقائق الإلهية

---

(1) ج. سپيلمان ، دراسة غير منشورة حول طرق المغرب وزواياه .

(2) انظر عن الطرق الصوفية المؤلفات الكلاسيكية لديبون وكبّولاني ؛ ورنّ ؛ وميشو . بلّير ؛ وقد ساعدني الحظ من جهة أخرى على التمكن من تصفح الدراسة غير المنشورة لج . سپيلمان : حول طرق المغرب وزواياه .

وفتح طريق النجاة . وتميزت هذه الجمعيات شيئاً فشيئاً بعضها عن البعض ، بعد أن كانت مشتركة الأصل ، سواء من حيث شعائرها أو من حيث توظيفها . فمنها ما تُخصص الحصة الكبرى للتلاوة والتأمل ، بينما توصي الأخرى بالمواسم والتقشف العام . تأخذ الأولى عادة أتباعها من بين المثقفين والبورجوازيين ، والأخرى من بين الطبقات الشعبية . وأخيراً ، فقد تفتحت بعضها هنا ، وبعضها هناك : فالطرق التي تتمتع بوضعية متفوقة في الجزائر ، كالطريقة الرحمانية ، مجهولةفي الواقع بالمغرب ؛ وحتى في المغرب ، لا تتمتع مختلف الطوائف بنفس الحظوة التي تتمتع بها في فاس أو مراكش ، أو الريف أو تادلا . كما نعلم أن بعضها على الأقل لا ينظر إليها المسلمون الخُلّص بعين الرضى . فقد نُشر للسلطان مولاي سليمان أمرٌ ضد الطرق الشعبية والمواسم[3] . وبالرغم على هذا الموقف للرئيس الديني للمملكة المؤيد من طرف العلماء ، فإن جميع الطرق احتفظت بحيوية عظيمة جداً ، وكانت تعرف دائماً الحظوة الشعبية في أوائل القرن العشرين .

كانت الطرق الأكثر عدداً بفاس هي : التيجانية[4] ، والدرقاوية ، والوزانية ، والعيساوية ، والحمدوشية ، والدغوغية ، والكتانية ، وأخيراً طريقة كْناوة الزنجية[5] .

---

(3) قد اتخذ سيدي محمد ، الملك الحالي ، نفس الموقف فمنع التظاهرات العمومية للطرق الشعبية (1934) ، واتخذ مؤخراً (في صيف 1946) ، قراراً بمراقبة جميع الطرق بالمغرب .

(4) توفي سيدي أحمد التيجاني بفاس وأقبر بها .

(5) يعطي النائب القنصلي لفرنسا بفاس ، في تقريره الإحصائي والتجاري بتاريخ 17 أبريل 1898 ، قائمة بالطرق الصوفية وعدد زواياها المحلية ، هكذا : التهامية (وزانيين : 4 زوايا ، عيساوة : 18 ، الدغوغيين : 2 ، الصقليين : 2 ، التيجانيين : 1 ، اليوسفيين : 1 ، الناصريين : 1 ، الجزوليين : 1 ، كْناوة : 4 ، هداوة : 1 ، القاسميين : 1 .

لا يجب أن تعار كبير أهمية لعدد الزوايا المحلية ، لأنه لا يطابق حتماً عدد الأتباع . وهكذا ، فإن زوايا عيساوة لم يكن في كل واحدة منها أكثر من خمسين مريداً ، بينما كانت الزاوية التيجانية تضم عدة مئات .

وكانت نخبة فاس ، من علماء الجامعة ، وكبار موظفي المخزن ، والتجار تنضمُّ باختيار إلى مجموعات التيجانيين ، ودرقاوة ، والكتانيين ، والوزانيين، وبكيفية استطرادية الصقليين والناصريين .

وفي اوائل القرن العشرين ، كانت الطريقة التي يُقبل الناس عليها أكثر من غيرها هي الطريقة التيجانية[6] ، مع كون الزاوية الأم بعين ماضي بالجزائر ، وأن رئيس الطريقة ، سنة 1903 ، كان جزائرياً . ويقال إن عدداً من أقرباء الملك أو المقربين إليه انضموا إليها ؛ وكذلك علماء مشهورون ، مثل الحاج محمد كْنون ، وأعضاء هامون من المخزن ، ولا سيما مساعدي وزير الحرب الكباص[7] . فقد سبق لهذه الطريقة أن توسعت في أوائل القرن العشرين ، إذ كانت تضم فرعين محليين ، سنة 1907 ، بدلاً من فرع واحد ، سنة 1898 .

وكان لطريقة درقاوة[8] صبغة صوفية واضحة[9] جداً . فكانت تجلب إليها

---

(6) أسست عام 1781/1196 -82 على يد سيدي أحمد التيجاني .

(7) تقرير سنة 1907 (وثائق بعثة فرنسا بطنجة) .

(8) أسست في آخر القرن الثامن عشر على يد مولاي العربي الدرقاوي المدفون بجبل العلم ، شمال شرقي وزان .

(9) انظر في هذا الصدد مقدمة ديـرمينغـم لخمرية ابن الفارض . يذكر المؤلف الرسالة الآتية الّتي يصف فيها شاب فاسي يعرفه اجتماعاً لدرقاوة (ص. 64 ، هامش 1) :

« . . . ما زلت أرى الزاوية التي كنت أتردد إليها في زقاق صغير بحي البليدة ، منعزل تماماً وهادئ . كنت أقصدها كل يوم جمعة حوالي الساعة الرابعة مساء . كان الفقراء يأتون الواحد تلو الآخر ، ويضعون نعالهم في ركن من الأركان ، ثم يتقدمون ببطء وسكوت ، فينزعون غطاء رأسهم ، وَيَشُدُّون على أيدي إخوانهم بكيفية خاصة ، وينحنون .

« وعندما يكون عدد المريدين هاماً إلى حد مّا ، يتناول المقدم رسالة القشري (« الكتاب الأم ») كما تسمى أو مؤلفا آخر من نفس النوع ، فيقرأ بعض المقاطع بصوت رخيم جداً وهو يشرحها . يلقي المريدون بعض الأسئلة ويتناقشون مع المقدم أو فيما بينهم ، لكن بكثير من النظام والهدوء . وعندما تكون الروح قد غذيت بهذه القراءة وهذه المناقشات ، يشكلون دائرة ويرتجل الذكر على إيقاع إنشاد جميل يحتاط المنشد ألاّ ينشد منذ البداية أبيات ابن الفارض، سلطان العاشقين، خشية إثارة نشوة المريدين بكيفية مفاجئة وبإفراط. وتنشد أبيات =

أقواماً من جميع المستويات المتعطشين إلى الاتحاد الروحي مع الألوهية.
ومن الممكن أن تعتبر الفروع المحلية كأنشط المراكز لحياة فاس الروحية.
كان أتباع الطريقة يحجون إلى ضريح مؤسسها كل عام، يذهبون راجلين

= شعراء آخرين، كالمقدسي، والششتري، والبغدادي، والحراق، بوتيرة جد بطيئة. يقوم الحاضرون بحركة ذهاب وإياب من الأمام إلى الخلف، وهم يصاحبون الإنشاد مرددين: لا إله إلا الله. تحمرّ الخدود، وتطبق عيون البعض، وتجحظ بالعكس عيون الآخرين. يزداد الإيقاع، فينهض الجميع وقفة واحدة وتختصر عبارة «لا إله إلا اللّه» مجرد «الله».

«الكل وقوف الآن يستمعون إلى أبيات ابن الفارض، لكن فقط إلى التي لها صبغة صوفية قليلة البروز، يهيج الفقراء ويأخذون في الرقص. إذ ذاك يَتخلَّصُ المغني بصفة غير محسوسة إلى قصائد لسلطان العاشقين ذات تصوف أكثر تعمقاً.

«تنطلق «هو» «هو» حادة من كل الجهات. وليس من النادر أن يشاهد مُسمِّع، وقد استولى عليه النَّفَس الصوفي الذي ينشره بيت من أبيات ابن الفارض، وأخذه الحال، فشرع في الرقص. والفقراء الجالسون خارج الدائرة الذين لا يرقصون لسبب من الأسباب، يصاحبون إيقاع الذكر بحركات معتدلة. وغالباً ما يتفق لهم، وقد ثملوا بمعنى بيت من الأبيات، أن يقفزوا إذ ذاك فجأة، وهم يطلقون صرخة فرح، ويشاركون في الرقص.

«يتزايد الهيجان، وينصّب العرق على الأبدان، وتنحل العمائم وتنقلب الرؤوس، وتتوجه الأنظار المذعورة إلى السماء، وقد خطفتها رؤية نور لا يوصف... شيء يتعذر، بل يستحيل تفسيره.. إن خمرية ابن الفارض قد أثملت الأرواح. «هو» «هو» «هو» يُصبح النفَسُ أقوى وأسرع. كل ذلك في نظام تام متزن، ويُسيِّر الذكرَ المقدمُ أو فقير آخر موقر، في وسط دائرة.

«وإذا ما لاحظ بعض الفتور عند بعضهم، أثار هو نفسه بيتاً رائعاً لابن الفارض، متبعاً نفس الإيقاع للمغني. يُفيق الغافل ويستعيد المتعب شجاعته «هو»، «هو»... لا يسمع الآن سوى نَفَس الصدر الذي ينقص شيئاً فشيئاً. إن الخليقة الضعيفة تفنى أمامه. لم يعد المُسمِّعون بعدُ يُنشدون جماعة، بل ينشدون واحداً واحداً موالاً لابن الفارض طبعاً (فمن يا ترى يملّ ابن الفارض؟). تنعش «هو»، «هو» القلوب ويسيل العرق على الوجوه وتفتح الأفواه. إذ ذاك يصيح المنشد:

«إن غاب عن مقلتي، فهو في. «هو في! هو! هو!» تعلو بسمة جميع الوجود «هو في! هو في!» هو! هو!» ذلك الفناء التام! لم يعودوا هنا. لا وجود لهم. يرعب «هو في» الجميع، حتى الذين لا يُنشدون أو يمرون صدفة بالزقاق حيث توجد الزاوية المتواضعة. تتهاوى السيقان. ويجلسون أخيراً فتنشد بعض الأبيات أيضاً، وخاصة: «آه لو كان كل ذلك يدوم لي...» يتصافحون من جديد. هم سعداء. ويشعرون بأن روحهم ازدادت خفة».

وبيدهم عصا الحاج ، وعلى رأسهم عمامة خضراء تميزهم .

كان الوزانيون أو التهاميون[10] موزعين إلى أربع زوايا محلية حسب أصلهم العرقي : أهل توات ، والفيلاليون ، والتلمسانيون. وكانوا ثلاثتهم يعقدون اجتماعاتهم بزاوية درب الشرشور (حي الشربليين) ، وأهل فاس الذين كان مركزهم زاوية سيدي قاسم بن رحمون بزقاق الحجر (سويقة ابن صافي)[11] . إن هذه المجموعات ، المكوّنة من أقوام من جميع المستويات ، لم يكونوا يستهينون بالأبهة الخارجية . وإذا زار أحد الشخصيات الرئيسية للطريقة أتباعه بفاس ، كان أعضاء الزوايا الأربع يستقبلونه خارج الأسوار بالرايات والطبول والمزامير ، فكان للموكب منظر رهيب لدى دخوله إلى المدينة[12] . وكان الحج إلى وزان كلّ سنة في الخريف . تذهب الزوايا الأربع كل على حدة في نظام لا يتغير ، وأهل توات بالمؤخرة . كانت كل واحدة منها تحمل الهدايا التقليدية : يعطي أهل فاس المال ، والنعال ، والشموع ، وعود الصبر ، والحلويات ، ومأكولات معدة سابقاً ؛ وكان التلمسانيون ، وهم في الغالب فقراء ، يحملون مبلغاً من المال لا يتعدى خمسين ريالاً ؛ ويهدي الفيلاليون قليلاً من المال ، والسميد ، والمكنسات ؛ أما أهل توات ، الذين ليس لهم غير إرادتهم الحسنة وقوة سواعدهم ، فكانوا يتولون التنظيف السنوي لمدينة وزان[13] .

وعند الكتانيين[14] كان يلتقي علماء القرويين بالتجار وبعض الصناع .

---

(10) بل كانوا يحملون اسم الطيبيين بالجزائر . كان مولاي التهامي ومولاي الطيب كلاهما يتمتع ببركة مؤسس الطريقة في القرن التاسع عشر . وقد أسس هذه الطريقة مولاي عبد الله الشريف الوزاني حوالي 1660 .

(11) ميشو- بليّر ، دار وزان ، ص. 38 ، هامش 1 .

(12) أوبان ، المرجع المذكور ص. 477 .

(13) نفس المرجع .

(14) أسست زاوية الكتانيين بفاس حوالي 1850 ، على يد سيدي محمد بن الكبير الكتاني ، ونظّمها حفيده الذي كان يحمل نفس الاسم حوالي 1890 .

وقد اتخذ مسيرو هذه الطريقة موقفا سياسياً واضحاً يوم أن خُلع مولاي عبد العزيز وبويع مولاي حفيظ ، فتعرضت إذ ذاك الطريقة لسخط المخزن ، ولم يكن لها بفاس النفوذ الذي كانت تؤهلها له أصولها الفاسية الصرفة .

وكان الصقليون[15] يضمون إليهم على الخصوص أعضاء أسرة المؤسس ، أي تجاراً ومثقفين .

كانت الطرق الشعبية ، كعيساوة ، وحمادشة والدغوغيين ، والقادرية ، وهدّاوة ، تجد أتباعاً خاصة من بين الصناع[16] وسكان الأحياء الدائرية . وتتميز بتنظيم اجتماعات عمومية كبرى تعقد في الأزقة وتفضي إلى أعمال أقل ما يقال عنها إنها مدهشة . كان الرعاع يجدون فيها ما يشفي غليلهم ، هم الذين في حاجة إلى إحساسات العنف ؛ لكن المثقفين والمؤمنين المتقين كانوا يستنكرون هذه التظاهرات ، ويعتبرونها مخالفة للسنة ومعتدية على شرف الإسلام . غير أنه لا يجب الانبهار أمام هذه التظاهرات العمومية ، الكريهة أحياناً ، لأن الطرق التي وصفناها منذ قليل ، كانت تعقد مثل غيرها جلسات خصوصية (حضرات) تتجلى فيها تقوى مبسطة بالتأكيد ، لكنها مخلصة وقوية[17] .

كان كل من عيساوة ، وحمادشة والدغوغيين يقيمون موسماً بمناسبة عيد المولد النبوي ، بمدينة مكناس ، بجوار ضريح سيدي مَحمد بن عيسى بالنسبة لعيساوة[18] ، وفي الكتلة الجبلية لزرهون بالنسبة للطائفتين الأخريين اللتين أُقبر

---

(15) أسس هذه الطريقة في القرن الثامن عشر مولاي أحمد الصقلي المدفون بفاس في زاوية درب سبع لويات .

(16) حسب بحث حول **الطوائف** (ص . 140 - 141)، كان حمادشة يؤخذون خاصة من بين الحمالين ، والفرانين ، ومستخدمي الحمامات ، والدباغين والإسكافين ؛ بينما يؤخذ عيساوة من بين الحدادين والدباغين، ولا سيما من بين الجزارين .

(17) انظر في هذا الصدد وصف اجتماع لجبالة في رواية فرانسوا بونجان ، **اعترافات بنت الليل** ، ص . 58 - 63 .

(18) انظر عن هذه الطائفة دراسة برونيل ، **بحث حول الطائفة الدينية لعيساوة بالمغرب** .

مؤسساهما في قريتين بهذه الناحية[19] . كان موسم عيساوة محدداً حسب العادة التقليدية بيوم المولد النبوي بالذات؛ وقبل ذلك بخمسة وعشرين يوماً أو ثلاثين يوماً ، كانت فروع فاس الخمسة والثلاثون تشرع في جمع التبرعات لتنظيم الاحتفال بكيفية لائقة وتحضير الهدايا على شرف الصالح وأعقابه . وقبل المولد بثلاثة أيام ، كانت جميع فروع الطائفة تخترق المدينة في شكل موكب قبل الانطلاق إلى مكناس . ورغم الصبغة السنية المشبوه فيها ، كان الموكب يجتذب كل سنة على مدى طريقه جمهوراً غفيراً من النظارة ، لا يأنف البورجوازيون من أن يختلطوا فيه بالرعاع[20] . وبعد أن يصعدوا الطالعة الكبيرة حيث كانت النساء ينظرن إليهم من السطوح وعددهنّ كثير ، كان عيساوة يلتحقون بباب محروق ، ثم باب ساكْمة . كان رئيس زاوية فاس (مقدم المقدمين) يسير على رأس الموكب ، ممتطياً فرسه ، ويتبعه حاملو الهدايا . يتقدم بعد ذلك أطفال وهم يمسكون قماشاً أخضر مبسوطاً ، وهو الذي سيغطى به قبر الصالح ، والذي كثيراً ما كان النظارة يقذفون فيه بهدايا جديدة عند مروره . ثم حاملو الأعلام[21] ثم المنضوون ، فرعاً فرعاً ، وهم يقومون برقصاتهم الوحشية[22] ، ويمشون الهوينا على إيقاع الطبول والمزامير . وكان موسيقيون راكبون على الخيول يسيرون في المؤخرة . كان هذا الموكب مهيباً بعد في حد ذاته ، بتنظيمه ، وطوله ، وبطء تقدمه ، لكن الشيء الذي كان يكسبه قيمته عند الفاسيين هو الجوّ السائد فيه : جو الشطح أو الجذب ، حسب الأمزجة ، وعلى كل حال الإحساس بتجاوز الذات ، الانفعال بقطع

(19) انظر عن هاتين الطريقتين ، ج هيربير ، **حمادشة والدغوغيون** .

(20) انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 431 وما بعدها ، وب . ريكار ، **المولد بفاس : عيساوة** .

(21) كان بالإمكان أحياناً مشاهدة كيس من السميد معلق بسارية راية ، كانت قد سلمته إلى الطائفة امرأة تتمنى أن تكون أماً ؛ وإذا ما أرجع إليها مشبعاً ببركة الصالح ، أكلت السميد وقُضيت حاجتها .

(22) كان الجميع يكتفون بهز الصدر والرأس على إيقاع أسرع فأسرع ، وكان بعضهم يقلدون بعض الحيوانات الوحشية أو الآهلة . انظر في هذا الصدد دراسة **برونيل** ، ص . 168 - 220 .

الأواصر الدنيوية مدة من الزمن ، والمغامرة فيما وراء الحقيقة ، ونشوة الابتهاج الجماعي الذي ربما تفتقر إليه دورياً الأرواح الإفريقية أكثر من غيرها . ما كان يهم بعد ذلك أن تتحول الأجسام إلى آلات مجنونة ، وأن تضحى العيون حائرة ، وأن تذكّر الحركات بأعنف الحماقات ؟ لم تكن هذه سوى وسائل لإرغام الروح على التحرر من غشائها المادي والتقرب إلى الله .

كان حمادشة والدغوغيون يذهبون بعد بضعة أيام ، حيث إن موسمهم لم يكن يقام بزرهون إلا في سابع عيد المولد . وكان موكبهم يجلب عدداً أقل من النظارة ، وإن لم يكن أقل إثارة للإعجاب ، إذ كانوا يحملون أنواعاً من الشواقير ، والدبابيس يشدخون بها رؤوسهم ليُسيلوا الدم .

وفضلاً عن هذه التظاهرات العمومية ، والاجتماعات الخصوصية التي كانت تعقدها بزواياها ، كانت هذه الطوائف الشعبية غالباً ما يستدعيها خواص ، من الطبقة الدنيا عموماً ، يريدون أن يعطوا حفلة عائلية بهاء أكثر ، أو أن يطلبوا من الله منة خاصة .

وفي مثل هذه الظروف ، كانوا يتصلون أيضاً وبصفة خاصة بكْناوة . وكما يدلّ اسمهم على ذلك[23] ، فإن الأمر يتعلق بزنوج ، كانوا قد وفدوا بكثرة على المغرب ابتداءً من القرن السادس عشر ، واكتسبوا في الأخير أهمية لا بأس بها ، حتى في مدينة ذات شخصية قوية كفاس ، وحتى في ميدان محروس بعناية قصوى بقدر ما كان عليه ميدان الاعتقادات. لم تكن طائفة كْناوة تقبل كأعضاء سوى السود ، على غرار طائفة الخطابات . ولم تكن بالتالي طائفة كسائر الطوائف ، فقد يكون أتباعها مرتبكين جداً في بيان مؤسس طريقتهم وتوضيح السلسلة الصوفية التي تصلهم بالشيوخ العارفين في

---

(23) معنى كْناوي (ج . كْناوة) هو : قوم من غينيا . انظر عن كْناوة ، محمد الفاسي وديرمينغم ، حكايات فاسية ، ص . 32 ؛ وأوبان المرجع المذكور ، ص . 321 ، وميشو بلّير ، الرقيق بالمغرب ، ص . 422 - 427 .

الإسلام . ولو كانوا قادرين على إعطاء معلومات حول أصلهم ، لأمكنهم أن ينتسبوا إلى أحد أولياء بلاد السودان المحتكة بالمعارف الإسلامية ، لكنها ما زالت مليئة باعتقادات وعوائد تتعلق بالأرواح . لم يكونوا يقولون شيئاً لأنهم فقدوا منذ زمن طويل ذكرى كل ذلك ، محتفظين فقط بعوائد غريبة كانوا يتداولونها فيما بين المريدين ، وتؤثر تأثيراً كبيراً في مخيلة الفاسيين ، لاسيما النساء ، بإغرابها وطابعها العجيب .

كانت شعائرهم غريبة : يرتدون لاحتفالهم لباساً خاصاً مطرزاً بصدف صغير أبيض أو غوري ، وقلائد من نفس هذا الصدف[24] ، لا يتصورون أن تجري شعائرهم في صمت،لذلك يستعملون آلات موسيقية هي : طبل طويل أسطواني ، مجلوب طبعا من بلاد السودان ، وصناجات معدنية ،وإن لم يكن، فمقصات كبيرة من النوع الذي يستعمله الإسكاف أو الخياط ، يضربون عليها بقضيب من حديد ، و (مندولينات) صغيرة شبيهة (بالكُمبري) البربري لكنها ذات وتر واحد ويسمونها « كُانكًا » . كان ذلك كل ما يؤلف جوقهم ، جوق صاخب بدون تلون ، مخالف تماماً للجوق الأندلسي الدقيق . كانت هذه الآلات مصحوبة بأغان لا يفهمها أهل فاس ، لأنها بلغة أو عدة لغات إفريقية ؛ وهل كان كُناوة أنفسهم المقيمون بالمغرب منذ عهد سحيق يفهمونها بعد ؟ ربما كانوا يعرفون مدلولها العام الذي احتفظت به عادة الطائفة لكنهم نسوا التفاصيل .

لم يكونوا يعقدون ـ على ما يبدو ـ جلسات مخصصة للأدعية كغيرهم من الطوائف ، لكنهم كانوا ينظمون في الهواء الطلق ، يوم الجمعة ، اجتماعاً يرقصون فيه ويغنون ؛ فكان ذلك يسرّ المتسكعين والأطفال جداً في مقابل هدية زهيدة . وحوالي 1870 ، كان لعب كُناوة هذا يجري بساحة المخفية[25] .

---

(24) يمكن مشاهدة حلية كُناوة بمتحف البطحاء بفاس .

(25) إفادة شفوية .

وفي منتصف شعبان ، كان يقام موسمهم السنوي ، خارج باب فتوح ، في مكان يدعى شريج (صهريج) كناوة[26] ،وكان عبارة عن ذبائح ورقصات. وخلال كل هذا الشهر ، كانوا يذهبون ليلاً من حمام عمومي إلى آخر ليقيموا حفلة التطهير واكتساب رضى جن المكان .

لكنه يجب البحث عن أهم نشاطهم في جانب آخر ، ذلك أنهم كانوا قبل كل شيء عرافين ، ومتطببين ، ورقائين ، إذ لم يكن يعزى لهم التصرف مع الجن فقط ، ولكن أيضاً مع العفاريت . وفعلاً ، كانوا يناجون أشخاصاً شياطين كسيدي إبراهيم ، وسيدي ميمون ، وسيدي حمو ، وللاَّ ميرة ، والسلطان سمهروش[27]؛ فكان الناس يلجؤون إليهم إذا ما اعتبروا أنهم أمام حالة استحواذ ، أو فقط أمام حالة مرض عصبي[28] . كانت النساء على الخصوص هن اللائي يستدعينهم ، لكونهن أقل اهتماماً من الرجال بسنة الإسلام . كانوا يدخلون حتى عند الأسر الأكثر احر وتقوى ، تستحضرهم إماء سود يُنوهنَ لدى سيداتهن بفضائلهم وقوتهم ؛ بالإضافة إلى أنه يجب التذكير بأن الدم الأسود كان موجوداً في عدد كثير من العائلات البرجوازية ، وأنه من جراء هذا ، ربما كانت صلات غامضة اختيارية تلعب دورها هي الأخرى . وهكذا ، فقد اكتسب كُناوة شيئاً فشيئاً بالمدينة ، كمثيلاتهم الخطابات وبواسطة النساء ، تأثيراً لا ينكر .

(26) برونيل ، المرجع المذكور ، ص . 165 .

(27) ميشو- بلّير ، المرجع المذكور .

(28) انظر بعض المعلومات عن جلسات الرقية عند برونيل ، المرجع المذكور ص . 163 - 164 .

الفصل الخامس

5/8 التدين الفاسي

لم تكن ممارسة الفرائض ، والأعياد الدينية ، وتقديس الصلحاء ، والانتماء إلى الطرق الصوفية ، التظاهرات الجماعية الوحيدة للتدين بفاس .

ففي آخر القرن التاسع عشر اتفق أن فاسيا يدعى ابن حيون أصيب بمرض خطير ، وفزع من صمت الليل ، فأسس قبل موته منظمة « رِفاق المرضى»[1] للتخفيف من وحشة الليل على من يتألمون . كانوا عشرة مؤذنين يتعاقبون خلال الساعات الخمس الأخيرة من الليل في صومعة جامع القرويين على ترديد بعض الأذكار ، وكان آخرهم يرفع مشعل الفجر . ولمّا كانوا يتتابعون دائماً بنفس الترتيب ، كان المرضى يعرفون الساعة بمجرد سماع أصواتهم ويحسون بانتعاش بسبب هذا الوجود الخفي التقي . كان ثلاثة مؤذنين يفعلون نفس الشيء في منارات ضريح مولاي إدريس ، وجامع الرصيف ، وجامع الأندلس ، بالنسبة لأنصاف الساعة الثلاثة الأخيرة من الليل فقط .

وكانت هنالك شعائر أخرى لا تتفق كثيراً مع السنة . فعندما يستمر الجفاف وتقام في البادية كلها تجمعات لطلب الغيث[2] ، كان أهل فاس

(1) أوبان المرجع المذكور ، ص 271 - 272 ، ول . هارّيس ، المرجع المذكور ، ص . 127 .

(2) بيارني ، إيثنوكْرافيا ، ص 142 ، وهنا وهناك .

يشاركون في ابتهال الفلاحين : فكان الفخارون هم أول من يأتون للتوسل إلى مولاهم سيدي ميمون الفخار(3) ليشفع لهم لدى العلي القدير حتى ينزل المطر . إذا كان الفخارون يطالبون بالمطر مستشفعين بمولاهم الصالح ، وهم في حاجة إلى الصحو من أجل أعمالهم ، فإن ذلك يدل على حالة استعجال ، ومن المفروض أن الله يستجيب دعاءهم .

وإذا استمر الجفاف ، كان الأطفال المنتمون إلى تلمسان(4) يذهبون بطلب من المخزن ، للبحث عن أحجار مستديرة ملساء (الصمّ) مثل التي توجد في مجاري الأنهار . كان عليهم أن يلتقطوا منها 70.000 يضعونها في 70 كيساً ، ويتكون موكب يذهب إلى ضريح سيدي علي بن حرزهم(5) لقضاء الليل في الدعوات . كانوا يرتلون خاصة : ﴿ وهُو الذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ويَنْشُرُ رَحْمَتَه ، وهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴾(*) . وفي الصباح كان الموكب يتوجه إلى واد سبو فيرمي الأكياس في النهر، ويطلب العون من مولاي إدريس.

وفي حالة اليأس ، كانوا يلجؤون إلى صلاة الاستسقاء التي كان بالإمكان أن يترأسها السلطان نفسه . لم تكن تتضمن سوى ابتهالات إلى الله تعالى ، لا يخالطها أي عمل سحري خفي . وهنا أيضاً كان ستار خفيف من

---

(3) وحسب **سلوة الأنفاس** (جزء 2 ، ص 4) ، كانوا يلجؤون كذلك إلى سيدي الحاج بودرهم ، الذي كان قبره بجوار قبر سيدي ميمون الفخار . واليكم رواية المؤلف : « ولما ضاق الحال بالمسلمين من حبس المطر وخيف على الزرع اجتمعوا وجاؤوا إلى الشيخ سيدي محمد ـ رضي الله عنه ـ وقالوا له : أردنا أن نستسقي وأردنا منك أن تخرج معنا ، فقال لهم : على بركة الله . فخرجوا حتى إذا كانوا بباب الفتوح توجه الشيخ ـ رضي الله عنه ـ لزيارة الشيخ سيدي الحاج بودرهم ـ وكان يكثر من زيارته ـ حتى إذا بلغ ضريحه التفت إلى أصحابه وقال : أعطوني أشرب ، فأتوه بقلة فشرب منها ورمى بها إلى السماء فرجع الشيخ ورجعوا وبات المطرُ الكثير في تلك الليلة . . . » .

(4) كانوا يقصدون أهل تلمسان الذين كانوا يعتبرون منذ أن هاجروا مختارين ، كلاجئين محترمين ، وكمجاهدين ، وبذلك كان لدعواتهم قيمة خاصة وفعالية .

(5) انظر عن هذا الأثر ما سبق ، الكتاب 2 ، الفصل 2 .

(*) الآية 28 من سورة الشورى .

الإسلام يغطي أحياناً شعائر قديمة جداً .

وهناك اعتقادات باطلة لم تتستر حتى بهذا اللباس الرقيق للسنة ، كأعياد حاكوزة والعنصرة . كان العيد الأول المطابق لفاتح يناير من اليومية اليوليانية مناسبة للتأنق في الطعام ، حتى كان المستطيعون يغرقون في الأكل والشرب خلال أربعة أيام ، يأكلون بالأخص الفطائر المحلاة[6] . أما العنصرة ، فكان يُحتفل بها في الصيف[7] . كانت النساء والأطفال يتنافسون في رش جميع مَن يلاقونهم بالماء ، بدون أن يتشكى أحد من ذلك ، وذلك من أعلى سطوح المنازل أو في الأزقة . ويُحكى أنه في القديم - وكم يقال عن القديم ! - لم يكن حتى الباشا نفسه والموظفون السامون للمخزن ينجون من هذه الرشاشات المسالمة[8] .

وأخيراً ، يمكن أن تذكر بفاس ، كغيرها من الأماكن ، اعتقادات باطلة تتعلق بجميع أعمال الحياة ، لم يعرف لها بعدُ أحدٌ لا معنى ولا أصلاً . لماذا كان يوم الثلاثاء يُعتبر يوم شؤم ، ينبغي ألا ينجز فيه شيء مهم[9] ؟ لماذا كانت الديكة البيضاء مرغوباً فيها بصفة خاصة ؟ لماذا كانت تعزى لحمر الشعر فضيلة مداواة بعض الأمراض ؟ ذلك إرث قديم تتداوله المجموعات البشرية جيلاً بعد جيل ، دون أن يمكن القول هل يتعلق الأمر بمجرد عوائد آلية تعممت واتخذت شيئاً فشيئاً مدلولاً خارقاً للعادة ، أو بأعمال واعية كل الوعي ومكيفة مع هدف واضح ، لكنها أفرغت من محتواها مع مرور الزمن وفقدت كل معنى .

* * *

---

(6) بياري ، إيثنوكرافيا ، ص . 84 وما بعدها .

(7) في 7 يوليوز 1903 : انظر أوبان ، المرجع المذكور ، ص . 440 .

(8) يقارن هذا العيد بشعائر عيد الحصاد في الملاح .

(9) إذا حدثت وفاة يوم الثلاثاء ، قيل . « جنازة متوعة » ، أي سيموت أحد أفراد عائلته في نفس السنة . (بياربي ، إثنولوجيا ، ص . 111) .

إن تظاهرات التديّن الجماعية الآنفة الذكر (الدعوات في الهـواء الطلق ، وصوم حاضرة بكاملها) لا بد أن تثير شعورنا نحن الفردانيين في الشؤون الدينية . إنها الشهادة القاطعة على اندفاع إجماعي نحو الألوهية .

وفضلاً عن هذه المواسم التي كانت تحتل مكانة كبرى في حياة الفاسيين ، يجب اعتبار أعمال التدين الفردية التي يمكنها أن تعطي ، أكثر من أي علامة أخرى ، فكرة عن التعرف على الحالة الروحية لفئة بشرية ، لأنها لا تتضمن حصة الآلية والتقليد بدون الروح المرتبطة بكل عمل جماعي . إذا سبق للمرء أن عاش بفاس ، فإنه لا يمكنه ألّا يتأثر بجو التدين الذي يشمّه فيها : ففكرة اللّه موجودة في كل مكان ، من أدنى أعمال الحياة ، ابتداء من عبارات المجاملة التي يتردد فيها اسم اللّه باستمرار ، وفي جميع طبقات المجتمع ، إلى الحكم المقتبسة من القرآن أو السنة النبوية ، التي تشكل شبه لوحـة خلفية للمحادثات اللبقة . إذا كان تاجر ينتظر الزبناء ، أخذ يسبِّح وهو يقرأ دعوات صالحة . يُرى المؤمنون في كل وقت من أوقات النهار يدخلون المساجد ، لا الرئيسية منها فحسب ، ولكن في المصليات العديدة التي تصادف في جميع الأحياء . وهؤلاء النساء اللواتي يتعلقن بضريح المـولى إدريس ، وهن منقطعات تماماً عما يحيط بهن ! وهذه الأنظار المنورة كلياً بإيمان لا يشوبه شيء في ليلة السابع والعشرين من رمضان !

ولأن يكون هنا أو هناك مجرد نزعة تقليدية، وألّا يكون الفاسيون أفضل من معظم الناس ، فلا أحد يستغرب ذلك . لكن ذلك لا يستطيع أن يغير انطباع التديّن العميق المنبثق من فاس ، تديّن متوازن بسيط ، بدون حركات تظاهر ، وبدون اندفاعات مفرطة ، عادة لطيفة في مخالطة الأشياء الغير الطبيعية أصبحت معها شبه طبيعية . عندما نقرأ كتاباً في التراجم ، مثل **سلوة الأنفاس** ، كثيراً ما نجد فيه بيانات من هذا النوع : « كثيراً ما كان يخرج من داره في نصف الليل ، فيذهب إلى الحمام فيتوضأ ثم يقصد زيارة مولاي

إدريس . . . ثم يعود إلى داره »[10] .

كما نجد أيضاً : « ولا تجده ثلث الليل الأخير نائماً قط صيفاً ولا شتاء ، بل يخرج لضريح مولاي إدريس - رضي اللّه عنه - ويشتغل بقراءة الدلايل هناك . وكان زَوَّاراً للأحياء والأموات ، ملازماً لكراسي العلم والوعظ . وكانت له حانوت بالرصيف يبيع فيها الخضر ، ويسكن بجزاء ابن برقوقة . وكان من أصحاب الشيخ سيدي محمد بن يوسف الحسناوي ملازماً له لا يفارقه قط . وبلغ به - رحمه اللّه - عام الخمسين الجهدُ الجهيد من الجوع حتى ظهر به أثره ، ولم يسأل من أحد شيئاً لكثرة صبره وشكره . تُوفي عن سن عالية ، ودفن بزاوية شيخه سيدي محمد بن يوسف المذكور ، وكانت له جنازة عظيمة حفيلة ، حضرها أهل الخير والصلاح والأشراف والعلماء وجميع المنتسبين . ورأى بعض أهل الخير رؤ يا تدلّ على حضور النبي - صلى اللّه عليه وسلم - لموته »[11] .

* * *

عندما نتأمل في منظر فاس من أعلى هضبة قبور المرينيين ، تستلفت الأنظار بقوة القبةُ الهرمية التي تغطي قبر مولاي إدريس ، وكذا الخطوط المتوازية لسقوف جامع القرويين . وعندما نقرأ كتب تاريخ أو تراجم نكاد نجد في كل صفحة ذكر جامع القرويين .

ويمكن لهذين المعبدين معاً أن يلخصا تدين المدينة : أحدهما هو ملجأ العلم الإسلامي ، البوتقة التي انصهر فيها الفقهاء ، ومعهد السنة الجافة قليلاً والشكلية للمغرب الأقصى ، إنه يمثل مظهر الدماغ للتدين الفاسي . إن ضريح المولى إدريس هو مركز التدين الشعبي الذي لا يكترث بمذهب ، لأنه

---

(10) من ترجمة سيدي عبد القادر بن أبي حيدة الفاسي (**سلوة الانفاس** ، جزء 1 ، ص. 335) .

(11) من ترجمة سيدي محمد بن عطية التلمساني ، المتوفى حوالي 1750/1163 (**سلوة الأنفاس** ، جزء 1 . ص. 353) .

لا يعرفه جيداً ، ولأنه الذي يفزعه بعض الشيء قدرة اللّه على كل شيء وعظمته ، فيشعر بالحاجة إلى وسيط ليُسبِّح بحمده ويقدِّس له . إن التدين في مـولاي إدريس أكثر عاطفية ، وأكثر مادية . ينتصب المعبدان جنباً لجنب تقريباً ، كأنهما يشهدان بقرابتهما الوثيقة في الإسلام المغربي .

ذلك لأن التدين يكتسي فعلاً بفاس ، كغيرها من الأماكن وليس في البلاد الإسلامية فحسب ، مظاهر متنوعة جداً حسب المزاج ، والأصل ، والثقافة للأفراد . إلاّ أن له كذلك سمات مشتركة عديدة .

فهو قبل كل شيء منتشر عالمياً ، ليس فحسب أنه لا توجد بفاس لامبالاة في الشؤون الدينية ، ولكن حتى الفتور. لا نجد بها أمثال أولئك المسيحيين الذين ، بعد تعميدهم وتقربهم لأول مرة ، لا يعودون يذهبون إلى الكنيسة إلا بمناسبة الأعياد الكبرى ، على أن يوافقهم ذلك . إن التربية ، والأسرة ، والبيئة الاجتماعية بفاس تتعارض مع مثل هذه الطريقة في العبادة ، مهما كانت الطبقة الاجتماعية التي نواجهها .

وهذا التدين العالمي هو أيضاً تدين هادئ . إن المغرب ، خلافاً لكثير من البلدان الإسلامية الأخرى ، لم يعرف صراعاً دينياً منذ تاريخ سحيق . فمنذ العهد المرابطي ، اضمحلت كلياً الفرق الضالة والبدع ، ولم يكن حتى تعايش بين مذهبين سنيين ، كما هو الحال بالجزائر وتونس ، فالمـذهب المالكي هو الوحيد المتبع منذ ما يقرب من عشرة قرون . بل يبدو أن فاساً وجدت توازنها الديني قبل سائر المغرب . فلا يُلمس في أي وقت من تاريخها الطويل أثرٌ للزندقة أو لاختلافات عقدية من شأنها أن تفضي إلى اضطرابات فيها شيء من الخطورة . لقد تطورت الحياة الدينية لمدينة إدريس تحت تأثير الرصانة ، بعيدة عن الشكوك والتمزقات التي عرفتها جهات أخرى من العالم الإسلامي .

لا شك أن هذا راجع إلى أن الفاسيين ، سواء في الميدان الديني أو

غيره ، لم ينفصلوا عن اعتدالهم الطبيعي . فلا وجود عندهم لمتصوفين كبار ، كالحلاج ، ولا لمصلحين دينيين ، كابن تومرت ، يريدون أن يفرضوا مذهباً مطلقاً على جميع السكان ؛ بل تديّن قوي ، شديد ، عند الجميع ، غير عاجز أبداً عن اندفاعات صوفية ؛ لكن قبل كل شيء « إنسانية ، سلسة القيادة » ، أكثر تميزاً باستمرارها ومساواتها منها بتناقضاتها ، ومتسامحة لا مع أتباع الديانات الكتابية الأخرى فحسب (لا يسعنا أن ننسى بأن ميمون ، حسب الرواية التقليدية ، درس بجامع القيروان، وأن الكاهن القانوني كلينار قضى شهوراً بفاس دون أن يُخفي وضعيته) ؛ ولكن أيضاً مع مختلف الميولات للإسلام المغربي ،مُولية نفس العطف للصوفية والمتنورين الوديعين ، والفقهاء المالكيين ، وأتباع الصالحين ، والعامة المتمسكين جهلاً باعتقادات عتيقة يغطيها فحسب ستار إسلامي خفيف . المهم في نظر الجلّ أنه ، في كل يوم ، وفي كل ساعة تقريباً ، تؤكد آلاف النفوس إيمانها باللّه الأحد ، وأنه تتصاعد دوماً من معابد فاس المتعددة ، في نبرات من اليقين ، ألحان تتوجه إلى اللّه تعالى بالحمد ، ويقوم فيها كل واحد بدوره مع نفس الإيمان حسب إمكاناته .

الخـــاتـمة

إن مدينة فاس قد تغيرت كثيراً منذ عهد مولاي عبد العزيز ومولاي حفيظ . أخذت تتطور ، على إثر الاتصال المباشر بالحضارة الأوروبية ، ببطء أولاً ، ثم بسرعة وعمق أكثر . وقد خُصص كتاب لهذا التطور[1] لعله يعطي حصة مفرطة بعض الشيء للإحصائيات ، أي للأحداث الاقتصادية على حساب الأحداث الاجتماعية ؛ لكن عيبه الرئيسي هو أن عمره يناهز خمس عشرة سنة ، تطورت فاس خلالها حسب وتيرة سريعة .

* * *

إن المنظر العام للمدينة،سواء من رُبى الشمال أو ربى الجنوب قد طرأت عليه تغييرات محسوسة منذ 1912 . فالخضرة تركت المجال للبناء . حقاً إننا نلمح هنا وهناك ، داخل الأسوار ، مجموعات من الأشجار ، لكنها تنقص سنة بعد سنة؛ فإذا كانت بساتين فاس ما تزال موجودة بفضل اللّه ، فإنها توجد خارج الأسوار . وحتى فاس الجديد قد تغير منظره هو الآخر . لقد حلت محل المدينة ـ الثكنة ، والمدينة ـ الإدارية للعهد القديم حاضرةٌ كثيرة السكان جامعة لأجناس مختلفة ، أقل ثروة بكثير من جارتها المدينة الإدريسية ، لكنها أكثر تمدناً مما كانت عليه سالفاً،وأكثر دكاكين وسكاناً مستقرين . ومنذ الآن ،

---

(1) ح لوكا ، فاس في المغرب الحديث .

تتدفق المدينة كلها خارج أسوارها ، وتنشأ هنا وهناك مدن من القصدير . تتوقع التصميمات الحضرية إحداث أحياء إسلامية جديدة من طراز حديث ، وحتى مدينة إسلامية جديدة، ستكون هي الخلية الرابعة الإسلامية بفاس ، إذا ما رجعنا إلى التاريخ .

كل هذا يبين بوضوح أن سكان فاس المسلمين قد تكاثروا بوفرة : كانوا أقل من 100.000 ساكن سنة 1912 ، فصاروا 125.000 سنة 1936 ، و 165.000 سنة 1946 . لقد تغيرت الأرقام ، وكذلك تشكيلة السكان ، لأن التزايد لم ينتج فقط عن غلبة الولادات على الوفيات ، ولكن أيضاً عن هجرة هامة . ما زالت البوادي المجاورة تعطي إمداداً كبيراً من النازحين الجدد ؛ لكن جنوب المغرب (تافيلالت ، ودرعة ، وسوس) يرسل الآن إلى فاس وحدات كبيرة من العمال اليدويين ، والعمال المتخصصين ، وأصحاب الدكاكين الصغيرة ، بينما كان إمداده في القديم محدوداً جداً . يجد هؤلاء المهاجرون المتضورون جوعاً في الغالب مكاناً بالأحرى في فاس الجديد ، وفي بعض الأحياء الدائرية بالمدينة ومدن الصفيح ؛ أما قلب المدينة القديمة فيبقى مقفلاً في وجوههم.

وتزايد أيضاً عدد السكان اليهود في نفس النسق، مرتفعاً من 8.000 نسمة سنة 1912 إلى 14.000 نسمة سنة 1946، لكن فقط بعامل الفائض في الولادات، لأن الإمدادات الخارجية طفيفة . وإذا كان اليهود متضايقين في ملاح 1912 ، فإنهم لم يعدوا يطيقون الإقامة فيه ، وإن كان قد وُسع على أي حال . فتدفقوا على فاس الجديد (في أحياء بوطويل ، وسيدي بو نافع والزبَّالة) وعلى المدينة الجديدة بصفة خاصة .

نشأت فعلاً ، مدينة جديدة[2] لتؤوي السكان الأوروبيين الذين جاؤوا

---

(2) إن كلمة المدينة الجديدة هي التسمية الرسمية ؛ لكن المسلمين بفاس يسمونها دار دبيبغ ، لأن البناءات الأولى شيدت بجوار المعسكرات المقامة حول قصبة دار دبيبغ التي بناها مولاي عبد الله .

ليستقروا بفاس بعد إقامة الحماية . أقام هؤلاء السكان من نوع جديد في البداية في الأرباض الموجودة (الأحياء الغربية للمدينة القديمة ، وفاس الجديد ، والملاح) ، إلّا أنهم سرعان ما وجدوا أنفسهم في ضيق ، فطفقوا يقيمون شيئاً فشيئاً في ضاحية من نمط أوروبي شيدت جنوبي فاس الجديد ، في الطَّرف الشرقي لسهل سايس . أسست هذه المدينة سنة 1917 ، ونمت خاصة ابتداء من 1925 ، وهي الآن تؤوي حوالي خمسة عشر ألف أوروبي ، أغلبهم فرنسيون .

إن تزايد عدد السكان ، وتكاثر الضواحي ، وإدخال وسائل النقل الحديثة طرحت مشاكل مرور لم يوجد لها بعدُ الحل المعقول . لقد أصبح الآن مرور السيارات ممكناً ، ليس بدون صعوبات وعراقيل ، في الملاح ، وفاس الجديد ، وبعض الأحياء الدائرية للمدينة (في حيي الفخارين والدوح) ، لكنه ما زال ممنوعاً في كافة المدينة من جراء ضيق الأزقة وطبيعة الأرض . وحيث إن فاساً تتكيف أكثر فأكثر مع الطرق الحديثة للحياة ، فإنه يتحتم عليها أن تحل عاجلاً هذا المشكل الصعب ، ولكنه أساسي .

وهناك مسألة أخرى معلقة أخرت الحربُ إيجاد حل لها ، لكنها ستطرح من جديد، بمجرد رجوع اقتصاد السلم، هي مسألة اقتصادية الصناعة. فالحِرَفية القديمة لفاس لم تتكيف مع الاقتصاد الحديث ، بالرغم على جمال منتجاتها وجودتها الحقيقية . فهي تنتج قليلاً جداً ، بأثمنة باهظة ، كما أن جودة صنعها ، في عدة مجالات ، لا تستطيع أن تنافس جودة التقنيات الأوروبية . فالتحول في طريق الإنجاز ، إذ صارت المعاصر العتيقة ذات المدارات ، ومؤسسات نشر الخشب بالأيدي تختفي أمام المعاصر والمناشر الميكانيكية ، وبدأت أيضاً الطواحن المتحركة بالكهرباء تحلّ محل الطواحن الرائعة المتحركة بشلالات واد فاس . وليس هذا سوى بداية . فيجب أن ننتظر دخول الصناعات الجوهرية - صناعات الجلد والنسيج - باكراً في نفس الطريق ، وذلك يقتضي رؤوس أموال وتدريب اليد العاملة . لا شك أن رؤوس

الأموال ستقدم من طرف التجارة الفاسية التي سرعان ما تكيفت مع نسق المعيشة العصرية والتي لن تلبث أن تتخلى عن لا مبالاتها التقليدية إزاء الحرفية ، اقتداء بالتجار الكبار في تونس وصفاقس(3) . أما تدريب اليد العاملة فإنه يهيأ إلى حد مّا في المدارس المهنية ، وسيهيأ أكثر فأكثر عن طريق تنمية التعليم الابتدائي الذي يرمي إلى إعطاء الأطفال تكويناً أساسياً جديداً وعقلية جديدة .

* * *

وبالفعل فإن التغيرات الاقتصادية الجارية مصحوبة حتماً بتغييرات فكرية . إن فاساً تملك منذ الآن مدارس ابتدائية للبنين والبنات ، وبعض الدروس المهنية ومؤسسة ثانوية فرنسية إسلامية ، هي ثانوية مولاي إدريس ، بالإضافة إلى أن الشبان المسلمين يستطيعون متابعة دروس الثانوية المختلطة الفاسية الكائنة بالمدينة الجديدة ما زال كل هذا غير كاف وبعيداً عن شكله النهائي ، إذ أن الكثير من الأطفال يجهلون النظام الفكري للمدرسة العصرية ، وليسوا سوى ميالين ،خاصة في الميدان التقني ، إلى اتباع الروتينية العتيقة . لكن ، عندما نقيس قدرة تكيف الفاسيين ، على مر التاريخ ، يمكننا التأكد من أن الأجيال الصاعدة ستدرك أهمية تعليم مساير لحاجيات الزمان ؛ وبالتالي ، فإن قدماء المدارس العصرية ، وقد صاروا كثيرين ، موجودون هنا للدفع في هذا الاتجاه .

وحتى جامعة القرويين نفسها تميل إلى التطور ، لا لكونها تترك أهدافها السلفية لتنطلق في دراسة العلوم الدنيوية ؛ لكن السلطة الشريفة وبعض علمائها يريدون أن تُقبل على اكتساب العلم بكل معنى الكلمة بطرق مجددة سبق أن برهنت عن قيمتها في جامعة الأزهر بالقاهرة أو في الزيتونة بتونس . إن

(3) لابد من الإشارة إلى أن العديد من التجار الفاسيين استثمروا رؤوس أموال في المعاصر والطاحونات الميكانيكية .

مثل هذه الانقلابات لا تحدث بدون مقاومة ، فالعادة ، في مجال الاعتقادات الجوهرية ، سريعة الحساسية وتخشى أن تنزلق التجديدات إلى الثورة . لكن وتيرة العالم بأسره ومثال البلدان الإسلامية بالشرق الأوسط أقوى من ألا تضعُف هذه المقاومات مع مرور الزمان .

وإلى جانب الاجتماعات التقليدية التي ما زال المسنون يتحدثون فيها برصانة ، مرصعين أحاديثهم بحكم دينية ، تُعقد الآن اجتماعات الشبان ـ أولـئك « الشبان » الذين يناهز أكبرهم سناً الخمسين من عمرهم ـ اجتماعات حامية ، متحمسة أحياناً ، تحتل فيها السياسة الدور الأول ، ويتردد صداها في الحاضرة ، ويتحدث عنها ، وتشرح : « فالشبان » في وضع توجيه الرأي العام الفاسي ، ومن ثم الرأي العام المغربي .

ونظراً لكون فاس أشعت أكثر بكثير مما كانت عليه قبل الحماية : سواء في المخزن بالرباط ، أو في التجارة بالدار البيضاء ، فإن أهل فاس يحتلون وظائف دينية وإدارية في عدة نقط من المملكة الشريفة ، متكيفين بسرعة ، أقوياء بثقافتهم الإسلامية التقليدية وتعليمهم العصري ، حاذقين في استغلال الوضعيات الطارئة وحياكة المناورات ، وهم ميالون إلى أن يشكلوا الأغلبية في نخبة مغرب اليوم . إنهم ليسوا محبوبين في كل مكان ، لكنهم ينجحون دائماً تقريباً في أن يفرضوا أنفسهم ، بفضل روح مبادرتهم ومثابرتهم ، وأحياناً بفضل الاحترام والخوف اللذين يحدثونهما حولهم .

* * *

لهذه التغييرات في الأفكار حتماً انعكاسها على الأخلاق ، وهي تغييرات بطيئة الحدوث، لأن العادات اليومية هي الأقـوى ثباتـاً، لكنها إذا تحـركت تضخمت وتسارعت أكثر فأكثر . لقد استمرت نساء فاس في معيشتهن كأن شيئاً لم يتغير حولهن ، ومن جراء هذا ، بقيت الحياة اليومية تحت ثقل تقاليدهن الثابتة تقريباً ما عدا القليل النادر جداً على ما كانت عليه طوال

قرون ؛ لكنهن أيضاً لم يلبثن أن اتصلن بالعالم الخارجي ، بواسطة المدرسة ، والمذياع ، والسينما ، والأسفار ، والمعالجات الطبية ، ومستشفيات الولادة ، تحت تأثير أزواج متحضرين أيضاً . لقد تغير لباسهن في بعض جزئياته ، وكذلك أفكارهن حول عدة أشياء: لم يعد الأطفال يربون في كثير من العائلات الموسرة على الشكل القديم ، ولا يتم الزواج في بعضها تماماً كما كان عليه في القديم . ما زالت علامات تغيير جذري ضعيفة ، حتى إن عدداً كبيراً من الرحالة يخالون أنهم سيجدون بفاس حياة القرون الوسطى . وبالفعل ، فإن إطار التقاليد ما زال متيناً ، ليس كما كان عليه منذ عشرين عاماً فقط . إن ظاهرة التطور سائرة ، كيف ستنمو؟ إلى أين ستنتهي ؟ المهم هنا هو أن نعرف أنها بدأت وأنها لن تتوقف في وقت مبكر .

إذن ، أخذ الفاسيون يستجيبون لحضارة مخالفة جداً لحضارتهم . إن فاساً ، بالرغم عن الظواهر ، حاضرة في غمرة التطور على غرار أخواتها الإسلامية في الشرق . هل يعني هذا أن مظهرها سيتغير كلياً وأنها ستصبح ، بعد خمسين سنة ، أو مائة ، ضائعة المعالم ؟ إن شخصية قوية مثل شخصيتها لا تضيع في عشرات من السنين ، ولا حتى في قرن ، وربما حتى إلى الأبد . قد يحدث يوماً مّا أن تصل الشاحنات إلى قلب المدينة وأن تتعاطى الفاسيات الأنيقات لعبة المضرب بسروال قصير أو يستحممن بلباس البحر « من قطعتين » ، الأمر الذي ليس من شأنه أن يغير روح فاس ، اللّهم إلا يعد امتزاج للسكان يستحيل توقعه .

ومهما تكن الظروف ، فإنه يبدو لي أن أهل فاس سيكونون دائماً معروفين ، دائماً شبيهين بأنفسهم ، بفضل ما اجتمع فيهم من أوصاف عدة تطبعهم بشبه سمة مميزة .

هي قبل كل شيء تقنية متقدمة للحياة المشتركة ، تساعدهم على أن يتضايقوا أقل ما يمكن ، وتجد تعبيرها في المراسيم التقليدية ، « القاعدة » ،

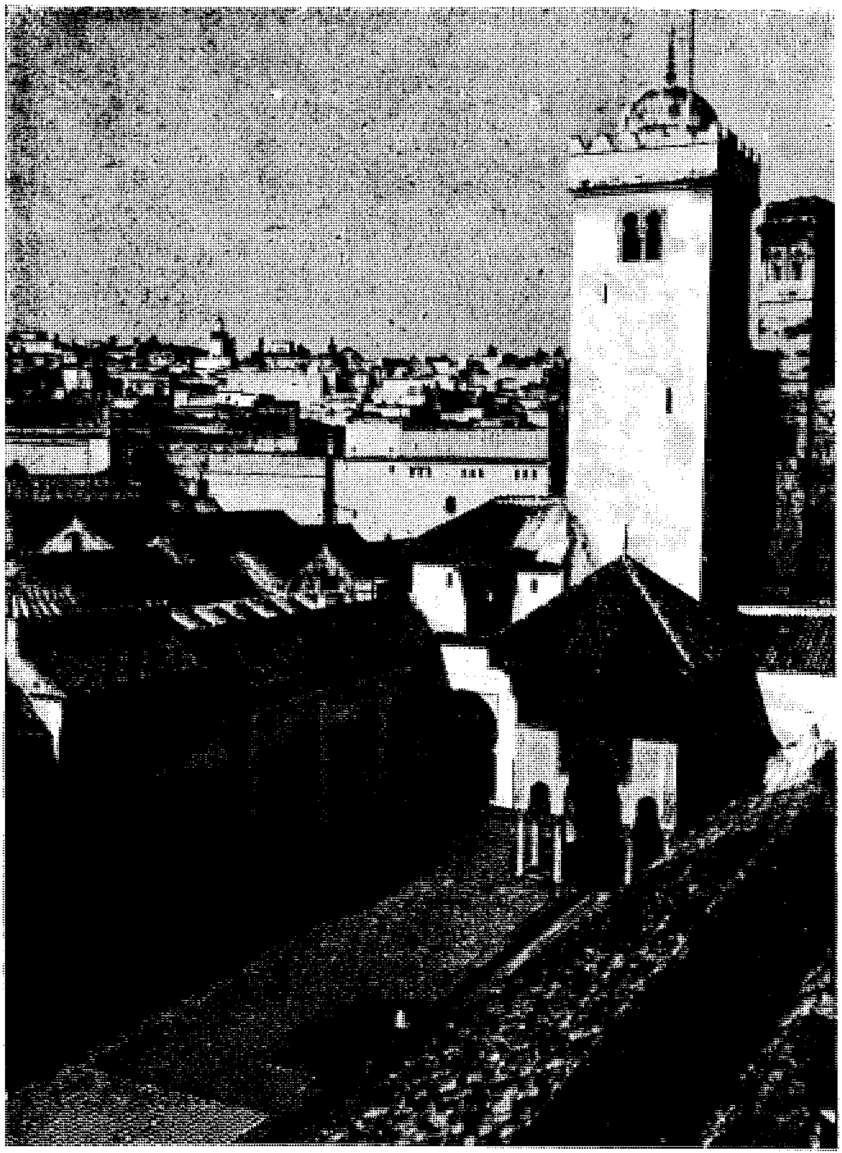
الموضوعة لجميع الاحتمالات العادية للحياة . لقد برهنت هذه المراسيم عن قيمتها ، ويمكنها أن تتغير في هذه الجزئية أو تلك ، لكنها لن تمس في مبدئها الجوهري ألا وهو التزام الفرد بتلطيف تفاعلاته الشخصية مراعاة للغير . وتتجلى خاصة في الآداب التي يحبها الفاسيون والتي تفضي طبعاً إلى الضيافة ولين الجانب . إننا كثيراً ما نجد أهل فاس متعجرفين ومنزوين . هذا صحيح بمعنى أنهم لا يستسلمون لأول وهلة إلى الغريب ؛ لكن إذا قُدم لهم هذا الأخير من طرف ضامن معروف ،أو إذا رأوه كيف يعيش وسبروا غور محاسنه ومساوئه ، واتخذوا حكماً لصالحه ، فإنه يعامل كواحد منهم ، مع تلك الخفة في العلاقات التي تُعتبر إحدى مفاتن المجتمع الفاسي ؛ فيصبح إذ ذاك عليه أن يخضع لقواعد مقبولة ، ويساهم بالمقابل في جميع المحادثات : لا يعودون يخشون التلطف أمامه بتلك « البذاءات » التي يحبونها كثيراً بفاس ، ولكنهم لا يستعملونها إلا فيما بينهم . وعلى النقيض من ذلك ، فإن سوء التربية ، وقلة الأدب لا يُحتملان لأنهما يُشكلان مخالفات خطيرة للقاعدة الاجتماعية ، وربما كانت أخطر المخالفات إذا اعتبرنا جوهر الأشياء : فويل للخشن ! لا مكان له هنا ، وإذا اتفق أن أصرَّ على البقاء تعرَّض لحادثات جد مزعجة : فالفاسيون ليسوا أولئك الذين يسمحون بمس خطير لنظامهم الاجتماعي دون معاقبة ، ويحسنون إيجاد تأديبات دقيقة ، لأن مكرهم عظيم ، وقد تكون سخريتهم قاسية .

إن المراسيم الفاسية مشبعة بالدين ، كجميع أعمال الحياة الفردية أو الحياة الجماعية . إنه تدين خالص بدون ريب ولا يجحده أحد ، كما رأينا ذلك آنفاً ؛ لكننا لا ننكر أنه معزز بالفكرة الصائبة أن المدينة الإدريسية، أكثر من أية حاضرة أخرى بالمغرب الأقصى ، هي ملجأ الإيمان ، والعلم الرباني ، والأخلاق الأكثر ملاءمة لمبادئ الإسلام . وسواء في ميدان الإيمان والأعمال الصالحة ، أو في كثير من الميادين الأخرى ، فإن الفاسيين يشعرون بأنهم يُتخذون قدوة ، لذلك يجب عليهم ألا يظهروا بأنهم أدنى من أنفسهم .

وأخيراً ، فإن أهل فاس في معظمهم يعرفون كيف يخلقون بين الميولات الكثيرة التي تعمل في صميمهم توازناً نادراً جداً في هذه الأرض المغربية النازعة بسهولة إلى المُغالاة . وإن حساسيتهم القوية جداً ، المقاربَة أحياناً لقابلية التأثر، لتنطلق بإدراك ثاقب للواقع وبقدرة على التكيف يستغرب منها ، لا سيما وأن حياة فاس لم تطرأ عليها تغييرات كثيرة طوال قرون . إن ذوقهم في الرفاهية وميلهم للرخاء يعادله ذوق لا يقل حِدةً في النشاط المفيد ؛ إن اهتمامهم بمتاع الدنيا يجد معادلاً نافعاً في احترامهم للأشياء الروحية ، ويعادل قابليتّهم المفرطة أحياناً للتأثر ذهن أساسي جيد يمكّنهم من ألا ينخدعوا بأنفسهم وليس أكثر بغيرهم ، بحيث إنه مع كل شيء إذا تركنا الإطراء جانباً ، يمكن اعتبار فاس كنجاح ، والمراهنة على أن هذا النجاح سيدوم ، لأنه يرتكز على مجموعة متناسقة من الصفات المساعدة على ازدهار الحياة في المجتمع .

لعل هذا كله ناتج عن مواهب طبيعية أو سماوية ، ولا يسعنا أن ننكر بأن فاساً استفادت منذ البداية من ظروف جغرافية استثنائية وثروات بشرية قيمة ثمينة ، الشيء الذي لا يمنع من كون الفاسيين عرفوا كيف يستغلون هذه الوضعية المفضلة ، لأنهم أحسنوا بذل الجهود الضرورية ، وخاصة في التنظيم ليعيشوا مجتمعين عيشة راضية ، ويكوّنوا كتلة في غاية التماسك والتلاحم والأصالة .

فَـاس قبل الحـمَاية في صُوَر



اللوحة 1

من اقدم آثار فاس : صومعة جامع القروين (القرن العاشر للميلاد)

وفي اسفل الصومعة جناح سعدي ، وهو نظير أجنحة فناء الأسد بحمراء غرناطة . ويوجد جناح مواز في الطرف الآخر للفناء .

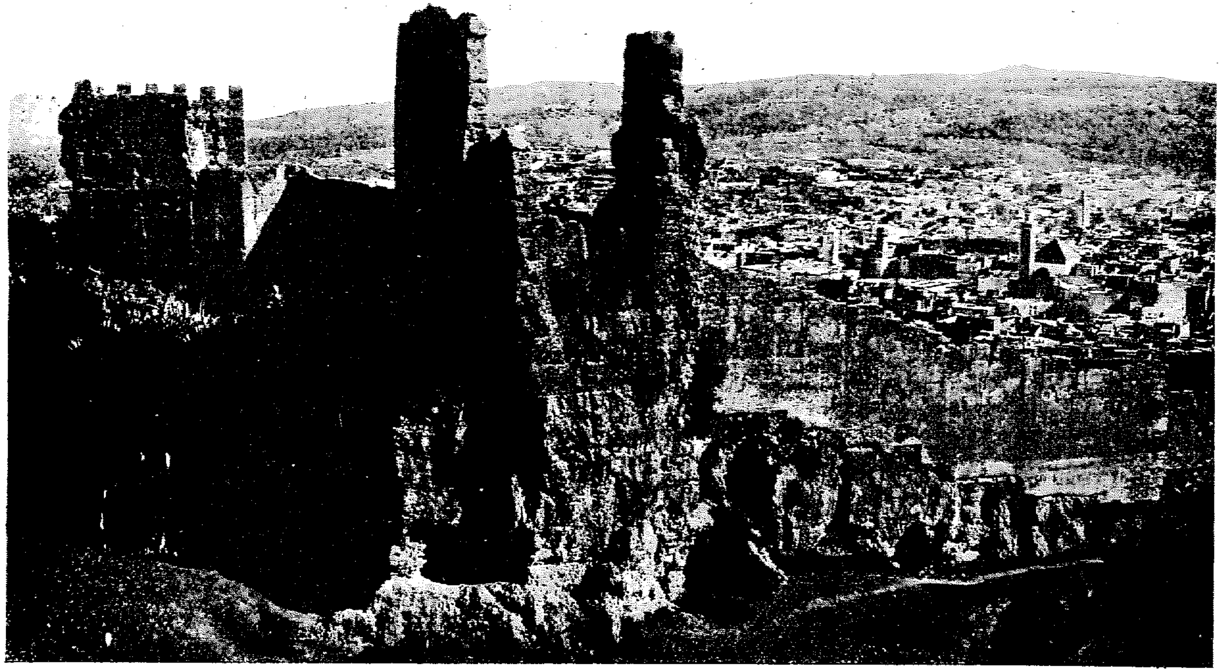
وإلى يمين الصومعة ، برج الفلكيين . وإلى اليسار قبب قاعة الصلاة .

وفي مؤخرة الصورة الأحياء العليا لعدوة القوريين .



اللوحة 2

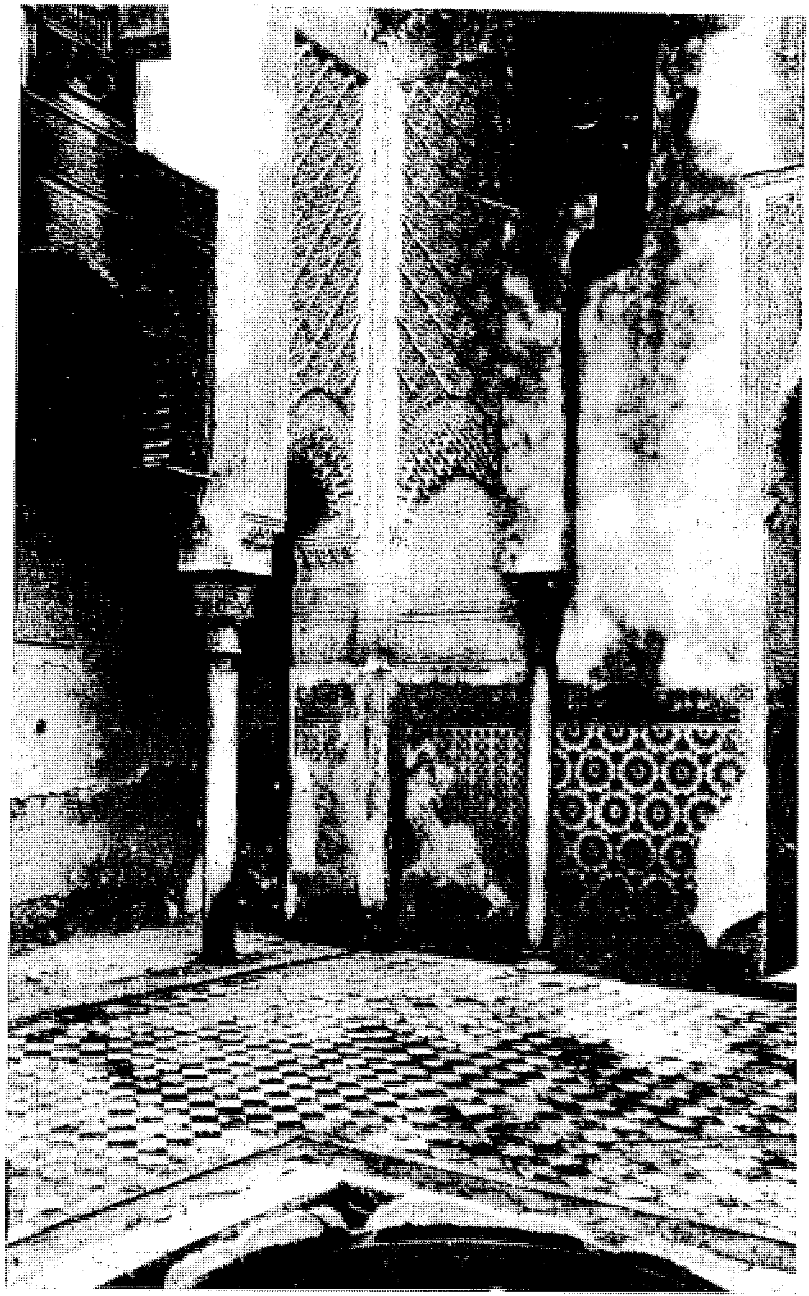
صومعة جامع الأندلس ، وهي شبيهة بصومعة جامع القرويين (القرن العاشر للميلاد) وباب الجامع ، الذي يشاهد هنا قبل ترميمه ، ينتمي إلى العهد المريني .



اللوحة 3

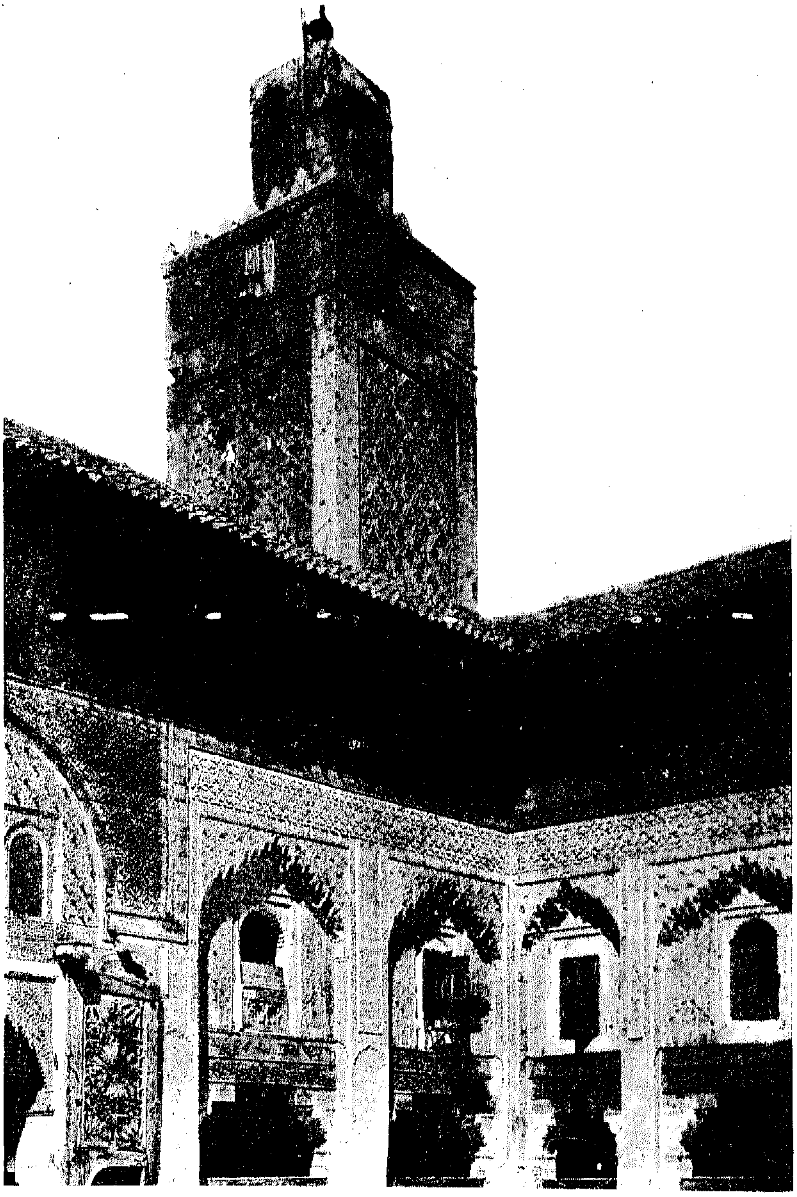
جزء من السور الموحدي بفاس (القرن الثالث عشر م .)

يشاهد جزء من عدوة القرويين ، ومن اليسار إلى اليمين صوامع كل من جامع القرويين ، وزاوية مولاي إدريس (وهي ملتصقة بالقبة الهرمية للضريح) ، وجامع الرصيف . وعلى الربوة المقابلة ، الجزء الجنوبي لعدوة الأندلس .



اللوحة 4

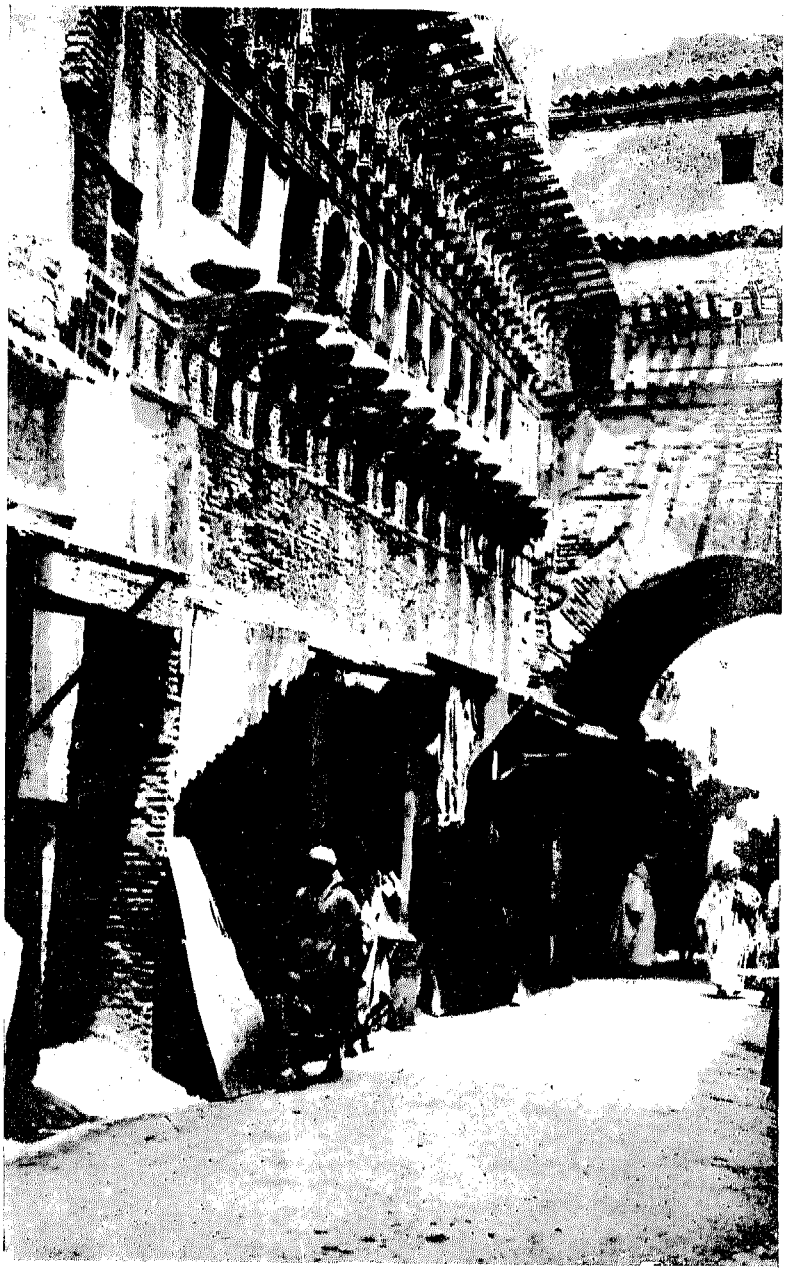
ركن من فناء مدرسة العطارين (من العهد المريني)
وفي الأعلى ، عن اليسار ، نافذة لحجرة أحد الطلبة .



اللوحة 5

فناء المدرسة البوعنانية وصومعتها .

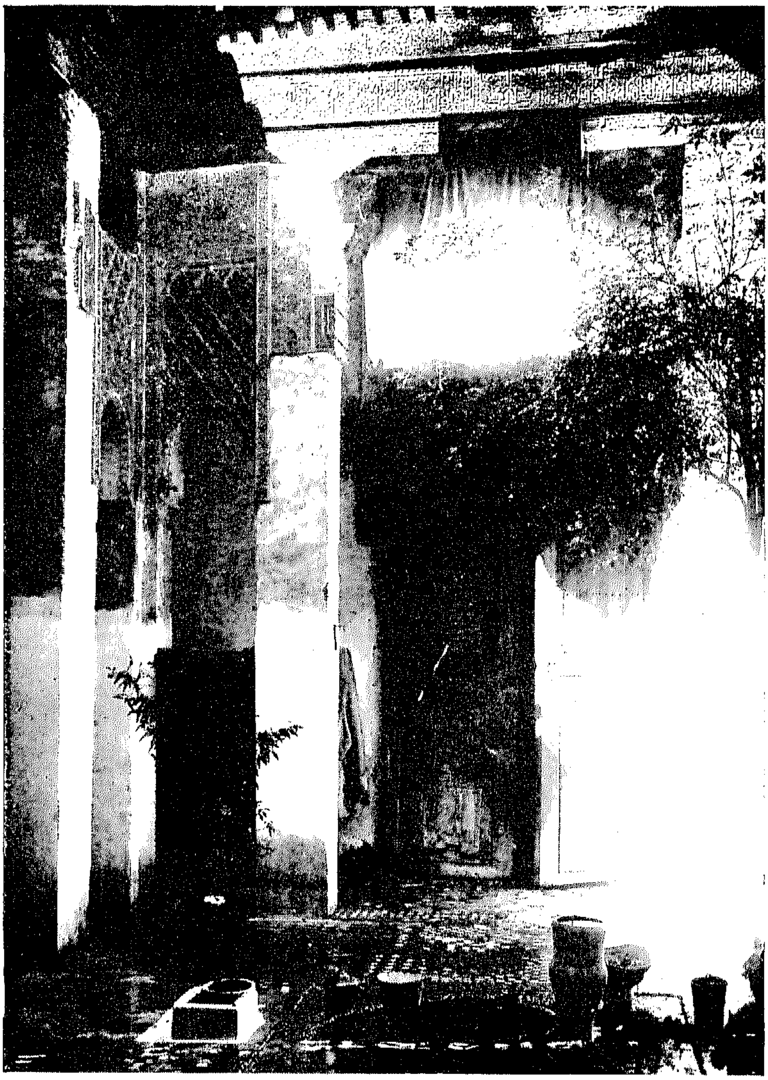
نشاهد هنا الواجهات الموجهة شطر الغرب والجنوب التي بقيت محفوظة بكيفية غريبة لكونها لم تتعرض إلا قليلاً لرداءة الطقس . وفي الطابق الأول ، نوافذ حجر الطلبة ، وإلى اليسار ، باب إحدى قاعات الصلاة .



اللوحة 6

دار الماكَانات (من العهد المريني)

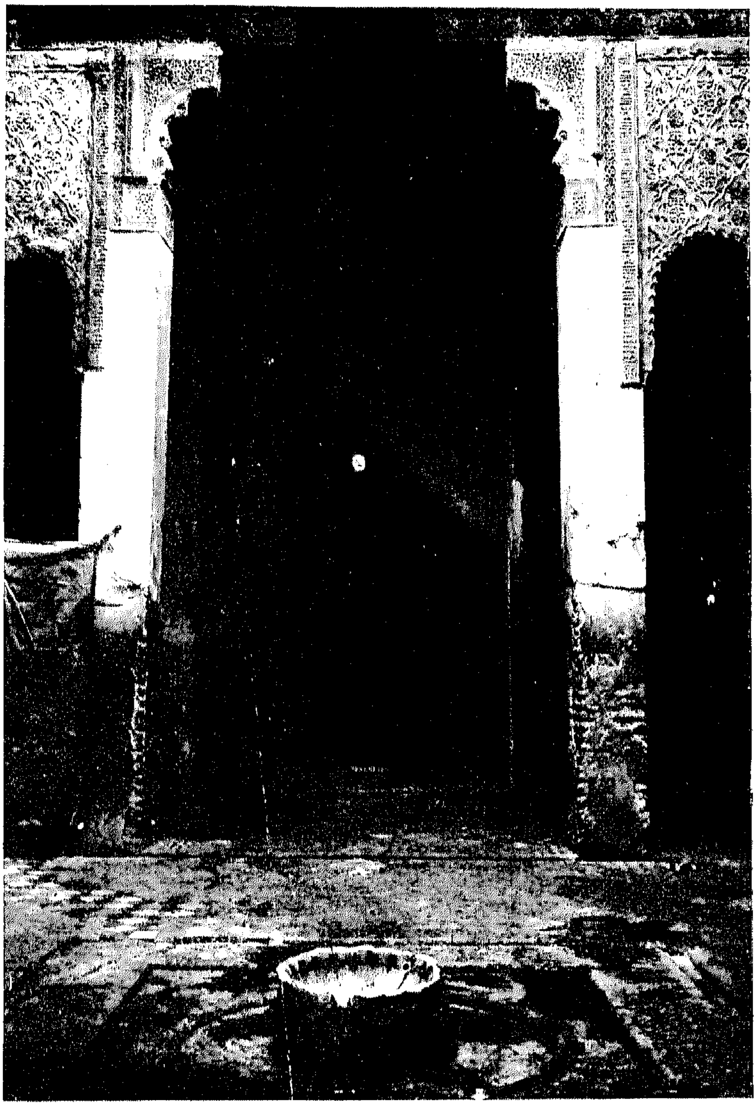
توجد المدرسة البوعنانية في الجانب الاخر من الزقاق . ونشاهد ، على مستوى الطابق الأول ، الصوانج البرونزية التي ربما كانت تستعمل لدق الساعات .



اللوحة 7

دار مرينية

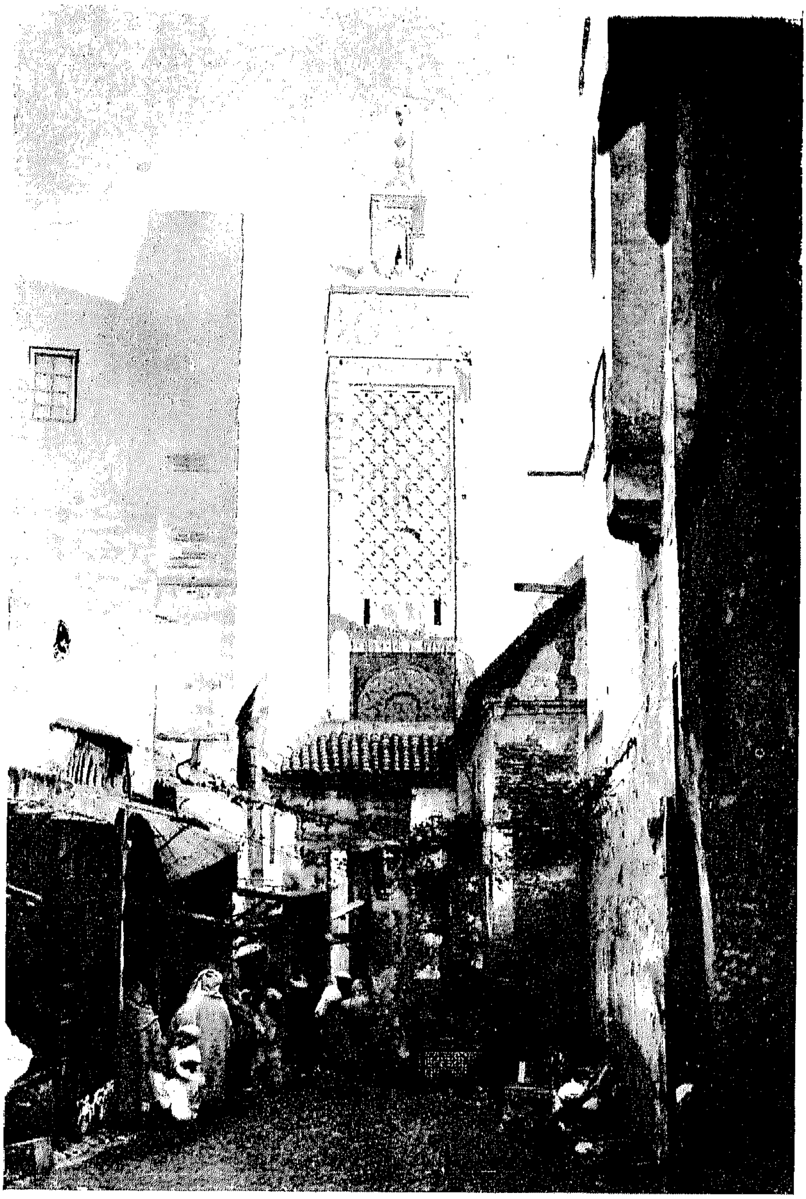
يقطن هذا المنزل حالياً أناس مساكين ، ينبغي مقارنة هذه اللوحة باللوحتين 85 و 86 .



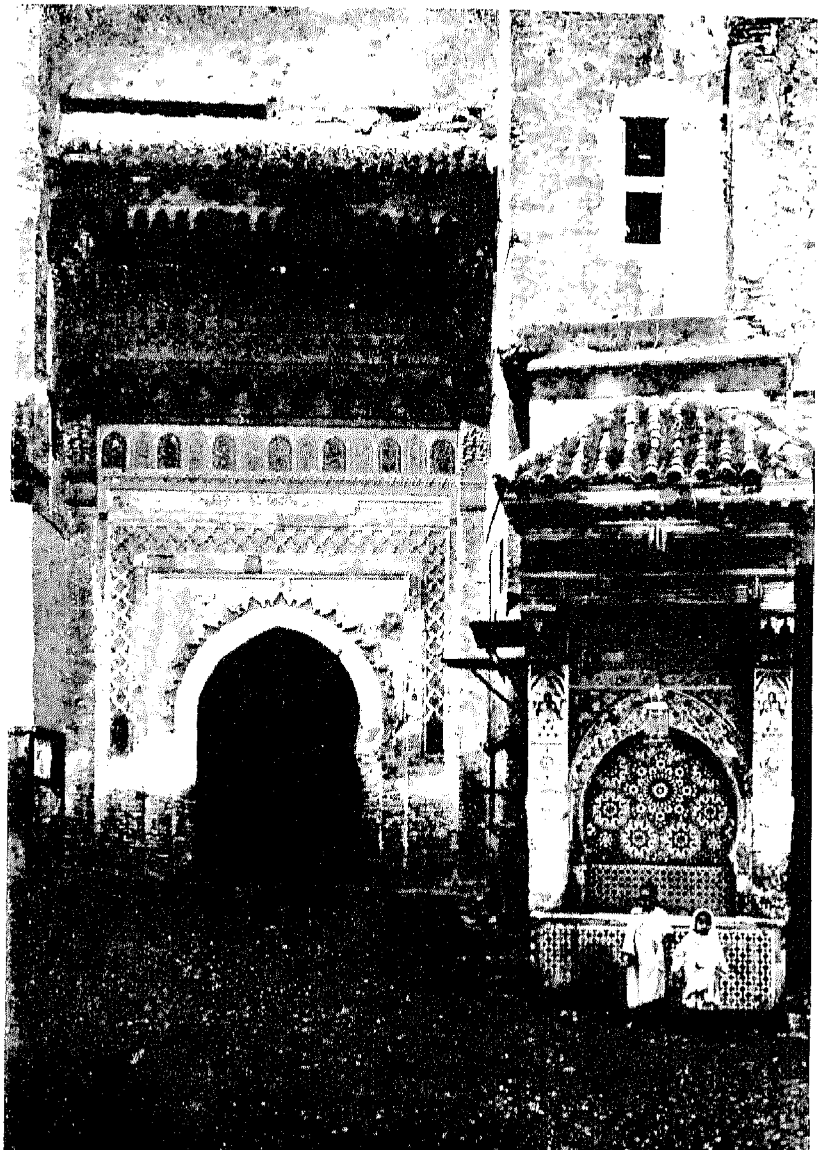
اللوحة ٥

دار مرينية أخرى

نفس التنسيق كسابقتها .



اللوحه ٧
صومعة جامع الشرابليين (من العهد المريني)



اللوحة 10

باب فندق النجارين وسقايته (القرن الثامن عشر م)

ستجد مشهداً للفناء الداخلي لهذا المستودع في اللوحة 51 .



اللوحة 11

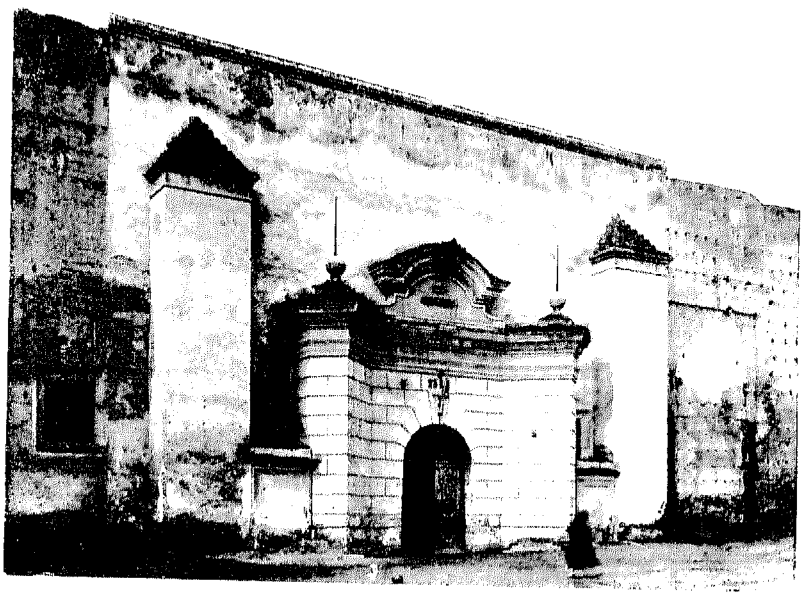
باب قبيبات السمن وفي مؤخرة الصورة باب الدكاكن الهائل (من العهد المريني) . وبينهما ، المشور الجديد .



اللوحة 12

باب الدكاكن أو باب السبع (من العهد المريني)

وعن اليمين باب الماكنة (انظر اللوحة 13) وما وراء باب الدكاكن ، المشور القديم



اللوحة 13

باب الماكنة (اواخر القرن التاسع عشر م) .

لا علاقة لطراز هذا الباب بمجموع بنايات فاس ، لأن الحجر المنحوت الذي استعمل لتأطير الباب من الأشياء غير المعروفة عادة . ويطابق تاريخ 1311 المثبت في أعلى الباب السنتين 1893 -1894.



اللوحة 14

الجامع الكبير بفاس الجديد وحي مولاي عبد الله.

في مقدمة الصورة ، مبان على طول أحد أفنية دار المخزن ، ويشاهد ، عن يسار الصومعة ، قرب قمة الربوة ، السور الأبيض لمصلى باب الساكمة . ويبين البرج المثمن الأضلاع موقع باب الساكمة . وبين هذا البرج والصومعة قصبة ابن دباب .



اللوحة 15

في المقدمة السوق المغطى ، الذي كان بغلق بباب . وأول صومعة هي صومعة جامع البيضاء ، والثانية (وهي من العهد المريني) صومعة جامع الحمراء .



اللوحة 16

منظر شامل للملاح

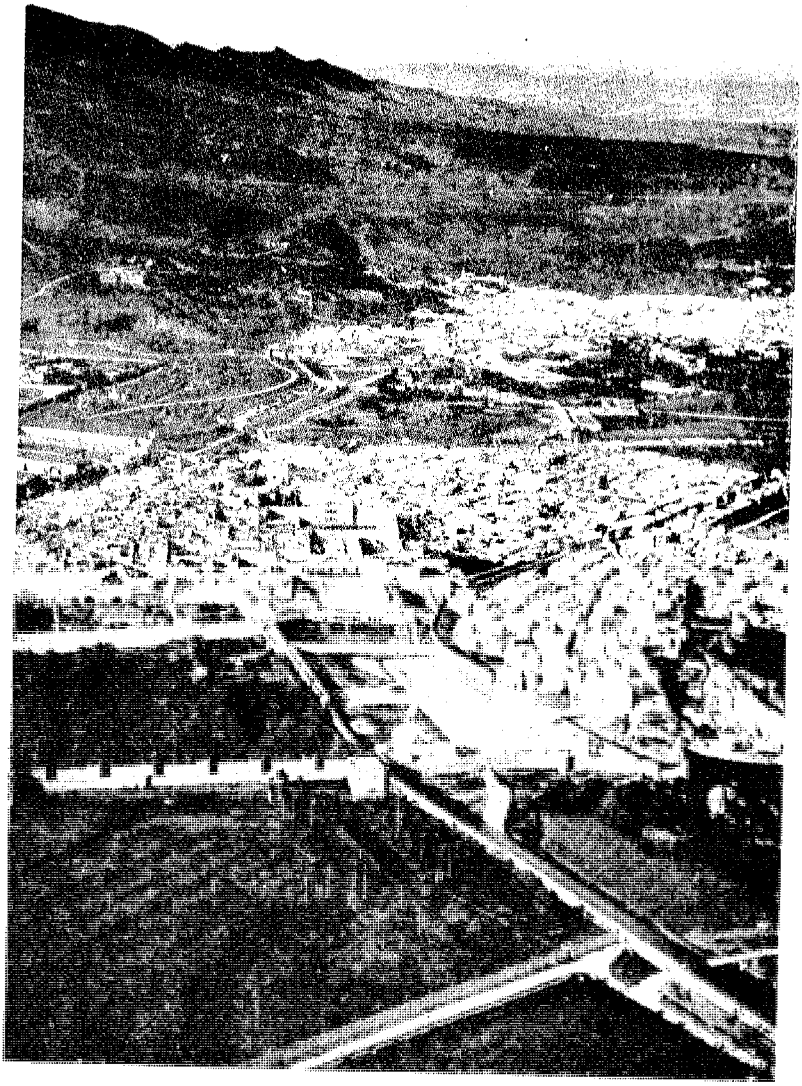
اخذت الصورة من أول منحدرات ظهر المهراس ، في الجانب الجنوبي الشرقي للحي اليهودي . وفي المقدمة ، أفران ومعمل لمصنع الآجر للمسلمين ، وتشاهد وراء الجدار الحديث البناء جداً ، المقبرة الجديدة للملاح ، وتلوح في وسط البنايات ، بعض آثار السور المريني (انظر في هذا الصدد اللوحة 77) .



اللوحة 17

زنقة السكاكين

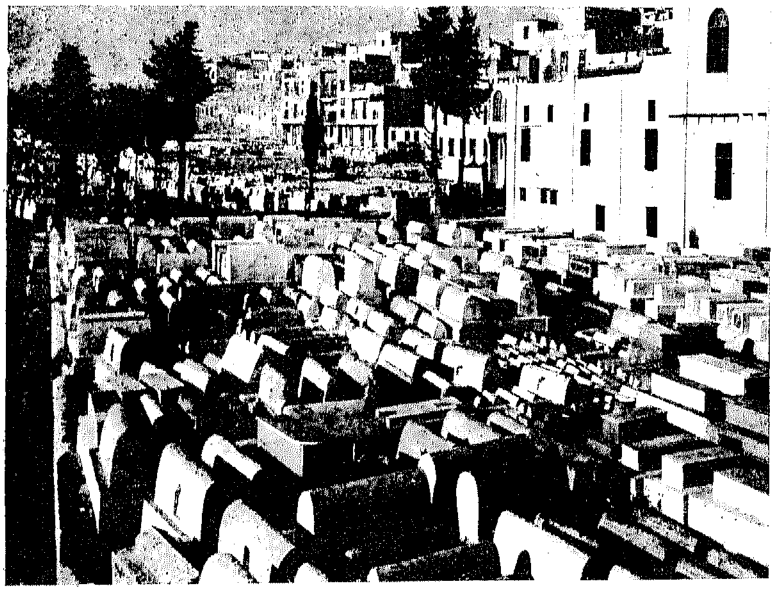
في مؤخرة الصورة ، باب حي اليهود (باب الملاح) . وعن اليمين ، دكاكين لليهود ، ولا سيما الجوهريون منهم ، وعن اليسار ، دكاكين للمسلمين ومخبزة أقيمت بعد الحماية . وفي مقدمة الصورة يهودي بالزي الأسود التقليدي .



اللوحة 18

منظر شامل لفاس الجديد والملاح (صورة جوية)

في المقدمة ، أكَدال السلطان . وفي المستوى الثاني وعن اليسار ، السور المزدوج للقصر ، وعن اليمين ثكنة الريفيين ، يفصلها عن المقبرة القديمة لليهود (وهو السياج الصغير الواقع يميناً) جدار ما زال يعد بادياً ، وقد أصبح الكل ساحة التجارة . وفي المستوى الثالث ، الكتلة الإسلامية لفاس الجديد ، وفي الوسط القصر ، وعن اليمين الملاح ، ويحده سور على شكل قوس دائرة . وفي المستوى الرابع ، مضيق بوجلود وبساتين الدوح . وفي المؤخرة ، الأحياء العليا لعدوة القرويين ومنحدرات زلاغ .



اللوحة 19

مقبرة اليهود الجديدة

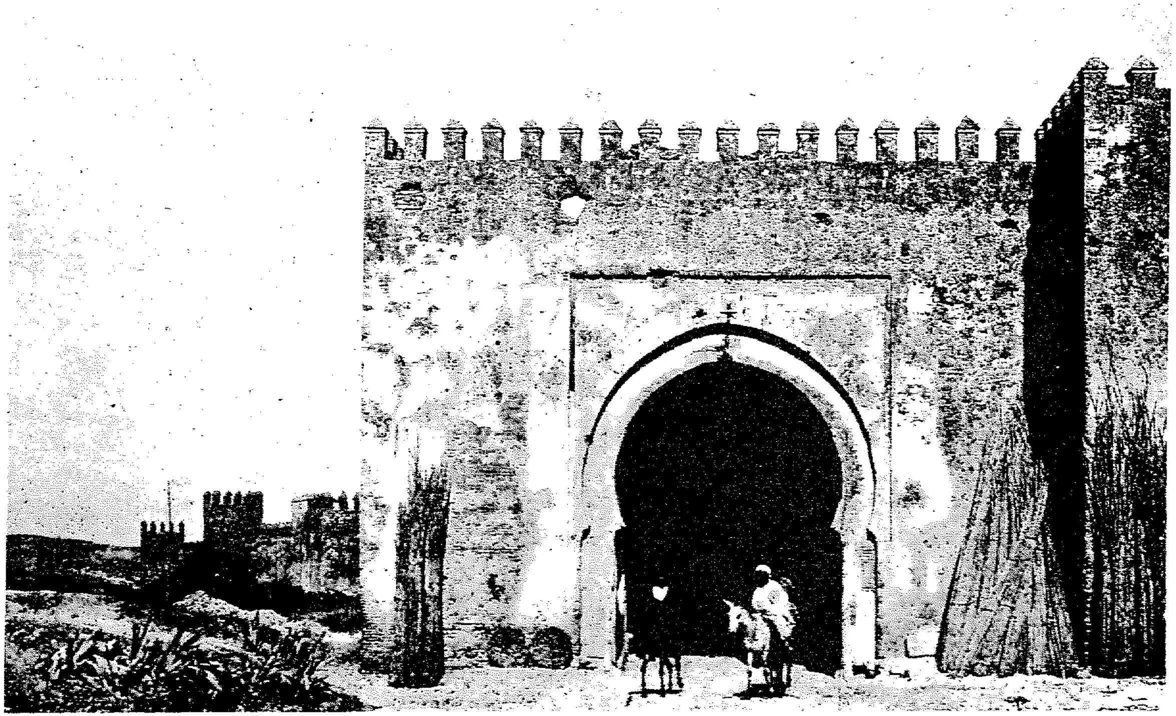
تلاحظ المباني المختلفة الأشكال التي تغطي القبور . وينبغي مقارنتها بالمقابر الإسلامية (انظر اللوحة 94) .



اللوحة 20

باب قصبة فيلالة (من العهد السعدي او العلوي)

يشكل هذا الباب المنفذ الوحيد لهذا الحي المحاط بأسوار عالية على دائرته كلها .



اللوحة 21

باب محروق (من العهد الموحدي . وقد رمم فيما بعد) .

كانت رؤوس الثوار تعلق في الشرفات التي تعلو الباب . وكان عمود التشهير (انظر الكتاب 1) ملتصقاً بالبرج اليمني ، وحزم القصب الموضوعة في كلا جانبي المدخل معدة للسلالين الذين يعملون خارج الباب وداخله .
ان الراكبين الذين يشاهدون في مقدمة الصورة يمكنون من التأكد بأن وصف زهرة الآس (انظر الفصل 1) ليس مبالغاً فيه البتة .



اللوحة 22

شِعب باب محروق

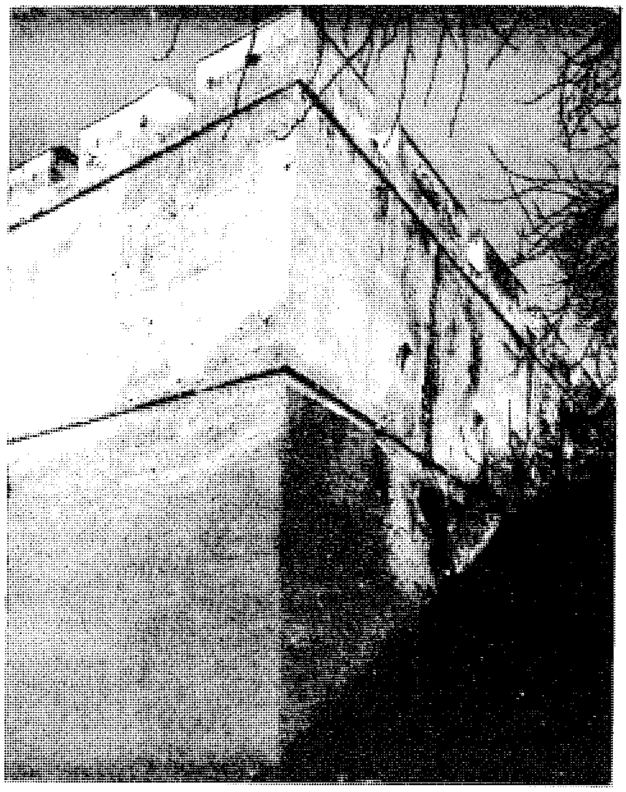
في المقدمة آثار ضريح صغير بجوار عين جارية . وعن اليمين أسوار قصبة فيلالة ، ثم أسوار المدينة . وفي المؤخرة هضبة المرينيين على اليسار ، وروضة سيدي علي المزالي ، وفي الوسط صومعة مع باب عجيسة ، وفوق الصومعة ربوة عنق الجمل .



اللوحة 23

أفران الجير على هضبة المرينيين

إن خط الربوات الذي يحيط بفاس شمالاً مبعثرة فيه أفران مماثلة . وتتوقع في المستوى الثاني ، وجود شعب المدينة .



اللوحة 24

برج الشمال :

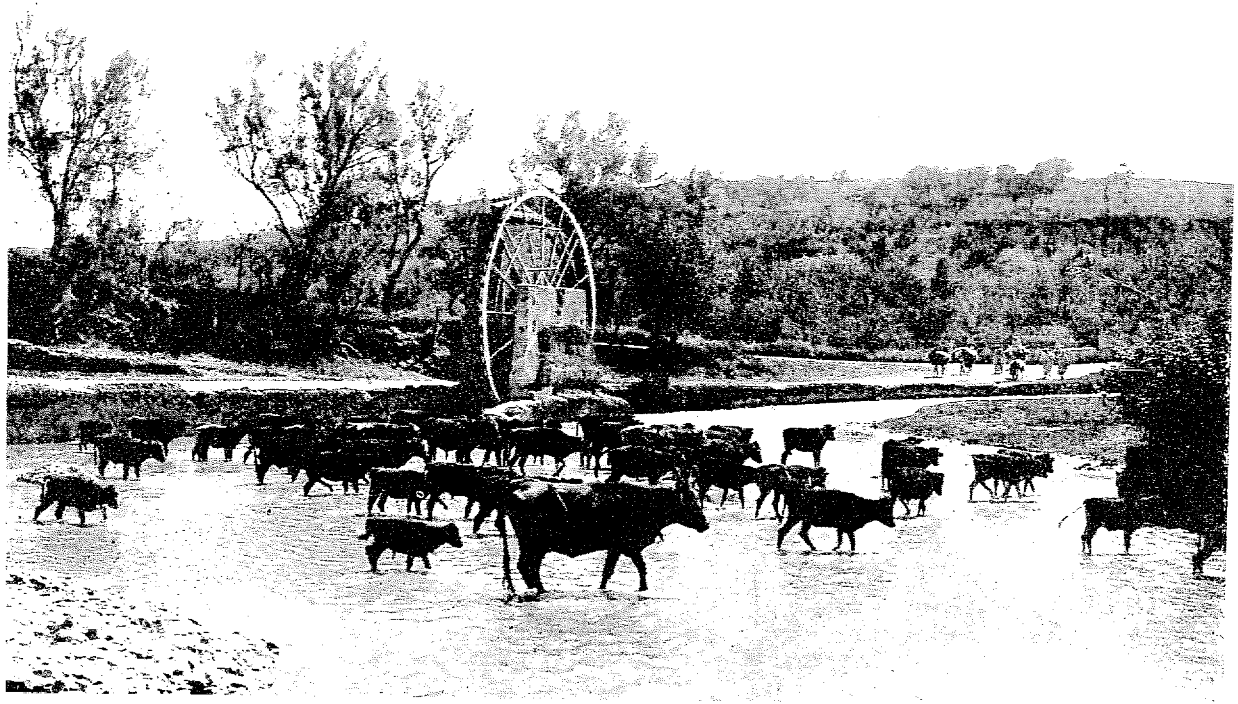
هذه الزاوية الجنوبية الشرقية للحصن الذي هو على شكل نجمة ، وشيد شمالي فاس في العهد السعدي .



اللوحة 25

واد الزيتون في عالية الباب الجديد

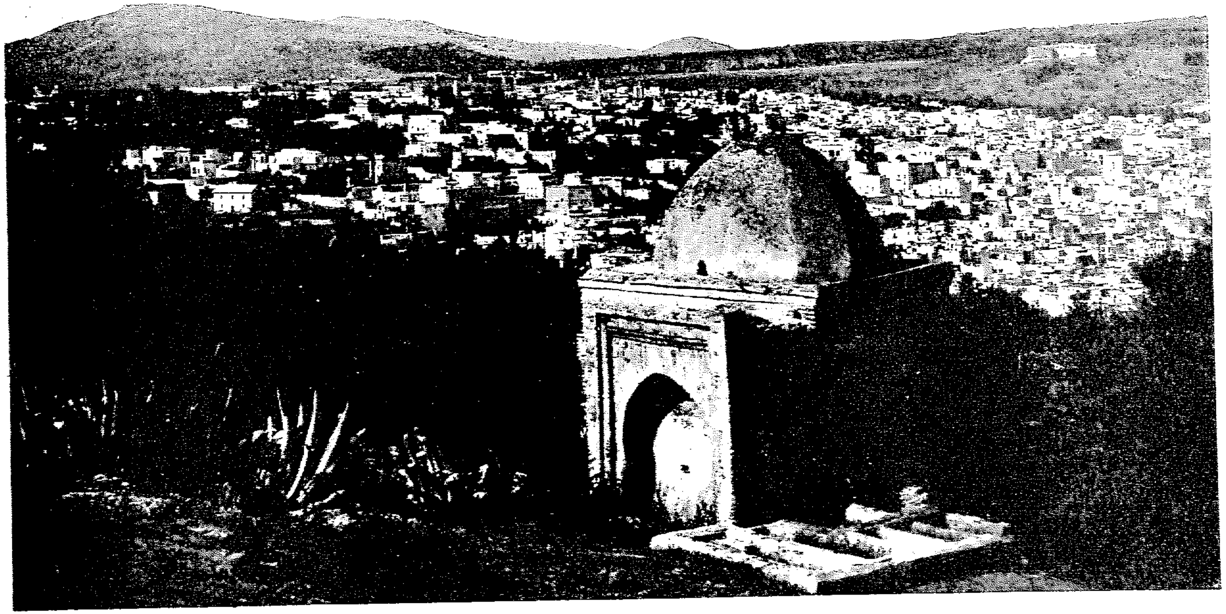
يشتغل بعض المساكين بغسل ثيابهم فيه ، حسب عادة قديمة ، ويلاحظ كثرة الأشجار التي تعشش فيها اللقالق والنغاف . وفي الأعلى واليمين أوراق حي العيون .



اللوحة 26

واد الزيتون قبل دخوله إلى المدينة

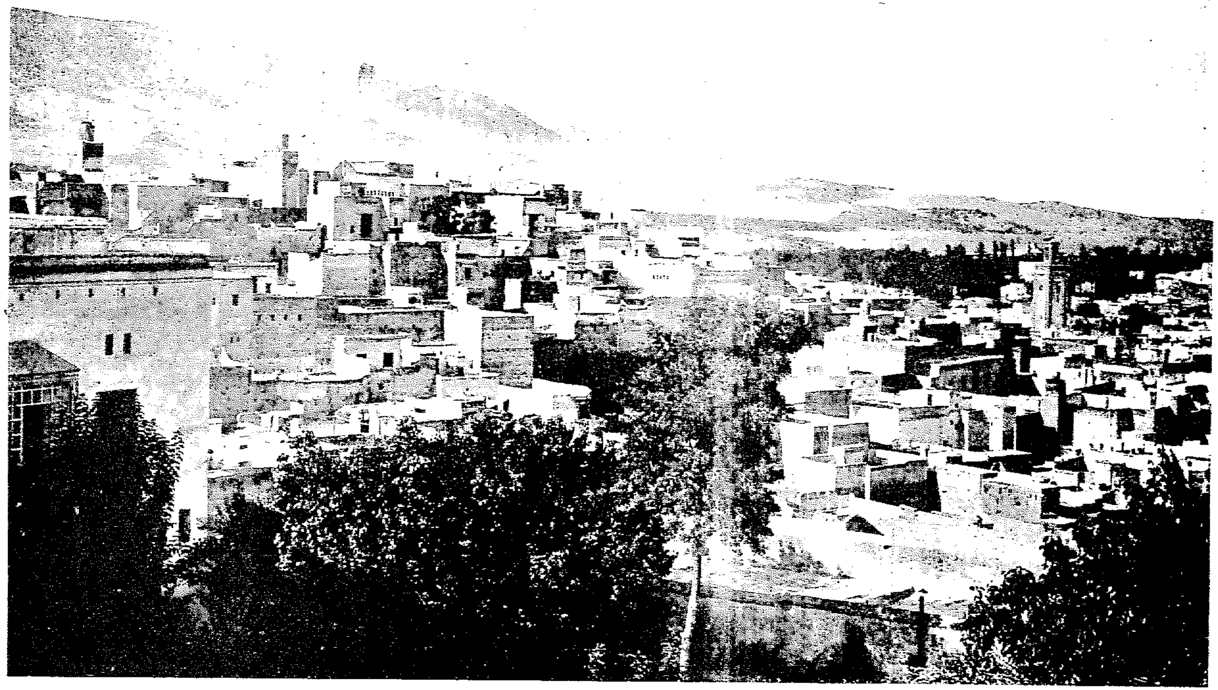
بعد أن طفح بمياه بوفكران التي تلقاها منذ قليل ، يمتد واد الزيتون واسعاً قبل دخوله إلى المدينة حيث يصبح واد مصمودة ، وفي الماء ، احد قطعان بقر فاس ، وفي المستوى الثاني ناعورة للسقي . وفي المؤخرة قرويون قدموا لبيع بضاعتهم بفاس .



اللوحة 27

منظر للمدينة من الجنوب

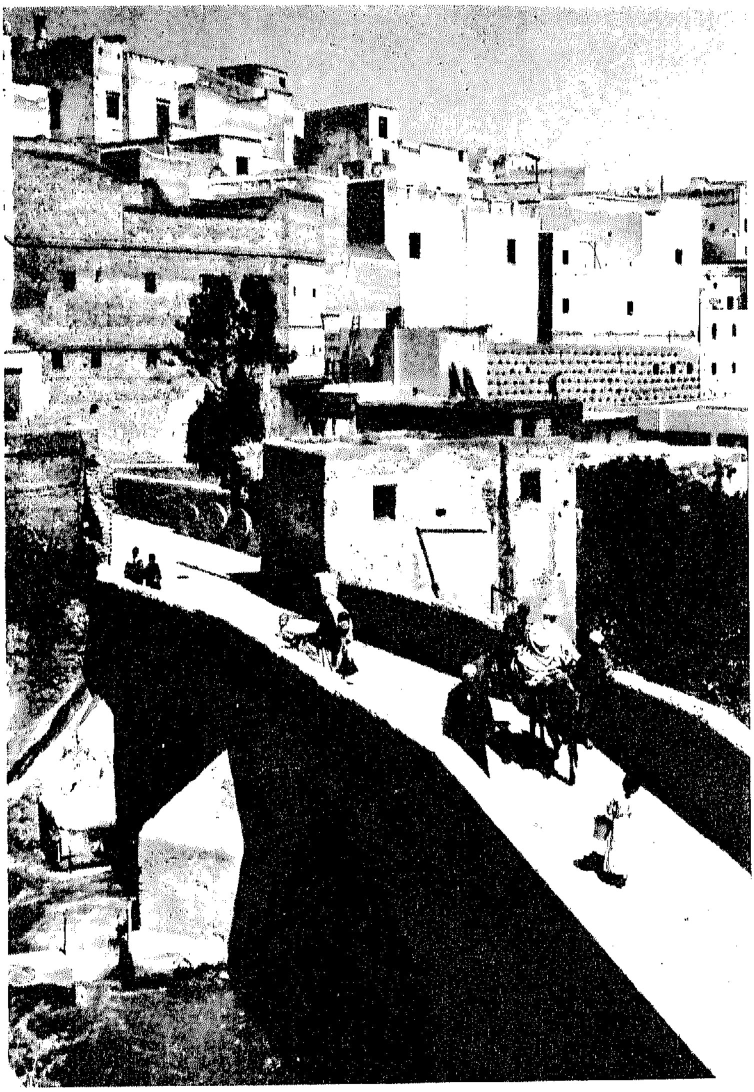
في المقدمة ضريح ومقبرة باب فتوح . وفي المستوى الثاني الجزء الجنوبي الغربي لعدوة القرويين ، ببساتينه ومنازله الجميلة ذات الفناء المكشوف نحو الشرق . وفي المؤخرة جبل تغات عن اليسار ، وفي الوسط قصبة شراردة ، وعن اليمن برج الشمال .



اللوحة 28

تضاريس فاس

منظر التقط من الحي المدعى « الحرف » . ان تراجع الديار يمكن من تقييم وعورة المنحدر .
وعلى اليمين : صومعة جامع الرصيف ، وخلفه بساتين الكدان (باب سيدي بوجيدة) وعلى عدوة الأندلس .
وفي المؤخرة وإلى جهة اليسار جبل زلاغ .



اللوحة 29

تضاريس فاس

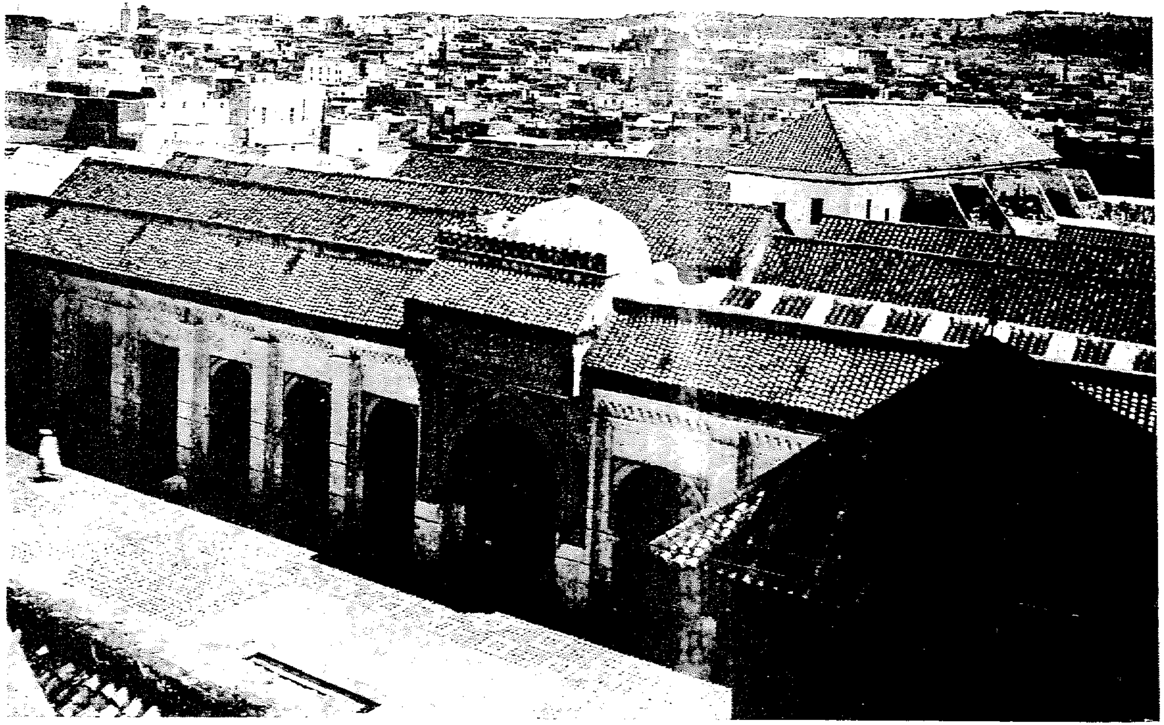
عدوة القرويين التقطت بين قنطرة بين المدن ، يلاحظ ان النهر يكاد يكتنفه مباشرة جرف وعر إلى حد ما .



اللوحة 30

عدوة القرويين : مولاي إدريس والقيصرية

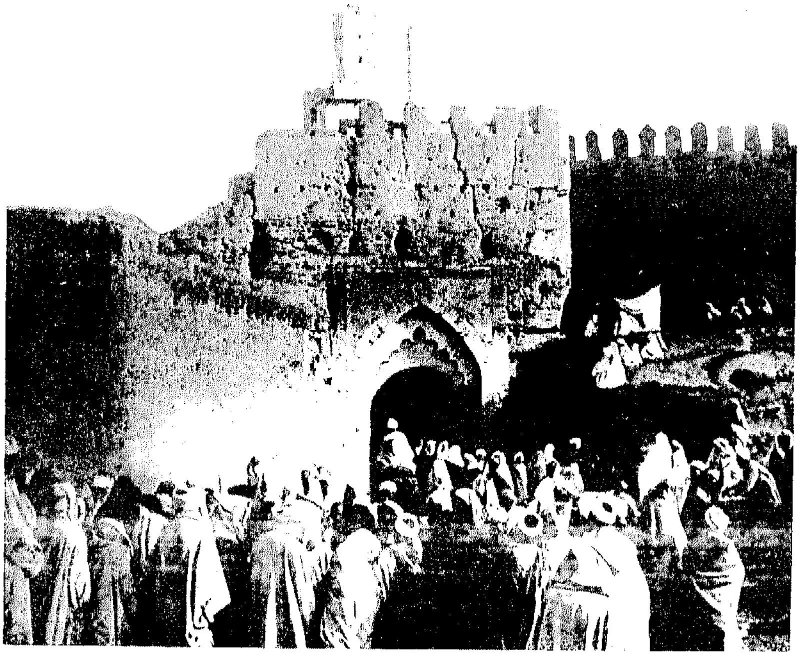
في المقدمة ، القيصرية بدكاكينها بدون طابق وازقتها المظللة بسياجات من قصب مرتفعة بعض الشيء من أجل التهوية . وفي المستوى الثاني زاوية مولاي إدريس (من القرن الثامن عشرة) وفي المؤخرة ، منحدرات الشرابليين ، وفي أقصى اليمين برج الشمال .



اللوحة 31

عدوة القرويين : جامع القرويين

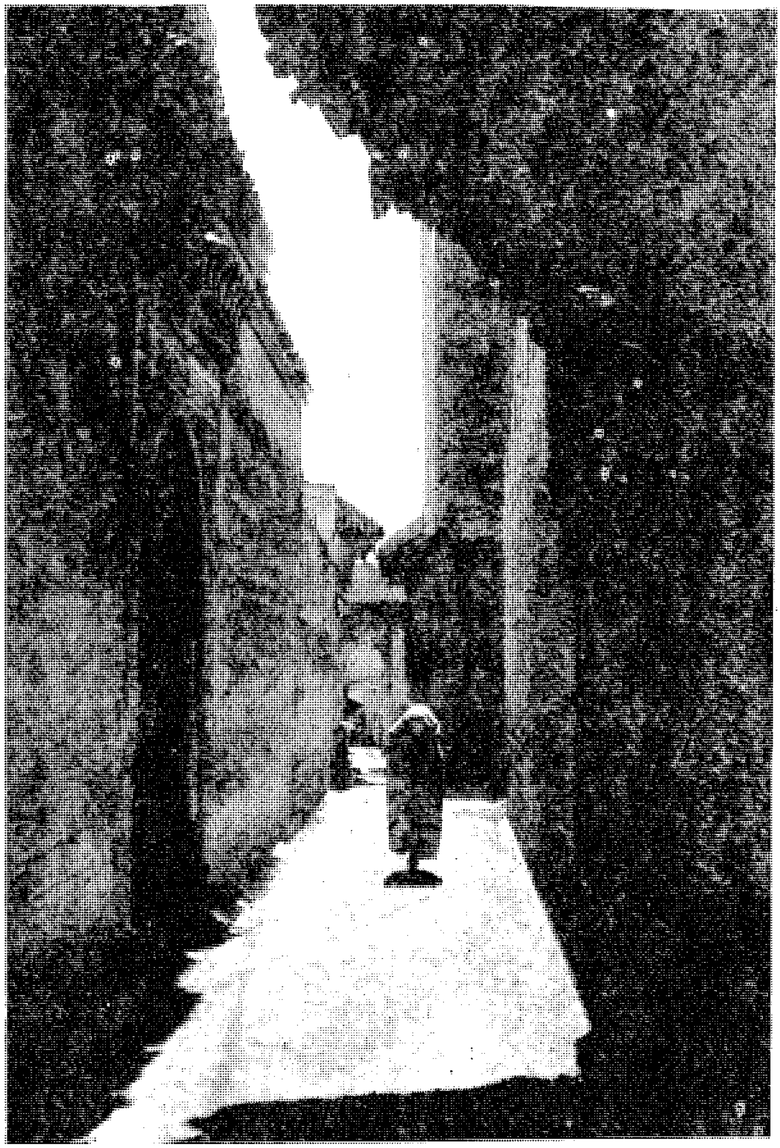
أخذ المنظر ، مثل سابقه ، من سطح مدرسة العطارين . في المقدمة ، الصحن ، وعن اليمين القبة الهرمية لأحد أجنحة السعديين (انظر اللوحة 1) الجناح الذي يغطي المحراب مُعلًّى والباب المواجه له فوقه قبة . وفي المؤخرة ، عدوة الأندلس والأحياء الوسطى . وفي أقصى اليسار ، باب وصومعة جامع الأندلس المقببة .



اللوحة 32

عدوة القرويين : باب عجيسة

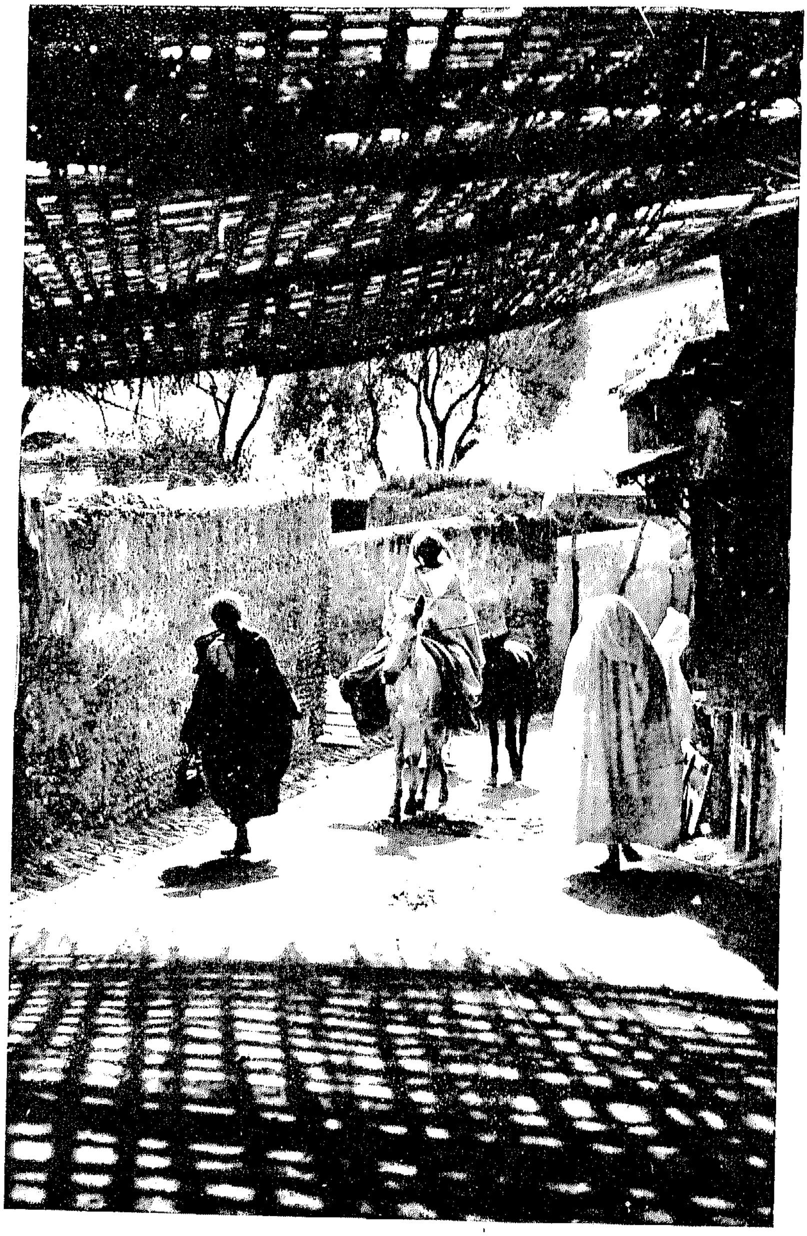
إن باب عجيسة أقل أبواب فاس عظمة ، وهو مفتوح في السور الموحدي (وإن كان ترميم حديث جداً قد غير مظهره بكيفية محسوسة) ، ولكنه ليس أقل طروقاً كما تشهد به هذه الصورة . وخلف الباب ، صومعة جامع باب عجيسة .



اللوحة 33

عدوة القرويين : زقاق حي مركزي (سويقة ابن صافي)

زقاق محاط بجدران بدون نوافذ ، وإن كانت البنايات أقل علوا مما هو معتاد ، لأن الأمر لا يتعلق بدور سكنية ، ولكن بأضرحة تضم مقابر خصوصية ، وفي الوسط امرأة من الطبقة المتوسطة او الشعبية .



اللوحة 34

عدوة القرويين : زقاق دائري (فندق اليهودي)

زقاق اوسع من السابق (الأرضية أقل ثمناً) ، دور منحدرة بسيطة ، سكان شبه قرويين ، كما يبينه الزي .



اللوحة 35

عدوة الأندلس باب الجامع

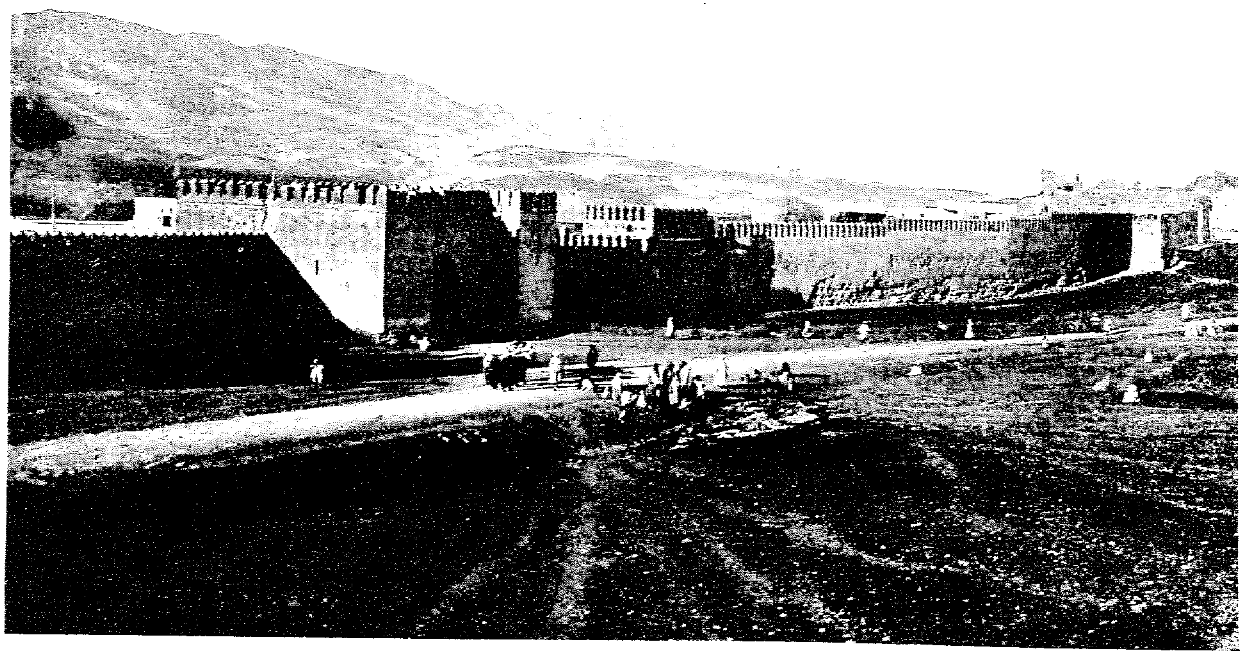
الباب بعد ترميمه : يجب مقارنته باللوحة 2 .



اللوحة 36

عدوة الاندلس ، حي الفخارين .

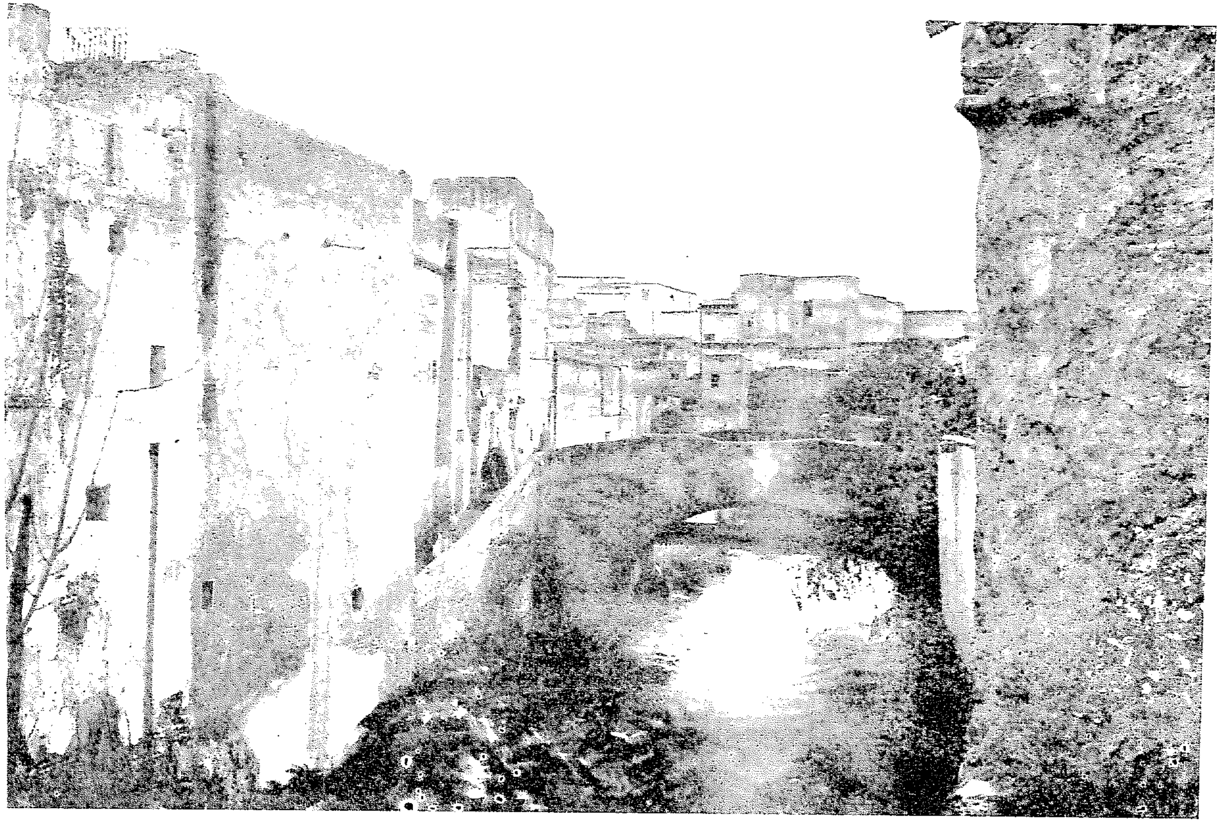
في المقدمة ، ساحة معمل ومبان يُجَفَّف على سطوحها الآجر ومواد أخرى ، وهنا وهناك ، وسط شجر الزيتون ، ادخنة الأفران ، وفيما وراء ، بساتين كُرواوة وزلاغ . ولولا المعامل لكان يتوهم انها في قلب البادية .



اللوحة 37

عدوة الأندلس باب فتوح

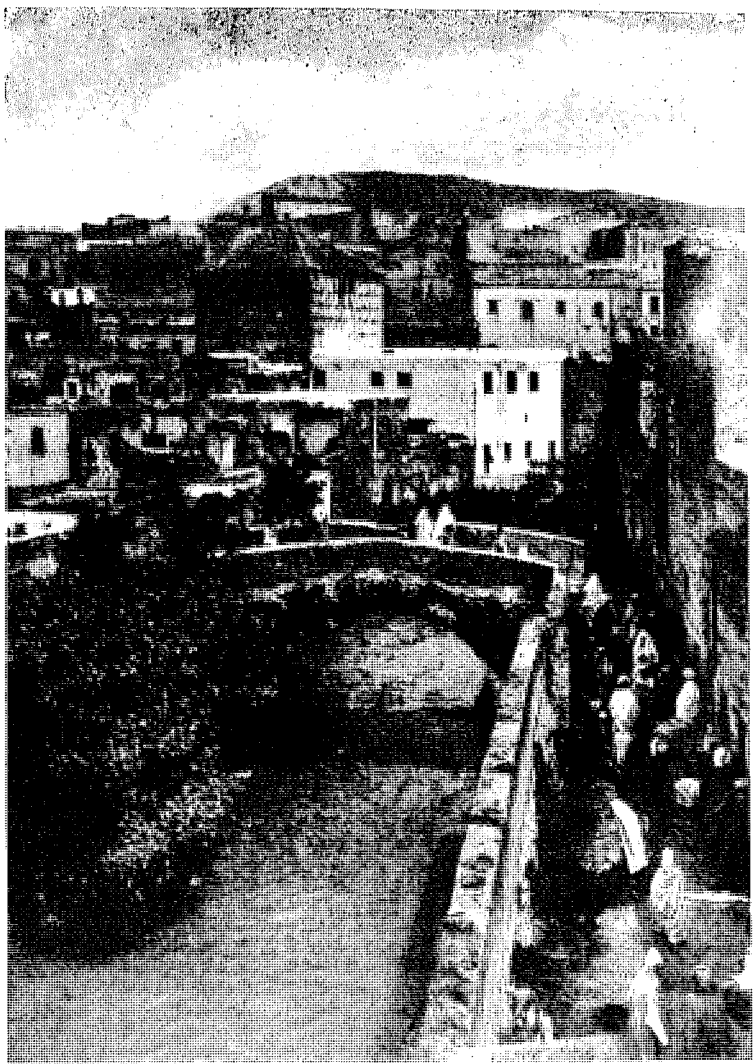
لقد رمم هذا الباب ، كما هو الآن ، في اوائل القرن التاسع عشر ، وعلى اليمين قصبة تادرت ، وفي المؤخرة زلاغ . التقطت هذه الصورة من أول منحدرات روضة باب فتوح .



اللوحة 38

قنطرة الصباغين تشاهد من الشمال

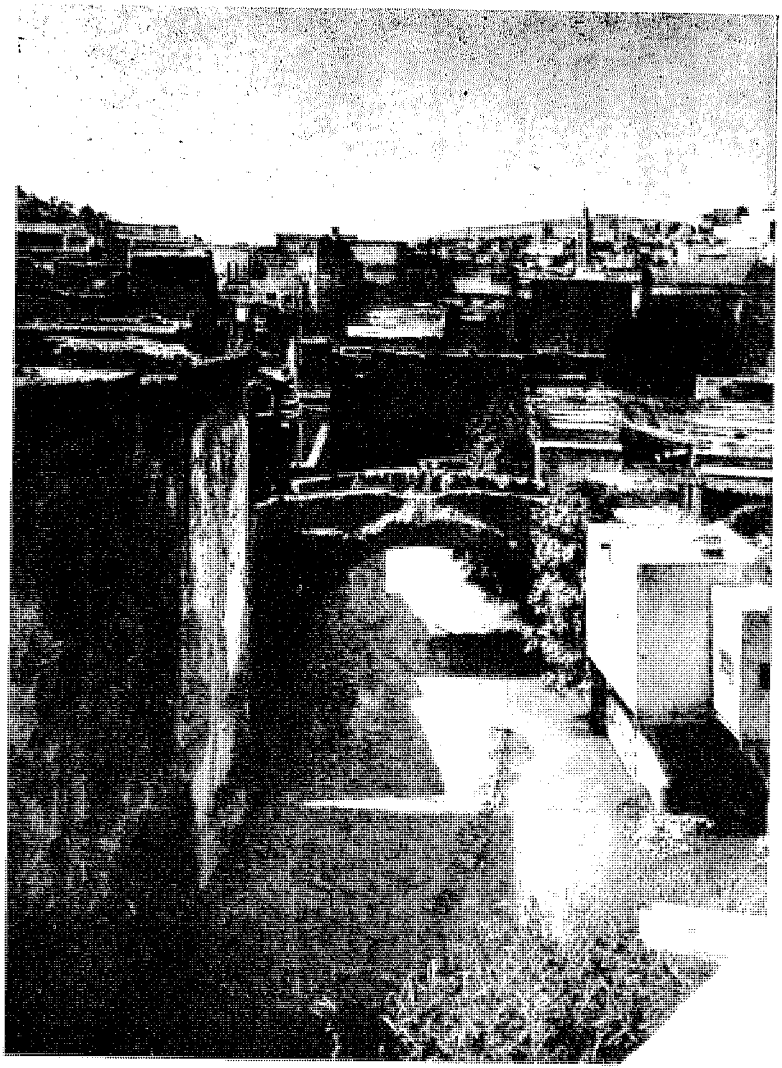
نرى على يسار القنطرة الدرب المسمى گزم ابن زكّون وهو ينحدر . يلاحظ ان أي زقاق لا يمدد هذه القنطرة إلى اليسار ، أي إلى عدوة الأندلس .



اللوحة 39

قنطرة الصباغين تشاهد من الجنوب

الزقاق على اليمين في المقدمة هو محج الخرشفيين ، والبناء ذو القبة الهرمية هو قاعة الصلاة لمدرسة الصفارين ، وعن يساره ، تشاهد الصومعة الصغيرة لهذه المدرسة ، وفوقها يجفف لباس الطلبة ، والنوافذ التي ترى حولها هي نوافذ الأنوال (الأطرزة) المجاورة .



اللوحة 40

واد فاس في وسط المدينة

في المقدمة ، قنطرة الدباغين ، وفي المستوى الثاني ، قنطرة الطرافين ، محاطة بالدكاكين من كل جانب . وعلى اليمين ، بين القنطرتين معامل الدباغين . وفي الأعلى إلى جهة اليمين ، سقف جامع الرصيف ، ثم صومعة ضريح سيدي عبد القادر القاسي ، وهي مزدانة بنوافذ مموهة خضراء . وفي المؤخرة، ربوة ظهر المهراس وفوقه حصن عصري صغير .



اللوحة 41

الدكتور ليناريس

طبيب البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب من 1878 إلى 1901 .

صورة نقلت في مجلة المعهد الصحي للمغرب (جزء 9 ، 1932) .



اللوحة 42

الدكتور ليناريس في سنة 1890

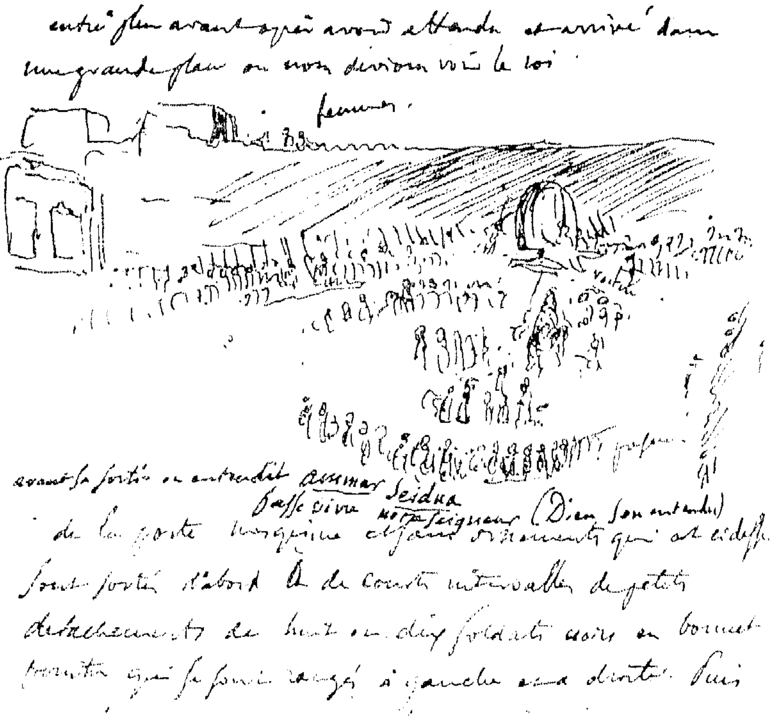
رسم مائي لرومبيرج ، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط .



اللوحة 43

القائد ماك لين

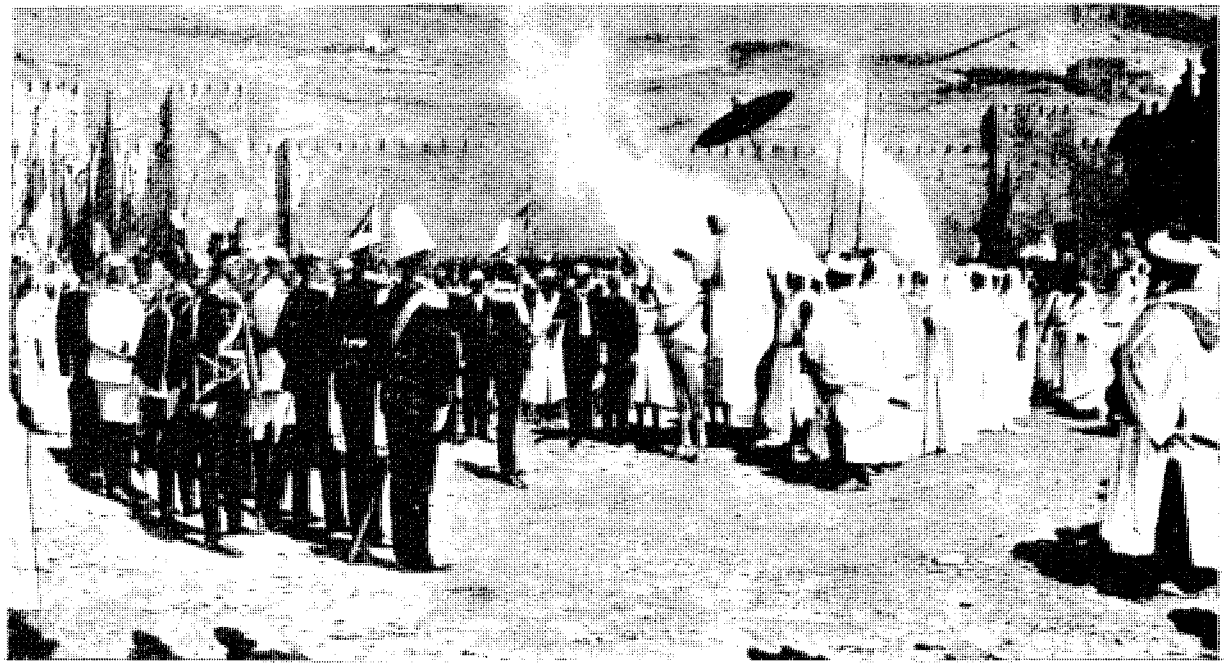
صورة نقلها ج . ڤيير (**في المغرب** ، ص 64) .



اللوحة 44

استقبال بعثة فرنسية من طرف السلطان مولاي عبد الرحمٰن بمكناس

رسم مأخوذ من « البوم » أوجين لاكروا . يشاهد في الوسط السلطان ممتطياً فرسه ، تقيه مظلته ويحيط به الأعيان ، وأمامه المجموعة الصغيرة من الأوروبيين ، والجنود مصطفون من كل جانب ، وفي الأعلى ، على اليمين ، إشارة لعربة ، ربما هي عربة السلطان .



اللوحة 45

استقبال بعثة ألمانية بفاس من طرف السلطان مولاي الحسن (1893)

رسم من إنجاز بيركمان ، محفوظ بالخزانة العامة بالرباط . ان السلطان ، وقد ظلته المظلة التقليدية وأحاط به خدامه ووزراؤه ، من بينهم قائد المشور متقلداً سيفاً يرفع جبته . يخاطب السفير الذي يرى مواجهة ، ومقرنته في يده . وضابط الجنود البروسيين ، الذي يشاهد جانبياً ، وفي يده ورقة ، هو بدون شك ترجمان البعثة . يدور المشهد في مشور باب بوجات . ويظهر في الأعلى وعن اليمين زلاغ وبرج الشمال .



اللوحة 46

سوق « البراغيث » بفاس الجديد .

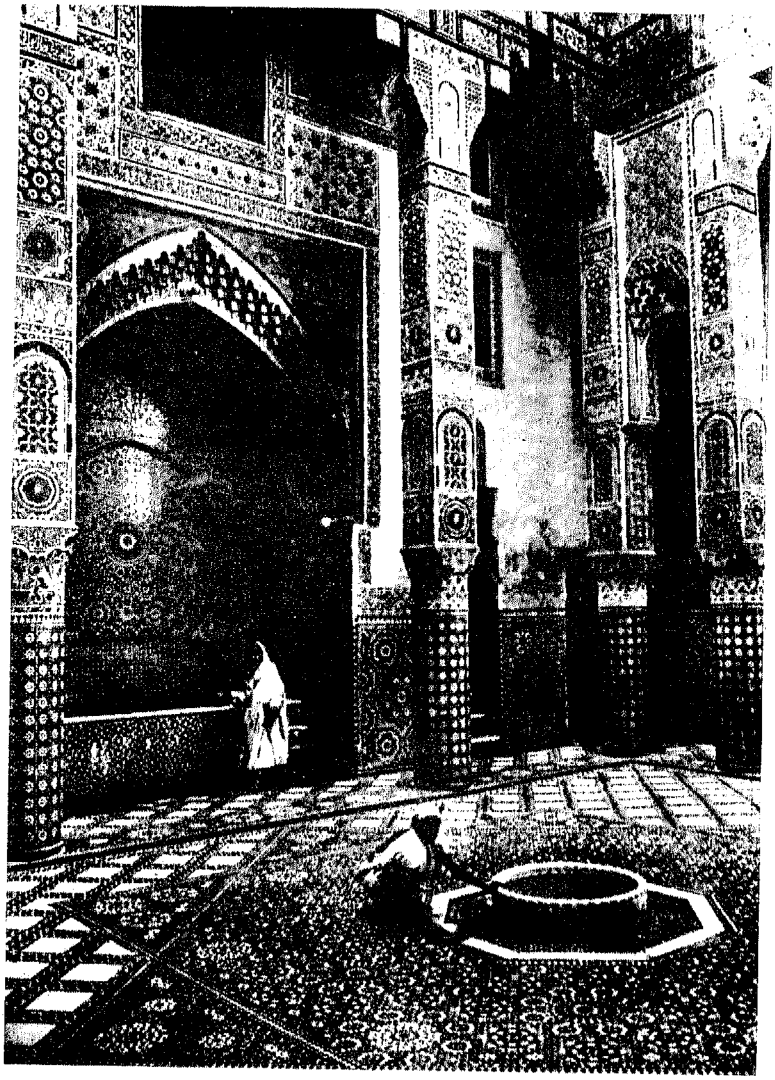
يشاهد مشعوذون سوسيون وهم يبيعون عقاقيرهم وتمائمهم . ويحيط بهم جمهور من الناس يدل زيهم على أنهم ليسوا فاسيين ، بل قرويين ، والكثير منهم فيلاليون أقاموا منذ قليل او بصفة مؤقتة بفاس .



اللوحة 47

بائع الاسفنج

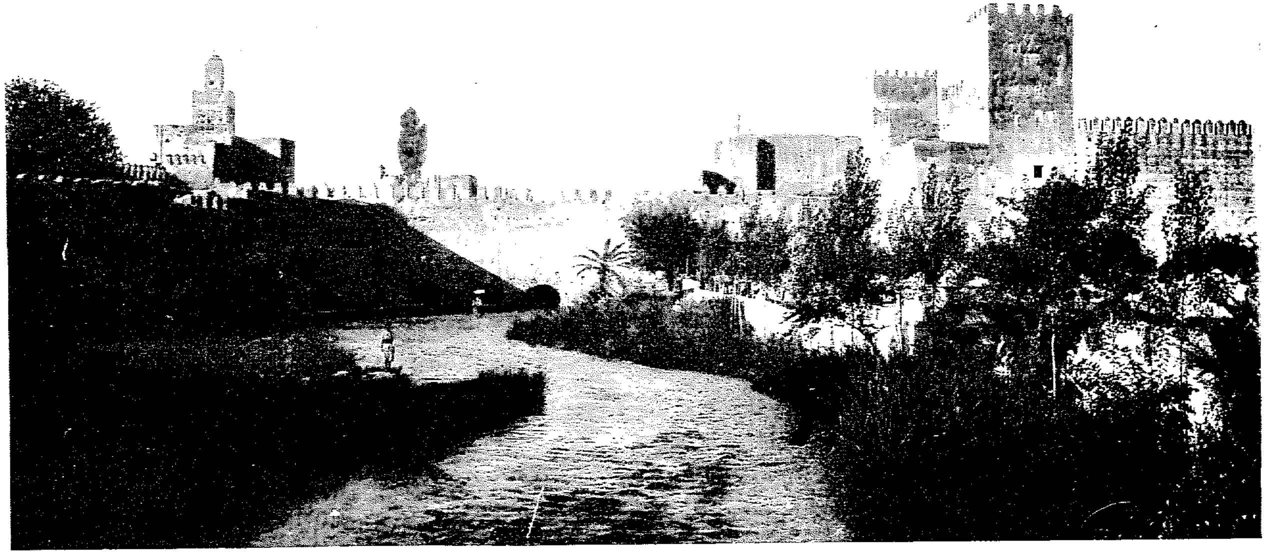
يمسك الطفل الجاثم على حماره ثلاث اسفنجات مربوطة بشريط من العشب يخترقها في وسطها .



اللوحة 48

أمة سوداء في فناء

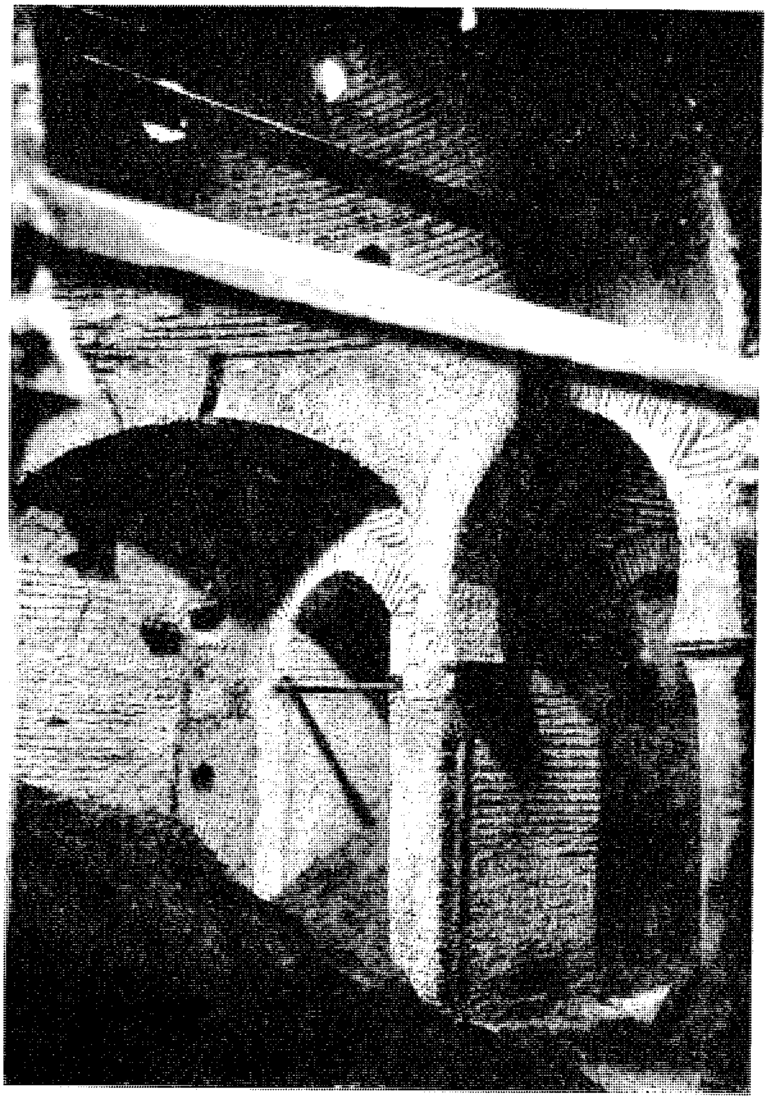
دار في وسط المدينة من بناء حديث (اوائل القرن التاسع عشر) في غاية الزخرفة .



اللوحة 49

تقسيم واد فاس بباب الدكاكن

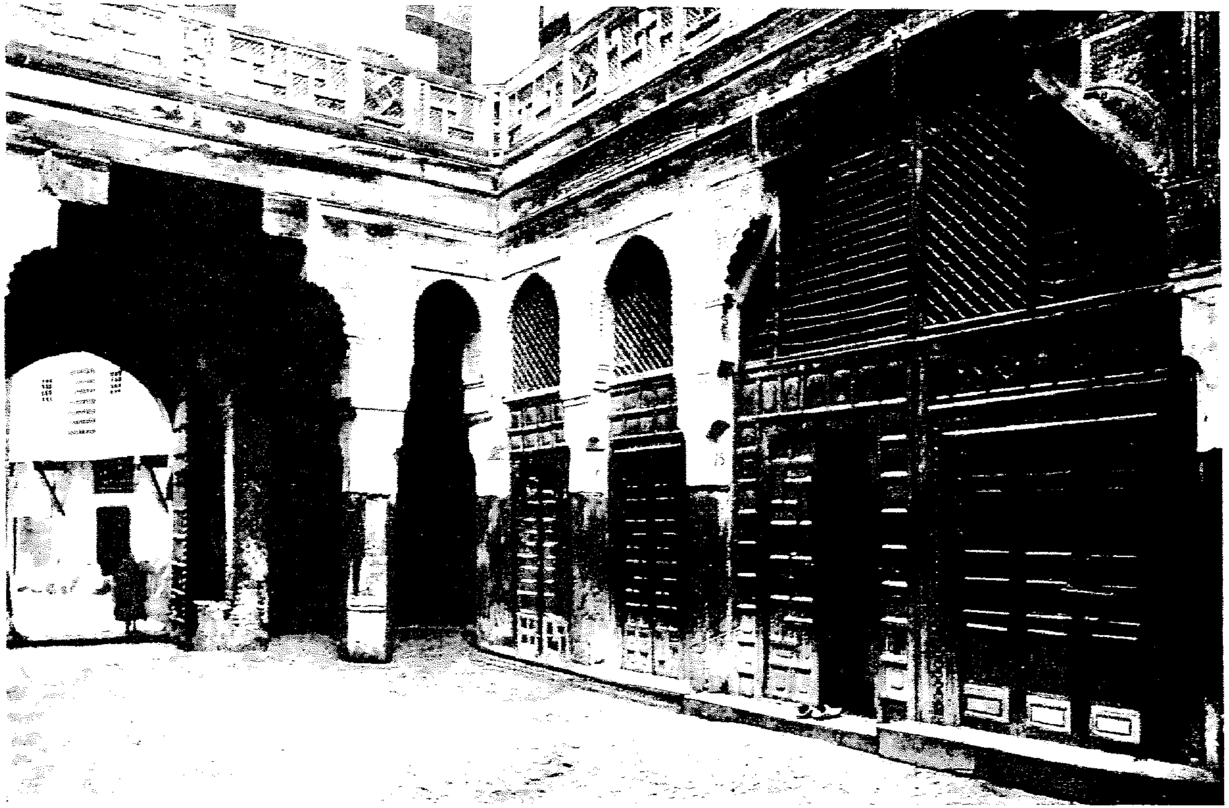
تشاهد ثلاث قبب من جملة الأربع التي يوزع من خلالها واد فاس بعد مروره تحت المشور القديم ، ويتوقع وجود الرابعة على اليمين خلف الصومعة ؛ كما يظهر الجدار الذي يفصل القبب مثنى ، وعلى اليمين بروج باب الدكاكن ، وعلى اليسار ، صومعة جامع فاس الجديد .



اللوحة 50

قاعة حمام

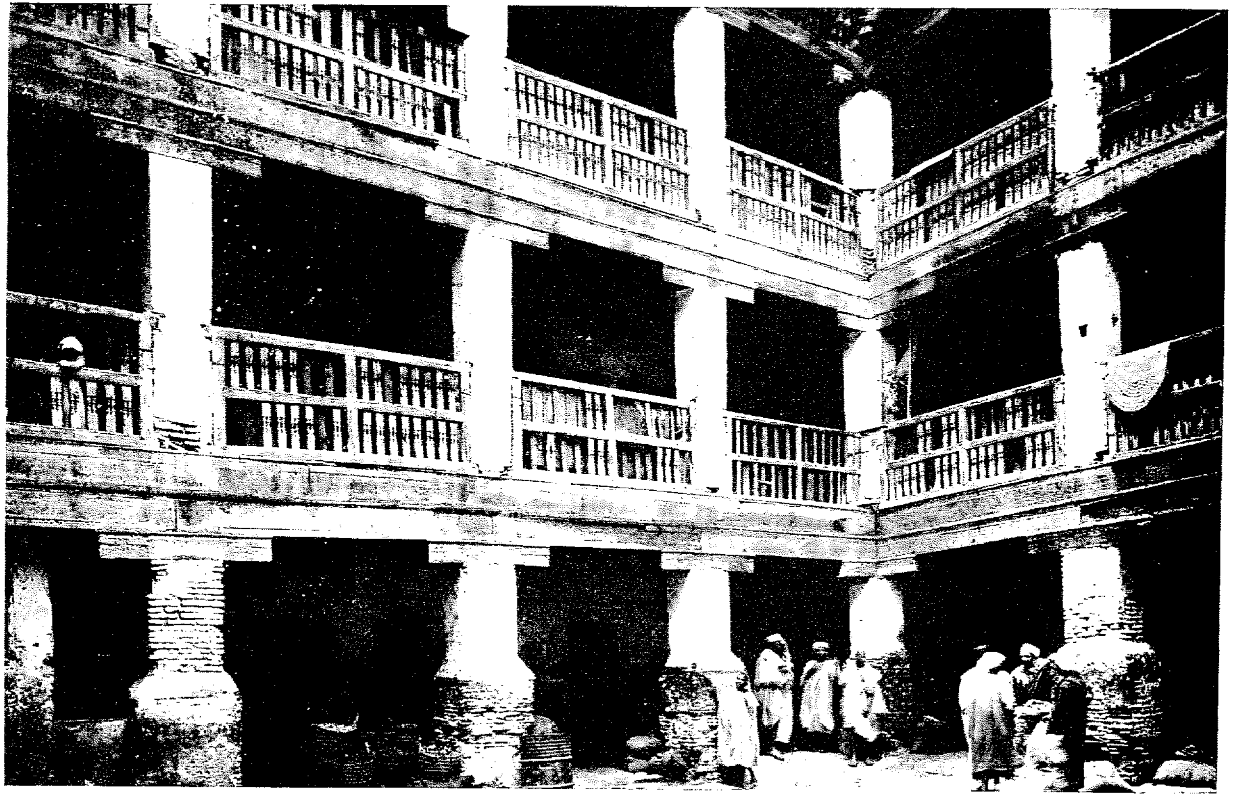
قاعة دافئة لحمام ابن عباد (حي القطانين) ، أخذت هذه الصورة اثناء ترميم المبنى ، ينفذ عادة الضوء من الكوات المستديرة التي تشاهد وهي مفتوحة في القبة التي تغطي القاعة .



اللوحة 51

الفناء الداخلي لفندق النجارين

مستودع يصلح فقط للباعة بالجملة للمدينة والملاح . انظر واجهة هذا المبنى (اللوحة 10) .



اللوحة 52

فناء فندق الشماعين

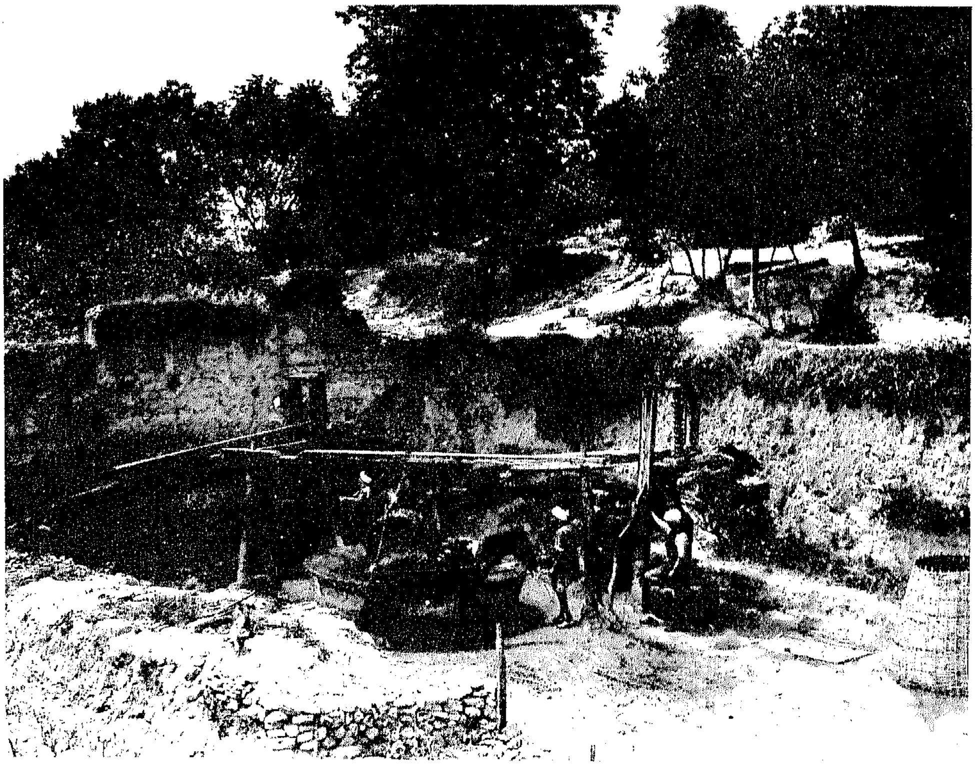
كان هذا المستودع ، وشكله برجوازي أقل من سابقه ، يستعمل كمحطة للقوافل ، وسوق الثمار والخضر الجافة ، التي ترى منها سلال تحت الرواق الشمالي للسفلي ، ويؤوي في غرف الطوابق عدداً معيناً من الصناع ولا سيما من الطرافين .



اللوحة 53

الطواحين على واد فاس

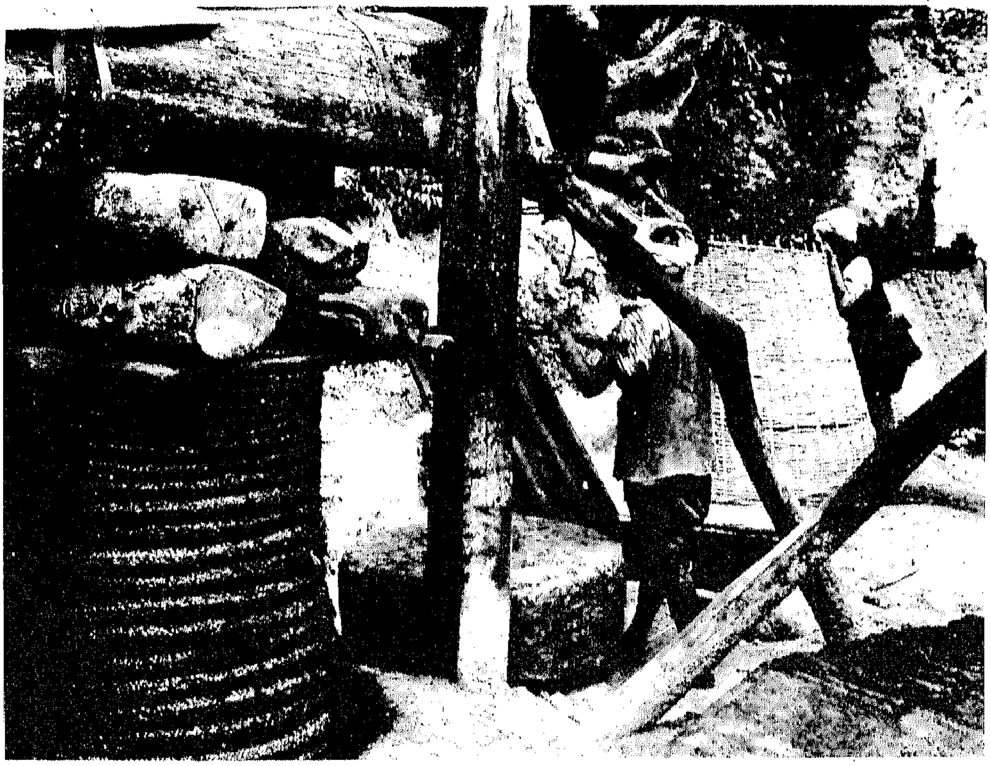
التقطت الصورة من عالية قنطرة بين المدن ، وتكثر الطواحين في هذا المكان على الخصوص حتى تكاد تسد النهر .
وتشاهد على اليمين وفي الوسط القبب التي يخرج منها الماء بعد أن يكون أدار الرحى .



اللوحة 54

معصرة زيت ذات مدورة (حي زقاق الرمان)

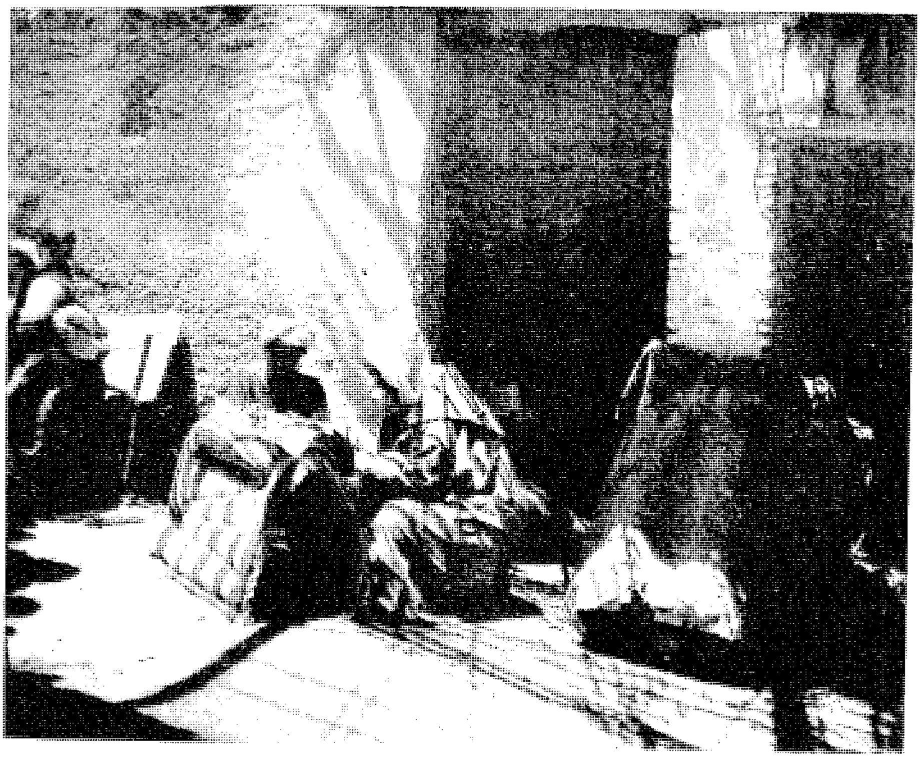
تشاهد على اليمين سلّة كدس فيها الزيتون الذي سيعصر ، وفي الوسط الرحى للسحق ، يديرها بغل (بل فرس) ، وعن يمين وشمال الرحى معاصر ذات لوالب (انظر اللوحة التالية) .



اللوحة 55

معصرة زيت

يشاهد هنا كدس من القفف المملوءة بالعجين المستخرج من السحق وتعصرها كتلة من الخشب يحركها دولاب (انظر اللوحة السابقة) .



اللوحة 56

صانع البراذع : (ناحية باب عجيسة)

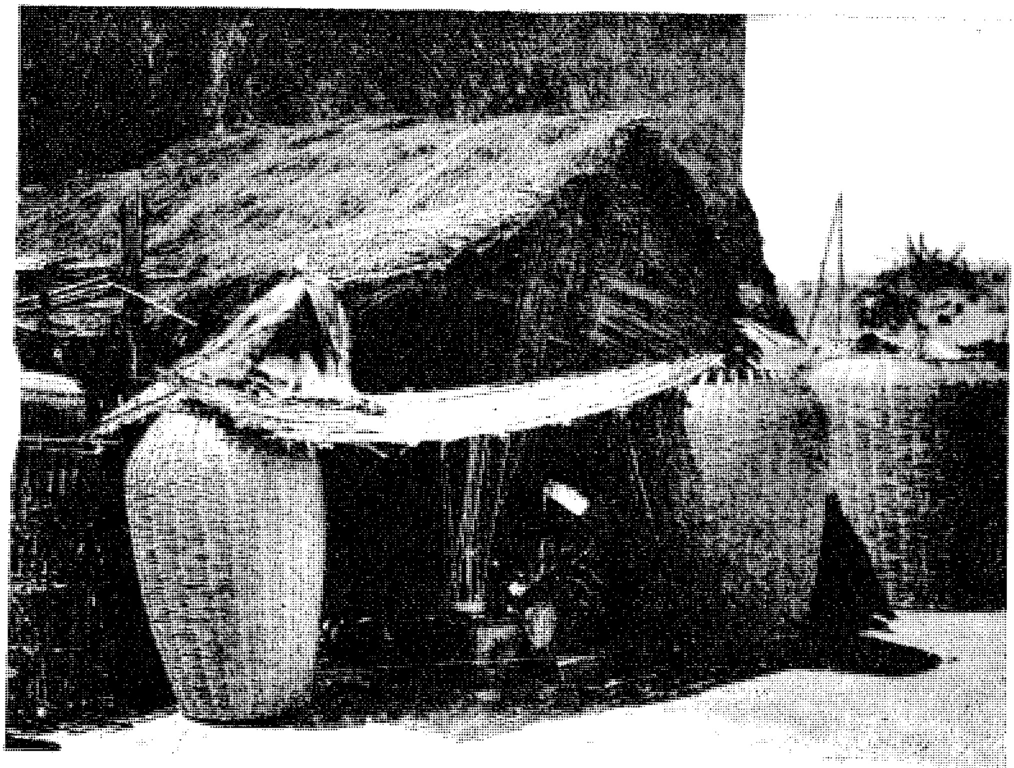
قماش محشو بالتبن على هيكل خشبي ، تعد هذه البراذع لحمالي فاس والبدويين .



اللوحة 57

سلال بباب محروق

يصنع هذا الصانع مكنسات من الدوم بالمقبض او بدون مقبض ، وسلالاً من القصب أو الخيزران ، وتشاهد الخيزرانات وهي مسندة على الجدران ، وتستعمل كمادة خام ، وتنبت في البساتين بفاس.



اللوحة 58

سلال خارج باب محروق

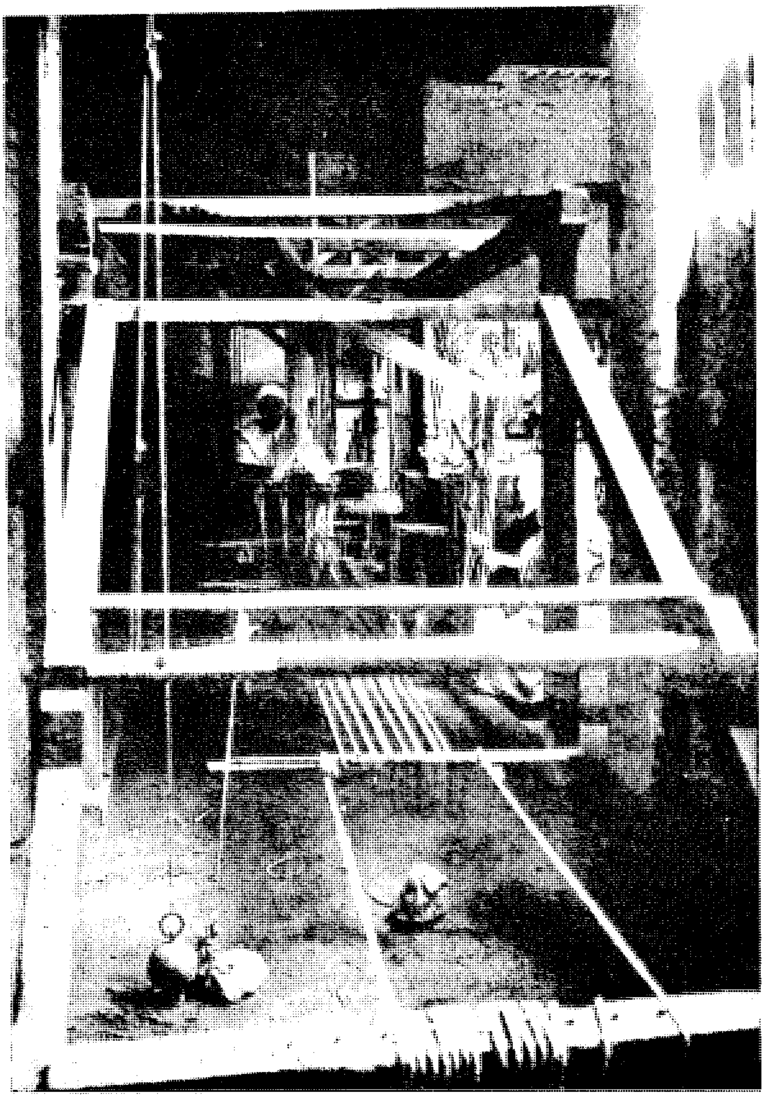
تشاهد على اليمين سلال كبيرة للحبوب (محفة) ، وعلى اليسار اقفاص دجاج وفوقها قفص حمام او طيور مغردة .



اللوحة 59

مدبغة بفاس وهي تشتغل

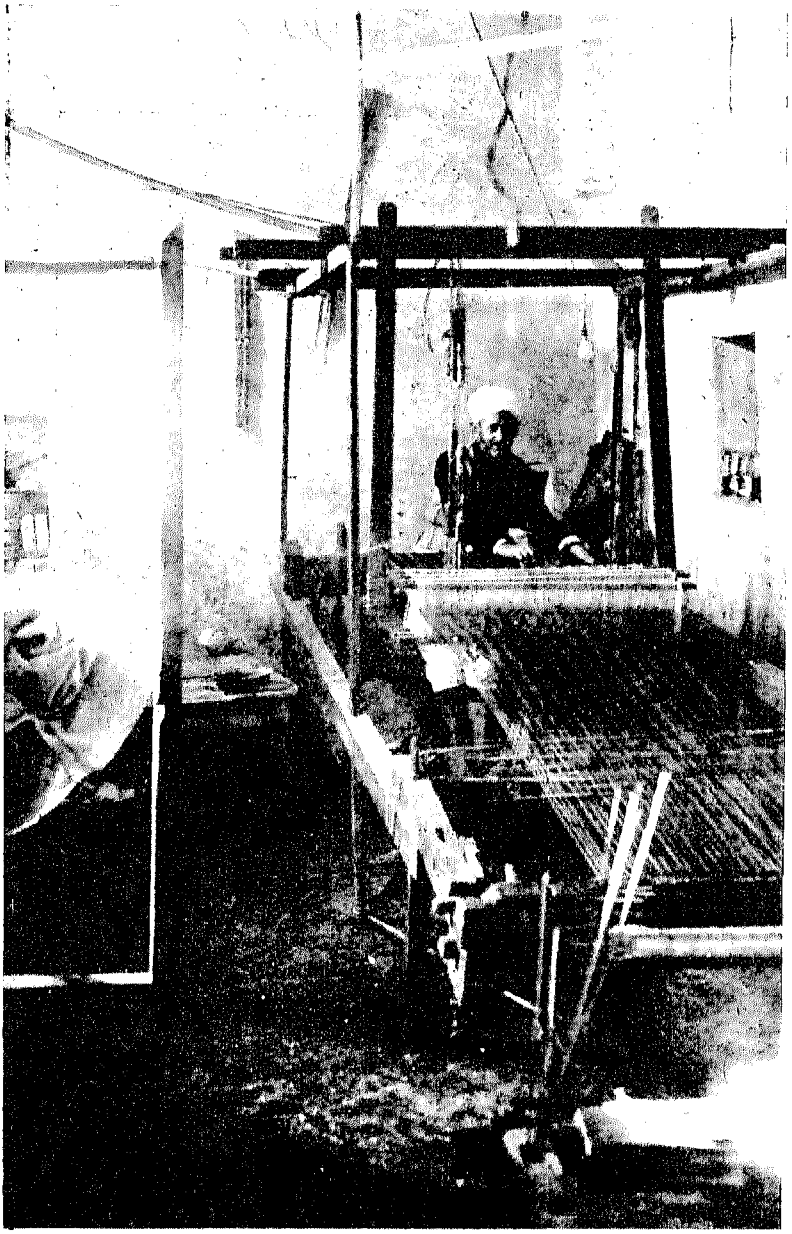
تبين الصورة أحد الأجزاء الثلاثة لمدبغة شوارة . وتشاهد في المقدمة الجفان والأحواض ، الجفان فردية ، والحوض الموجود على اليسار ، مشترك بين جميع دباغي الجزء ، وهو يستعمل لغسيل الجلود . وتوجد في الطريق العليا معامل تطرية الجلد ، وعلى السطوح وعلى طول الجدران جلود الماعز وهي تجفف .



اللوحة 60

معمل نساج

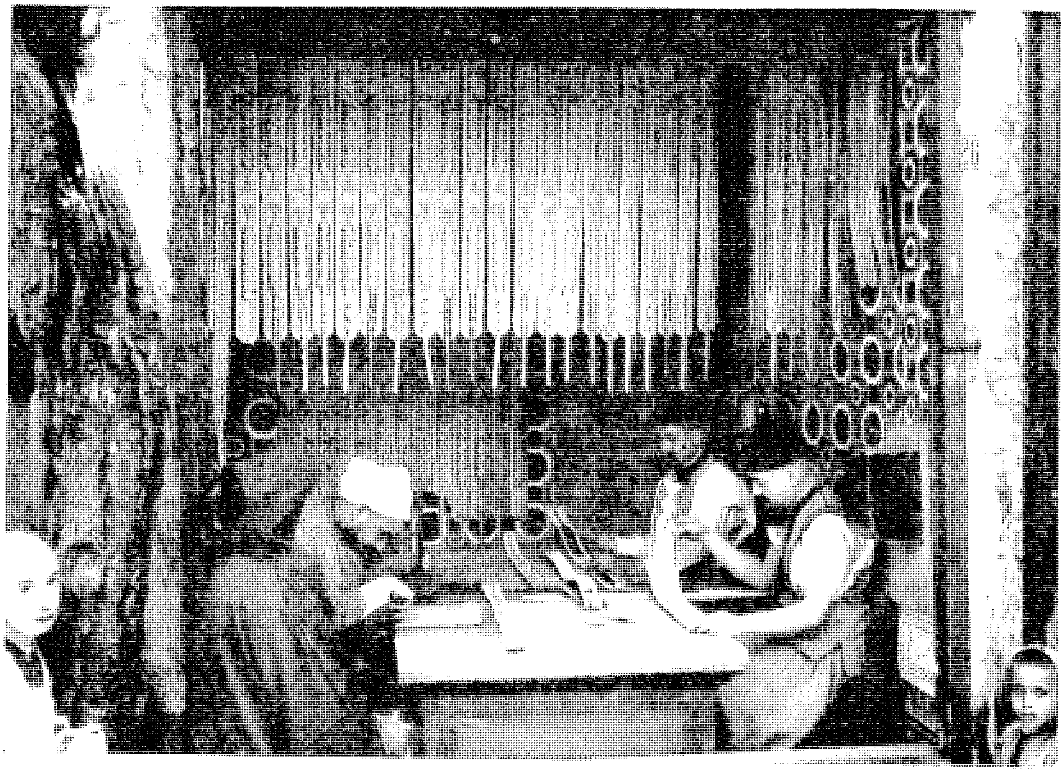
نول ذو حبالة كبيرة مجهز لنسج مناطق الزينة لنساء فاس .



اللوحة 61

نول النسيج

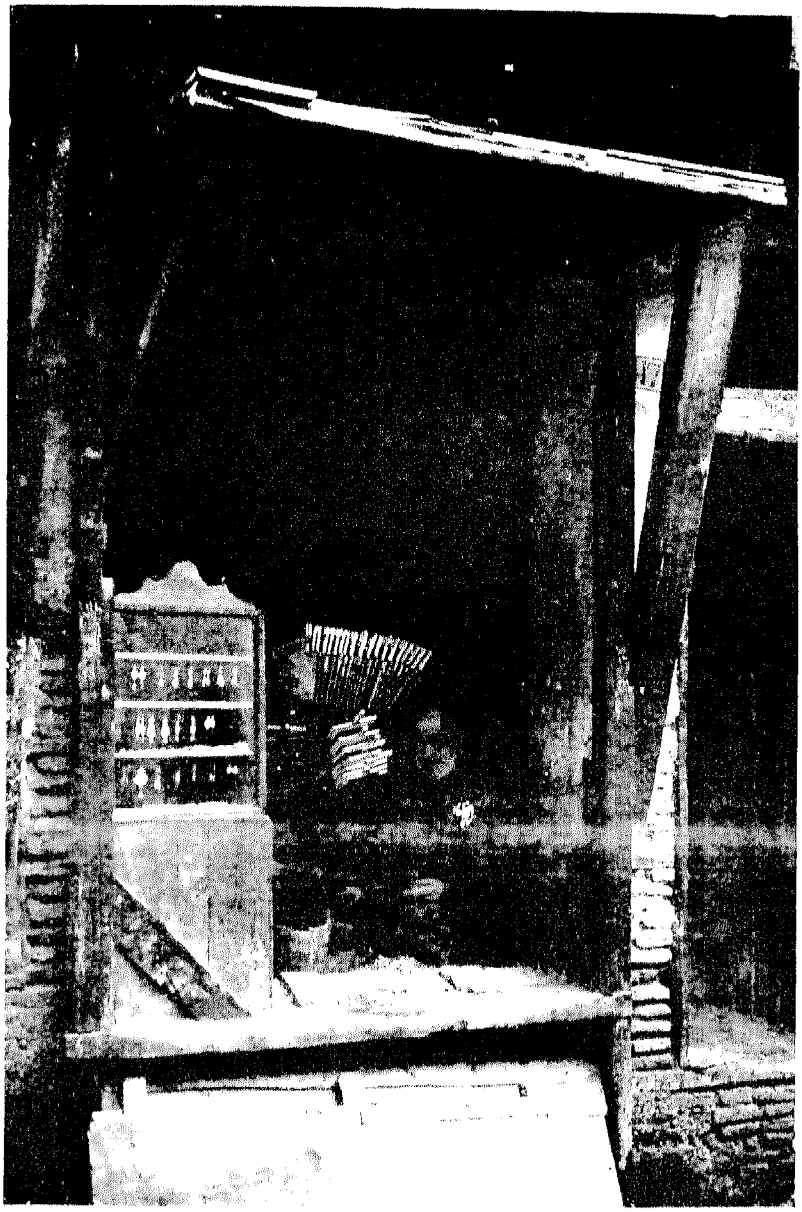
نول ذو حبالة كبيرة مجهز لنسج أغطية من الكريب . لا يشغل هذا النول إلا عاملاً واحداً ، بينما الأنوال للمنسوجات العادية ، وهي أكثر عرضاً ، تشغل عاملين اثنين .



اللوحة 62

معمل لصانع المناطق

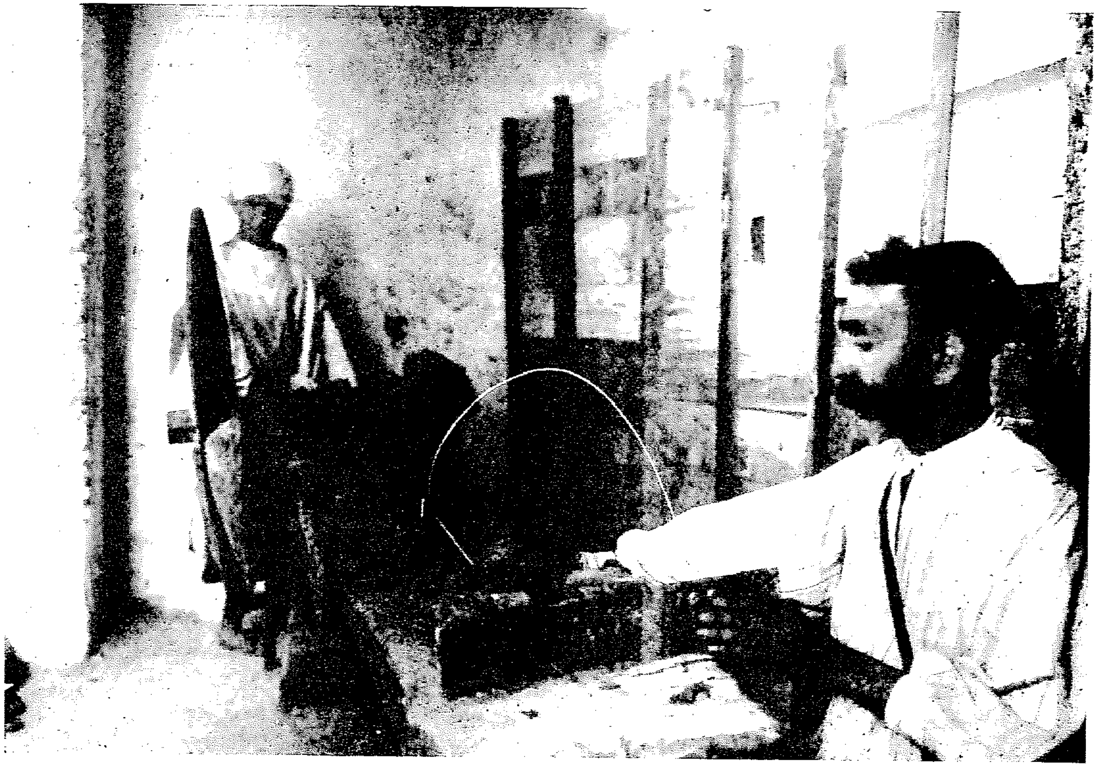
المناطق من الجلد المغشى تماماً بتطريزات بالخيط الذهبي والفضي . يرتدي الصناع الموجودون على اليمين اللباس الفاسي ، لأن هذه الحرفة يزاولها صناع من أصل مدني موسرون نسبياً . والشخص الموجود في المقدمة على اليسار برجوازي أو أحد العلماء جاء ليقضي بعض الوقت عند الصناع ، كما يفعل ذلك الكثير منهم .



اللوحة 63

الصناع اليهود ، صانع نفاشات الصوف

صانع مقيم بالمدينة (ناحية قنطرة بوروس) في داخل الدكان نفاشات جاهزة للبيع . وعلى اليسار خزانة ذات رفوف صغيرة تحتوي على حلي من الفضة معد للبدويين العابرين أو للسكان شبه البدويين في الأحياء المحيطة .



اللوحة 64

الصناع اليهود : قالد الذهب والفضة

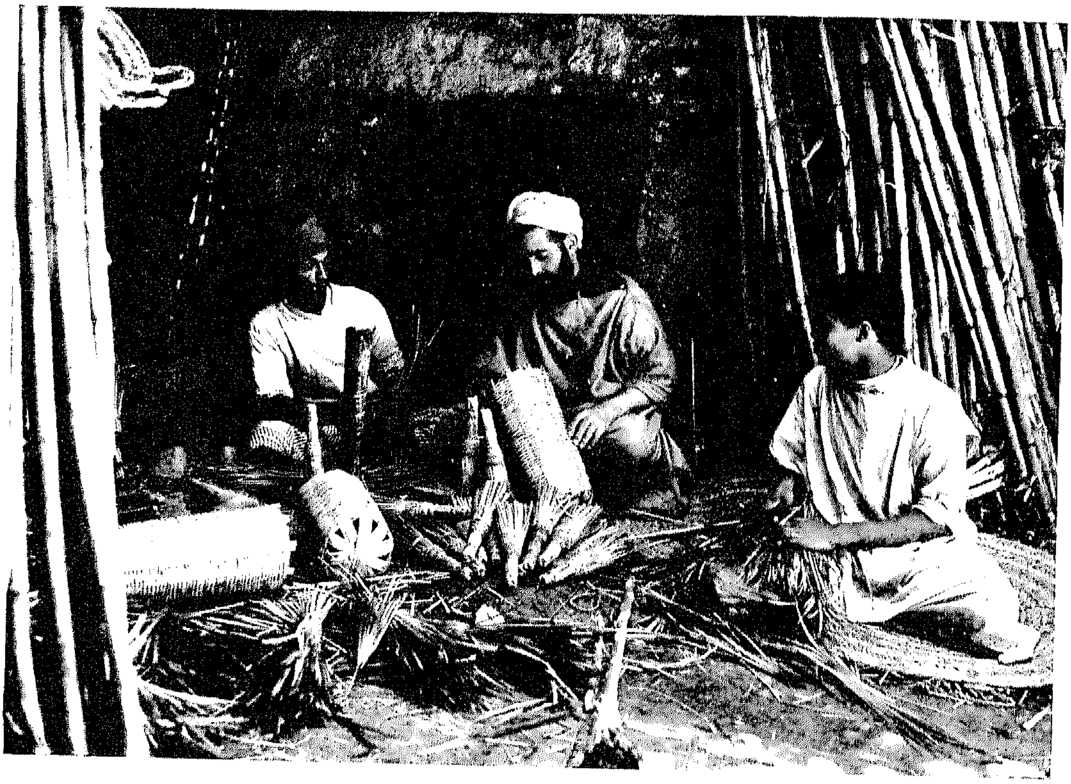
حرفة بدائية أقيمت بالمدينة (بدار السكة) . العامل اليهودي (في المقدمة) يساعده عون مسلم .



اللوحة 65

الصناع اليهود : مطرق الذهب

العامل بصدد تذويب الذهب ، لافراز الفضلات ، وبعد ذلك سيصنع سبائك سيطرقها للحصول على ورقات من الذهب متناهية الدقة .



اللوحة 66

أشخاص مثاليون لصناع فاس

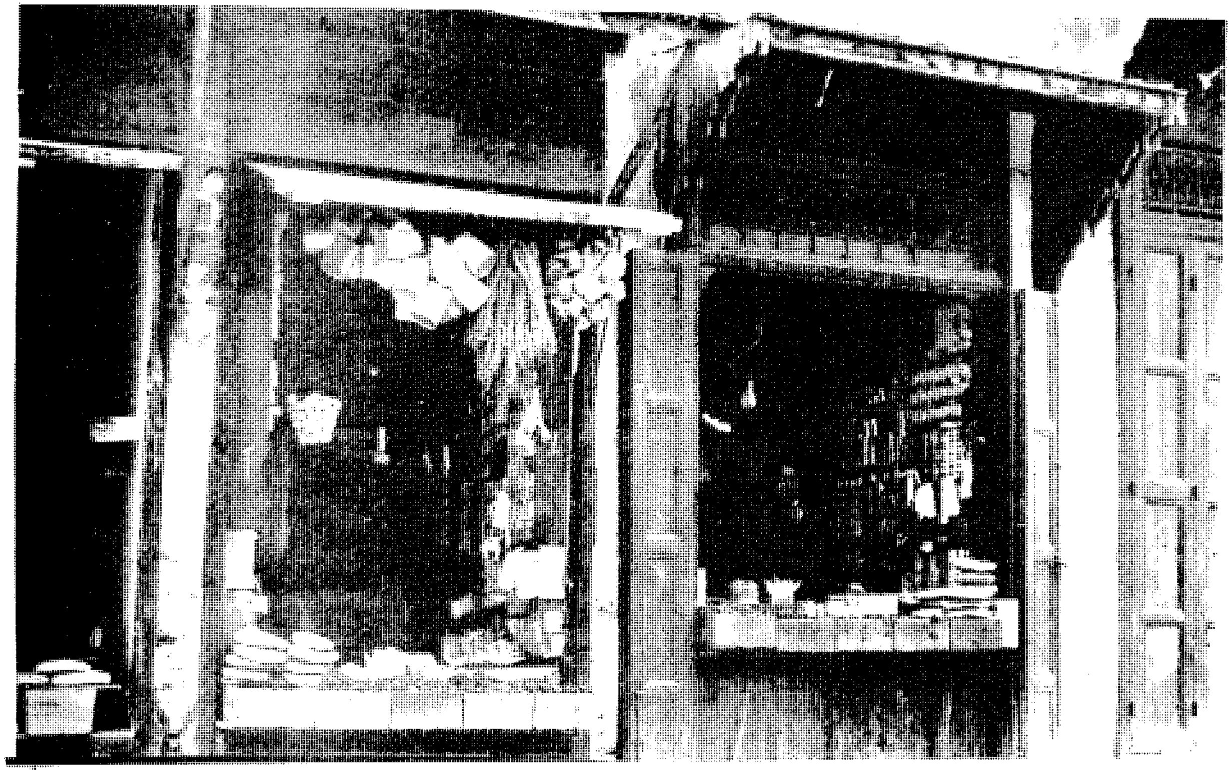
الشخص الذي يوجد في الوسط مقيم بفاس منذ زمن ، وقد اتخذ اللباس والهيئة لأحد الصناع القاسيين . والذي يظهر على اليسار صحراوي احتفظ بطاقية ولباس الغرباء . والذي يرى عن اليمين من أصل زنجي واضح : لا شك أنه ولد بفاس من أب فاسي وأم زنجية .



اللوحة 67

معالجة ركائز الأرز بباب عجيسة

ان الخشب الذي حمل من الأطلس المتوسط قد فصل جوائز من طرف النشارين على الطول ، خارج الباب . وستنقله البغال الى سوق الخشب الذي هو قريب جداً ، لكنه داخل الأسوار .



اللوحة 68

دكاكين التغذية لسوق صغير بأحد الأحياء (باب عجيسة)

ان هذه الدكاكين العصرية للتغذية ليست موافقة تماماً للشكل القديم ، نظراً للمواد الجديدة التي توجد فيها (علب التصبير ، أوان من الألـمنيـوم الخ) . الا أنه يشاهد فيها ، كما كان ذلك في القديم ، الخبز المعد لعابري السبيل ، والحبال ، والبيض والفواكه اليابسة



اللوحة 69

سوق متخصص : سوق الخضر (الجوطية)

أقيمت دكاكين بائعي الخضر عن يمين الساحة وتتابع في الزقاق الذي يمتد بهذه الساحة . وعلى اليسار سوق السمك ، وهو يموّن الآن من الساحل ، كما تبين ذلك الصناديق الموجودة في المقدمة .



اللوحة 70

« رف » للقيصرية

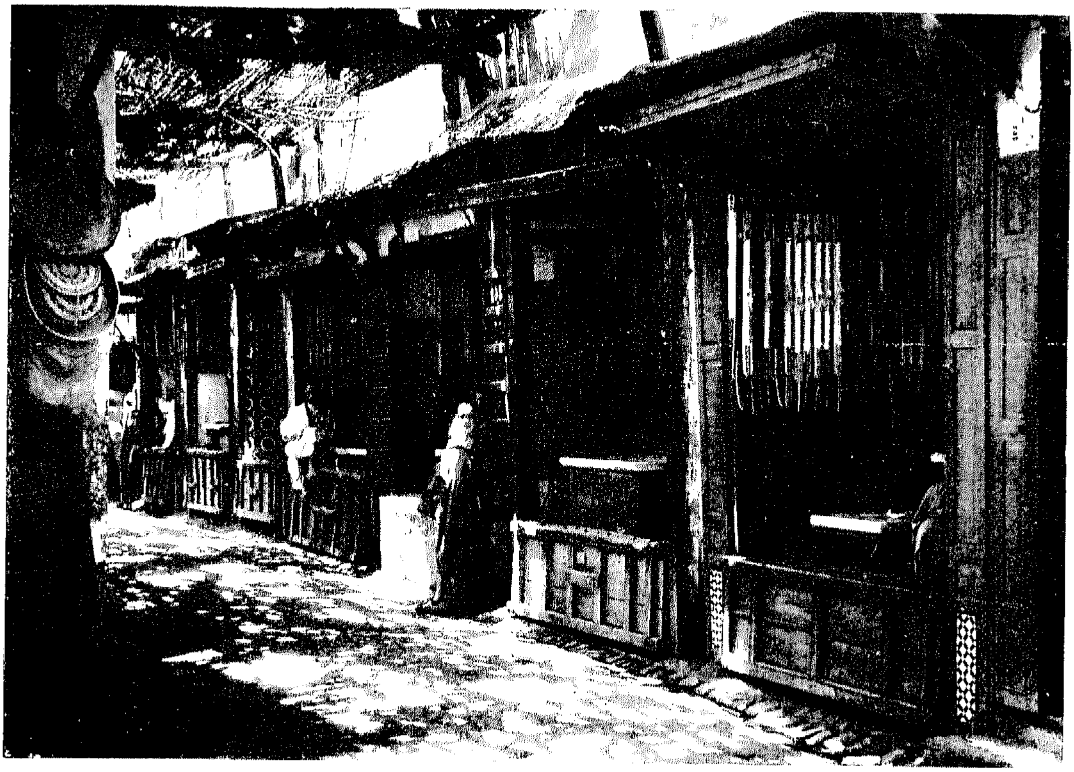
رف « لثياب جاهزة معدة للقرويين » (قبة المديني) . تشاهد ، وهي معلقة في أطناف الدكاكين ، جلالب للأطفال ، وترى من خلف قرويتان تتميزان بزيهما (مكشوفتا الرأس، بلا حائك ، ولا جلابة ، وحافيتان) وهما تقومان بشراءات .



اللوحة 71

سوق متخصص : سوق الحناء

في الأسفل ، بائعو الحناء ، والسلعة منشورة أمامهم ، وفي الطابق الأول بائعو الخزف الخشن . وتضفي شجرة التوت الموجودة في الوسط ، ظلاًّ منعشاً .



اللوحة 72

سوق متخصص ، سوق المضمّيين

ان الدكاكين السبعة التي تشاهد هنا ، الواحد بجانب الآخر ، متخصصة في صنع المضمات المطرزة بالذهب والفضة وبيعها (انظر اللوحة 62) .



اللوحة 73

سوق متخصص : سوق الخزف غير الملمع

جرات ، وقارورات ، وصحون ، وبرادات من الطين الأبيض ، والبرادات الموجودة عن اليسار قد زينت بالقطران من طرف البائعين انفسهم .



اللوحة 74

بيع الجلود المدبوغة بالمزاد

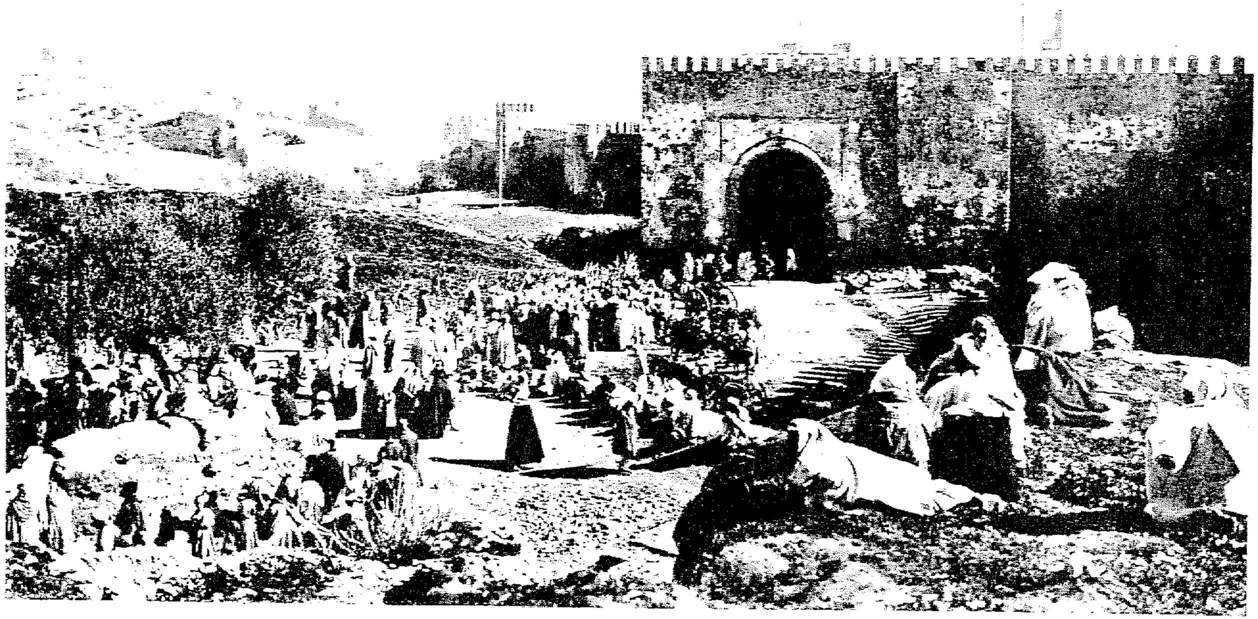
يقام البيع بفناء فندق السبطريين ويشاهد هنا الشراة ، والباعة والدلالة مختلطين بعضهم ببعض ، والمعاملات التجارية على أشدها .



اللوحة 75

منظر سوق الخميس

يتسارع جمهور القرويين ، في المقدمة أخبية الحلاقين المتنقلين أو العرافين . وفي المؤخرة ، بين القبور جمهور من المتطفلين أحاطوا بمشعوذ .



اللوحة 76

سوق الخميس قرب باب محروق

فلاحون جاثمون يبيعون بضاعتهم ، وقد دارت حلقة حول مهرج ، وفي المقدمة ، على اليمين متطفلون ، يجتاز فلاحون الباب ليقوموا بشراءات في المدينة .



اللوحة 77

سوق الخضر بالملاح

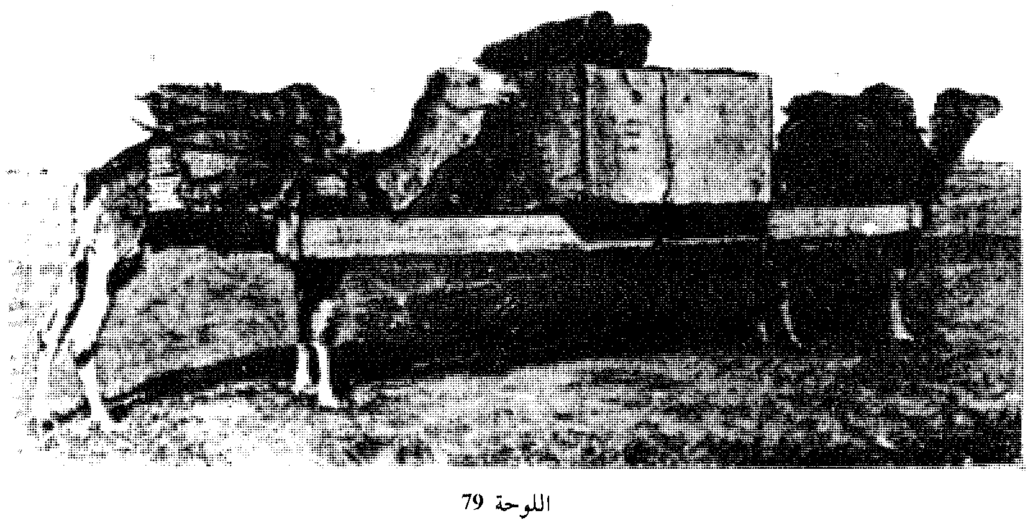
ان المسلمين ، وهم يتميزون بزيهم ، كثيرون جداً ، هم الباعة . ويحمل عدد كبير من النساء اليهوديات على أكتافهن الخمار التقليدي بأهدابه الطويلة . والنوافذ مفتوحة في جميع دور هذا الحي الحقير . وفي المؤخرة ، آثار برج مريني يرسم الحدود الأولية للحي .



اللوحة 78

مسلك للقوافل

رسم من انجاز اوجين لاكروا . يتعلق الأمر بمسلك يلتحق بسهل الغرب عبر فتحة واد الردم الذي يلي على اليمين ، وهو يمتد على طول كتلة جبل زرهون غرباً . وفي المقدمة ، فارس مسلح ، وفي المستوى الثاني دابة محملة ، في مؤخرة قافلة صغيرة .



اللوحة 79

جملان يحملان محفة

شبه محمل من خشب توضع عليه الطرود غير القابلة للتقسيم والتي هي مفرطة الثقل بالنسبة لحيوان واحد .



اللوحة 80

عالم خارج من جامع القرويين

يرتدي العالم لباساً أبيض ، ويتأبط تحت ذراعه الأيسر لبدته التي يشاهد طرفها .



اللوحة 81

طالب يشتغل

يطالع الطالب (وهو قروي مسن) كتاباً قد فك أوراقه ، وهو جاثم على فراشه . وتوجد مفاتيح حجرته عند رجليه .



اللوحة 82

حفلة سلطان الطلبة

وصول الموكب الى ضريح سيدي علي بوغالب في المقدمة السلطان ممتطياً فرسه، ومظللاً بمظلته ، ومحاطاً بخدمه . وحوله جمهور المتطفلين ، من بينهم نساء كثيرات العدد جداً ومقنعات . وفي المؤخرة حي العيون وبرج الشمال .



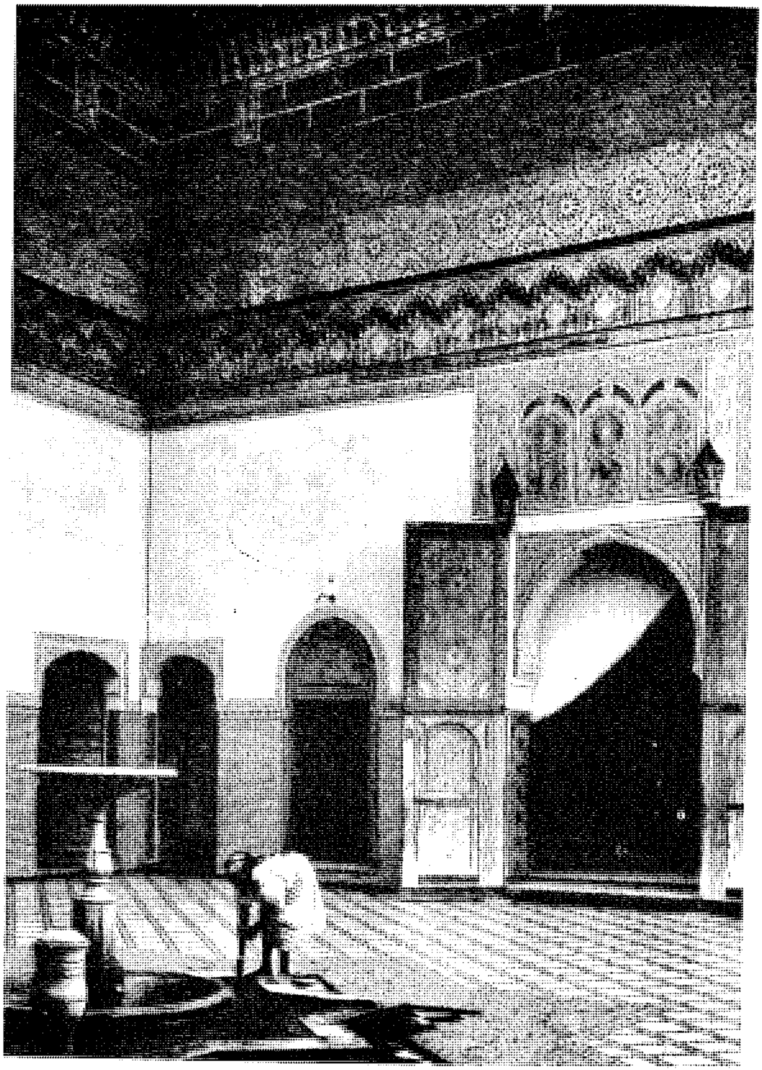
اللوحة 83
حفلة سلطان الطلبة



اللوحة

نموذج للمطبعة الحجرية بفاس

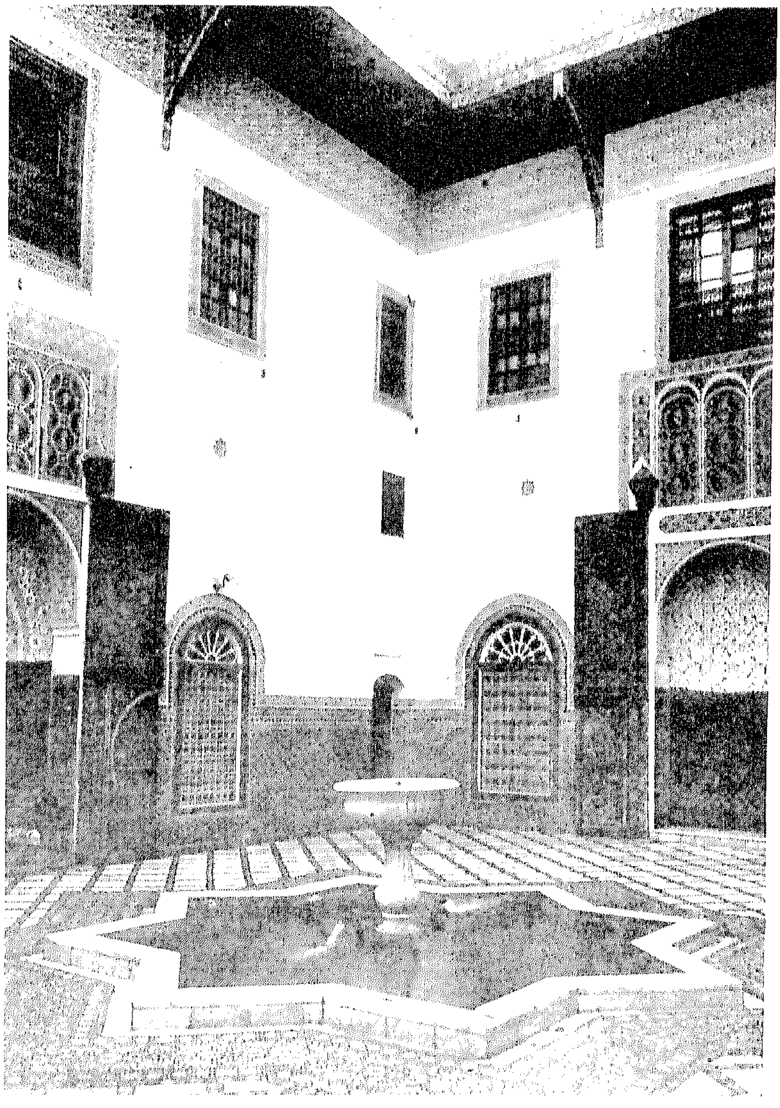
صحيفة من سلوة الأنفاس (جزء 1 ، ص 346) مستخرجة من ترجمة خصصت للشرفاء الطاهريين الصقليين لحي الكُيزا. النص المكتوب داخل الإطار هو بخط الناسخ ، والهوامش المكتوبة بخط آخر . هي اضافات زيدت فيما بعد على نسخة الرباط ، وهي غير مثبتة في نسخة الجزائر .



اللوحة 85

فناء دار فخمة

التلبيط بالرخام برقع من الزليج ، وحول الصحن ، زخرفة فاخرة من الفسيفساء المتعددة الألوان ، وعلى طول الجدران ، يرتفع الزليج تقريباً الى علو قامة الانسان ، وقبة الأبواب مؤطرة برسم من الجص المنقوش ، كما يوجد رسم آخر من الجص فوق الباب الرئيسي . والمصراعان من الخشب المنقوش ، وتشاهد بويبات مفتوحة فيه ، ويمكن أن يسدل ستار مطوي لسد المدخل دون أن يوصد الباب . وفوق الجزء الأبيض للجدران قطع هائلة من الخشب المنقوش المصبوغ . وفوق الجزء الأبيض للجدران قطع هائلة من الخشب المنقوش المصبوغ . وفوق الجزء الأبيض للجدران قطع هائلة من الخشب المنقوش المصبوغ . والباب الصغير عن اليسار هو الذي يفضي الى الزقاق ، عبر ممر على شكل حربة ، والباب المجاور له على اليمين هو باب مدرج أو ملحقة .



اللوحة 86

داخل دار برجوازية

نفس الترتيب الذي في اللوحة 84 ، مع ترف أقل بعض الشيء . ان غرف الطابق موصول بعضها ببعض بممر لا بشرفة .



اللوحة 87

رياض قصر البطحاء

هو عبارة عن مستطيل واسع مسيج من جميع الجوانب ، وفي كلا الطرفين الصغيرين مباني اقتبال أو سكن ، وعلى طول الطرفين الكبيرين ، رواق مكشوف . وفي الوسط ، أربعة مستطيلات كبيرة من البسط الخضراء ، تفصل بينها مجازات من الفسيفساء المتعددة الألوان ، وفي الوسط الحصن الصغير الذي يرى في المقدمة .



اللوحة 88

أزياء مغربية حسب (أوجين لاكروا)

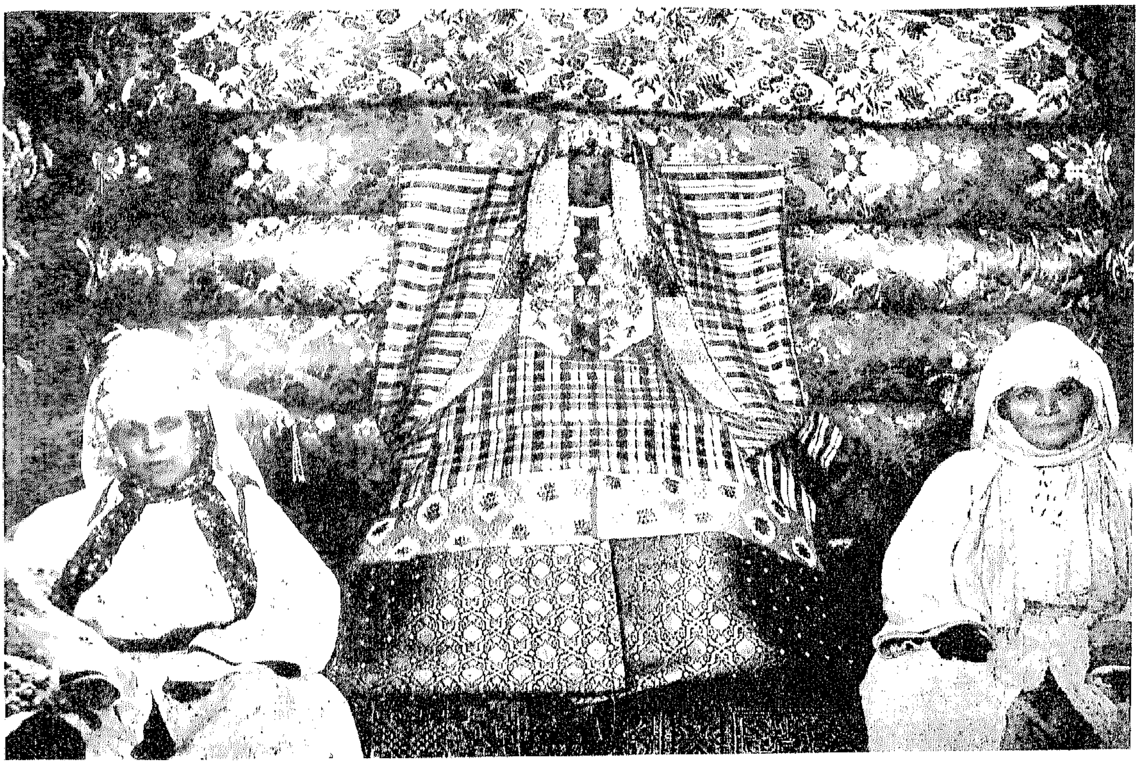
في الأعلى من جهة اليسار ، برجوازي مرتد لباساً أبيض ، ملتف في كسائه ، متأبط لبدته تحت ذراعه اليسرى . وفي الأسفل التوارك المميز لرجل أدخل منذ قليل ذراعه في كم جلبابه . وفي الأسفل على اليمين ، ثنيات خمار النساء .



اللوحة 89

أزياء مغربية حسب (أوجين لاكروا)

لا يصادف الا بفاس الشخصان المرسومان في الأسفل على اليمين . والذي يوجد على اليمين شخصية مخزنية ملتفة بمعطف طويل أبيض ، والآخر أحد خدم المخزن ، وهو يرتدي « قفطاناً » ملوناً ، يرى أسفله ، فوقه « فرجية » طويلة بيضاء ، مشدودة بخزام رخو . وهذا الزي هو أيضاً زي البرجوازيين المسنين عندما يكون الطقس بارداً .



اللوحة 90

عرض عروس

تمثل العروس هنا دمية ، لكن الملابس حقيقية، وهي متكئة على كدس من الوسادات المغشاة بقماش ليون . وفي كلا الجانبين خاطبتان . أخذت الصورة سنة 1939 حيث لم تعد بعد جميع الخاطبات زنجيات .



اللوحة 91

كتاب قرآني

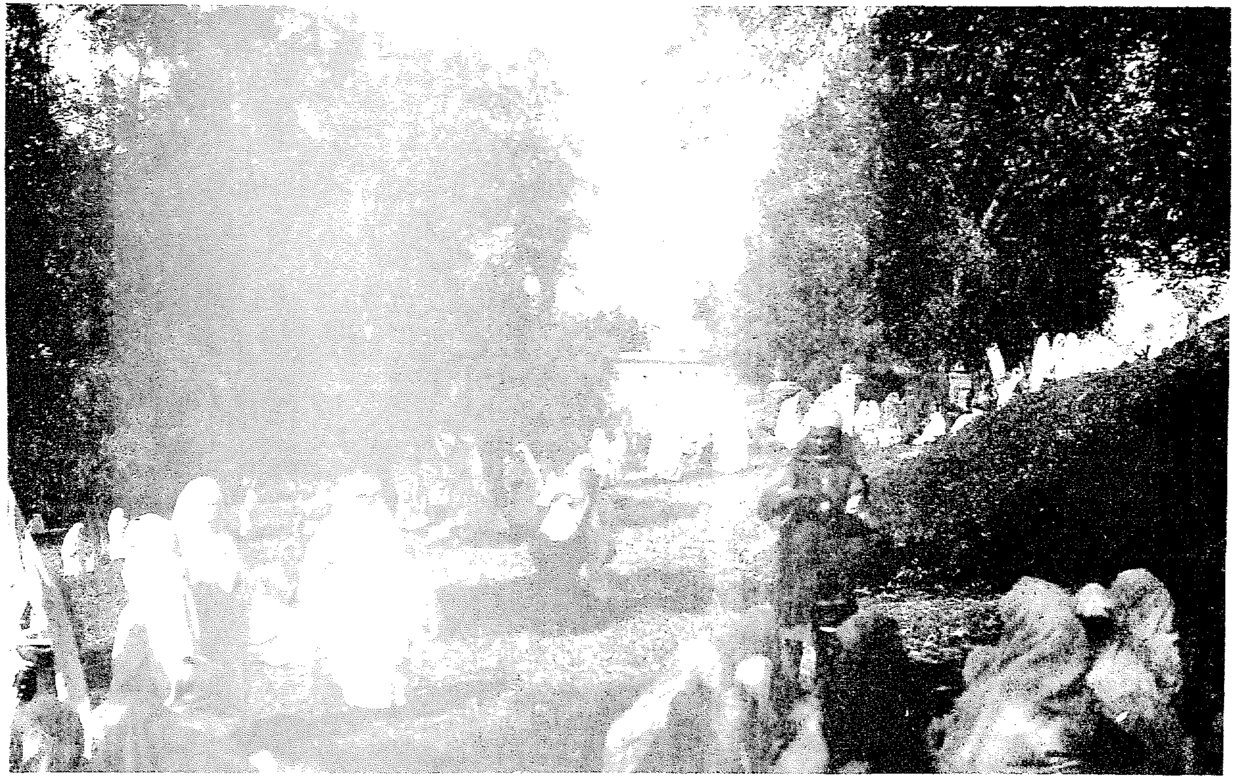
الأطفال محيطون بالمعلم وهم جالسون على حصر ضريح يستعمل كقاعة دراسة (في حي كَرْنيز) وتلاحظ من بينهم ، في الوسط ، صبية محجبة ، ومعظم الألواح معلقة في جدار المؤخرة . ويمسك المعلم قضيباً في يمناه .



اللوحة 92

نساء في المقبرة يوم الجمعة

يجري المشهد في مقبرة باب فتوح ، خارج الأسوار . تنتمي النساء ، وهن محجبات ومرتديات الحايك (انظر اللوحة 88) الى المجتمع الرفيع ، وكثيراً ما يكن مصحوبات باولادهن . وفي الوسط ، أمة متميزة بوجهها المكشوف ، وهي تقود ابني مولاتها ممسكة بيدهما .



اللوحة 93

نساء في المقبرة يوم الجمعة

في المقدمة ثلاث نساء ، من بينهن أمة ، وهن جالسات مع أطفال ، ويتأهبن لتناول الشاي . وفضلاً عن الصبيان الصغار ، فان الرجال الوحيدين الذين يسمح لهم بالدخول الى المقبرة ذلك اليوم هم السقاؤون ، ويرى احدهم في المستوى الثاني على اليمين .



اللوحة 94

اقبار « فقير » في مقبرة باب الحمراء

لقد غطى القبارون الجثة منذ قليل ، وتتلى الصلوات الأخيرة ، والسور الذي يشاهد طفل فوقه ليس سور المدينة ، ولكن السور الداخلي الذي يقي حي الكُزيرة . وفيما وراء شجر الصفصاف وأعلى أسوار رياض السيد فضول غرنيط وفي المؤخرة الأحياء العليا لعدوة القرويين ، والتغات عن اليسار وبرج الشمال عن اليمين .



اللوحة 95

عزف في موكب

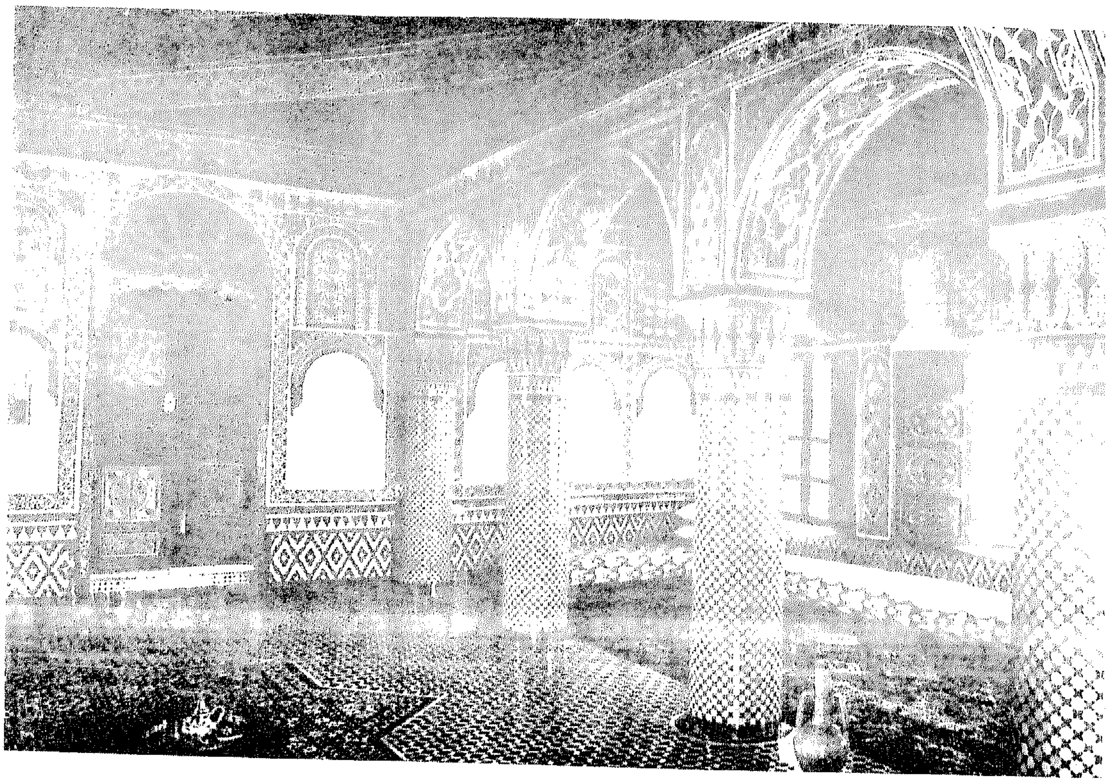
يُشاهد هنا ، من رسم (أوجين دولاكروا) ضارب على الطبل ونافخ في « الغيطة » وشدقاه منفوخان من شدة النفخ .



اللوحة 96

موكب حمالي الأطباق

تمثل هذه الصورة ، التي أخذها (الكونت دوبويسوري) في قصر البطحاء (جهة الشرق ، انظر اللوحة 87) خدام المخزن حاملين لممثل الحكومة البلجيكية غذاء قدمته اليه الحاشية الشريفة ، الأطباق الساخنة مغطاة بغطاء ملمع ، والمخروطات الكبيرة المنسوجة بالحلفاء التي تشاهد في المؤخرة تغطي أطباق الكسكسو ، والحلويات « والبسطيلة » . ويعد أربعة عشر طبقاً على الأقل .



اللوحة 97

داخل دار يهودية

زخرفة شبيهة بزخرفة الدور الاسلامية ، لكنها مفرطة شيئاً ما . ويدل لمعان الزليج على أن الأمر يتعلق ببناء حديث جداً .



اللوحة 98

زي اليهوديات في أوائل القرن التاسع عشر

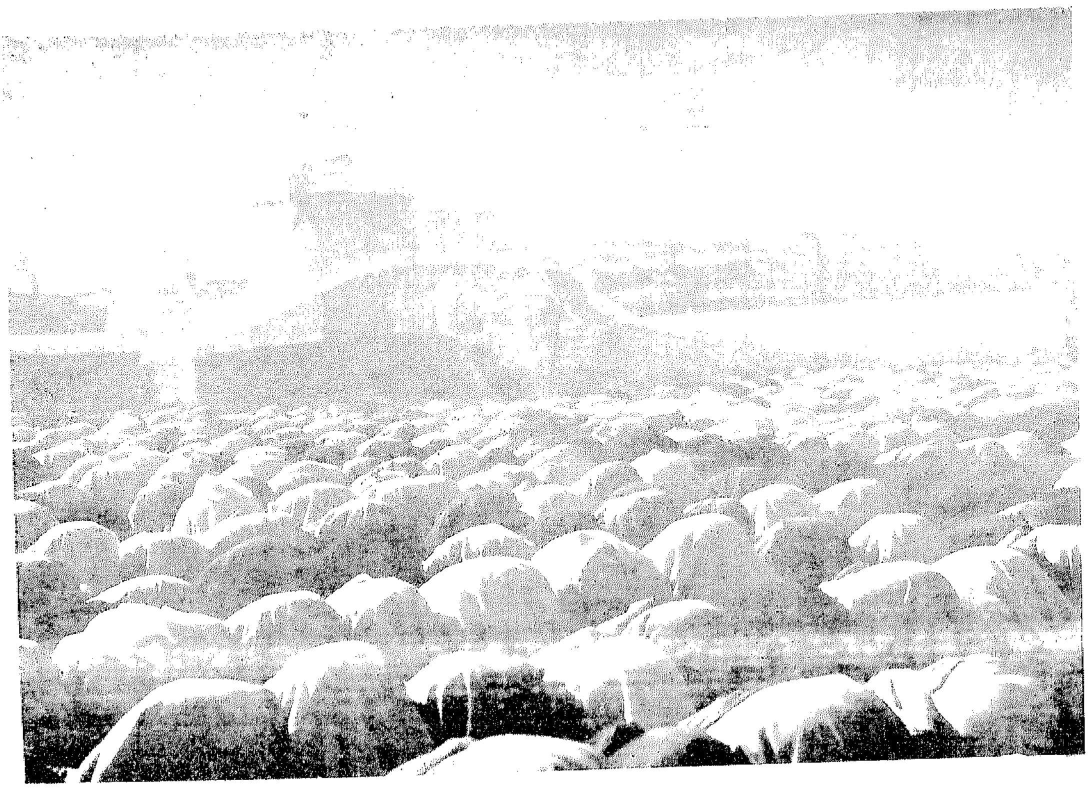
صورة مائية أنجزها (أوجين لاكروا) بمكناس . ليس زي يهوديات فاس مخالفاً في شيء لهذا الزي ، الذي يلاحظ شبهه بالملابس النسوية القديمة بأوروبا .



اللوحة 99

زي اليهوديات في أوائل القرن التاسع عشر

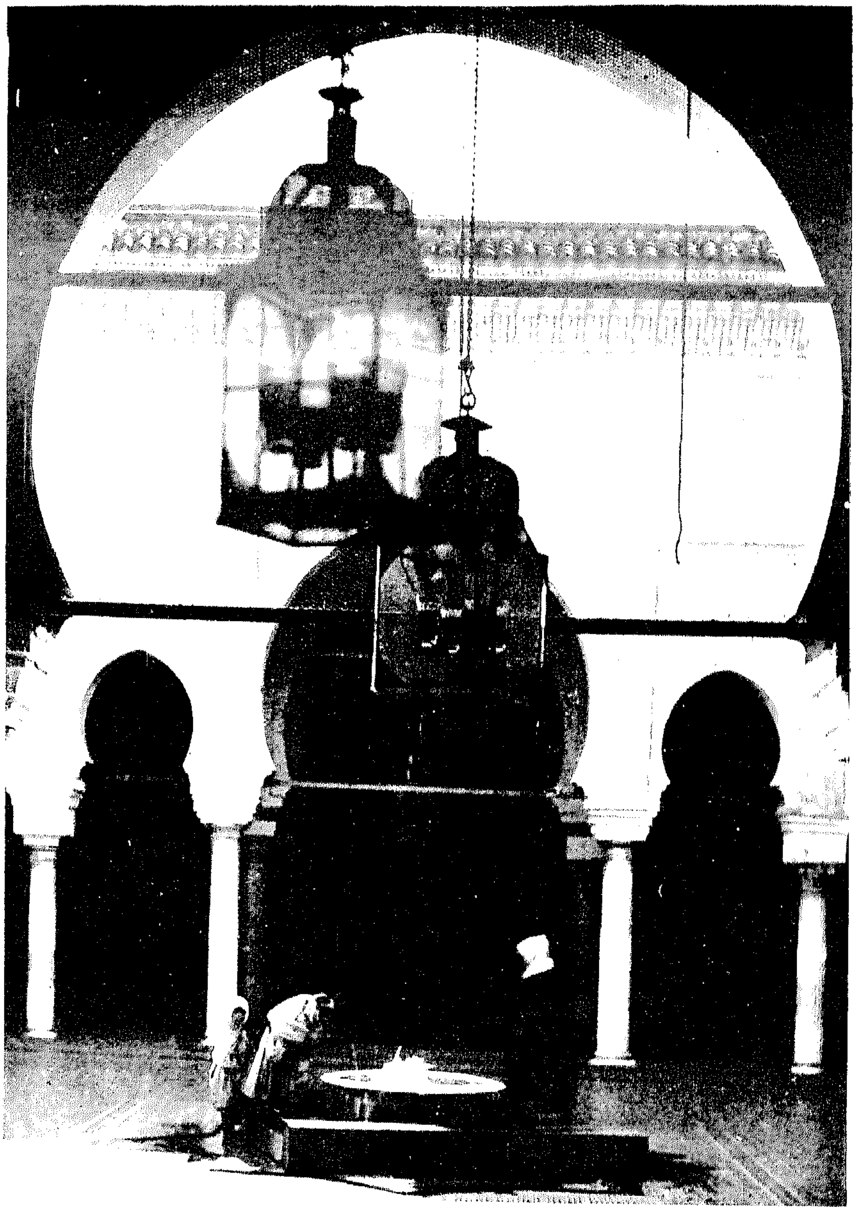
رسم من انجاز (أوجين دولاكروا) حلى متعـدد (نلاحظ حتى أقراطاً كبيرة تدعمها أنواط مربوطة في زينة الرأس) . وسترة فضفاضة تبلغ الخصر (بوليرو) بلون ناصع (ويلاحظ على اليسار وفي الأسفل التقييد : « بنفسجي ») وفوقه تطريزات ذهبية . زي فاخر وجذاب .



اللوحة 100

صلاة الجمعة بمصلى باب ساكمة

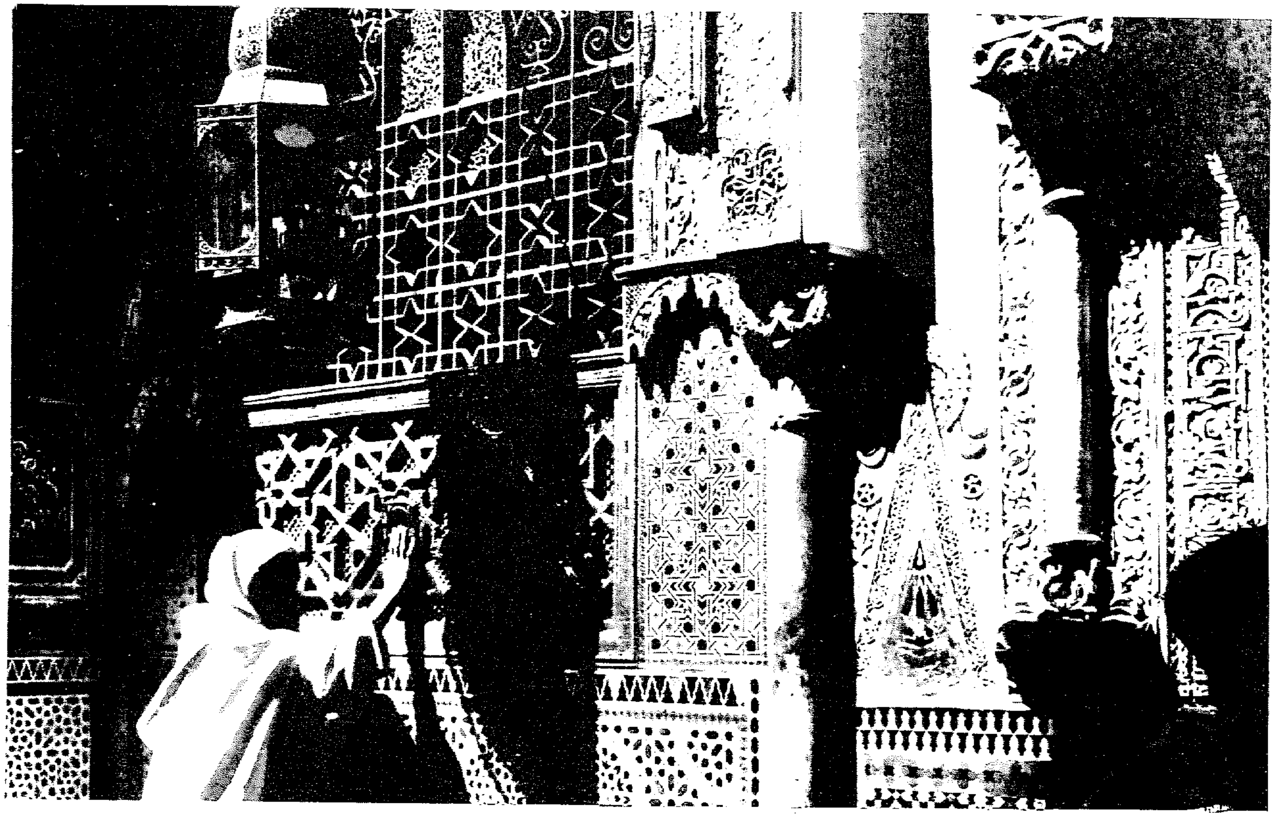
يظهر البناء في المستوى الثاني الاتجاه نحو مكة (القبلة) . ويرى في المقدمة المؤمنون وهم ساجدون نحو المدينة المقدسة . وفي المؤخرة ، على اليسار ، صومعات فاس الجديد ، وعلى اليمين ، سهل سايس ، وحدائق دار دبيبغ ، والأطلس المتوسط (جبل كندر) والبنايات البيضاء للمدينة الأوروبية .



اللوحة 101

صحن ضريح مولاي إدريس

في المؤخرة قاعة الصلاة ، وعلى الحائط لوحة كبيرة يمكن أن يقرأ فيها اسم الله بأحرف كبيرة ، ويوجد قبر الولي والقبة الهرمية التي تحتضنه عن يمين الصورة ، والصومعة عن اليسار (انظر اللوحة 30 والرسم 35) .



اللوحة 102

صندوق مولاي إدريس

تمثل الصورة الجدار الخارجي للضريح (الجانب الجنوبي ، انظر الرسم 35) . إن الشخص الذي يرى عن اليسار يضع يده على فتحة الصندوق حتى يتشبع بالبركة المنبثقة منها .



اللوحة 103

موسم سيدي أحمد البرنوصي

أخبية الزوار ودوابهم في الجانب الشمالي للجبل ، بين المصطكا والبطم ، ويرى ، في المقدمة ، قرويون ، لكن الفاسيين يوجدون هنالك بكثرة : ويشاهد منهم واحد ، مباشرة عن يسار الدابة في المقدمة .



اللوحة 104

موسم سيدي أحمد البرنوصي

يشكل الزوار حلقة ليشاهدوا المشعوذين أو اطلاق البارود من طرف راجلين وفي المؤخرة ، تلال لمطة .



اللوحة 105

استعراض عيساوة بمناسبة المولد النبوي

صورة التقطت من خارج الأسوار ، بين باب محروق وباب ساكمة ، وترى على اليمين رايات الطائفة . ويحضر هذا المشهد نساء عديدات .

G. SALMON. *Sur quelques noms de plantes en arabe et en berbère*, in Arch. Mar, VIII (1906), 1-98.

André E. SAYOUS. *Fès et les Fassis*, extrait de la Revue Économique Internationale (juin 1930), Bruxelles, 1930.

E. SECRET. *Moulay Yacoub guérisseur*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.

E. SECRET. *Les hammams de Fès*, in Bull. de l'Institut d'Hygiène du Maroc, nouv. série, II (1942), 61-77.

Ahmed SEFRIOUI. *La nuit du vingt-septième jour du Ramadan*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.

Ahmed SEFRIOUI. *Les rites de la naissance*, ibid.

de SEGONZAC. *La pénétration économique du Sud marocain*, in Rens. col., juin 1905, 205-210.

Y. D. SÉMACH. *Une chronique juive de Fès, "le Yahas Fès" de Ribbi Abner Hassarfaty*, in Hesp., XIX(1934), 79-94.*(Chronique)*.

Y. D. SÉMACH. *Le saint d'Ouezzan, Ribbi Amran ben Divan, et les saints juifs du Maroc*, in Bull. de l'ens. publ., du Maroc, mars 1937 et juin 1938 *(Le saint d'Ouezzan)*.

SERVICE DES TRAVAUX MUNICIPAUX DE FÈS. Plan de Fès au 1/1.000^{e}.

Fathi TAZI. *Histoire du Taleb Sidi Laaziz*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.

H. TERRASSE. *La Mosquée des Andalous à Fès*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XXXVIII, Paris, s.d.

H. TERRASSE. *Une porte mérinite de Fès IDID*, in Annales de L'Institut d'Etudes Orientales, VI (1942 - 1947).

Dr. WEISGERBER. *La ville de Fès*, in Rev. fr. de l'étranger et des colonies et Exploration, t. XXIV (1899), 591 et suiv.

Dr. WEISGERBER. *Description de la ville de Fès*, in C. R. de la Soc. de Géographie, juin 1899.

Mohammed ZEGHARI. *Le msid*, in Bull. de l'ens. publ. du Maroc, n° 159 (1938), p. 198-206.

Dr. RENAUD. *La peste de 1818 au Maroc*, in Hesp., III (1932), 21 et suiv.

Dr. RENAUD. *Recherches historiques sur les épidémies du Maroc. Les pestes du milieu du XVIII^e siècle*, in Hesp., XXIV (1939), 293-319.

Ch. RENÉ-LECLERC. *Le commerce et l'industrie à Fez*, in Rens. col., juillet-août-septembre 1905, 229-253, 295-321, 337-350.

Ch. RENÉ-LECLERC. *Fondouks*, in France-Maroc, 1917.

P. RICARD. *Le Dar Adiyel*, in France-Maroc, 15 sept. 1919.

P. RICARD. *Les métiers manuels à Fès*, in Hesp., IV (1924), 205-224.

P. RICARD. *Le Mouloud à Fès; Les Aïssawa*, in France-Maroc, 14 mars 1917.

P. RICARD. *Le souq et Morqtane et les broderies de Fès*, in France-Maroc, n° 1, 1917.

P. RICARD. *Renaissance de la reliure d'art à Fès*, in Bull. de l'ens. publ. du Maroc, 1922.

P. RICARD. *L'artisan de Fès*, in France-Maroc, 15 sept. 1918.

R. RICARD. *Les deux voyages du P. Fernando Contreras à Fès*, in Hesp., XIX (1934), 39-44.

R. RICARD. *Le Maroc septentrional au XV^e siècle d'après les chroniques portugaises*, in Hesp., XXIII (1936), 89-143.

R. RICARD. *Les places portugaises du Maroc et le commerce d'Andalousie*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938), 129-156.

de LA RONCIÈRE. *La première mission française au Maroc*, in Le Correspondant, 25 juin 1901.

L^t-Col. SALANIÉ. *Causerie inédite sur Fès*, in Arch. des Services Municipaux de Fès,

G. SALMON. *Le commerce indigène et le marché de Tanger*, in Arch. Mar., I (1904), 38-55.

G. SALMON. *Les chorfa idrisides de Fès*, in Arch. Mar., I, 425-459.

G. SALMON. *Les chorfa Filala et Djilala de Fès d'après Ibn al-Tayyib al-Qadiry*, in Arch. Mar., III, 97-118.

G. SALMON. *Le droit d'asile des canons*, in Arch. Mar., III, 144-153.

G. SALMON. *Le culte de Moulay Idris et la Mosquée des Chorfa à Fès*, in Arch. Mar., III (1905), 413-429.

MICHAUX-BELLAIRE. *Essai sur l'histoire des confréries marocaines,* in Hesp., I (1921), 141-159.

MICHAUX-BELLAIRE. *Fès et les tribus berbères en* 1910, in Bull. de l'ens. publ, au Maroc, n° 37 (janv. 1922).

MICHAUX-BELLAIRE. *Conférences,* in Arch. Mar., XXVII (1927).

MICHAUX-BELLAIRE. *Le Touat et les chorja d'Ouezzan,* in Mémorial Henri Basset, II, 139-151.

MICHAUX-BELLAIRE et SALMON. *El Ksar el Kebir,* in Arch. Mar., II (1904).

R. MONTAGNE. *Le développement du pouvoir des caïds de Tagontaft,* in Mémorial Henri Basset, II, 169-184.

E. MONTET. *Études orientales et religieuses,* Genève-Paris, 1917 (Sur Fès, p. 269-276).

Guy MORIZET. *La Medina (Fès et Bali). Emplacement des principaux fondouks,* plan au 1/2.000e.

al MOUTABASSIR. *Ma el Aïnin,* in R. M. M., I (1907).

Mlle MUZEAU. *Note sur le trousseau des nouveau-nés marocains,* in Arch. inéd. des Amis de Fès.

P. ODINOT. *La grande route directe de Fès à Marrakech au XVIe siècle,* in Bull. de la Soc. de Géogr. du Maroc, 1921, t. II, fasc. 7 et 8.

Lt ORTHLIEB. *Plan de Fez au 5.000e, levé d'oct. 1912 à avr. 1913.*

Paul PAQUIGNON. Le Mouloud au Maroc, in R. M. M., XIV (1911), 525-536.

Paul PAQUIGNON. *Quelques documents sur la condition des Juifs au Maroc,* in R. M. M., IX (1909), 112-123.

E. PAUTY. *Le plan de l'Université Qarawiyin à Fès,* in Hesp., III (1923), 515-523.

E. PAUTY. *Les hammans du Caire,* Impr. de l'Inst. fr. d'Égypte, 1933.

H. PÉRÈS. *La poésie à Fès sous les Almoravides et les Almohades,* in Hesp., XVIII (1934), 9-40.

PÉRÉTIÉ. *Les medrasas de Fès* (d'après les notes de G. SALMON), in Arch. Mar., XVIII (1912), 257-372.

REISSER.*Monographie de Sefrou* (1916), in Arch. inéd. du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.

Dr. RENAUD. *La peste de* 1799 *d'après des documents inédits,* in Hesp., I (1921).

Paul MARTY. *L'année liturgique musulmane à Tunis*, in R. E. I., 1935, I, 1-38.

Paul MARTY. *Les institutions israélites au Maroc*, in R. E. I., 1930, III, 297-332.

M^me^ MAS. *La petite enfance à Fès et à Rabat*, Diplôme d'études supérieures inédit.

Boris MASLOW. *Les mosquées de Fès et du Nord du Maroc*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XX, Paris, 1937.

MASLOW et TERRASSE. *Une maison mérinide à Fès*, in II^e^ Congrès de la Féd. des Soc. Sav.d'Afr. du Nord, II,503-510.

L. MERCIER. *Notice économique sur le Tafilalet*, in Rens. col., juin 1905, 210-221.

L. MERCIER. *L'administration marocaine à Rabat*, in Arch. Mar., VII (1906).

L. MERCIER. *Les mosquées et la vie religieuse à Rabat*, ibid., VIII (1906).

MICHAUX-BELLAIRE. *Note sur l'enseignement au Maroc*, in Arch. inéd. de la section sociologique du Maroc.

MICHAUX-BELLAIRE. *Notice inédite sur Fès*, in Arch. inéd. de la Mission scientifique du Maroc.

MICHAUX-BELLAIRE. *Les impôts marocains*, in Arch. Mar., I (1904), 56-96.

MICHAUX-BELLAIRE. *Description de la ville de Fès*, in Arch. Mar., XI (1907), 252-330 *(Descr. de Fès)*.

MICHAUX-BELLAIRE. *L'organisation des finances au Maroc*, in Arch. Mar., XI (1907), 171-251.

MICHAUX-BELLAIRE. *La maison d'Ouezzan*, in R. M. M., V (1908), 23-89.

MICHAUX-BELLAIRE. *Une tentative de restauration idrisite à Fès*, in R. M. M., V, 393-423.

MICHAUX-BELLAIRE. *Au palais du Sultan marocain*, in R. M. M., V, 647-662.

MICHAUX-BELLAIRE. *Un rouage du gouvernement marocain*, in R. M. M., V, 242-256.

MICHAUX-BELLAIRE. *L'esclavage au Maroc*, in R. M. M., XI (1910), 422-427.

MICHAUX-BELLAIRE. *Le Gharb*, in Arch. Mar., XX (1913).

Cne LARRAS. *Plan de Fès au* 1/5.000^{e}.

R. LE TOURNEAU. *Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard relatant son séjour à Fès*(1540-1541), in Hesp., XIX (1934), 45-63.

R. LE TOURNEAU. *L'activité économique de Sefrou*, in Hesp., XXV (1938), 269-286.

R. LE TOURNEAU, NOYELLE et VICAIRE. *La technique du tissage à Fès et les moyens propres à l'améliorer*, in IV^{e} Congrès de la Féd. des Soc. Sav. d'Afr. du Nord, II, 885-893.

LE TOURNEAU et VICAIRE. *La fabrication du fil d'or au Mellah de Fès*, in Hesp., XXIV (1937), 67-88.

LE TOURNEAU et VICAIRE. *L'industrie du fil d'or au Mellah de Fès*, in Bull. éc. du Maroc, vol. III, n° 13, juillet 1936, 185-190.

LE TOURNEAU et VICAIRE. *Les damasquineurs de Fès*, communication inéd. présentée au V^{e} Congrès de la Féd. des Soc. Sav. d'Afr. du Nord (1939).

LE TOURNEAU et VICAIRE. *Les tisserands de Fès*, étude inédite.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Les ruines almoravides du pays de l'Ouergha*, in Bull. archéologique, 1918, p. 194 et suiv.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Notes de toponymie hispano-maghribine: les noms des portes, le "bab ech-chari'a" et la "chari'a" dans les villes de l'Occident musulman au Moyen Age*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, II (1936), 210-234.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *La fondation de Fès*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938), 23-52.

Dr. LINARÈS. *Voyage au Tafilelt avec S. M. le Sultan Moulay Hassan en* 1893, in Bull. de l'Institut d'Hygiène du Maroc, 1932, III et IV.

MAITROT de lA MOTTE-CAPRON et Dr. TRENGA. *Un correspondant de Révolution. Journal d'un Israélite de Fès* (1908-1910), in Bull. de la Soc. de Géogr. d'Alger, 1936.

MARCHAND. La situation commerciale à Fez en 1906, in Rens. col., déc. 1906, 421-422.

L. MARTIN. *Description de la ville de Fès, quartier du Keddan*, in R. M. M., IX (1909), 433-443 et 621-642 *(Keddan)*.

Germaine MARTY. *Étude sur les musulmans allogènes à Tunis: Tunisiens, Tripolitains, Algériens, Marocains*, Diplôme d'études supérieures inédit, Alger, 1947. Fragment publié in IBLA, n° 42 (2^{e} tr. 1948), p. 159-188.

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Le commerce des babouches à Fès*, in Bull. éc. du Maroc, vol.III, n° 11 (janvier 1936), 36-42.
GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Les relieurs de Fès*, in Bull. éc. du Maroc, vol. III, n° 12 (avril 1936), 107-114.
GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Les potiers de Fès* (étude inédite).
R. HENRY. *Où se trouvait la Zaouïa de Dilâ?* in Hesp., XXXI (1944), 49-54.
J. HERBER. *Les Hamadcha et les Dghoughiyyîn*, in Hesp., III (1923), 217-236.
HUBERT. *Casablanca*, mémoire inédit in Arch. du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.
F. JABRE. *Dans le Maroc nouveau: le rôle d'une Université musulmane*, in Ann. d'Hist. Ec. et Soc., n° 51 (1938), 195-207.
JOLY. *Les industries à Tétouan*, in Arch. Mar., VIII (1906), 196-329, XI (1907), 261-393, XV (1909), 80-156, XVIII (1912), 187-256.
Jeanne JOUIN. *Iconographie de la mariée citadine dans l'Islam nord-africain*, in R. E. I., 1931 (IV), 313-339.
Paul JUGANT. *Les huileries à Fès*, in Bull. éc. du Maroc, vol. VI, n° 24, 99-104.
G. KAMPFFMEYER. *Texte aus Fès*, Berlin, 1909.
Abdelwahab LAHLOU. *Note sur la banque et les moyens d'échanges commerciaux à Fès avant le Protectorat*, in Hesp., XXIV (1937), 223-232.
Mohammed LAKHDAR. *Les étapes du pèlerin de Sijilmassa à La Mecque et Médine*, in IVe Congrès de la Féd. des Soc. Sav d'Afr. du Nord, II, 671-688.
Mohammed LAKHDAR. *Les izerzaïn ou portefaix berbères de Fès*, in Hesp., XIX (1934), 193-194.
E. LAOUST. *Noms et cérémonies des feux de joie chez les Berbères du Haut et de l'Anti-Atlas*, in Hesp., I (1921), 253-316.
J. LAPANNE-JOINVILLE. *Les métiers à tisser de Fès. Vocabulaire des termes techniques du tissage*, in Hesp., XXVII (1940), 21-98.
Mohammed LARAKI. *La bibliothèque du l'Université Qarawiyine*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.
LARRAS. *La population du Maroc*, in La Géographie, XIII, 5, 15 mai 1906.

Encyclopédie de l'Islam, Leyde-Paris, 1908-1937, 4 vol. et un suppl., notamment art. AL-DJAZULI (I, 1062) (Ben Cheneb), FAS (II, 76) (G. Yver), IDRIS (II, 478) (R. Basset), 'IYAD (II, 602) (Ben Cheneb), KAISARIYA (II, 700) (M. Streck), MELLAH (III, 523) (G.-S. Colin), MIZWAR (III, 616) (Lévi-Provençal), MUHTASIB (III, 751) (R. Lévy), SHARIF (IV, 336) (Van Arendonck), SHORFA (IV, 401) (Lévi-Provençal).

Camille FIDEL. *Le commerce du Maroc en* 1900 *et* 1901, Paris, 1903.

Camille FIDEL. *Les intérêts français et les intérêts allemands au Maroc,* in Rens. col., juillet 1905-253-265.

H. GAILLARD. *Le commerce de Fès en* 1902, in Rens. col., déc. 1904.

GALLOTTI. *Vieilles lampes, vieilles lanternes,* in France-Maroc, n° 1.

Henri GODBARGE. *Deux corporations berbères à Fès: les "izerzaïn" et les "igerraben",* in Arch. inéd. du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.

A.-M. GOICHON. *La femme de la moyenne bourgeoisie fasiya,* in R. E. I., 1929, I.

A.-M. GOICHON. *La borderie au fil d'or à Fès. Ses rapports avec la broderie de soie; ses accessoires de passementerie,* in Hesp., XXVI (1939), 49-98 et 241-281.

P. GRYMOULT. *L'Université de Fez et les intellectuels marocains,* in Mercure de France, 15 juin 1920.

F. GUAY. *Le mariage d'un fils de famille à Fès,* in IV^e^ Congrès de la Féd. des Soc. Sav. d'Afr. du Nord, II, 791-804.

R. GUYOT. *Les moulins hydrauliques de Fès et la corporation des meuniers qui les servent,* communication inéd. présentée au VII^e^ Congrès de l'Institut des Hautes Études Marocaines (1928).

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *La corporation des tanneurs et l'industrie de la tannerie à Fès,* in Hesp., XXI (1933), 167-240 *(Tanneurs).*

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *L'industrie de la tannerie à Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol. II, n° 9 (juillet 1935), 219-226.

GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *L'industrie de la poterie à Fès,* in Bull. éc. du Maroc, vol. II, n° 10 (octobre 1935), 268-272.

GUYOT LE TOURNEAU et PAYE. *Les cordonniers de Fès,* in Hesp., XXIII (1936), 9-54 *(Cordonniers).*

J. CAILLÉ . *Les dépenses d'une mission française à la cour chérifienne en 1825,* in Hesp., XXX (1943), 163-181.
J. CAILLÉ. *Le commerce anglais avec le Maroc pendant la seconde moitié du XVI[e] siècle. Importations et exportations,* in Rev. Afr., LXXXIV (1940).
CARBONNIER, GUYOT, LE TOURNEAU et PAYE. *Étude inédite sur les maroquiniers de Fès.*
C[te] Henry de CASTRIES. *Note historique sur le Palais de Bou Djeloud à Fez,* Casablanca, 1918.
J. CÉLÉRIER. *Les conditions géographiques du développement de Fès,* in Hesp., XIX (1934), 1-19.
Pierre de CÉNIVAL. *La légende du Juif Ibn Mech'al et la fête du Sultan des Tolba à Fès,* in Hesp., V (1925), 137-218.
François CHARLES-ROUX. *Ambassades françaises à Fès,* in Le Monde français, vol. IV (nov. 1946), 355-368.
A. CHOTTIN. *Airs populaires recueillis à Fès,* in Hesp., III (1923), 275-285.
G.-S. COLIN. *Noms d'artisans et de commerçants à Marakech,* in Hesp., XII (1931), 229-240.
H. COUFOURIER. *Une chronique de la vie de Moulay al-Hassan,* in Arch. Mar., VIII (1906), 330-395.
COUSTAUD. *L'oued Fès,* mémoire inédit de fin de stage pour le contrôle civil du Maroc.
J. DELAROZIÈRE. *Habs Zebbala à Fès Jdid (étude sur un héri),* in IV[e] Congrès de la Féd.des Soc. Sav.d'Afr.du Nord,II,619-628.
J. DELAROZIÈRE et H. BRESSOLETTE. *La Grande Noria et l'Aqueduc du Vieux Mechouar à Fès-Djedid,* ibid.,II, 627-640.
DELBREL. *Note sur le Tafilelt,* in Bull. de la Soc. de Géogr., 1894, 2[e] tr., p. 199-227.
G. DELPHIN. *Fas, son universı é et l'enseignement supérieur musulman,* Paris, 1889.
Jean DENY. *Instructeurs militaires turcs au Maroc sous Moulay Hafidh,* in Mémorial Henri Basset, I, 219-227, Paris, 1928.
E. DOUTTÉ. *La khot'ba burlesque de la fête des t'olba au Maroc,* in Recueil de Mémoires et de Textes publiés en l'honneur du XIV[e] Congrès des Orientalistes, p. 197-219, Alger, 1905.
H. DUVEYRIER. *Le chemin des ambassades de Tanger à Fâs et Meknâs en* 1885, in Bull. de la Soc. de Géogr., 1886, 3[e] tr.

A. BEL. *Sidi Bou Medyan et son maître Ed-Daqqâq à Fès*, in Mélanges René Basset, I, 31-68.

K. BENABDELJELIL. *Lee commerce des tissus à Fès avant le Protectorat*, mémoire de stage pédagogique inédit.

K. BENABDELJELIL. *Les cérémonies du mariage à Fès*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.

Mohammed BENCHENEB et E. LÉVI-PROVENÇAL. *Essai de répertoire chronologique des éditions de Fès*, in Rev. Afr., LXII (1921), 158-173 et 275-290; LXIII (1922), 170-185 et 333-347.

Ahmed BENNANI. *Le canari d'Azzouz*, in Bull. de l'Ens. publ. au Maroc, n° 180 (1944).

J. BERQUE. *Les Nawazil el muzâra'a du Mi'yar Al Wazzânî (étude et traduction)*, Rabat, 1940.

J. BERQUE. *Deux ans d'action artisanale à Fès*, in Questions nord-africaines, 1939, n° 15. Tiré à part, Paris, 1940, 28 pp.

R. BLACHÈRE. *Fès chez les géographes arabes du Moyen Age*, in Hesp., XVIII (1934), 41-48.

G.-H. BOUSQUET et J. BERQUE. *La criée publique à Fès*, in Rev. d'Économie politique, mai 1940, p. 320-345.

M. BOUYON. *Des "rekkas" du consul de Marcilly aux avions d'Air-France*, in Progrès de Fez, 19 janvier 1941.

H. BRESSOLETTE. *Enquête sur le peuplement indigène et le niveau de vie à Fès Jdid*, mémoire inédit présenté pour l'admission au stage du Brevet de Hautes Études d'Administration Musulmane.

Louis BRUNOT. *Textes arabes de Rabat*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XX, Paris, 1931.

Louis BRUNOT. *Notes sur le parler arabe des Juifs de Fès*, in Hesp., XXII (1936), 1-32.

BRUNOT et MALKA. *Textes judéo-arabes de Fès*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XXXIII, Rabat, 1939.

BRUNOT et MALKA. *Clossaire judéo-arabe de Fès*, Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. XXXVIII, Rabat, 1940.

Ch. BRUNOT-DAVID. *Les broderies de Rabat*, Collection Hespéris, vol. IX, Rabat, 1943.

M.-T. BURET. *Madame la mosquée des fleurs d'oranger*, in Mémorial Henri Basset, I, 117-127.

B. SIDBON BEYDA. *La question monétaire au Maroc*, Paris, 1921.
N. SLOUSCH. *Étude sur L'histoire des Juifs au Maroc*, 2e partie, in Arch. Mar., VI (1906), 1-167.
G. SPILLMANN. *Étude inédite sur les confréries et zaouia du Maroc*, in Archives du Centre de Hautes Études d'Administration Musulmane.
J. du TAILLIS. *Le Maroc pittoresque*, Paris, 1905.
H. TERRASSE. *L'Art hispano-mauresque des origines au XIIIe siècle*, Paris, 1932.
H. TERRASSE. *Villes impériales du Maroc*, Grenoble, 1937.
J. et J. THARAUD. *Fez ou les bourgeois de l'Islam*, Paris, 1930.
Jos. VATTIER. *Ames maghrébines*, Paris, 1931.
B. VERNIER. *Le Fezzan*, Alger, s. d. (1944).
Edward WESTERMARCK. *Les cérémonies du mariage au Maroc*, traduction J. ARIN, Paris, 1921.
Edward WESTERMARCK. *Survivances païennes de la civilisation mahométane*, Paris, 1935. *(Survivances)*.
J. WEULERSSE. *Antioche, essai de géographie urbaine*, in Bulletin d'Études orientales, IV (1934), 27-80.

IV. *Études particulières et articles.*

Anonyme. *La réorganisation des habous au Maroc*, Rabat, 1916.
I. S. ALLOUCHE. *Un plan des canalisations de Fès au temps de Mawlay Isma'il d'après un texte inédit, avec une étude succincte sur la corporation des kwadsiya*, in Hesp., XVIII (1934), 49-63.
'Abderrazak 'AMMOR. *Les zerzayas*, in Arch. inéd. des Amis de Fès.
Dr. d'ANFREVILLE. *Les Marocains en A. O. F.*, in Rens. col., mars 1905, 155-156.
Archives inédites de l'Association des Amis de Fès, recueil de conférences dactylographiées (1933-1942).
A. BEL. *Les industries de la céramique à Fès*, Paris, 1918.
A. BEL. *La fabrication de l'huile d'olive à Fès et dans la région*, in Bull. de la Soc. de Géogr. d'Alger, XXII (1917), 121-137.
A. BEL. *Catalogue des livres arabes de la bibliothèque de la Mosquée d'el-Qarouiyine à Fès*, Fès, 1918.
A. BEL. *Inscriptions arabes de Fès*, Paris, 1919 *(Inscr. ar.)*.

W. MARÇAIS. *L'Islam et la vie urbaine*, in C. R. de l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres, 1928, 96 et suiv.
W. MARÇAIS. *Textes arabes de Tanger*, Paris, 1911.
W. MARÇAIS. *Comment l'Afrique du Nord a été arabisée*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938).
L. MARTIN. *Le régime de la protection au Maroc*, in Arch. Mar., XV (1909), 1-32.
P. MARTY. *Le Maroc de demain*, Paris, 1925.
L. MASSIGNON. *Le Maroc dans les premières années du XVI^e^ siècle. Tableau géographique d'après Léon l'Africain*. Mémoires de la Société historique algérienne, t. I, Alger, 1906 (Sur Fès, p. 219-236).
L. MASSIGNON. 1. *Enquête sur les corporations musulmanes d'artisans et de commerçants au Maroc*, in R. M. M., LVIII (1924).
2. *Complément à l'enquête de 1923 - 1924 sur les corporations musulmanes*, in R. E. I., II (1928), 273 - 293.
Budget MEAKIN. *The land f the Moors*, London, 1901.
Budget MEAKIN. *The Moors*, London, 1902.
Louis MILLIOT. *Démembrement du habous*, Paris, 1918.
Henri de MONTÉTY. *Le mariage musulman en Tunisie*, Tunis, 1941.
F. NATAF. *Le crédit et la banque au Maroc*, Paris, 1929.
Charles PENZ. *Les captifs français du Maroc au XVII^e^ siècle* (1577-1699), Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, vol. XLI, Rabat, 1944.
C^te^ M. de PÉRIGNY. *Au Maroc, Fez, la capitale du Nord*, Paris, 1917.
Plan de réformes marocaines, élaboré et présenté à S. M. le Sultan du Maroc, au Gouvernement de la République Française et à la Résidence Générale au Maroc par le Comité d'Action marocaine, éd. fr., 1934.
L^t^-Col. Sir Robert PLAYFAIR and Dr. Robert BROWN. *A Bibliography of Morocco from the earliest times to the end of* 1891, London, 1892.
P. RICARD. *Maroc*, Collection "Les guides bleus", Paris, 1936.
P.-L. RIVIÈRE. *Traités codes et lois du Maroc*, t. I, Paris, 1924.
J. SAUVAGET. *Alep, essai sur le développement d'une grande ville syrienne des origines au milieu du XIX^e^ siècle*, Paris, 1941.

Jean GALLOTTI. *Le jardin et la maison arabe au Maroc*, 2 vol., Paris, 1926.

E.-F. GAUTIER. *Le passé de l'Afrique du Nord; les siècles obscurs*, Paris, 1937 (Sur le royaume de Fès, pp. 299-316).

Léon GODARD. *Description et histoire du Maroc*, Paris, 1860.

Dr. Lucien GRAUX. *Le Maroc économique*, Paris, 1928.

F. GUAY. *La ville de Fès et ses rapports avec le monde musulman*, in Rev. alg. et tun. de législation et de jurisprudence, t. 47, p. 239-252.

W. HARRIS. *Tafilet*, London, 1895.

HUBERT-JACQUES. *Les journées sanglantes de Fez*, Paris, 1913.

H. KOEHLER. *L'église chrétienne du Maroc et la mission franciscaine* (1221-1790), Paris, 1934.

E. LAOUST. *Mots et choses berbères*, Paris, 1920.

P. LAVEDAN. *Qu'est-ce que l'urbanisme?* Paris, 1926.

P. LAVEDAN. *Géographie des villes*, Paris, 1936.

Ch. LE COEUR. *Le rite et l'outil, essai sur le rationalisme social et la pluralité des civilisations*, Paris, 1939.

Maurice LE GLAY. *La mort du Rogui*, 10e éd., Paris, 1926.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Histoire de l'Espagne musulmane*, t. I, Le Caire, 1944.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *L'Espagne musulmane au Xe siècle*, Paris, 1932.

E. LÉVI-PROVENÇAL. *Les historiens des Chorfa; essai sur la littérature historique et biographique au Maroc du XVIe au XIXe siècle*, Paris, 1922.

G. LUCAS. *Fès dans le Maroc moderne*, Collection des centres d'études juridiques du Maroc, t. XV, Paris, 1937.

Donald MACKENZIE. *The califate of the West*, London, 1911.

Didier Madras et Boris Maslow. **Fès Capitale artistique de l'Islam,** *Casablanca, 1947.*

Elie MALKA, *Essai d'ethnographie traditionnelle des Mellahs*, Rabat, 1946.

G. MARÇAIS. *Manuel d'art musulman. Architecture*, 2 vol., Paris, 1926-1927.

G. MARÇAIS. *Remarques sur l'esthétique musulmane*, in Annales de l'Institut d'Études Orientales, IV (1938), 55-71.

G. MARÇAIS. *La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age*, Paris, 1946.

III. *Ouvrages généraux et études d'ensemble.*

AL MUCHRIF. *La réforme de l'enseignement à la Grande Mosquée (Zitouna) de Tunis* in R. E. I., 1930, IV, 441-515.

Annuaire du Monde Musulman publié par Louis MASSIGNON, 3e éd., Paris, 1929.

J. BERQUE. *Essai sur la méthode juridique maghrébine,* Rabat, 1944.

S. BIARNAY. *Notes d'ethnographie et de linguistique nord-africaines* publiées par L. BRUNOT et E. LAOUST. Publications de l'Institut des Hautes Études Marocaines, t. III, Paris, 1924.

François BONJEAN. *Les confidences d'une fille de la nuit,* Paris, 1939.

François BONJEAN. *L'âme marocaine,* Rabat-Paris, 1948.

Joseph BOURRILLY. *Éléments d'ethnographie marocaine,* publiés par E. LAOUST, Paris, 1932.

Marcel BOUSSER. *Le problème des transports au Maroc,* Collection des centres d'études juridiques du Maroc, t. X, Paris, 1934.

René BRUNEL. *Essai sur la confrérie religieuse des Aïssaoua au Maroc,* Paris, 1926.

Jérôme CARCOPINO. *Le Maroc antique,* Paris, 1943.

Alexis CHOTTIN. *Tableau de la musique marocaine,* Paris, 1939.

Marcel CLERGET. *Le Caire, étude de géographie urbaine et d'histoire économique,* 2 vol., Le Caire, 1934.

Emile DERMENGHEM. *L'éloge du vin (al-khamriya). Poème mystique d'Ibn al-Fâridh,* Paris, 1931.

DESMAZIÈRES. *André de Spolète.*

G. DESROCHES. *Le Maroc, son passé, son présent, son avenir,* Paris, 1913.

DOUTTÉ. *Notes sur l'Islam maghrébin,* Paris, 1900.

DOZY. *Supplément aux dictionnaires arabes,* Leyde-Paris, 2e éd., 1927.

Mohammed el FASI et DERMENGHEM. *Contes fasis,* Paris, 1926.

Mohammed el FASI et DERMENGHEM. *Nouveaux contes fasis,* Paris, 1928.

Henri GAILLARD. *Une ville d'Islam: Fez,* Paris, 1905.

W. HARRIS. *Le maroc disparu,* Paris, 1929.
Maurice LE GLAY. *Chronique marocaine de* 1911, Paris, 1933.
W. LEMPRIÈRE, surgeon. *A tour from Gibraltar to Tangier, Sallee, Mogodore, Santa Cruz, Tarudant and thence over mount Atlas to Morocco.*, London, 1791.
Léon L'AFRICAIN. *Description de l'Afrique,* nouv. éd. annotée par Ch. SCHEFER, 3 vol., Paris, 1896-1898 (sur Fès, T. II).
Pierre LOTI. *Au Maroc,* Paris, éd. de 1928.
MARMOL. *De l'Afrique,* traduction de Nicolas PERROT d'A-BLANCOURT, 3 vol., Paris, 1667.
H. de La MARTINIÈRE. *Souvenirs du Maroc,* Paris, 1919.
MOUETTE. *Relation de la captivité du sieur Mouëtte dans les royaumes de Fez et de Maroc,* Paris, 1683.
MOULIÉRAS.. *Fez,* Paris, 1902.
José Maria de Murga. *Recuerdos Marroquies del Moro vizcaino José Maria de Murga,* Bilbao, 1868.
PIDOU de SAINT-OLON. *État présent de l'EMpire du Maroc,* Paris, 1694.
Rapport statistique et commercial du 17 avril 1898 in Arch. de la Mission scientifique du Maroc.
Ch. RENÉ-LECLERC. *Le Maroc septentrional. Souvenirs et impressions (été* 1904), Alger, 1905.
REY. *Souvenirs d'un voyage au Maroc,* 1844, Paris, 1845.
E. RICHET. *Voyage au Maroc,* Paris, 1912.
Gérard ROHLFS. *Voyages au Maroc* (1861) in Rev. Afr., VII, 205-226.
G. ROULLEAUX-DUGAGE. *Lettres du Maroc.* Paris, 1915.
G. SAINT-RENÉ TAILLANDIER. *Les origines du Maroc français. Récit d'une mission* (1901-1906), Paris, 1930.
TROTTER. *Our mission to the court of Morocco in* 1880 *under Sir John Drummond Hay,* Edimbourgh, 1881.
Gabriel VEYRE. *Au Maroc. Dans l'intimité du Sultan,* Paris, 1905.
John WINDUS. *A journey to Mequinez, the residence of the present emperor of Fez and Morocco, on the occasion of commodore Stewart's embassy thither for the redemption of the British captives in the year* 1721. London 1725.

Cte Conrad de BUISSERET. *A la cour de Fez*, Bruxelles, 1907.
René CAILLIÉ. *Journal d'un voyage à Tombouctou et à Jenné*, 3 vol., Paris, 1830 (sur Fès, III, p. 113-118).
L. de CAMPOU. *Un empire qui croule: le Maroc contemporain*, Paris, 1886.
Cte Henri de CASTRIES. *Sources inédites de l'histoire du Maroc*, **publieés sous la direction de M. de Castries.**
Dr CERDEIRA. *Maroc, Fez* in Memorias diplomaticas y consulares e informaciones (Ministerio de Estado-Centro de Informacion comercial), n° 73, 1904.
Gabriel CHARMES. *Une ambassade au maroc*, Paris, 1887.
L. de CHENIER. *Recherches historiques sur les Maures et histoire de l'empire du Maroc*, 3 vol., Paris, 1787.
André CHEVRILLON. Un crépuscule d'Islam (Fez en 1905). 5e éd., Paris, 1923.
Nicolas CLÉNARD. *Correspondance* publiée par A. ROERSCH, 3 vol., Bruxelles, 1940-1941.
Captain H. E. COLVILLE. *A ride in petticoats and slippers*, London, 1880.
Eugène DELACROIX. *Le voyage d'E. Delacroix au maroc*, fac-similé de l'album du Musée du Louvre; introduction par Jean GUIFFREY, Paris, 1909.
DIEGO DE TORRES. *Histoire des Chérifs*, traduite par M. le duc d'Angoulême le père, annexée au t. III de l'ouvrage de Marmol (voir *infra*).
Diplomatic and consular reports edited at the Foreign Office and the Board of trade, London: n° 1304 (1892), 1476 (1893), 1633 (1894), 1810 (1895), 1995 (1896), 2131 (1897), 2296 (1898), 2603 (1899), 2723 (1900), 3597 (1905).
Documents diplomatiques. Question de la protection diplomatique et consulaire au Maroc, Paris, 1880.
J. ERCKMANN. *Le Maroc moderne*, Paris, 1885.
Vte Charles de FOUCAULD. *Reconnaissance au maroc*, 2 vol., Paris, 1888.
Lawrence HARRIS. *With Mulai Hafid at Fez behind the scenes in Morocco*, London, 1909.
W. HARRIS. *The land of an African Sultan. Travels in Morocco*. London, 1889.

LISTE DES OUVRAGES CONSULTÉS ET CITÉS

I. *Sources arabes.*

II. *Documents et voyageurs européens*

E. de AMICIS. *Le maroc,* traduit de l'italien par H. BELLE, Paris, 1882.

Anonyme. *A Fez, la journée de prière,* in Rev. des Deux mondes, 1906, XXXII, 871 - 905.

Anonyme [Aubin] *Fez, dernier centre de la civilisation musulmane,* in Rev. de Paris, 15 février (851 - 872), 1er mars (173 - 196), 15 Mars (424 - 448), 1904.

AUBIN. *Le Maroc d'aujourd'hui,* Paris, 1904.

BADIA Y LEBLICH [Ali Bey] *Voyages d'Ali Bey el Abbassi en Afrique et en Asie,* 3 vol., Paris, 1814 (sur Fès, 1, ch. VIII).

Cristobal BENITEZ. *mi viaje por el interior del Africa,* Tanger, 1899.

BONSAL. *Morocco as it is,* London, 1894.

BRAITHWAITE. *Histoire des révolutions de l'empire du Maroc depuis la mort du dernier Empereur Muley Ismael,* tr. fr., Amsterdam, 1731.

الفهارس

- فهرس الموضوعات .
- فهرس عام لأعلام الأشخاص والقبائل والأمم والأماكن والكتب .
- فهرس خاص بمواقع فاس .
- فهرس الخرائط والرسوم .
- فهرس الصور الفتوغرافية الملحقة بالكتاب .

فهرس الموضوعات

الموضوع **الصفحة**

الجزء الأول

* * *

* * *

* * *

* * *

* * *

الجزء الثاني

* * *

* * *

الموضوع	الصفحة

فهرس عام
لأعلام الأشخاص
والقبائل والأمم والأماكن والكتب

- أ -

ـ ب ـ

- ح -

- خ -

- ر -

ـ ش ـ

- غ -

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

ـ ن ـ

ـ هـ ـ

ـ و ـ

* * *

فهرس خاص بمواقع فاس

- أبـواب -

أحياء

أزقة . دروب . ساحات . قناطر . . .

أسواق ومراكز اقتصادية

جوامع وزوايا ومدارس

بساتين ودور وقصور

فنادق

أبراج ومؤسسات عسكرية

حمّامات وعيون وأودية

مقابر وأضرحة

مختلفـــات

* * *

فهرس
الخرائط والرسوم

الصفحة

الخريطة	الصفحة

* * *

فهرس الصور الفوتوغرافية الملحقة بالكتاب

اللوحة	الصفحة

اللوحة	الصفحة
43 ـ القائد ماك ـ لين	938
44 ـ استقبال بعثة فرنسية من طرف السلطان مولاي عبد الرحمن بمكناس	939
45 ـ استقبال بعثة المانية بفاس من السلطان مولاي الحسن	940
46 ـ سوق البراغيث بفاس الجديد	941
47 ـ بائع الاسفنج	942
48 ـ أمة سوداء في فناء	943
49 ـ تقسيم واد فاس بباب الدكاكن	944
50 ـ قاعة حمام	945
51 ـ الفناء الداخلي لفندق النجارين	946
52 ـ فناء فندق الشماعين	947
53 ـ الطواحين على واد فاس	948
54 ـ معصرة زيت تديرها الدواب (حي زقدق الرمان)	949
55 ـ معصرة زيت اخرى	950
56 ـ صانع البراذع	951
57 ـ سلال بباب محروق	952
58 ـ سلال خارج باب محروق	953
59 ـ مدبغة بفاس وهي تشتغل	954
60 ـ معمل نساج	955
61 ـ نول النسيج	956
62 ـ معمل صانع المناطق	957
63 ـ الصناع اليهود. صانع نفاشات الصوف	958
64 ـ الصناع اليهود . قالد الذهب والفضة	959
65 ـ الصناع اليهود . مُرقِّق الذهب والفضة	960
66 ـ أشخاص مثاليون لصناع فاس	961

اللوحة	الصفحة

اللوحة	الصفحة

* * *

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها: الحبيب اللمسي
شارع الصوراتي (المعماري) - الحمراء - بناية الأسود
تلفون: 340131 - 340132 - ص. ب. 5787 - 113 بيروت - لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI - B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم: 86/1/1000/73

سحب جديد: 2000/1/ 92

التنضيد الإلكتروني: سامو برس

الطباعة: مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥١-٨٣٧٧٠٢ - بيروت - لبنان

ASSOCIATION DES AUTEURS MAROCAINS POUR LA PUBLICATION

Roger le Tourneau

FÈS

Avant Le Protectorat

Traduit en arabe par

D. Mohamed Lakhdar D. Mohamed Hajji

Tome 2

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
B.P. 113/5787 - BEYROUTH

FÈS

Avant Le Protectorat